

من الكاتبة التي كانت المهمة لمسلسل شبكة «فوكس» النرامي الشهير «العظام BONES» والتي تُرجمت كتبها إلى ثلاثين لغة في مختلف أنحاء العالم

كاتي راكس



غفر العظام

رواية

لُغَزُّ الْعِظَامِ



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

BREAK NO BONES

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

SCRIBNER

بمقتضى الاتفاق الحظي الموقع بينه وبين دار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2006 by Temperance Brennan, L.P

All rights reserved

Arabic Copyright © 2007 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

لُغزُ العِظام

رواية

تأليف

كاشي راكس

ترجمة

سعيد الحسنية

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

تسمح ببيع أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة
تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الترميزي
والسجّل على أشرطة أو أقراص مبرونة أو أي وسيلة نشر أخرى
تأ فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى

1429 هـ - 2008 م

ردمك 1-271-87-9953-978

جميع الحقوق محفوظة للناشر



الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عبر النبه، شارع السعني، موفيق خالد، بمائة الريم

هاتف: 786233 785108 785107 (9611)

ص.ب. 5574 توران بيروت 2050-1102 لبنان

فاكس: 786230 (9611) البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون

التنصيد وقرر الألوان: أيجد عرافيكس، بيروت هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت هاتف 786233 (9611)

1

لا تسفك بعض الأعماط عن التكرار، مثلما يحدث عندما تنهي أمراً ما بشكل ناجح، ثم يتدخل شخص ما ليمسد عليك الاحتفال بمجاحك الكبير.

حسباً، عدت إلى المبالغة، لكن حقيقة الأمر ليست بعيدة كثيراً عن هذا الوضع. تبين لي أن الحصيلة مقلقة أكثر من اكتشاف كسرة من الخبز، أو فردٍ لعضد المعادن.

حدث كل ذلك في الثامن عشر من شهر أيار، أي قبل يوم واحد من انتهاء دورة التنقيب عن الآثار لقد اشعلت بالإشراف على عشرين طالباً ينقبون في موقع للآثار في دي ويو، وهي جزيرة نائية تقع إلى الشمال من تشارلستون في كارولاينا الجنوبية.

تواجد معاً صحفيٌ يمتلك نسبة الذكاء داتها التي تمتلكها العوالق. تساول صاحب العوالق هذا دفتر ملاحظات دا شريط لولبي ضام، بينما أشرق دماغه بصور داهر وبوندي: "ست عشرة جثة؟ هل تم التعرف على الضحايا؟"

"تعود هذه القبور إلى ما قبل التاريخ".

جالت عيانه إلى الأعلى، وتصيقتنا تحت جميع مستعجين: "أنعيس أهما تعود للهود القدماء؟"

"إهما تحصّ الأميركيين الأصليين".

لم أستطع مسح هذا الرجل جائزة عن دقة معلوماته السياسية: "هل حملوني على تعظية أخبار اليهود القدماء؟"

فقلت بصوت بارد: "من تعني بقولك حملوني؟"

"إنهم جماعة صحيفة **مولتري نيوز**، وهي الصحيفة الناطقة باسم منطقة كوبر الشرقية".

تمتار تشارلستون بأنها مدينة اللطف والرقّة اللدين ميرًا الأيام العابرة، أما قلب هذه المدينة فهي **البنينسولا** (شبه الجزيرة)، وهي صاحبة شُيّدت بيوتها في زمن ما قبل الحرب. تشتهر المدينة كذلك بالأسواق الموجودة في الهواء الطلق، والتي يحدها نهرًا آشلي وكوبر. يحدّد التشارلستونيون المدينة بمدين المهريين، ويشيرون إلى الجوار باسمي آشلي الغربية، أو كوبر الشرقية. وتضمّ هذه الأخيرة جبل بليرانت، بالإضافة إلى ثلاث جزرٍ أخرى، وهي: سوليفان، وجريرة السخل، ودي ويز.

سألته: "وأنت من تكون؟"

"هومر وينبورن"

بدا الرجل بالنسبة إليّ أقرب إلى هومر سيمبسون، بسبب ظلّة المائل، وبطئه المنتصح.

"إننا مشغولون هنا يا سيد وينبورن".

تجاهل وينبورن ما قلته له: "ألا يُعتبر ذلك عملاً غير قانوني؟"

"حصلنا على تصريح، فالجزيرة قيد التطوير، كما أن هذه القطعة من الأرض مخصصة لبناء المنازل".

"ولماذا تشغلين نفسك بهذا العمل؟" تصبّب العرق من جبهة وينبورن. لاحظت أن قرادة تعبر ياقة قميصه، وأنه سحب منديلًا ورقيًا من جيده.

"إسي عالمة أنتروبولوجيا (علم الإنسان) في كلية تابعة لجامعة كارولاينا الشمالية في شارلوت. أنا موجودة هنا مع طلابي بناءً على طلب الولاية".

حمل القسم التالي من تصريحني هذا بعض المبالغة، بالرغم من أن القسم الأول كان صحيحًا. حدث الأمر على الشكل التالي:

اعتادت عالمة آثار العالم الجديد في جامعة كارولينا الشمالية على حمل طلابها على إجراء تنقيبات خلال الفترة القصيرة التي تسبق الصيف، أي في شهر أيار (مايو) من كل سنة. أعلنت تلك السيدة في أواخر شهر آذار (مارس) أنها قبلت شعل مصب في بيرديو. أضافت تلك السيدة أنها بسبب انشغالها بإرسال الطلبات طيلة الشتاء، فقد تجاهلت هذه الدراسة الميدانية لهذا العام، وبسبب عدم تعيينها للمدرّس المناسب، فلم تعين موقع التنقيب.

تدرّبت في فترة تحرجي، وفي بداية عملي المهني، على الأموات الذين مضت فترة لا بأس بها على موقعهم، مع أن اختصاصي كان في حقل علم التحقيقات الجنائية. عايتُ آلاف الهياكل العظمية التي تعود لعصور سحيقة، والتي استخرجت من الروابي التي كانت تُستخدم للدفن في أميركا الشمالية.

تعتبر الدراسة الميدانية واحدة من أكثر صعوف شعبة الأثرولوجيا شعبية عند الطلاب، وعادة ما يبلغ عدد الطلاب الحد الأقصى للصف. تسبب غياب رميلتي غير المتوقع بدعوى بالبع لدى رئيس الشعبة، ورجائي أن أشعل مصبها لأن الطلاب كانوا يظرون شعف لصفهم هذا. قال لي إن هذا الترتيب يعي عودتي إلى جنوري! وسأستمتع أيضاً بأسبوعين على شاطئ البحر! وسأحد أجراً إضافياً! اعتقدتُ أيضاً أنه سيقدم لي سيارة بويك مع عرصه هذا.

اقترحت أن يُعرض هذا المصب على دان جافر، وهو عالم الآثار الأحيائي، ورميلي في جهاز الطب الشرعي والتحقيقات الجنائية في بالميتو ستيت العظيمة في جنوب دولتنا. واقترحت أسماء مماثلة يعمل أصحابها في مكتب الطب الشرعي في مدينة شارلوت، أو حتى في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي في مونتريال، وهما الوكالتان اللتان أقدم لهما استشاراتي بصورة منتظمة.

أبدى رئيس الشعبة اهتماماً باقتراحي هذا. لقد وجد أن فكري كانت جيدة، لكن التوقيت لم يكن كذلك. فقد كان دان جافر في طريقه إلى العراق اتصلت بجافر، واقترح أن تكون دي ويز هي مكان التنقيب. أوضح لي أن هناك قراراً قد اتحد بهدم مقبرة، وأنه حاول تأخير عمل الجرافات حتى يتم التأكد من قيمة المكان الأثرية. وأضاف أن صاحب مشاريع البناء الجديدة دأب على تجاهل طلباته.

بعد ذلك، اتصلت بمكتب آثار الولاية في كولومبيا الذي وافق على عرضي بالقيام بحفر عدة خنادق تجريبية، وهو الأمر الذي أزعج صاحب المشاريع كثيراً. وجدت نفسي هنا آخر الأمر مع عشرين طالباً، وها أنا في اليوم الثالث عشر، وهو اليوم ما قبل الأخير للتنقيب، بصحبة رجل يمتلك نفس مستوى الدماغ الذي تمتلكه العوالم.

بدأ صري بالنفاد، وبدأ مثل حبلٍ بليٍّ من كثرة الاستخدام. بدا لي أن وينبورن يستفسر عن نوع من بذور الحشائش: "ما هو اسمك؟" كسحت دافعاً للانصراف، لكنني نصحت نفسي أن أعطيه ما يريد، لأنه سيعاد في آخر الأمر، أو أنه - وبقليل من الحظ - سيوت من جراء الحرارة الشديدة.

"تبرنس برينان".

قال بشيء من السخرية: "تبرنس؟"

"نعم، يا هومر".

هز وينبورن كتفيه: "لا يتردد هذا الاسم كثيراً على مسامعي".

"أدعى تمب".

"إنه اسم مدينة في يوتا".

"إنها في أريزونا".

"صحيح، لكن إلى أي قبيلة ينتمي هؤلاء الهنود؟"

"أعتقد أنهم ينتمون إلى قبيلة السيوي".

"وكيف عرفتم أن العظام مدفونة هنا؟"

"علينا ذلك عن طريق رميل لما في جامعة USC - كولومبيا".

"وكيف عرف رميلكم؟"

"لاحظ وجود روابٍ صغيرة أثناء قيامه بمسح المنطقة، وذلك بعد انتشار أخبار الإعلان عن قرب البدء بمشاريع عمرانية هنا".

حصص وينبورن لحظة من وقته ليكتب بعض الملاحظات على دفتره اللوحي الجانبي، أو لعله كان يباور لكسب الوقت كي يستطيع التفكير في سؤال فدا.

تناهت إلى أسماعي أصوات ثرثرة الطلاب، وأصوات الدلاء. سمعت من فوقني نعيق نورس، وتبعه بعد قليل ردّ نورسٍ آخر.

لا أعتقد أن أحداً سيرشح هذا الرجل لنيل جائزة بوليتزر: "رواب؟"
"جرى ردم المكان بالأصداف والرمال بعد إقفال المقابر."
"ما هي فائدة إعادة بيشها؟"

بلغ السيل الزبي مع هذا المعتوه، لذا واجهته بتفاصيل غامضة لإهماء المقابلة.
"ما زالت تقاليد الدفن عند سكان السواحل الجنوبية الشرقية الأصليين غير مفهومة. أعتقد أن هذا الموقع سيقدم الدليل على الروايات العرقية والتاريخية المتوارثة، أو أنه سيدحضها. يعتقد الكثير من علماء الإنسان (الأنثروبولوجيين) أن شعب السيوي يشكل جزءاً من مجموعة الكوسابو. وتقول بعض المصادر إن تقاليد الدفن عند الكوسابو قد اشتملت على إرالة اللحم عن جثة المتوفي، ووضع العظام في رزم، أو في صناديق. تحدّثت مصادر أخرى عن تعليق الجثث من أجل السماح بحدوث عملية التحلّل، وذلك قبل وضعها في مقابر جماعية."
"يا للحماقة! إنه تصرف شائن."

"هل هذا التصرف شائن أكثر من إفراغ الدم من الجثة من أجل استبداله بمواد حافظة، ثم حقنها بالشمع والعطور، ووضع بعض مساحيق التجميل للإيجاء بالحياة، وبعد كل ذلك وضع الجثة في تابوت لا يتسرّب إليه الهواء من أجل مقاومة عملية التحلّل؟"

نظر وينبورن محوي، وكأنني تكلمت باللغة السسكريتية: "ومن يقوم بكل هذه الأعمال."

"نحن نفعل هذا."

"إذاً ماذا وجدتم؟"

"وجدنا عظماً."

لاحظتُ أن القرادة بدأت تزحف باتجاه الجهة العليا من رقبة وينبورن: "هل وجدتم عظماً فقط؟"

هل حان الوقت للسيطرة على الوضع؟ سحقاً لهذا الرجل الشديد الإزعاج.

عدت إلى عادي في التكلم بلغة رجل الشرطة والمحقق الجنائي: "يعطيا الهيكل العظمي فكرة واقعية عن الشخص. يعطيا فكرة عن جسده، وعمره، وطوله، وأصله. ويعطيا في حالات عديدة لمحة عن تاريخه الطبي، أو طريقة موته". تعمدت النظر إلى ساعتي، ثم تابعت بلغة عالمة الآثار: "تعتبر العظام القديمة مصدراً مهماً لمعلوماتنا عن السكان المقرصين. إنها تعطينا فكرة عن طريقة عيشتهم، وكيف ماتوا، وما هي الأطعمة التي تناولوها، بالإضافة إلى الأمراض التي أصيبوا بها...".

انجهت نظرة وينورن إلى أعلى كتفي. التفتُ حولي.

شاهدت توفّر برغيس يقترب مني، ولاحظت أن بعض أشكال المواد العصبوية وغير العصبوية قد التصقت بوسطه الذي سعته الشمس. بدا الرجل قصيراً وبديماً، واعتمر قبعة مخبوكة، ووضع على عيبيه نظارة ذات إطار سلكي، وبرز أيضاً شارباه القصيران، وإجمالاً ذكرني هذا الفتي بطالب يدعى سمي.

"ظهر شيء غريب في الحفرة الشرقية الثالثة".

انتظرت المزيد من التفاصيل، لكن توفّر لم يقدمها لي. لم أفاجأ بذلك، لأن مواضيع توفّر في الامتحانات تشتمل على إجابات ذات جملة واحدة، وها هو الآن يقدم لي نموذجاً آخر عن طريقته هذه.

قلت متملقةً: "شيء غريب؟"

"إن مفاصله واضحة".

أعطاني الرجل جملةً تامة. إنها جملة مرضية، لكنها لا تحمل الكثير من المعلومات. شبكت أصابعي في إشارة تقول: "أعطني المزيد من التفاصيل".

غير توفّر وصعياً وقوفه على قدميه العاريتين، ولم يكن هذا العمل سهلاً عليه نظراً لوربه الصحم: "تميل إلى النظر أنه حديث العهد".

"سأتفحصه في غضون دقيقة".

أوما توفّر، واستدار، تم متسّى بتناقض نحو مكان التقيب.

وصلت القعادة إلى أدن وينورن، وبدا أنها تفكّر في المسارات البديلة المتاحة

لها: "ماذا يعني أن مفاصله واضحة؟"

"يعني ذلك ألها موجودة في ترتيبها التشريحي الصحيح. تُعتبر هذه الظاهرة غير معتادة بالنسبة للعث التي يُنقل مكان دفنها، وبالنسبة إلى العث التي دُفنت بعد سزغ اللحم عليها. تظهر العظام في هذه الحالة في وضع غير منتظم، وتكون بشكل مجموعات أحياناً. ويلاحظ أحياناً وجود معازل واضحة في هيكل عظمي واحد، أو اثنين، من بين العث الموجودة في المقابر الجماعية".
"لمادا؟"

"توجد أسباب كثيرة لهذه الظاهرة. يحدث أحياناً أن يموت شخص ما بعد إغلاق المقبرة الجماعية مباشرةً. ويُحتمل أن ترغب الجماعية بالرحيل، ولذلك لا يتوفر لها الوقت الكافي لانتظار عملية التحلل".
مصت عشر ثوانٍ كتب فيها الرجل شيئاً على دفتر ملاحظاته، وبعدها اختفت القردة عن نظري.

"ماذا يعني أن الهيكل حديث العهد؟"
"يعني أن العثة قد وضعت في القبر في وقت لاحق. أُنخب إلقاء نظرة عن قرب؟"
وضع وينورن منديلاً على جبهته، ثم تهاد وكأنه يؤدي دوراً ما فوق حشبة المسرح: "هذا ما أكسب عيشتي منه".
شعرت أنني سأهتار قريباً: "توجد قردة على ياقة قميصك".
تحرك وينورن بوتيرة أسرع من تلك المتوقعة من رجل بورنه، وجذب ياقته، ثم كسر حركة هده، ثم مرر يده على رقبته بحركة سريعة. طارت القردة نحو الرمال، وأصلحت وضعها، وبدأ لي ألها معتادة على طرد الناس لها.
انطلقت، وتجنبت في طريقي عشرات من القادس البحرية التي بدت رؤوسها ساكنة وسط الهواء المثقل بالرطوبة. اقترب مؤشر ميران الحرارة من التسعين درجة (فهرهايت) وما زلنا في شهر أيار (مايو). أعرف أنني أحب المناطق الجبلية، لكنني متأكدة من أنني لن أحب التقيب هنا في فصل الصيف.
تحركت بسرعة، ووثقت أن وينورن لن يستطيع مجاراتي. هل هذا تصرف غير لائق؟ نعم، لكن الوقت صيق بالنسبة لي، ولن أسمح بتصنيعه على مراسل صحفي بليد.

يضاف إلى ذلك أنني قلقْتُ كثيراً من وجود تلك القردة.

سمعت ما يشبه لحناً لإحدى الفرق التي لا أعرف اسمها. انطلق أحد الطلاب بالعرف على صدوقه. أفضل أن أستمع إلى أصوات طيور البحر، وأصوات الموح، مع أن المقطوعات التي اختارها الطلاب هذا اليوم تعتبر أفضل من تلك التي اعتادوا عرفها على أدوات حديدية.

انتظرت وينبورن، واشتعلت بتفحص الحفر ريثما يصل. لاحظت أن أحدودين احتباريين قد حُفرا وطُمرأ. لم يُظهر الأحدود الأول أي شيء غير التراب الخالص، لكن الأحدود الثاني احتوى على عظمة بشرية، اعتُبرت أنها إثبات مبكر لشكوك جافر.

رأيت ثلاثة أحاديث أخرى ما تزال مفتوحة وقد انكبت أحد الطلاب على واحد منها، واشتعل بسحب دلو، وعربة التراب من خلال ماخل تستند على دعائم حصان النشر.

انشغل توفّر بالتقاط الصور في آخر أحدود لجهة الشرق. وجلس بقية أفراد فريقه القرفصاء، وركزوا على عمله.

انضم وينبورن إليّ لاهتاً في قمة الأحدود. مسح جبهته وجهد لالتقاط أنفاسه.

قلت: "إنه يوم حار".

أوما وينبورن، ولاحظت أن وجهه أصبح بلون عصير توت العليق.

"هل أنت بخير؟"

"أنا على أفضل ما يرام".

مشيت صوب توفّر، لكن صوت وينبورن استوقفني.

"لديا رفقة".

عندما استندت، رأيت رجلاً يرتدي قميص بولو زهري اللون وبطالاً كاكياً. أسرع الرجل في مشيه عبر الكثبان الرملية، ولم يكلف نفسه عاء الاستدارة حولها. بدا الرجل صغير الحجم إلى حدّ يقارب حجم الأطفال، لكن شعره العصي المائل إلى اللون الرمادي تبعثر على فروة رأسه. عرفت الرجل على الفور. إنه رجل

مقاوم يطوّر أحياءً سكنية بكاملها، ويمثل الفساد بعينه. يدعى هذا الرجل ريتشارد ل ديكي دوبري.

كان دوبري يسير ويرفقه كلبه الذي يميّز بحجمه الطويل وقوائم القصيرة، والذي بالكاد يرتفع لسانه وبطئه عن الأرض.

عاشت أولاً من مراسل صحفي، والآن جاء دوبري. اعتقد أننا متجهون في يومنا هذا نحو شجار شديد.

تجاهل دوبري وينبورن، وأسرع باتجاهي. تلكأ الكلب ليخّ على مجموعة من القنادس البحرية.

كلما سمعنا عمّا يسمى المسافة الشخصية، وهي تلك المسافة من الفراغ التي تحتاجها لتفصل ما بيننا وبين الآخرين. بالنسبة لي تبلغ تلك المسافة نصف متر. وإذا تحطى أيّ شخص هذه المسافة فمن شأن ذلك أن يرفرفي.

يميل بعض العرباء للاقتراب مما كثيراً بسبب ضعف سمعهم أو بصيرهم. فيما يقترب آخرون بسبب عاداتهم التي تختلف عن عاداتنا. إلا أن الأمر يختلف بالنسبة لديكي. فديكي يعتبر أن قرب المسافة يعطيه قوة أكبر على التعبير.

وقف دوبري على بعد قدم واحد من وجهي. صالب الرجل ذراعيه، وأخذ يتحدث بي.

قال مصرحاً وليس سائلاً: "سنتهون عدأً حسبما أتوقع".

تراجعت قليلاً: "سنتتهي عدأً".

بدا وجه دوبري شبيهاً بوجه طائر، وظهرت عظامه الحادة الأطراف تحت جلده الرهري اللون والشعاف.

"سأقدم في الأسبوع القادم تقريراً أولياً إلى مكتب جيولوجي الولاية".

شرد الكلب، وبدأ يتم سافي التي بدا أن عمرها يقارب الثمانين سنة على الأقل.

"لا تكن قاسياً مع السيدة الشابة يا كولونيل (الكلب)... يسي هذا الكلب أصول التصرف أحياناً، ويبدأ بالتطفل".

حكّت السيدة الشابة الأدن اجرباء لذلك الكلب.

"من العار أن نَحْيَبَ آمال الناس بسبب مجموعة من الهنود القدماء".
ابتسم دوبري ابتسامة أوكد أنه يعتبرها تميّز "الجتلمان الجنوبي". أعتقد أنه
تدرب عليها أمام المرآة أثناء انشغاله بقصّ شعرات أنفه.
قلتُ: "ينظر الكثيرون إلى تراث هذه البلاد باعتباره قيماً".
"لكننا لا نستطيع مع ذلك أن ندع هذه الأشياء تؤثر على عملية التقدم،
أليس كذلك؟"

لم أجب.

"هل تفهمين موقفي أيتها السيدة؟"
"نعم سيدي. أنا أتفهمه".

أعرف أنني أمقت موقفه هذا. ينحصر هدف هذا الرجل بجمع المال بأية
وسيلة لا تدينه أمام القانون. لا يرى هذا الرجل بأساً بإزالة غابات المطر،
والمستنقعات، وتلوّث شاطئ البحر، وإزالة الكثبان الرملية، وهو المفهوم ذاته الذي
ساد في هذه البلاد عند قدوم الإنكليز. أعتقد أن ديكي دوبري مستعد لتفجير
معبد آرميس، إذا كان يقف عائقاً أمام تشييد بعض المنازل.
حافظ وينبورن، الذي كان يقف خلفنا، على هدوئه. أعلم أنه كان يُصغي
إلى الحديث.

ابتسم الرجل ابتسامة تميّز مفوض مايري: "وما هي الأمور التي سيتضمنها
التقرير".
"سيرد في التقرير أن المنطقة تضمّ أرضاً كانت تستخدم للدفن في فترة ما قبل
وصول كولومبس إلى هذه البلاد".

تلاشت ابتسامة دوبري العريضة، لكنه حافظ على قسم منها. أحس
الكولونيل (الكلب) بالتوتر، أو ربّما أحس بالضجر، فتركني واتجه نحو وينبورن.
مسحت يدي بينطالي القصير.

"تعرفين أولئك الأشخاص في كولومبيا جيداً مثلما أعرفهم. إن تقريراً من
النوع الذي تتحدثين عنه سيوقفني عن العمل لفترة من الوقت. سيكلفني هذا
التأخير الكثير من المال".



"إن موقع الآثار هو مورد ثقافي غير متجدد، وإذا زال عن الوجود فهو يزول إلى الأبد. لا يسمح لي ضميري أن أدع احتياجاتك المادية تؤثر على استنتاجاتي يا سيد دوبري".

تلاشت ابتسامة دوبري بالكامل هذه المرة، وبدأ ينظر إليّ ببرودة.
"سننظر في الوضع".

خففت لهجة التشدق التي يميّز بها أبناء المناطق الجنوبية من وطأة التهديد المبطّن.

"نعم أيها السيد، سننظر في الوضع".

تناول دوبري علبة سجائر كولز من جيبه، وأشعل سيجارة. رمى الرجل عود الثقاب على الأرض، وسحب دخان سيجارته عميقاً، وأوماً، ثم عاد باتجاه الكئبان الرملية، وأسرع الكولونيل في إثره.
ناديته: "سيد دوبري".

توقف دوبري، لكنه لم يستدر ليواجهني.

"إن المشي فوق الكئبان الرملية هو عمل غير مسؤول من الناحية البيئية".

تابع دوبري طريقه بعد أن لوّح بيده علامة عدم اكترائه.

بدأ صدري يغلي بالغضب والاشمئزاز.

"أجزم أن ديكي ليس خيارك المفضّل ليكون رجل العام".

استدرتُ لأجد وينبورن ينهمك بفتح عود علكة من ماركة جوسي فروت. راقبته وهو يُدخل العلكة في فمه، وانتظرته حتى يرمي بالورقة على الأرض، أي مثلما فعل دوبري بعود ثقابه.

فهم الرجل قصدي.

استدرت مئة ولثمانين درجة، وانطلقت بصمت نحو الحفرة الثالثة شرقاً. لم أسمع وينبورن وهو يجدّ بالسير ورائتي.

صمت الطلاب عندما انضممت إليهم. تبعني لثماني أعين عندما قفزت إلى داخل الأحدود. ناولني توفّر ماجلاً. جلستُ القرفصاء، وسرعان ما غمرتني رائحة التراب الذي قلبَ حديثاً.

امتزجت الرائحة بشيء آخر ذي رائحة كريهة. لاحظت أنها غير نفاذة، لكنها موجودة.

اشتممت رائحة كان يجب أن لا تنتشر هنا في هذا المكان.
انقبضت معدتي.

استندت على قدمي ورجلي، وبدأت بتفحص الجسم الغريب الذي اكتشفه توفور، والذي كان عبارة عن جزء من عمود فقري يطل من جدار الأخدود الغربي إلى الخارج.

ترع الطلاب الذين تحلقوا من فوقني بإعطائي تفسيرات.
"كنا ننظف الجوانب، كما تعلمين، حتى يصبح بإمكاننا التقاط صور الطبقات الجيولوجية".

"لاحظنا تراباً أكثر الرطوبة".

أضاف توفور تفصيلاً موجزاً.

لم أصغ إليه لأنني كنت أزيل المزيد من التراب بالمالج، حتى بدأ منظر جانبي للعظام المدفونة بالبروز في غرب الأخدود. ألحقت قلقي شمالاً مع كل حركة كشط قمت بها.

ظهر عمود فقري وحافة حوض عليا بعد عمل استمر ثلاثين دقيقة.

تراجعتُ وجلستُ، وأحسستُ بوخزة من الفزع تزحف على قمة رأسي.

بدت العظام مربوطة بالعضلات والأربطة.

طتت الذبابة الأولى، وتكسرت أشعة الشمس على جسمها الزمردى اللون،

حينما رحت أحرق بالعظام.

يا الله.

نفضت التراب عن ركبتي أثناء هوضي. تعيّن عليّ الوصول إلى جهاز هاتف.

أظن أن ديكي دوبري لديه ما يقلق عليه أكثر من قضية السيوي القدماء.

2

يفخر سكان جزيرة دي ويز كثيراً بنقاء بيئتهم الناتج عن العيش بعيداً عن الازدحام. ويُذكر أن خمساً وستين بالمئة من مساحة مملكتهم الصغيرة هي محميات طبيعية. لم تشمل عمليات التطوير ما نسبته تسعين بالمئة من مساحة الجزيرة. ويقول السكان إنهم يفضلون الأشياء على طبيعتها من دون صقل ولا تشذيب. لا يمكنك الوصول إلى هذه الجزيرة عن طريق جسر، بل يمكنك الوصول إليها عن طريق عبّارة أو سفينة، أما العربات التي تستخدم محركات الاحتراق الداخلي فهي مخصصة لخدمات البناء وتسليم البضائع فقط. تذكرتُ ذلك لتوي، فالجزيرة تمتلك سيارة إسعاف، وسيارة إطفاء، وعربة أخرى لمكافحة نيران الغابات مجهزة للسير على كافة أنواع الطرق. يحب السكان بساطة العيش، لكنهم ليسوا ساذجين بالكامل. اسألني أنا؟ أعتقد أن الطبيعة رائعة عندما نغضي إجازة بين أحضانها، لكن الأمر مؤلم جداً عندما نحاول تقصي حقيقة وفاة مشكوك بأمرها. تبلغ مساحة دي ويز ألفاً ومئتي أكر، أما منطقة عمل فريق الحفريات الذي يعمل تحت إشرافي، فكانت في أقصى الطرف الشرقي للجزيرة، أي في غابة مجاورة للبحر تقع ما بين بحيرة تيميشاو والمحيط الأطلسي. وبدل هذا الموقع على استحالة التقاط إشارات الهاتف الخليوي.

تركت توفّر ليشرّف على الموقع، ومشيت بمحاذاة الشاطئ حتى وصلت إلى ممر خشبي عريض يُستخدم لعبور الكثبان الرملية، ثم قفزت إلى واحدة من نصف

دزيئة من عربات الغولف. أدت مفتاح التشغيل، وعندها هبطت حقيبة على المقعد الذي بجانبني، ثم رأيت قفا وينبورن المغطى بالبوليستر يأخذ مكانه. لم ألاحظ أن الرجل يتبعني بسبب انشغالي بالعثور على هاتف.
حسناً، لربما يكون وجوده معي أفضل من تركه يتجول بمفرده من دون إشراف أي شخص.

انطلقت، أو شغلت، هذه العربة الكهربائية. أسرع وينبورن بوضع يده على اللوحة التي تضم مؤشرات القيادة، بينما رفع يده الثانية ليمسك بدعامة تدلني من السقف.

سرت بالعربة على حط مواز للمحيط على طريق سرب البجع، ثم انعطفتُ إلى مدخل دي ويسز، ثم تجاوزت مقصورة المتزهين، ومررت بجوار البركة، وملاعب كرة المضرب، إلى أن وصلت إلى مركز الطبيعة. وصلت إلى آخر البحيرة الضحلة، ثم توجهت شمالاً نحو اليسار. توقفت في آخر رصيف العبّارات، ثم استدرت نحو وينبورن.

"وصلنا إلى آخر الخط."

"ماذا؟"

"كيف وصلت إلى هنا؟"

"وصلتُ بالعبارة."

"وستعود بالعبارة."

"مستحيل."

"يمكنك إذاً اختيار الطريقة التي تريدها."

أساء وينبورن فهم ما قصدته فاسترخى في مقعده.

قلت موضحةً: "اسبح."

"لا تستطيعين بكل بساطة..."

"اخرج."

"لكنني تركت عربة في موقعك."

"سيعيدها أحد الطلاب."

انزلق وينبورن إلى الأرض بعد أن تحوّل وجهه إلى قناع من الانزعاج.
"يوماً طيباً يا سيد وينبورن".

اتجهت شرقاً نحو طريق مركز الإدارة القلم، ومررت بمحاذاة بوابات حديدية مزخرفة وسط جدران زينت بأصداف عشوائية الأشكال، ووصلت إلى مجمع الأشغال (أو المصالح) العامة في الجزيرة. يضمّ المجمع محطة مكافحة الحرائق، ومصلحة معالجة المياه، والمكتب الإداري، ومنزل مدير الجزيرة.

شعرت وكأنني أول من يدخل إلى مدينة أقيمت عليها قبلة نيوترونية، أي حين تظل الأبنية سليمة، لكن سكان المدينة المصابة يهلكون جميعاً.

أصبّت بالإحباط، فعدت للاستدارة حول البحيرة الضحلة. ركنت العربة خلف بناء يتألف من جناحين تحيط به شرفة كبيرة. يُعتبر هذا البناء المكان الوحيد الذي يجد فيه الغرباء سريراً ومكاناً لتناول شراب الشعير. يسمى هذا البناء منزل هايبلر ويحتوي على أربعة أجنحة للنزلاء، ويضمّ كذلك مطعماً صغيراً. يضمّ هذا البناء أيضاً المركز الاجتماعي للجزيرة. تراجلت من العربة، وأسرعت باتجاه المبنى.

لم أستطع إلا الإعجاب بهذا البناء أثناء اقترابي منه بالرغم من انشغالي بما وجدته في الحفرة الشرقية الثالثة. أراد المصممون الذين صمموا منزل هايبلر أن يعطوه ملامح البناء القلم الذي تعرّض لعقود من أشعة الشمس وهواء البحر المشبع بالملح. رأيت أحشاشاً باهتة، وبعض البقع الطبيعية. بدا المكان أثرياً مع أن تاريخ بنائه لا يعود إلى أكثر من عشر سنوات.

ظهرت امرأة من باب جانبي كانت على النقيض من هذا المبنى. بدت آليا هونيكت هني يونغ بلود امرأة مسنة، لكنها تعطي الانطباع بأنها عتيقة. تقول التقاليد المحلية أن هني (عسل) قد شهدت عملية منح الملك ويليام الثالث لجزيرة دي ويز إلى توماس كاري في عام 1696.

بقي تاريخ هني موضوعاً للتخمينات المستمرة، لكن سكان الجزيرة يتفقون على نقاط محددة. زارت هني جزيرة دي ويز للمرة الأولى بصفتها ضيفة على عائلة كولسر هايبلر. حدثت هذه الزيارة في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية. عاشت عائلة هايبلر حياة متقشفة على هذه الجزيرة منذ شرائهم لها في عام 1925. لم

تتواجد محطة كهرباء في هذه الجزيرة، ولم تتواجد أجهزة الهاتف أيضاً. استفادت هذه العائلة من بئر مياه يستخدم طاحونة هوائية. أعتقد أن هذه الجزيرة ليست بالمكان المناسب لقضاء عطلة مريحة على شاطئ البحر.

وصلت هني إلى الجزيرة برفقة زوجها الذي تباين الآراء بالنسبة لموقعه في فئة الأزواج. تابرت هني على زيارة الجزيرة بعد موت زوجها إلى أن انتهى بها الأمر بالزواج من أحد أفراد عائلة آر. أس. راينولدز، وهي العائلة التي اشترت الجزيرة من عائلة هايبلر في عام 1956. واشتهرت عائلة راينولدز بشركات الألومنيوم التابعة لها. امتلكت هني الخيار في أن تفعل ما تريده، وبالطبع احتارت أن تبقى في دي ويز.

أقدمت عائلة راينولدز على بيع أراضيها إلى شركة استثمارية في عام 1972، وبدأ أول البيوت السكنية الخاصة بالبروز في غضون عقد من السنين بعد عملية البيع هذه. شيدت هني أول بيت منها، وكان عبارة عن بيت صغير مؤلف من طابق واحد يطل على مدخل دي ويز. عُيّن هني في مركز عالمة طبيعة الجزيرة، وذلك عند إنشاء شركة الحفاظ على الجزيرة.

لا يعرف أحد عمر هني الذي امتنعت عن الإفصاح عنه لأيّ كان. اعتادت هني على افتتاح حديثها مع الآخرين بإشارتها إلى الطقس: "سيكون يوماً حاراً".

"نعم، سيده هني سيكون كذلك بالتأكيد".

"أتوقع أن تصل درجة الحرارة هذا اليوم إلى التسعين (فهرنهايت)".

اعتادت هني على التشديد على مقاطع كلماتها، تلك المقاطع التي اختارت لها معاني بذاتها. علمت من خلال محادثاتي العديدة معها أن هذه المرأة المسنة تستطيع استخدام أحرف العلة بشكل لا يقدر عليه أي شخص آخر.

حاولت أن أسرع في تجاوزها. قلتُ مبتسمة: "أتوقع ذلك".

"أشكر الله وملائكته على وجود أجهزة تبريد الهواء".

"نعم سيدتي".

"هل تحفرون قرب البرج القديم؟"

بُني هذا البرج لتحديد مواقع الغواصات أثناء الحرب العالمية الثانية: "لا يبعد مكان عملنا كثيراً عن هذا البرج".

"هل وجدتم شيئاً؟"

"نعم سيدتي".

"رائع. نستطيع إذاً أن نعرض بعض النماذج التي وجدتموها في متحفنا الطبيعي".

لا أعتقد أنهما تستطيع عرض هذا النوع من النماذج.

ابتمت، وبذلتُ محاولة ثانية لمتابعة طريقي.

التمعت أضواء الشمس على ضفائرها البيضاء المائلة إلى اللون الأزرق: "سأزورك في أحد الأيام. يتعين عليّ أن أكون مطلعة على كل شيء يحدث في المدينة. هل سبق لي وأخبرتك...".

لا أحب أن أصرف هذه المرأة عن حديثها، لكنني كنت مضطرة للوصول إلى جهاز هاتف: "اعذريني من فضلك يا آنسة هُني فأنا على عجلة من أمري".

ربت هُني على ذراعي: "بالطبع أنت مستعجلة، لكن هلاً زرتني؟ نستطيع أن نذهب لصيد السمك ما إن تنتهي من عملك. يعيش ابن شقيق زوجي هنا الآن، وهو يمتلك قارباً رائعاً".

"حقاً؟"

"بالتأكيد يمتلك هذا القارب، لأنني أعطيته إياه بنفسي. لم أعد أستطيع إدارة الدفة مثلما كنت أفعل في الماضي، لكنني ما زلت على حيي للصيد. سأناديه ونستطيع عندها أن ننطلق".

انطلقت هُني نزولاً في الممر بعد انتهائها من إعطائي المعلومات، ولاحظت أنهما منتصبية القامة مثل جدع شجرة صنوبر.

نزلت الدرج درجتين في القفزة الواحدة، وتوجّهت إلى الشرفة، ثم دخلت إلى المركز الاجتماعي. وجدت المركز خالياً مثلما هي حالة مركز الأشغال العامة.

هل عرف السكان شيئاً أجهله؟ أين ذهب الجميع بحق الجحيم؟

دخلت إلى المكتب، ومشيت نحو طاولة مكتب، ثم طلبت رقم الاستعلامات، ونقرت رقم هاتف. أجابني صوت بعد الرنة الثانية.
"مكتب المحقق الجنائي لمقاطعة تشارلستون".
"أنا تمبرنس برينان. اتصلت منذ أسبوع من الزمن. هل عادت المحققة الجنائية؟"

سبق لي أن أجريت اتصالاً مع إيما روسو بعد وقت قصير من وصولي إلى تشارلستون، لكنني شعرت بخيبة أمل عندما علمت أن صديقتي موجودة في فلوريدا، وأنها تمضي أول إجازة لها في غضون خمس سنوات. أعتقد أن هذا حصل بسبب سوء تخطيط من جانبي، إذ كنت أستطيع أن أرسلها عبر البريد الإلكتروني قبل قدومي. لم تسر صداقتنا على هذا المنوال، فعندما نكون بعيدتين عن بعضنا بعضاً تخف اتصالاتنا كثيراً، لكن عندما يجتمع مجدداً فإننا نتعاقق، وكأننا افترقنا قبل ساعات قليلة فقط.

زودتني عاملة الهاتف بأحدث المعلومات: "ستكون معك بعد قليل".
رحت أتذكر أثناء فترة الانتظار هذه لقائي الأول مع إيما روسو.

حدث ذلك منذ ثماني سنوات عندما حضرتُ إلى جامعة تشارلستون بصفتي محاضرة زائرة. وكانت إيما قد انتُخبت للتولّي منصب محققة جنائية لمقاطعة تشارلستون، لكنها تدرّبت على التمريض قبل ذلك. شكّكت إحدى العائلات باستنتاجها لطريقة الوفاة، وكانت غير محددة، بالنسبة لبحثها الذي أجرته على هيكل عظمي. احتاجت إيما إلى استشارتي، لكنها خشيت أن أرفض تقديمها لها. أصرت إيما على الحصول على استشارتي بصفتها صادرةً عن طرف خارجي، فجمعت العظام في كيس كبير من النايلون، وأحضرته إلى قاعة المحاضرات. تأثرت بإصرارها وتصميمها، فقررت مساعدتها.

إيما روسو.

استخدمت نكتة اعتدنا على استخدامها مرة بعد مرة: "عندي رجل في حوضٍ مستعد للموت كي يقابلك".

"إنه يوم السعد يا قعب. هل حضرتِ إلى تشارلستون فعلاً؟"



لم تشبه مخارج أحرف العلة التي تنطق بها إما تلك التي تنطق بها هني، لكنها اقتربت منها كثيراً.

"ستجدين رسالةً هاتفيةً في مكان ما بين مجموعة بريدك. إنني أجري تنقيباً أثرياً ميدانياً يقوم به الطلاب في دي ويز. كيف هي فلوريدا؟"

"إنها حارة ورطبة. لو كنت أعلمتني بقدمك مسبقاً لكنت غيرت برنامجي."

"إن أخذك لإجازة يدل على أنك كنت بحاجة ماسة لها."

لم تُجِبَ إِيْمَا على تصريحِي هذا: "هل ما زال دان جافر بعيداً عن المجموعة؟"

"أرسل الرجل إلى العراق حتى وقت ما في الشهر القادم."

"هل التقيت بالآنسة هني؟"

"أوه، نعم."

"أنا أحب هذه السيدة العجوز. إنها تفوح بالكحول والخل."

"إنها كذلك. اسمعي إِيْمَا، قد أكون في ورطة."

"هات ما لديك."

"وضعتي جافر في ذلك الموقع معتقداً أنه مقبرة تعود لقبيلة سيوي، وكان محقاً في ذلك لأننا عثرنا على عظام منذ اليوم الأول، لكنها كانت عظاماً تعود لفترة ما قبل تأسيس أميركا. وجدنا أن العظام جافة وشديدة البياض، كما أنها تحتوي على تلف كثير حدث بعد الوفاة."

لم تقاطعني إِيْمَا بتوجيه أسئلة أو تعليقات.

"اكتشف الطلاب هذا الصباح هيكلاً عظيماً حديث العهد مدفوناً على عمق 45 سنتم تقريباً. بدت العظام صلبة، كما أن الفقرات مرتبطة بنسيج لين. نظفت على قدر ما اعتدته ضرورياً من دون تلويث الهيكل. فكّرت بعد ذلك أنه من الأفضل أن يتولى أحد غيري هذا الموضوع، وأنا لا أعرف من يتولى إدارة أمور دي ويز."

"يملك الشريف صلاحيات تحوله التحقيق في الأمور الجنائية، لكنني أحفظ لنفسي بصلاحيات تقييم الوفيات المشتبه بها. هل لديك أية افتراضات؟"

"لا أملك افتراضات تخصّ السيوي القدماء."

"أعتقدين أن الجثة المدفونة حديثة العهد؟"

"دشّن الذباب مطبخ حساء أثناء انهماكي بإزالة التراب عن العظام".
مرّت فترة صمت. استطعت تصوّر إيما وهي تتطلع إلى ساعتها.
"سأكون عندك في غضون ساعة ونصف الساعة. أحتاجين لشيء؟"
"أحتاج إلى كيس يتسع لهيكل عظمي".

انتظرت وصول إيما على الرصيف على متن عبّارة ذات محركين من نوع سي راي.

لفت المرأة شعرها تحت قبعة يستخدمها لاجبو البيسبول، وبدأ أن وجهها
أنحف مما أتذكره. وضعت إيما على عينيها نظارة من ماركة دولشي غابانا،
وارتدت بنطال جينز، وبلوزة صفراء اللون كُتب عليها بخط أسود المحقق الجنائي
لقاطعة تشارلستون.

شاهدت سي راي وهي تُنزل مصداقها وتناور للوقوف بمحاذاة الرصيف أثناء
عملية ربط العبّارة. وصلت إلى مكان رسو العبّارة. ناولتني إيما كيساً يتسع لوضع
هيكل عظمي فيه، وشاهدتها وهي تحمل أجهزة تصوير، ثم قفزت إلى الرصيف.
شرحت لها عندما استقلينا العربة أنني عدت إلى الموقع بعد الانتهاء من
مكالمتنا، ثم أشرت على مساحة مربعة تبلغ أبعادها 25 سنتم، وقلت لها إنني
التقطت سلسلة من الصور. وصفت لها بتفصيل أكبر الأشياء التي رأيتها على
الأرض، وحذرتها من أن طلابي أصبحوا متحمسين لما اكتشفوه.
لم تتكلّم إيما كثيراً أثناء قيادتي للعربة. بدت مزاجية، وشاردة. ويُحتمل أنهما
ظنت أنني أخبرتها بكل شيء تحتاج إلى معرفته، أو كل ما عرفته أنا.
تلفتت يمنة ويساراً بين الفينة والأخرى. منعتني نظارة إيما الشمسية من معرفة
تعايرها. تبدلت أنماط الأضواء والظلال على وجهها.

لم أخبرها أنني غير مرتاحة، وقلقة، وأني قد أكون مخطئة وأضيع وقتها.
دعني أكون أكثر دقة. شعرت بقلق أكبر من احتمال أن أكون على حق.
ماذا يعني وجود قبر ضحل في شاطئ منعزل؟ وماذا يعني وجود جثة متحللة.
لم أستطع التفكير إلا بالقليل من التفسيرات التي تضمّنت جميعها وجود وفاةٍ مشتبه
بها وجرى من الجثة.



بدأت إيما هادئة من حيث المظهر. ولكنني كنت أعرف أنها منشغلة، مثلي، بتصور عشرات أو مئات من الاحتمالات. تشمل هذه الاحتمالات أجساداً محروقة، ورؤوساً مقطوعة، وأطفالاً محنطين، وأجزاء من أجساد ملفوفة بكيس من النايلون. لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لي. رحمت أتساءل إن كان إفراز الأدرينالين عند إيما مماثل المستوى الذي يجري عندي.

قطع سؤال إيما المفاجئ أفكارني: "هل هذا الفتى من ضمن طلابك؟" تبعتهُ خط نظرها.

شاهدت هومر ونيبورن. يتسلل ذلك التافه عندما يدير توفو ظهره ليلتقط الصور بآلة التصوير الرقمية الصغيرة الحجم التي يمتلكها. "ذلك السافل".

"سأعتبر ذلك موقفاً سلبياً من جانبك".

"إنه مراسل صحفي".

"لا يُفترض به أخذ الصور".

"بل لا يُفترض به التواجد هنا على الإطلاق".

أسرعت بالترجل من العربة لأواجه ونيبورن: "ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟"

تحولت طلاي إلى لوحة جامدة.

انحنى كتف ونيبورن الأيمن بينما انزلت ذراعه إلى خلف ظهره.

قلت بنبرة حادة: "أعطني النيكون (آلة التصوير)".

"لا تمتلكين الحق بمصادرة ممتلكاتي".

"أخرج من هنا حالاً، وإلا سأستدعي الشريف الذي سيأمر بسجنك".

"دكتورة برينان".

وقفت إيما خلفي. شاهدتُ عيني ونيبورن تضيقان ما إن قرأ الكلمات المكتوبة على بلوزتها.

أضافت إيما بصوت المنطق: "لعل باستطاعة هذا السيد أن يراقب عن بُعد".

حوّلت حملتي الغاضبة من وينبورن إلى إيما. شعرت بغيظ شديد إلى درجة أنني عجزت عن التفكير بجواب مناسب. تفتقد عبارة "لا، مطلقاً" للدقة، أما عبارة "بالتأكيد لا" فتبدو ركيكة.

أرمأت إيما لا شعورياً باتجاهي كي أوافق. إن وينبورن محق بالطبع. إنني لا أمتلك السلطة لمصادرة ممتلكاته، أو لإعطائه الأوامر. أعتقد أن إيما محقة بدورها، فمن الأفضل أن نوجه الصحافة بدلاً من رفضها أو إغضاها. أم هل أن المحققة الجنائية تخطط مسبقاً لحملة الانتخابية القادمة؟ نطقت بجواب لم يكن أفضل من ذلك الذي استبعدته في ذهني: "كما تشائين".

مدّت إيما يدها: "إنما بشرط أن نحتفظ بالكاميرا في مكان آمن". وضع وينبورن الكاميرا في يدها موجهاً ابتسامة تنم عن شيء من الرضا. تمتت: "يا لثنافه".

"كم تريدان أن يتعد السيد وينبورن عنا؟"

"ما رأيك لو يتعد إلى داخل البلاد؟"

تبين لي مع المستجدات التي ظهرت أن وجوده أو عدم وجوده كان أمراً قليل الأهمية.

عبرنا في غضون ساعات منطقة ثقب أسود غيرت من مفهوم حفرياتنا، وموسم صيفنا، ورؤيتي للطبيعة الإنسانية.



3

بدأ **توفر** وشاب آخر يدعى **جو العمل** برفشين ذوي مقبضين طويلين، وانهم كما ينزح الطبقة العليا من التراب في المربع الذي رسمته، والذي تبلغ مساحته 3 أمتار مربعة. لاحظنا وجود تغيّر في لون التراب بعد أن وصل الحفر إلى عمق 15 سنتيمتراً. حان الوقت إذاً للاستعانة بفريق آي.

التقطت **إيما** صور فيديو، وأخرى ساكنة للمربع، ثم عملت وإياها بالمالج لإزاحة التراب من حول البقعة الملوثة. عمل **توفر** على غربلة التراب. أعتقد أن هذا الفئى يحتل المرتبة الأولى عالمياً في الغربلة، مع أنه قد يكون أحقق بعض الشيء. وثابر الطلاب على زيارة مكان عملنا للاطلاع على تطوّر الأمور. لاحظت أن حماسهم كانت تتناقص بنسبة طردية مع تزايد عدد الذباب.

استطعنا عند حلول الساعة الرابعة الكشف عن عظام الجذع، وعظام الأطراف، والجمجمة، وعظام الفك. كُفّت هذه البقايا بقمماش أصبح تالفاً. رأيت حصلات من الشعر الأشقر الشاحب اللون تعلو هذه العظام.

اتصلت **إيما** لاسلكياً بمكتب **جونيويس غوليت**، الذي يشغل منصب شريف مقاطعة تشارلستون. لم تتغيّر الإجابة على اتصالاتها والتي أفادت أن **غوليت** ليس موجوداً، وأنه مشغول بمعالجة اضطراب محلي.

لازّمنا **وينبورن** مثلما يلزم الكلب طريدة. تحوّل وجهه إلى ما يشبه الوحل على الرصيف نتيجة تزايد الحرارة والرائحة في المكان.

تجمّع الطلاب عند الساعة الخامسة، واستقلوا عربات الغولف، ثم اتجهوا بها نحو العبّارة. وحده توفر أبدى رغبته بالعمل طالما كان ذلك ضرورياً. اهتمكنا جميعاً هو، وإيما، وأنا بنقل التراب. تصبب العرق منا، ودأبنا على إطلاق صيحات لطررد الذباب.

اختفى وينبورن عندما اهتمكنا بوضع آخر العظام في كيس النايلون. لم أنتبه عندما غادر المكان. التفتُ مرة لأجده محتفياً هكذا وبكل بساطة.

افترضت أن وينبورن قد انطلق ليُخبر محرّر جريدته، ولينشغل بلوحة مفاتيحه. لم نتمّ إيما كثيراً، فوجود جثة ليس بذلك الخير المثير في مقاطعة تشارلستون، والتي تشهد ستاً وعشرين جريمة سنوياً من بين سكانها الثلاثة ألف.

حافظنا على انخفاض أصواتنا، وعلى كتمان ما نقوم به بناءً على طلب إيما. ولم يحصل وينبورن على أية معلومات قد تعيق التحقيق. وقالت إن التغطية الإعلامية قد تكون شيئاً مساعداً لنا، وأن الحصول على تقارير تتعلق بالأشخاص المفقودين قد يفيد أحياناً بالتعرف على هوية صاحب الجثة. بقيت متشككة بموقفها هذا، لكنني لم أقل شيئاً لأن هذه هي منطقة صلاحيتها هي.

تبادلت مع إيما حديثنا الحقيقي الأول خلال توجهنا إلى رصيف الميناء. هبطت الشمس، وأرسلت أنوارها القرمزية من خلال الأشجار وعلى الطريق. وتسلّلت رائحة هواء الصنوبر المشبع بالملح من الغابات والمستنقعات إلى عربتنا رغم تحركنا، لكنها كادت تضيع نتيجة الرائحة الصادرة عما نحملة معنا في المقعد الخلفي.

لم أستبعد أن تكون الرائحة صادرة عني، لذلك لم أستطع الانتظار كي أنتهي من استحمامي، وتنظيف نفسي بالشامبو، وكذلك إحراق ملابسي.

سألتُ إيما: "ما هي انطباعاتك الأولية؟"

"لاحظت أن العظام محفوظة جيداً، لكنني لاحظت عند فحصي لتلك الفقرات الأولى غياب الأنسجة اللينة بصورة أكبر مما توقعت. رأيت بعض الأربطة، وبعض ألياف العضلات في أعماق المفاصل. تأتي معظم الرائحة من قطعة القماش."

"أعتقد أن الجثة كانت ملفوفة بتلك الملابس، ولم يكن صاحبها يرتديها،

صحيح؟"



"صحيح".

سألتني إيما عن الوقت الذي مضى على وفاة الضحية.
"يتوجب عليك فحص الحشرات التي هي في داخل الكيس لتحديد تلك
المدة".

"سأستعين بعالم حشرات. هل يمكنك إعطائي تخمين تقديري؟"
هزرت كنتفي: "أستطيع القول إنه في هذا المناخ، ونظراً لدفن الحثة في مكان
ضحل، فقد مضى عامان على الأقل، وخمس سنوات كحد أقصى".
تسارعت أفكار إيما من أجل تحديد هوية الضحية: "جمعنا الكثير من الأسنان".
"نعم، هذا صحيح. استطعنا جمع ثمانية عشر سنّاً من الغم، ووجدنا ثمانية
ملقاة على الأرض، وحصلنا على ثلاثة أخرى نتيجة عملية الغرلة".
أضافت إيما: "كذلك حصلنا على شعر".
"نعم".

"إنه شعر طويل".

"لا مغزى لذلك إن كنت تفكرين بجنس الضحية. انظري إلى توم وولف،
وويلي نيلسون".

"وفايو".

إنني أحب هذه المرأة فعلاً.

سألتها: "إلى أين تأخذين هذه البقايا؟"

"تذهب كل الأشياء التي هي من ضمن صلاحيتي إلى مشرحة MUSC
(جامعة كارولينا الجنوبية الطبية). يقوم الأطباء المختصون بعلم الأمراض هناك
بإجراء كل عمليات التشريح التي نطلبها منهم. إنني أجري هناك كل ما أحجاجة
من أبحاث في الطب الأنثروبولوجي الشرعي، وأجري هناك كل الفحوصات التي
أحجاجةها لأسنان الضحايا. أعتقد أنني لن أحجاجة إلى مختص بعلم الأمراض في هذه
القضية".

"تلف الدماغ وبقية الأعضاء منذ زمن بعيد. سيُجرى التشريح على العظام
فقط. ستحتاجين إلى جافر".

"إنه في العراق".
قلت: "سيعود في الشهر القادم".
"لا أستطيع الانتظار تلك المدة الطويلة".
"أنا مرتبطة بهذا الصف الميداني".
"سينتهي الصف في الغد".
"يتعين عليّ نقل كل المعدات إلى جامعة (UNCC)، وكذلك إعداد التقرير،
وتسليم علامات الطلاب".
لم تعلق إيما بشيء.
"ويُحتمل أن تكون بعض القضايا تنتظرنني في شارلوت".
استمررت إيما بعدم التعليق.
"أو حتى في مونتريال".
تابعت القيادة وسط أجواء الصمت التي سادت لفترة، واكتفينا بالاستماع إلى
نقيق الضفادع، وهمهمة العربة. بدا صوت إيما عندما استأنفت الحديث مختلفاً،
وأكثر نعومة، وأكثر إصراراً بطريقة هادئة.
"لعل أحدهم يفتقد هذا الشخص".
فكّرت بهذا القبر الموحش الذي نبشناه قبل قليل. فكّرت بمحاضرتي التي
ألقيتها منذ وقت طويل، وذلك الرجل الملقى في الحوض.
توقفت عن محاولتي التملّص من هذه المهمة الجديدة.

استأنفنا الحديث أثناء تحميلنا للقارب والاستعداد للانطلاق به من منطقة
الرصيف. ضاعت كلماتنا في الهواء ما إن ضغطت إيما دواسة الوقود، وسيطر
ضحيج المحرك على حديثنا، وتعالّت أصوات الأمواج التي يشقها القارب
بمقدمته.

أوقفت سيارتي على رصيف ميناء جزيرة النخيل، الذي يمتدّ على لسان ضيقٍ من
اليابسة يقع ما بين جزيرتي سوليفان ودي ويز، وكذلك تركت المحققة الجنائية شاحنتها
المقفلة هناك. لم يستغرق الأمر أكثر من دقائق معدودة لنقل شحنتنا المخزنة.



ودّعتني إما بكلمتين قبل انطلاقها في الممر المائي الذي يفصل بين شاطئتي
الجزيرتين.

"سأتصل بك".

لم أجادلها. شعرت أنني متعبة وجائعة وقلقة. أردت الذهاب إلى المنزل كي
أستحم، ولأتناول بعض الروبيان (القريدس) البارد، وحساء السرطانات اللذين
تركتهما في الثلاجة.

شاهدت توفّر برغيس وهو يترجل من عبّارة، وذلك أثناء اقترابي من رصيف
الحوض. انشغل الرجل بالاستماع إلى جهازه الأي بود، وبدأ أنه لم يرني أو
يسمعي.

راقبت تلميذي عندما قفز إلى سيارته الجيب. فكّرت كم أن هذا الفتى
غريب. أعتقد أنه غريب الأطوار، مع أنه ما زال بعيداً عن التفوق. إنه مقبول من
زملائه، لكنه منعزلٌ على الدوام.

مثلي تماماً عندما كنت في مثل سنه.

أضأت مصباح سقف سيارتي المازدا، وتناولت هاتفني الخلوي من صندوق
الأغراض الشخصية، ثم تفحصت إشارات الإرسال. برزت أمامي ثلاثة
خطوط.

تلقيت أثناء غيابي ثلاث رسائل. لم أستطع تذكر أصحاب أرقامها.

ألقيت نظرةً على ساعتني التي أشارت إلى 8:45.

شعرت بخيبة الأمل. أعدت الهاتف إلى مكانه، وخرجت من باحة السيارات،
ثم توجّهت إلى الجزيرة، وانعطفت إلى اليمين باتجاه جادة النخيل. لم تكن الرحمة في
أوجها، مع أنني أعرف أن هذا الوضع لن يستمر طويلاً. ستعمد السيارات إلى سدّ
هذه الطرقات مثلما يفعل الطمي أثناء نزول المطر العاصف.

مكثت في منزل صديقة لي يقع على الشاطئ. عمدت آن عندما غادرت
سوليفان قبل سنتين إلى عدم تضييع الوقت. احتوى منتجعها الجديد هذا على
خمسة غرف للنوم، وستة حمامات، ومساحة تكفي لاستضافة ضيوف كأس
العالم في كرة القدم.

سرت عبر بعض الطرقات الفرعية، وناورت باتجاه ذلك الشاطئ، ثم دخلت في الشارع الذي يقع منزل آن على محاذاته، وركبت السيارة تحت المنزل. تفودك جادة المحيط حتماً إلى قلعة آن البحرية.

لاحظت أن جميع النوافذ مظلمة في وقت عودتي، ولم يكن الظلام قد حلّ بعد. توجهت مباشرة لأخذ "دوش" في الحمام الخارجي من دون أن أنير المصابيح الكهربائية. خلعت ملاسي، وأدرت صنوبر المياه الساخنة. أمضيت عشرين دقيقة مع رائحة إكليل الجبل، والنعناع، والكثير من رغوة الصابون، شعرت بعدها أنني استعدت بعضاً من حيويتي.

غادرت الحمام، وجمعت ملاسي في كيس من النايلون، ثم قذفتها في سلة النفايات. لم أرغب أن أضع هذه الملابس المستسخة في غسالة آن ماركة الماي تاغ. دخلت المنزل من خلال الشرفة الخلفية وأنا لا أرتدي سوى المنشفة، ثم تسللت نحو غرفتي. أدخلت ملاسي الداخلية وفرشاة أسناني في شعري. يا للروعة. تفحصت رسائل الواردة أثناء تناولي للحساء. لا رسائل. أين رايان إذاً؟ نقلت هاتفني الخليوي وطعام عشائي إلى الشرفة، ثم استرخيت على كرسي هزاز.

تطلق آن اسم البحر على امتداد أميال على منزلها هذا. يمتد الأفق هنا من هافانا إلى هاليفاكس.

بملاك المحيط تأثيراً ساحراً في هذا المكان. انهمكت بتناول طعامي، ولم أجد نفسي إلا وأنا أستيقظ مذعورة على صوت هاتفني الخليوي. رأيت صحتي والوعاء الذي كان يحتوي على الحساء فارغين تماماً. لم أستطع أن أتذكر متى أغلقت عيني. سمعت صوتاً غير ذلك الذي رغبتُ بسماعه.

"يو".

توقف الجميع عن استخدام كلمة "يو"، ما عدا أعضاء الأخويات وزوجي الذي اعتبره غريب الأطوار.

شعرت بإهالك شديد معني من التذاكي: "نعم يا رجل".

"كيف تسير تنقياتك؟"

تَحَيَّلَت العظام الراقدة الآن في مشرحة MUSC. تَحَيَّلَت أيضاً وجه إيما عندما ابتعدت عني عند رصيف الميناء، ولم أشأ التحدث عن هذه الأمور.

"تسير سيراً حسناً".

"هل تنوين الانتهاء غداً؟"
"توجد بعض القضايا العالقة التي تتطلب وقتاً أكثر مما توقعت. كيف حال بيردي؟"

"إنه يراقب بويلد أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، وسبعة أيام في الأسبوع. يعتقد هيرك أن كليي قد جاء من العدم لينغص عليه حياته. ويعتقد هذا الكلب الصيبي أن تلك المرة ما هي إلا لعبة مكسوة بالزغب".
"ولمن السيطرة؟"

بدا منطقياً جداً إلى درجة تساءلت معها إن كان طراً شيء ما عليه: "إن بيرد هو النجم المتألق بالتأكيد. متى تعودين إلى شارلوت؟"
أجبت بصوت متعب: "لست متأكدة بعد. لماذا؟"
"حضر رجلٌ إلى مكنتي البارحة. قال لي إنه عالق بقضايا مالية مع أوبري هيرون، ويبدو أن ابنته قد تورطت معه كذلك".

يُكثر القس أوبري هيرون من ظهوره على شاشات التلفاز. وينتشر أتباعه المتحمسون القلائل على امتداد المناطق الجنوبية الشرقية، ويُعرفون باسم طائفة رحمة الله. تمتلك هذه الطائفة مركز إدارة لها ومحطة تلفزيونية، كما تدير عدة ميّام لأطفال من دول العالم الثالث، وعدة عيادات طبية مجانية في ولاياتي كارولينا وجيورجيا.

اعتاد القس هيرون على إنهاء برنامجه التلفزيوني بعبارة "نبرعوا بالكثير من المال".

"نبرعوا بالكثير من الأموال النقدية".

سألته: "هل من مشكلة؟"

"يكتنف الغموض تقارير الرجل المالية، وعلمت أنه عزل نفسه عن الاتصالات الخارجية، أما القس هيرون فقد أصبح أقل تعاوناً في كل القضايا".

"ألا يفترض أن يستأجر دادي محققاً خاصاً؟"

"هذا ما فعله دادي، لكن الرجل اختفى".

"هل تشك في مثلث بيرمودا؟"

"أشك بمخلوقات من الفضاء الخارجي".

"إنك محام يا بيتي، ولست تحرياً".

"يتعلق الأمر بالكثير من الأموال".

"حقاً"

تجاهل بيتي ملاحظتي هذه.

سألته: "هل دادي قلق فعلاً؟"

"تخطى دادي مرحلة القلق، وأصبح خارج الجهة الأخرى أيضاً".

"أتعني أنه تعدى قضية المال، أم قضية ابنته؟"

"إنه سؤال ذكي. يريد فلين استخدامي لتفحص دفاتره المحاسبية. ويريدني أن

أضغط على القس. يكفيني أن أتسبب بقليل من الجزع عند الابنة. عرضت عليه أن

أزور القس".

"وإخافته أيضاً"

"سيجري هذا عن طريق خيرتي القانونية".

رَكَزْتُ أكثر على فهم ما يجري.

قلتُ له: "يتمركز القس في تشارلستون".

"تحدثت مع آن، وعرضت عليّ الإقامة في منزلها إذا كنت لا تمانعين".

تنهدتُ بطريقة تجعل هومر وينبورن يشعر بالفخر: "متى؟"

"ماذا عن يوم الأحد؟"

تذكرت ملايين الأسباب: "لم لا".

أنبأتني هممة الهاتف بمكالمة واردة. أنزلت الهاتف، ولاحظت على

شاشته الكريستال الأرقام التي كنت أنتظر رؤيتها. رأيت أرقام مركز هاتف

مونتريال.

"سأهني المكالمة إنني مضطرة يا بيتي".



أهيتُ اتصالي معه.

"هل أتصل في وقت متأخر جداً؟"

رسمتُ على فمي أول ابتسامة لي منذ اكتشاف الهيكل العظمي في الحفرة الشرقية الثالثة: "لا، مطلقاً".

"هل أنت وحدك؟"

"وضعت رقمي في غرفة الرجال في هايمان لثمار البحر (هايمان سي فود)".

"أحب ملاحظة وقتك عندما تشناقين إلي".

يعمل آندرو رايان تحريماً في قسم الجرائم الكبيرة التابع لشرطة مقاطعة كيبك. هل توضحت الصورة لديك يا قارئ العزيز: برينان عالمة الأثروبولوجيا (علم الإنسان) التي تعمل في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي؛ ورايان، رجل الشرطة الذي يعمل في قسم الجرائم لدى شرطة كيبك. عملنا معاً في كشف الجرائم لمدة تزيد على عقد من الزمان.

اشغلت حديثاً بالعمل على أشياء أخرى أيضاً. أتحدث عن الأشياء الشخصية.

تسميت إحدى هذه الأشياء الشخصية بحدوث تغير في رنة صوته.

"هل كان يومك جيداً في التنقيب؟"

أخذت نفساً عميقاً، ثم توقفت. هل أخبره بما حدث؟ أم أنه من الأفضل أن

أنتظر؟

استغل رايان فترة ترددي.

قال يحنني: "ماذا حدث؟"

"وجدنا شيئاً مدفوناً بشكل غير مألوف. وجدنا هيكلًا عظمياً كاملاً مع آثار

من الأنسجة اللينة، وبعض الملابس".

"أظنن أنه حديث العهد؟"

"نعم. اتصلت بالحققة الجنائية، وعملنا على نبشه سوياً. وضعنا الهيكل في

المشرفة".

أعترف أن رايان رجل ساحر، وأنه متبصر، لكنه يصبح مزعجاً في بعض

الأحيان. أستطيع أن أعرف رد فعله قبل أن تنطق شفتاه بذلك.

"لماذا تقحمين نفسك بهذه الأشياء يا برينان؟"

"أقدم دائماً ملخصات جيدة عن مؤهلاتي".

"هل ستقدمين الاستشارات؟"

"إنني أفكر بطلائي".

عزفت الريح مقطوعة وسط أغصان النخيل، وتناهت أصوات ضربات الموج عبر الكنبان الرملية.

"هل ستولين هذه القضية؟"

لم أؤكد أو أنفي هذا الاحتمال.

سألته: "كيف هي الأمور مع ليلي؟"

"شهد هذا اليوم ثلاثة حوادث فقط لإغلاق الباب بعنف. وشهد توافقاً طفيفاً، لكن لم يتكسر الزجاج أو تتطاير قطع خشبية من الأثاث. أعتبر ذلك علامة على أن الزيارة تسير سيراً حسناً".

برزت ليلي كحدث جديد في حياة رايان، والعكس صحيح أيضاً. بقيت الابنة والأب يجعلان كل شيء عن بعضهما بعضاً لمدة عقدين من الزمان، إلى أن قامت والدة ليلي بإجراء اتصال.

تعرفت لوشيتا على رايان في إحدى عطلاتها الأسبوعية عندما كانت في التاسعة عشرة من عمرها. حملت منه، لكنها لم تخبر صديقها الغامض بالأمر، فتركت كندا لتتوجه إلى منزل عائلتها في جزر البهاماس. تزوجت لوشيتا في تلك الجزر، لكنها تطلقت عندما أصبحت ليلي في الثانية عشرة من عمرها لتعود بعدها إلى نونافسكوتيا. بدأت ليلي بالاختلاط مع أصدقاء يجنون المذلات بعد تخرجها من المدرسة الثانوية. تعودت الفتاة على تمضية السهرات خارج المنزل، وألقي القبض عليها ذات مرة بتهمة حيازة المخدرات. فهمت لوشيا مغزى هذه الإشارات، ويعود ذلك إلى أنها جرّبت الحياة في الظلام فيما مضى، وهي تعرف أنها التقت برايان في تلك الفترة، أي في فترة تمرده على الواقع التي سبقته تخرجه من الجامعة. علمت لوشيا أن حبيبها السابق أصبح شرطياً، فقرّرت أنه يستطيع المشاركة في جهودها لإنقاذ ابنته المراهقة.



أصابت هذه الأخبار رايان في الصميم، لكنه تقبل فكرة الأبوة، وراح يبذل ما بوسعه. شكّلت زيارته إلى نونفا سكوتيا أحدث غزوة له في عالم ابنته، لكن ليلي لم تجعل من مهمة أبيها عملاً سهلاً.

قلتُ: "سأنصحك بكلمة واحدة؛ الصبر".

يعرف رايان أنني أعاني من مشاكل مع ابنتي كاتي: "علم، أيتها الحكيمة".

"كم ستمكث في هاليفاكس؟"

"سأرى كم سيستغرق الأمر، لكنني متمسك بفكرة الانضمام إليك إذا كنت مستعدة للبقاء هناك لفترة من الوقت".

يا للفتى الرائع.

"يبدو أن الأمور آخذة بالتعقد. اتصل بي بيتي للتو وقال إنه يُحتمل أن يأتي إلى هنا ليمضي يوماً أو يومين".

انتظر رايان بصمت.

دعته آن عندما علمت أن لديه بعض الأعمال في تشارلستون. ماذا أستطيع أن أقول؟ إنه منزل آن الذي يحتوي على أسرة كثيرة تتسع لجماعة الكاردينالات.

"يحتوي المنزل على أسرة، أو على غرف نوم".

يستطيع رايان في بعض الأحيان أن يكون مثل كرة مخربة.

أنهت الموضوع معه: "هل ستصل بي غداً؟"

"أتريد أن أحو رقمك من جدار غرفة الرجال؟"

"تستطيع المراهنة على ذلك أيها البحار".

شعرت بالانزعاج بعد مكالمتي مع بيتي ورايان، ولعل هذا الشعور كان بسبب غفوتي نتيجة الإرهاق. علمت أنني لن أستطيع النوم بسهولة بعد ذلك.

ارتديت بنطالي القصير، وسرت حافية القدمين عبر الطريق الواسع. لاحظت أن المد قد انتهى، وأن الشاطئ قد تقدم في المياه مسافة خمسين ياردة. ومض عدد لا يحصى من النجوم فوقي. سمحت لأفكاري بالتحليق أثناء سيرتي مع الأمواج. بقي بيتي حي الأول، وظلّ حي الوحيد لمدة تزيد عن عقدين من الزمن.

تأملت في أن رايان هو مغامرتي الأولى منذ خيانة بيتي لي.
وفكرت بكاتي فهي ابنتي الرائعة والطائشة، وهي على وشك التخرج أخيراً،
من الجامعة.

تأملت أكثر في ذلك القبر المحزن في دي ويز. إن التحقيق في الوفيات الناجمة
عن العنف هو وظيفتي. إنني أشاهد هذا النوع من الوفيات كثيراً، لكنني لا أعتاد
عليه أبداً.

بدأت أفكر في العنف باعتباره هوساً أبدياً يُصاب به الذين لديهم القوة،
ويستخدمونه ضد الأشخاص الذين هم أقل قوة منهم. ويسألني أصدقائي عن كيفية
تحَمُّل وطأة العمل الذي أقوم به. إن الأمر بسيط، لأنني التزمت بالقضاء على
المهوسين، قبل أن يتمكنوا من قتل المزيد من الأبرياء.

يتسبب العنف بإحداث جروح في الجسد، ويتسبب بإحداث جروح في
الروح كذلك. إنه يجرح المفترسين والمفترسين، والمفجوعين كذلك. إنه يجرح
الإنسانية بأجمعها. ينتقص العنف من إنسانيتنا كثيراً.

أعتقد أن الوفيات المجهولة تشكل أقصى إهانة للكرامة الإنسانية. إن تمضية
الأبدية تحت الأرض، أو الاختفاء في قبر مجهول من دون أن يعلم أحد، ومن دون
أن يعلم الأحباء بالرحيل، يندرج من ضمن هذه الإهانة. لا أستطيع أن أجعل
الأموات يعودون للحياة مجدداً، لكنني أستطيع أن أعيد ربط الضحايا بأسمائهم،
وأستطيع أن أغلق ملفات الذين تجاهلهم الناس لفترة طويلة. استطعت بهذه الطريقة
مساعدة الأموات على التحدث ثانيةً والتفوه بكلمة وداعٍ أخيرة، وأن يتحدثوا في
بعض الأحيان عن الأسباب التي أنهت حياتهم.

أعرف أنني سأوافق على ما ستطلبه إيما مني. ويرجع ذلك إلى طبيعتي، وإلى
مشاعري. لن أتخلى عن هذه المهمة.



4

استلقتُ على سريري في الصباح التالي وأنا أحدّق في انبلاج يوم جديد. فلقد نسيت يوم أمس أن أسدل الستائر، وهكذا تمكنت، من خلال زجاج الواجهة الانزلاقية، من مشاهدة أنوار الفجر وهي تلقي بالوانها على المحيط، وعلى الكنبان الرملية، وعلى الشرفة الخارجية.

أغمضتُ عيني، ورحت أفكر ببرايان. لم يشكل ردّ فعله أي مفاجأة لي لأنني أعرف أنه يريد تسليتي، لكنني تساءلت عمّا عساه يقول فيما لو كان موجوداً هنا. ماذا سيقول لو رأى ذلك القبر؟ ندمت على إزعاجه بأخباري. اشتقتُ إليه بعد أن مضى ما يزيد عن الشهر على فراقنا.

اتجهت أفكاري نحو بيتي، ذلك الشخص المحب، الساحر، والخائن. أفنعت نفسي أنني ساعته، لكن، هل ساعته فعلاً؟ وإذا لم أساعه، فلماذا إذاً لم أقدم بطلب الطلاق، وأتحرر منه نهائياً؟

تذكرت المحامين وكل تلك الأوراق المطلوبة، لكن هل هذا هو كل ما في الأمر؟

تقلّبت على جنبي، وجذبت اللحاف حتى ذفتي.

فكرت بإيما التي سرعان ما سوف تتصل بي. بم سأجيبها؟

لا أملك سبباً لرفض طلب إيما. أعرف بالتأكيد أن تشارلستون ليست من ضمن منطقة عملي، لكن دان جافر سيغيب عن المنطقة لعدة أسابيع. أعرف أيضاً

أن آن سمحت لي بالإقامة في البحر على امتداد أميال طالما أردت ذلك، وأن رايان موجود في نونا سكوتيا، لكنه تحدث عن المحيء إلى تشارلستون. أعرف أيضاً أن كاتي موجودة في تشيلي لاشتراكها في دورة دراسية عن الأدب الإسباني مدتها أربعة أسابيع.

ابتسمتُ عندما تذكرتُ أن ابنتي أطلقت اسم سرفانتس وكيرفيزا على برنامجها الصيفي هذا. أعرف أنه مهما كان نوع المشروع فإن هذه المواد الدراسية الثلاث ستنتهي سنوات دراستها الست لنيل درجة بكالوريوس في الفنون. يا لروعة الأمر!

عدت بأفكاري إلى إيما. وعدت إلى مازق إيما.

يستطيع طلابي نقل المعدات إلى UNCC، وأستطيع أنا إتمام عملية التقييم من هنا وإرسال علاماتهم بالبريد الإلكتروني. أستطيع أيضاً أن أفعل نفس الشيء بالنسبة لتقرير الحسي الذي سأقدمه لعائلة آثار الولاية.

هل تكذّست القضايا في مكنتي في مونتريال؟ أستطيع الاتصال هاتفياً للتأكد من ذلك.

ماذا أفعل الآن؟

سيبدو الأمر أسهل فيما لو تناولت بعض البايغل المحمص، وبعض القهوة. أبعدت الأغطية عني، ثم ارتديت ملابسني.

استحممت بسرعة، وربطت شعري على طريقة ذيل الحصان. انتهيت. أعتقد أن هذا هو ما جذبني إلى علم الآثار، فأنا لست مضطرة لوضع مساحيق التحميل، ولا لزوم لاعتماد أي قبعات فرو، أو وضع الموس على الشعر. إن كل يوم هو يوم جمعة عادي، وحتى أقل من عادي.

انشغلتُ بالعمل على المحمصة بينما بدأت القهوة بالغليان. ارتفعت الشمس خلال هذا الوقت، وبدأ النهار يصبح أكثر دفئاً. ومجدداً، توجهت إلى الخارج.

اعتبر نفسي مدمنة على سماع الأخبار التي لا أستطيع الاستغناء عنها. وبدأ نهارني، عندما أكون في المنزل، بمشاهدة أخبار محطة سي. أن. أن، وقراءة الصحيفة. أقرأ صحيفة الأوبزرفر عندما أكون في شارلوت، أما عندما أكون في



مونتريال فأقرأ صحيفة *الغازيت*، وكذلك أتصفح جريدة *النيويورك تايمز* الإلكترونية. أُلجأ أحياناً إلى *يو. أس. آي. توداي* أثناء سفري، من دون أن أنسى الصحافة المحلية، ولا حتى الصحف المصغرة الحجم عندما أكون مضطراً.

لا يتمتع منزل البحر على امتداد أميال بخدمة التوصيل إلى المنازل. وتابعت أثناء تناولي الطعام قراءة جريدة *البوست والكورييه* التي اشتريتها يوم الخميس الفائت، ولم أكد أقرأ عناوينها.

حملت الصحيفة أخباراً مثل موت عائلة نتيجة حريق أتى على منزلها. وأرجعت الصحيفة أسباب الحريق إلى احتكاك في الأسلاك الكهربائية.

ذكرت الصحيفة أيضاً أن شخصاً رفع دعوى على شركة تقدم لحم الدجاج، وذلك بعد أن وجد أذنأ في طبق سلطة الكرنب الذي اشتراه من مطعمها. لم تجد الشرطة عاملاً فاقداً أذنه من بين العاملين في المجموعة التي تزود المطعم بسلطة الكرنب. أضافت الصحيفة أن اختباراً للحمض النووي قد أُجري.

ذكرت الصحيفة خبر اختفاء رجل، وأضافت أن السلطات تطلب مساعدة الأهالي لإيجاده. ترك *جيمي راي تيبيل* شقة أخيه الكائنة في شارع *جاكسون* حوالي الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الاثنين، يوم الثامن من شهر أيار (مايو)، وكان متوجهاً إلى عيادة أحد الأطباء بناء على موعد مسبق. لم يُشاهد الرجل منذ ذلك الحين.

دلّتي خلايا دماغي على مكان محدد. هل هو جزيرة دي ويز؟ استبعدت هذا الاحتمال لاستحالاته، لأن تيبيل كان من بين الأحياء قبل أحد عشر يوماً. أعرف أن الضحية الراقدة في الكيس لم تستنشق الأوكسجين منذ سنتين على الأقل.

رَن هاتفي بينما كنت أستعد للانتقال إلى القسم الأسبوعي لأخبار المناطق المجاورة. تفحصت الشاشة كي أعرف هوية المتصل. حان وقت المنازلة الآن.

تصف إيما بأنها منازلة من الدرجة الأولى، فلقد توجهت مباشرة إلى صلب الموضوع.

"أتريدين أن يربحوا؟"

تذكّرت المحاضرة التي ألقيتها على نفسي على الشاطئ.

سألت: "متى؟"

"ما رأيك بيوم غد، الساعة التاسعة صباحاً؟"

"أعطيني العنوان؟"

دوّنت العنوان عندي.

رأيت على بعد عشر ياردات من الشاطئ زوجاً من الدلافين يندفعان خارج الماء ثم يعودان إلى الأعماق. التمتع ظهراهما بأنوار الشمس الصباحية، فعكست ألوان الخزف الصيني الأزرق المائل إلى الرمادي. شاهدتكما يقفزان إلى الأعلى، ثم يغطسان ليختفيا في عالم لا أعرف عنه شيئاً.

رحت أفكّر وأنا أحسني قهوتي.

فكّرت أيضاً بالعالم المجهول الذي أوشك على دخوله.

مضى ما تبقى من النهار بهدوء.

شرحت لطلابي عندما وصلت إلى الموقع الأمور التي حصلت بعد مغادرتكم يوم أمس. انشغلت بتدوين آخر ملاحظاتي، ووضع الصور، بينما انشغل الطلاب بإعادة التراب إلى الخنادق المحفورة. عملنا معاً على تنظيف الرفوش، والمواج، والفراشي، والغرايل، ثم أعدنا العربات إلى رصيف الميناء، ثم استقلينا عبارة آجي غرامي في رحلة عبورها عند الساعة السادسة.

تناولت مجموعتنا في تلك الأمسية القريديس (الروبيان) والمخار الذي يقدمه بيت الزوارق الذي يقع عند مدخل الجزيرة. اجتمعنا ثانية في شرفة منزل آن بعد أن انتهينا من تناول الطعام، وعقدنا آخر اجتماع للصف. راجع الطلاب أعمالهم، ودقّقوا بتصنيفات كل القطع القديمة والعظام. أعاد الطلاب بحلول الساعة التاسعة توزيع المعدات بين عرباتهم، ثم تبادلوا العناق، ورحلوا.

عانيت من الحالة المعتادة التي تتباني عادة بعد انتهاء تجربتي الجماعية. أعتترف أنني ارتحت بالتأكيد لأن هذا الصف الميداني قد انتهى من دوان حوادث تُذكر،



ولأنني أستطيع الآن الانصراف إلى التركيز على الهيكل العظمي التي تتولاه إيما.
تركي عياب الطلاب مع شعور بالفراغ والكآبة.

أعرف أن الطلاب قد يتسبون ببعض المتاعب، لا شك في ذلك. إنهم يتسبون بصخب متواصل، وبتهريج لا ينتهي، وهم يُظهرون عدم الاهتمام أحياناً. أعرف أيضاً أن طلابي مليئون بالحيوية والحماسة، ومفعمون بروح الشباب.

جلست للحظات قليلة في منزل آن، الذي يساوي مليون دولار، خيم عليّ فيه صمت مطبق. شعرت، ومن دون وجود سبب منطقي، أن هذا هو السكون الذي يُنذر بالشؤم، ولا يبشر بالهدوء.

تنقلت في أرجاء المنزل، وأطفأت الأنوار، ثم صعدت الدرج الذي يؤدي إلى غرفتي. فتحت الأبواب الزجاجية، وارتحت كثيراً لسماع صوت الأمواج وهي تتكسر على الرمال.

وجدت نفسي عند الساعة الثامنة والنصف من الصباح التالي وسط الأفعوانية التي تسمى جسر فهر كوبر. وجدت نفسي في أعلى هيكل ينتمي إلى مرحلة ما بعد الحدائثة، ويربط جبل بليزانت والجزر البعيدة عن الشاطئ، مع البر في تشارلستون. يدفعني هذا الشيء إلى تذكّر نوع ضخم من الديناصورات متجمد بصورة الفولاذ، على الطريقة الانطباعية، وذلك بسبب أعمدته الفولاذية الضخمة وجسوره المقوسة. يرتفع الجسر كثيراً فوق اليابسة، وما تزال آن تتمسك بشدة حتى تبيض مفاصل أصابعها في كل مرة تعبر فيها هذا الجسر.

تواجه MUSC في الجزء الشمالي الغربي لشبه الجزيرة، وفي منتصف الطريق ما بين القلعة والمنطقة التاريخية. تابعت سيرتي على الطريق السريع الذي يحمل رقم 17، ودخلت جادة راتلريدج، ثم سرت عبر المخيم لأصل إلى موقف السيارات الذي حدّدته إيما لي.

شعرت بالدفء يغمر رقبتني وشعري. تابعت سيرتي عبر شارع سايبين، ووصلت إلى بناية حجرية ضخمة تعرف ببساطة على أنها المستشفى الرئيسي. استطعت تحديد مدخل المشرحة بحسب تعليمات إيما، ثم صعدت المنحدر المؤدي

إلى المدخل. ضغطتُ على زر الجرس الموجود بقرب مكبر صوت مستطيل الشكل. سمعت صوت همهمة محرك بعد ثوانٍ قليلة، ورأيت ارتفاع أحد البابين المعدنيين الرماديين.

بدت إيما في حالة مرعبة.

علا الشحوب وجهها، أما ثوبها فكان مجمداً. بدت المساحات الواقعة تحت عينيها كبيرة جداً.

قالت بهدوء: "هاي".

تبدو هذه طريقة غريبة لإلقاء التحية، لكن هذه هي طريقتنا كجنوبيين لتحية الآخرين. حسناً: "هاي".

أمسكت بإحدى يدي إيما وسألتها: "هل أنت بخير؟"

"أشعر بصداع نصفي".

"نستطيع تأجيل عملنا".

"إنني بخير الآن".

ضغطت إيما على زر، فبدأ الباب بالانغلاق خلفي.

قلتُ لها: "لن أغانر المدينة. نستطيع القيام بعملنا عندما تكونين في حالة أفضل".

أجابت بصوت هادئ: "أنا بخير".

قادتني إيما صعوداً عبر منحدر إسمنتي. لاحظت عندما وصلنا إلى أرضية مستوية باين فولاذيين يعملان بالضغط، وحنّنت أنهما يقودان إلى غرفة البرادات. شاهدت أمامي باباً عادياً لعله يؤدي إلى قسم من المستشفى يعجّ بالناس. أقصد أن أقول إنه يؤدي إلى أقسام مثل قسم الطوارئ، OB-GYN، وغرفة العناية الفائقة. تعمل تلك الأقسام من أجل حياة الآخرين. إنني موجودة هنا في الجهة المعاكسة، أي جهة الموت.

لمست إيما أحد البابين المعدنيين: "ها قد وصلنا".

عبرنا إلى تلك المنطقة، وأقدمت إيما على جذب المقبض. غمرنا هواء بارد حاملاً إلينا رائحة اللحم المبرد والعفن.



تبلغ أبعاد الغرفة ستة عشر، وعشرين قدماً على وجه التقريب، واحتوت على دزينة من العربات المدولبة، والتي تحتوي على صوان غير ثابتة. استلقت على ست من هذه العربات أكياس الجثث، وبدا بعضها منتفخاً، أما الأكياس الأخرى فبالكاد كانت منتفخة.

اختارت إيما كيساً بدا مسطحاً بشكلٍ يرثى له. أطلقت إيما مكابح إحدى العربات، وجرتما إلى الرواق، بينما أبقيت باب الغرفة التي اختارتها مفتوحاً. نقلنا مصعد نحو طابق علوي. ووصلنا إلى جناح التشريح، وغرفة الخزائن. شاهدت أبواباً تؤدي إلى أمكنة لم أستطع تمييزها. لم تتكلم إيما كثيراً، وامتنعت أنا عن إزعاجها بأسئلي.

انشغلت وإيما بتبديل ملابسنا العادية وارتداء ملابس العمل، وأوضحت لي أثناء ذلك أن هذا اليوم سيخصّص لي. سأقوم بعمل عالمة الأنتروبولوجيا (علم الإنسان)، أما هي فستقوم بدور المحقق الجنائي. سأقوم أنا بإعطاء الأوامر، وستقوم هي بمساعدتي. ستعمل إيما في وقت لاحق إلى إدخال النتائج التي أتوصل إليها في ملف القضية المركزية، وتضمّمها إلى جانب آراء خبراء آخرين، ومن ثمّ ستصدر أحكامها.

عدنا إلى غرفة التشريح حيث دققت إيما بالأوراق، وكتبت رقم القضية على بطاقة تعريف، ثم التقطت صوراً لكيس الجثث غير المفتوح. شعلت جهاز الكمبيوتر المحمول، وقمت بترتيب ملفات العمل على اللوحة.

رغبت أن أستخدم نظام التصنيف العائد للمحققة الجنائية لمقاطعة تشارلستون: "ما هو رقم القضية؟"

رفعت إيما بطاقة التعريف: "أعطيتها رقم 02 - غير محدد. إنها قضية الوفاة التي تحمل رقم 277 التي ترفع للمحققة الجنائية لهذا العام".

أدخلت رقم CCC-2006020277 إلى نموذج القضية عندي.

نشرت إيما ملاءة فوق طاولة التشريح، ثم وضعت قطعة منخل معدنية فوق الحوض. ربطنا بعد ذلك مئزرين من النايلون خلف رقبتينا وخصرينا، وأقدمنا على تثبيت كامامات على فاهينا، ثم ارتدينا القفازات.

فتحت إيما زمام الكيس.

رأيت الشعر في كيس صغير من النايلون، أما الأسنان المنزوعة فوضعت في كيس آخر. وضعتُ هذين الكيسين على طاولة التشريح. بقي الهيكل سليماً كما تذكرته في حالته الأولى، وشاهدت فقرات قليلة وعظمي الساق والفخذ من الجهة اليسرى مربوطتين ببقايا الأنسجة الجافة. أعرف أن العظام المنفصلة عن مفاصلها قد اختلطت أثناء عملية النقل.

بدأنا باستخراج الحشرات الموجودة في الكيس، ووضعناها في قوارير بلاستيكية. انصرفت وإيما إلى إزالة التراب عن كل عظمة بأقصى حرص، وقمنا بترتيب هذه العظام ليصار إلى فحصها في وقت لاحق. عمدت أثناء عملنا إلى وضع العناصر حسب ترتيبها التشريحي على الملاعة.

انتهينا عند الظهر من الأعمال المتعبة في عملية التشريح. وضعنا حوضين وأربع قوارير على الطاولة، بينما وضعنا الهيكل على طاولة أخرى، ونشرنا عظام الديدن والأطراف، فبدت مثل تماذج الكاتالوج (البيان المصور) العائد لشركة توريد بيولوجية.

أوقفنا العمل لنأخذ استراحة الغداء. اختارت إيما زجاجة كوكاكولا كبيرة وجلسوا. أما أنا فاخترت بعض الرقائق وشطيرة طون لم تعجبني كثيراً. عدنا إلى جناح التشريح عند الساعة الواحدة.

انشغلت بأخذ جردة العظام والتعرف عليها، وفصلت عظام الجهة اليمنى عن عظام الجهة اليسرى، وانشغلت إيما بالتقاط المزيد من الصور. خرجت بعدها من الغرفة حاملة معها الجمجمة، والفك، والأسنان المنزوعة لتأخذ لها صور الأشعة السينية.

عادت إيما بينما كنت أركز على تحديد جنس الضحية. شككت أن الضحية كان من الذكور نظراً إلى أن معظم العظام كانت كبيرة، وحملت أربطة عضلية متينة.

سألتها: "هل أنت مستعدة لتحديد جنس الضحية؟"
"أعاني من صداع".



أعرف أنني أحببت هذه المرأة.

تناولت عظمة حوضية نصفية، وأشارت إلى الجزء الأمامي منها.

"لاحظ أن عظمة العانة قصيرة ومكتنزة، أما فرعها الأسفل فهو سميك.

لاحظني أن زاوية ما تحت العانة تشبه الحرف V أكثر مما تشبه الحرف U".

قلبت العظمة، وأدخلت إصبعي إلى التجويف الذي يقع تحت العظمة الحوضية

العريضة. أضفت: "كما أن الشق الوركى ضيق".

"تميلين إلى اعتبار كروموزوم الضحية من فئة Y (فئة الذكورة)".

أومأت: "دعينا نتفحص الجمجمة".

* ناولتني إيما بإيها.

رحت ألقب الجمجمة، ولاحظت وجود أثر صدمة على خط الوسط خلفها:

"لاحظ أن حافتي الحاجبين كبيرتان، وحواف المحجرين غير حادة... التواء القذالي

كبير بما يكفي ليتطلب عنواناً خاصاً به".

"إنه فتى بالتأكيد".

دوت ملاحظة "ذكر" على النموذج عندي وقلت: "آه، نعم".

سألت إيما: "ماذا بشأن العمر؟"

يظهر آخر الأضراس الطاحنة عادة خلال آخر سنوات المراهقة، أو أوائل

العشرينيات، أي في نفس الوقت الذي يبدأ فيه الهيكل العظمي بأخذ شكله

النهائي. إن نمو الهيكل العظمي النهائي يتشكل في انصهار ذروة صغيرة تظهر في

عظمة الترقوة، عند طرفها القريب من الرقبة. يظهر هذا الانصهار عند عظمة

الترقوة مع ضرس العقل في نفس الوقت، ويُعتبر هذا مؤشراً جيداً على الوصول إلى

سن البلوغ.

سألته: "هل انتزعت كل الأضراس الطاحنة؟"

أومأت إيما.

تناولت عظمة الترقوة.

وضعت العظمة بعد تفحصها على الطاولة: "العظام الوسطية تامة النمو...

ويعني ذلك أنه ليس بفتى".

عدت إلى عظام الحوض. ووجهت اهتمامي نحو جهة البطن، وهذه المرة ركزت على الجهة التي لامست عظمة الحوض النصفية الأخرى أثناء الحياة. يلاحظ في حالة البالغين الصغار أن هاتين الجهتين تمتلكان مسطحين يشبهان وادي نهر شيناندواه، بمرتفعاته ووديانه، ومع التقدم بالعمر تبدأ هذه المرتفعات باليلي، أما الوديان فتمتلئ.

قلتُ: "يلاحظ أن عظم الالتصاق العاني ناعم السطح، ويتميز بحافة مرتفعة حول محيطه. دعينا نتفحص صور الأشعة السينية للأسنان".

ضغطت إيما على المفتاح الكهربائي لصندوق الضوء، ثم وضعت عشر شرائح مستطيلة الشكل تناولتها من ظرف صغير وبني اللون. رُبت هذه الشرائح في صفين، أحدها للأسنان العلوية والأخرى للأسنان السفلية، وحرصت على وضع صورة كل سن في ترتيبه الصحيح.

تمتلئ تجاويف الأسنان وأقنية جذورها بالعاجين (عاج الأسنان) الثانوي مع تقدم الإنسان بالعمر. يظهر السن معتماً في صور الأشعة السينية كلما كان أقدم. تدلني الصور على أن هذه الأسنان تعود لإنسان بالغ يتراوح عمره ما بين سن الشباب ومنتصف الأربعينيات. لاحظت إضافة إلى ذلك أن كل جذور الأسنان الطاحنة مليئة بالكامل حتى لهاياتها، وأن بلى التاج كان في حده الأدنى.

قلتُ: "تتوافق الأسنان مع العظام".

"ماذا يعني كل هذا؟"

"إنه في الأربعينيات، لكن تذكر أن الذكور يتنوعون".

قالت إيما: "هذا رائع. ماذا بشأن عرق الضحية؟"

عدت إلى الجمجمة.

أعرف أن تقييم المؤشرات التي تدلّ على العرق يكون متعباً في العادة. التقت العظام الأنفية على خط الوسط في زاوية حادة (تشبه الزاوية التي يشكلها برج الكنيسة). لاحظت أن الفتحة الأنفية الضيقة تتميز بحافة حادة في أسفلها، كما أنها تحتضن تنوعاً عظمياً في وسطها.

"يتميز الأنف بأنه ضيق وبارز، أما صفحة الوجه فمسطحة".



راقبتني إيما عندما سلّطت أنوار مصباح كهربائي على قناة الأذن.
"تبدو الفتحة البيضاوية المؤدية إلى الأذن الداخلية بوضوح."
عندما رفعت رأسي لاحظت أن إيما تمسّد جبهتها بحركات دائرية.
"سأمرّر معطيات القياسات من خلال برنامج فورديسك 3.0. يبدو لي أن
هذا الرجل يشبه ما رأيته في إحدى صفحات كتاب صور القوقازيين."
"إنه ذكرٌ أبيض في الأربعين من العمر تقريباً."
"سأقول، لنكون أقرب إلى الصواب، إن عمره يتراوح ما بين الخامسة
والثلاثين والخمسين".

"وما هو المجال الزمني لحدوث الوفاة؟"

أشرت إلى القوارير البلاستيكية الموجودة على الطاولة: "يوجد الكثير من
الحشرات غير المكتملة النمو، وبعض الخنافس الميتة، بالإضافة إلى جلود الخنافس
الفارغة. يستطيع عالم الحشرات الذي تتعاملين معه أن يحدّد فترة PMI."
"يستغرق تحليل الحشرات وقتاً طويلاً. أرغب بتعميم الموصفات على NCIC."
أشارت إيما إلى المركز الوطني لمعطيات الجرائم، وهو عبارة عن جدول ضخّم
من المعلومات المتعلقة بسجلات الجرائم، والمهارين، والممتلكات المسروقة،
والأشخاص المفقودين والمجهولي الهوية. يستطيع المرء الاستفادة أكثر من قاعدة
البيانات الضخمة هذه، إذا كان المدى الزمني أقصر.

"قلت في البداية إن المدى الزمني يتراوح ما بين سنتين إلى خمس سنوات، لكن
إذا أردنا عدم استبعاد أية احتمالات، فيتعيّن توسيع هذا المدى ليصبح ما بين سنة
وخمس سنوات".

أومأت إيما: "إذا لم نحصل على شيء من أن. سي. آي. سي، فسأبدأ العمل
من أجل الحصول على تقارير عن الأشخاص المفقودين".

قلت: "سيساعد بحثنا كثيراً معرفة حالة الأسنان لأن هناك قطعة معدنية
موجودة في فمه".

"سيقوم الطبيب المختص بعلم الأسنان بعمل مخطط لحالة الأسنان يوم
الاثنين".

عادت إيما لتمسيد جبهتها، ومع أنهما جهدت في هذا، إلا أن شحوبها ازداد كثيراً.

قلتُ: "سأقوم بأخذ قياس لعظام الساق كي أستطيع تحديد الطول".

شاهدت إيماة خفيفة: "هل تبقت مؤشرات أخرى؟"

هزرتُ رأسي. لم ألاحظ أية كسور مشفية، ولم أشاهد أية عيوب خلقية، ولم أجد أية مميزات عظمية غريبة.

"وما هو سبب الوفاة؟"

"لم يتضح السبب بعد، فليس هناك من كسور، ولا مدخل أو مخرج رصاصة، ولا توجد شقوق ناتجة عن آلة حادة. أريد رؤية العظام تحت التكبير بعد تنظيفها بالكامل، لكن ليس الآن".

"أتريدين أخذ صور أشعة سينية للجسم بكامله؟"

"لا ضرر في ذلك".

رنّ جرس هاتف إيما عندما كنت منهمكة بقياس عظمة فخذ. سمعتها تتكلم عندما مشت نحو الطاولة لفتح الغطاء.

"إيما روسو".

أصغت إيما بانتباه.

قالت بحذر: "أستطيع الاحتمال".

مرّت فترة سكون.

"هل الأمر سيئ إلى هذه الدرجة؟"

مرّت فترة سكون أطول.

تعقّد الوضع أكثر: "وماذا الآن؟"

نظرتُ.

أدارت إيما ظهرها لي، كان وجهها مخفياً عني، لكن صوتها أخبرني أن شيئاً ما

لم يكن على ما يرام.



5

ألقيت إيما هاتفها الخلوي على الطاولة، وأغمضت عينيها، ثم بقيت ساكنة. راقبتها مع معرفتي أنهما تحاول تهدئة صداعها.

سبق لي وعانيت من الصداع النصفي، ولذلك فأنا أعرف الألم الذي يصاحبه. أعرف أيضاً أن قوة الإرادة لن تصمد. وأعرف أنه لا شيء بإمكانه تهدئة أوعية الرأس المتوسعة إلا الزمن والنوم، بالإضافة إلى الأدوية.

عاودت تركيزي على أخذ القياسات. فضّلت أن أنتهي من تقدير الطول حتى تتمكن إيما من الذهاب إلى بيتها وترتاح فيه، وإذا أرادت مناقشة المكالمات الهاتفية فالأمر يعود لها.

سمعت صوت الباب يُفتح، ليعود ويُغلق ثانية.

انتقلت من لوحة قياسات العظم إلى حاسوبي المحمول، ثم سمعت صوت الباب يُفتح مجدداً. سمعت صوت أقدام تمشي فوق البلاط بينما كنت أدخل آخر رقم لي، ثم طلبت من الحاسوب المحمول أن يُجري الحسابات.

وقفت إيما قرب كتفي: "تفحصت الملابس. لم أجد حزاماً، ولا حذاءً، ولا حتى أية مجوهرات أو ممتلكات شخصية. لم أجد شيئاً في الجيوب أيضاً. وجدت بعض النسيج المتعفن، وعلامات تدلّ على الماركة بالكاد استطعت قراءتها، لكنني أعتقد أن البنطال هو بقياس ثمانية وثلاثين في الطول. إذا افترضنا أن البنطال يعود له بالفعل، فيمكنني القول إن الرجل لم يكن قصيراً".

تحركت قليلاً كي تتمكن من رؤية الشاشة بطريقة أفضل: "يتراوح طوله ما بين 175 و182 سنتم".

حدقت إيما بتقديرات الطول، ثم تقدمت نحو الطاولة. مدت يدها، ومدت الجمجمة.

جاء صوت إيما ناعماً ورقيقاً مثل المداعبة: "من أنت، أيها الرجل الأبيض الذي يبلغ الأربعين من عمره؟ أنت بحاجة إلى اسم، أيها الرجل العظيم". بدت اللحظة شخصية ومؤثرة، شعرت وكأنني متطفلة. لكنني أعرف بالضبط ما قصدته إيما.

ينظر الجمهور هذه الأيام إلى الحمض النووي وكأنه العصا السحرية للعدالة المعاصرة، وذلك بفضل أفلام الجريمة التي تُعرض على التلفزيون. نشرت هوليود الأسطورة القائلة إنه بإمكان هذه السلسلة الحلزونية المزدوجة أن تكشف سر كل الألفاز، وأن تفتح كل الأبواب، وأن تصحح كل الأخطاء. أتمتلك عظاماً؟ إذا لا توجد مشكلة. استخراج بعضها ودع ذلك الجزء الصغير ينشر سحره.

أعرف أن الأمر لا يسير هكذا بالنسبة للبحث المجهولة الأسماء. إن امرأة مجهولة، أو رجلاً مجهولاً يقيان في عالم المجهول، وتزال عنهما أية إشارات تدل على الحياة. إن عدم تحديد هوية الشخص يعني افتقاد ذلك الشخص للعائلة، ولطيب أسنان، ولمنزل نستطيع البحث فيه عن فرشاة أسنانه، أو العلكة اللتين يستهلكهما. مجهول الاسم.

تستطيع إيما الآن أن ترسل CCC-2006020277 إلى النظام، مستعينةً بالملخص الذي أعدناه، ليقوم هذا النظام بالبحث عن أشخاص مفقودين تتوافق معطياتهم مع المعطيات التي لدينا. إذا حصلنا على عدد معقول من الأسماء المتوافقة مع مواصفائنا فعندها ستمكّن من طلب الحصول على السجلات الطبية وسجلات الأسنان. سنقوم بعدها بالاتصال بأقارب الضحية للحصول على نماذج من أجل إجراء اختبار الحمض النووي.

نزعت قفازي، ونظرت إلى ساعة يدي. أشارت عقاربها إلى الرابعة وخمس وأربعين دقيقة.

قلتُ: "أمضينا ثماني ساعات هنا. إليك الخطة. سنجتمع هنا مجدداً ثمار الاثنين. ستطلبين أنتِ أخذ صور أشعة سينية تشمل كامل الجسم. سأشاهد الأفلام، وسأفحص العظام بالمجهر بينما يقوم طبيب الأسنان بعمل تخطيط لأسنان الضحية. تستطيعين بعد كل هذا إرسال الموصفات عبر نظام NCIC".

استدارت إليهما نحوي. ساعدت الأضواء الفلورية على أن يبدو وجهها أشبه بوجه جاهز للتشريح.

قالت بتثاقل: "إنني عرافة متعطسة".

"ما هي العرافة؟"

"لست متأكدة".

"ستذهبين إلى المنزل".

لم تجادلني.

بدأت فترة الظهيرة ثقيلة ورطبة في الخارج. وبلغت فترة الازدحام ذروتها، واختلط دخان عوادم السيارات مع مزيج الهواء المالح من الميناء. بدأت المدينة برائحتها وكأنها في فصل الصيف، مع أننا لا نزال في شهر أيار (مايو).

مشيت مع إيما جنباً إلى جنب أثناء هبوطنا المنحدر. ترددت قليلاً قبل افتراقنا، ثم فتحت شفيتها كي تتكلم. ظننتُ أنها تريد أن تحدثني عن المكالمات الهاتفية. تمت لي، بدلاً من ذلك، عطلة فمائية أسبوع سعيدة، ثم مشيت بتثاقل عبر الرصيف.

بدأت سيارتي مثل الفرن. أنزلت زجاج النوافذ، ووضعت أسطوانة مدججة لسام فيشر. ترددت ألحان أغنيته الناس يعيشون داخل السيارة. بدأت هذه الألحان حزينة، وعنيفة، لكنها ناسبت مزاجي تماماً.

عبرت نهر كوبر، ولاحظت وجود سحبات رعدية جاثمة فوق الأفق الشرقي. تستعد عاصفةٌ عاتيةٌ للهبوب. قررت أن أتوقف قليلاً عند متجر سيمونز لثمار البحر، ومن ثم أتناول غدائي بمفردي.

بدأ المتجر خالياً. رأيت الصناديق الفولاذية مليئةً ببقايا حصيلة صيد اليوم فوق الثلج المسحوق.

تحركت كل خلية من خلايا ما تحت المهاد البصري عندي لدى رؤية سمك سيف البحر.

يفعل مثلي أولئك الذي يخافون على البيئة. يحمل هؤلاء باستمرار على الإفراط بالصيد! تناقص كميات السمك! وعدم التقيد بقوانين الصيد! حسناً. ألا يفترض، على كل حال، أن تكون أسماك سيف البحر محملةً بالزئبق؟

نظرت "إلى الماهي ماهي".

لم أسمع أي احتجاج من منبر الوعظ الشرس القابع في مقدمة المخ عندي. اعتدت على تناول غدائي في الهواء الطلق، ومشاهدة الطبيعة تعرض مسرحيتها الضوئية المؤلفة من ثلاثة مشاهد. تخيلت وجود الإعلان الضخم عن هذه المسرحية.

المشهد الأول، يتلاشى ضوء النهار ويبدأ الليل بطيئاً بظرد النهار. المشهد الثاني، تومض عروق البرق وكأن الغيوم السوداء المائلة للخضرة ترقص الفاندانغو (رقصة إسبانية). المشهد الثالث، يظهر اللون الرمادي شيئاً فشيئاً وسط الأحمر المطر على الكتيان الرملية، وتبدأ الريح بالتلاعب بأشجار النخيل. نمت مثل طفلة.

استيقظت في الصباح التالي لأجد أشعة الشمس وهي تتسلل عبر الستائر. ترامت إلى مسامعي أصوات ضربات غامضة.

نفضت محاولةً تحديد مصدر الضجة. هل تسبب الإعصار بنزع مصراع إحدى النوافذ؟ أم أن الفاعل هو شخص ما موجود في المنزل؟ نظرت إلى الساعة. أشارت عقاربها إلى الثامنة والأربعين دقيقة.

وضعت ردائي، ومشيت على رؤوس أصابعي باتجاه الدرج، ثم نزلت بضع خطوات، وانحيت لأستطيع رؤية الباب الأمامي. رأيت شبح رأسٍ وكتفين عبر النافذة ذات الزجاج المحجر البيضاوي الشكل.

ضفط الرأس بأنفه على الزجاج ثم تراجع بينما بقيت أراقب ما يجري. وعادت الطرقات.



تجنّبت الحركات المسرحية، وعدت أدراجي على رؤوس أصابعي، ثم زحفت باتجاه غرفة النوم الأمامية. أرجعت الستارة جانباً، وتطلّعت نحو الأسفل باتجاه الطريق الذي يؤدي إلى مدخل المنزل. تأكّدت من وجود سيارة بيتي، التي تبدو كلعبة على الطريق، كما أنّها مركونة في مواجهة سيارتي المازدا. رجعت إلى غرفة النوم، وارتديت الملابس التي كنت أرتديها البارحة، وأسرعت إلى الطابق السفلي.

وصلت إلى الباب فتحوّلت الطرقات على النافذة إلى خدش للزجاج. أدرت المزلاج، وازداد الخدش بصورة هستيرية. أدرت مقبض الباب.

اندفع الباب إلى الداخل. واندفع بويده إلى الأمام وحطّ بمخالبه على صدري. جهدت لأستعيد توازني، بينما نزل الكلب وبدأ يسير بحركات دائرية حول كاحليّ، وهكذا أصبحنا مربوطين معاً بلجامه. فقد بيردي أعصابه نتيجة هذا الاضطراب فانطلق من صدر بيتي. نشر الهر مخالفه وأذنيه بشكل انسيابي، واندفع عبر الرواق، ثم توجّه نحو المنطقة الخلفية من المنزل.

تبعه بويده (الكلب) بسبب اضطرابه، أو لأنه سرّ لخروجه من السيارة، وراح لجامه يتمايل وراه بينما راح ينزلق على أرضية الرواق، ثم بعد ذلك على أرضية غرفة السفارة، قبل أن يصل إلى أبواب المطبخ.

اندفع بيتي ليعانقني على طريقة شبيهه رويين ويليامز: "صباح الخير يا تشارلستون!"

دفعت بيتي براحتي يديّ: "بحق الله يا بيتي، بأي وقت مبكر غادرت شارلوت؟"

"لا ينتظر الزمن أي شخص، يا حلوة".

"لا تناديني هكذا".

"إذاً، يا حبة الزبدة".

سمعت تحطّم شيء ما في مكان ما من البيت.

توجّهت نحو المطبخ: "أغلق الباب".

تبعني بيّتي.

رأيت بويّد يبحث في محتويات وعاء الكعك المحلى الذي تحطم. اكتفى بويّد بالمراقبة من مكان آمن على سطح الثلجة.

قلتُ: "هذا أول شيء عليك شراءه من أغراض آن".
"وضعتّه في القائمة".

تطلع بويّد إلى الأعلى وقد مرّغ أنفه بفتات الحلوى، ثم عاد ليلعق ما تبقى من حلوى لورنا دوونز.

ملأت وعاء بالماء وسألت: "ألم تستطع إيجاد بيت لإيواء الكلب".
"يجب بويّد التواجد على الشاطئ".

"أعرف أن بويّد مستعد ليحب الغولاغ (معسكرات إصلاح العمال) إذا أطعموه فيها".

وضعت وعاء الماء على الأرض. بدأ بويّد يقفز، ومدّ لسانه فأصبح أشبه بسمكة الأنقليس الطويلة والأرجوانية اللون. انشغل بيّتي بتفريغ سيارته، بينما انهمكتُ بإعداد طعام الفطور. اشتملت الأغراض التي أنزلها على وعاء طعام للهر، ووعاء آخر لوضع الفضلات، وطعام للكلاب والهررة، وعلى أحد عشر كيساً من أكياس المتاجر الكبرى، وحقيبة كبيرة، وكيس لوضع الثياب، وقطعة قماش خشن صغيرة.

لم يغيّر بيّتي من عاداته، فهو ما زال يسرف في الإنفاق على المأكّل والمشرب، لكنه يبدو مثل رجل غاب بالنسبة للملابس.

لا يستطيع زوجي الغريب أن يجد قمصاناً على مقياس رقبته أبداً، فكل ياقات القمصان تبدو واسعة جداً على رقبته النحيفة. لا يشكل ذلك مصدر قلقٍ له أبداً. لم يتغيّر نظام تفصيل جسمه الثلاثي منذ أن التقيته في السبعينيات. يرتدي الرجل بنطالاً قصيراً، أو بنطال جينز، كلما كان ذلك ممكناً، بالإضافة إلى سترة رياضية عندما يصف شعره، ويرتدي كذلك بذلة وربطة عنق عندما يذهب إلى المحكمة.



ارتدى بيّتي لهذا اليوم قميص غولف روزاسين، وبنطالاً كاكّي اللون يصل إلى ركبتيه، وانتعل حذاءً رياضياً، ولم يضع جوارب في رجليه.
تناولت كرتونة بيضٍ من أحد الأكياس: "أعتقد أنك اشترت ما يكفي من البقالة؟"

"اشترت الكثير من الطعام من أجل قضاء وقتٍ قليل."
"إنك تبذل قصارى جهدك".

رسم بيّتي ابتسامة عريضة على شفثيه: "هذا صحيح. تصوّرت أنك لا تنتظريني على مائدة الفطور".
في الواقع، انتظرته أن يأتي عند المساء.
غمز بيّتي على طريقة بيّتي بيترسون: "كدت أتابع طريقتي عندما رأيت السيارة الثانية".

توقفت عن كسر البيض على الفور: "أية سيارة أخرى؟"
"كانت متوقفة في الخارج. ابتعدت السيارة ولهذا دخلت".
"ما هو نوع السيارة الأخرى؟"

هز بيّتي كتفيه: "إنها داكنة، وكبيرة، وذات أربعة أبواب. أين تريدين وضع وعاء الهر؟"

أشرت بذراعي نحو غرفة صغيرة، واختفى بيّتي مع وعاء الهر.
أصبت بالذهول، وبدأت بحقق البيض. من هو الشخص الذي جاء إلى هنا في وقت مبكر من صباح الأحد؟
عاد بيّتي، وبدأ بغرف بعض البن المطحون: "لعله كان سائحاً يبحث عن بيت على الشاطئ. أعرف أن الكثيرين مستعدون لتأجير بيت من الأحد إلى الأحد".

أخرجت الخبز من المحمصة، ووضعت قطعيتين إضافيتين: "لكن الإيجار لا يبدأ قبل الظهر".

"حسناً، لعل أحدهم يغادر البيت الذي استأجره، ولعله يكون قد توقف ليبرمج أون ستار قبل أن يبدأ بقيادة سيارته نحو توليدو".

ناولت بيبي منديلين وبعض أدوات الطعام. وزّع بيبي الأدوات على الطاولة ثم جلس إلى الطاولة.

مشى بويد، ووضع ذقنه على ركبة بيبي. فانحنى بيبي، ومسّد أذن كلبه. "إذا أصبح الصف الميداني شيئاً من الماضي. أتتوّن الذهاب إلى الشاطئ هذا اليوم؟"

أخبرته عن الهيكل العظمي الذي اكتشفته في دي ويز.
"يا للأسف".

ملأت كوبي قهوة، وناولت بيبي طبقاً، ثم جلست على الكرسي المقابل له. ترك بويد ركبة بيبي وتوجّه إلى ركبتي.
"إنه رجل أبيض في الأربعين من عمره. لا توجد أية علامات تدلّ على شيء غير طبيعي".

"لا شيء سوى أن الرجل كان في قبر غامض".

"وما عدا ذلك، هل تذكر إيما روسو؟"

تباطأ بيبي في مضغه للطعام، ورفع شوكة في الهواء: "أتعنين تلك المرأة ذات الشعر البني، والتدين...".

"إنها المحققة الجنائية لمقاطعة تشارلستون. سيقوم أحد أطباء الأسنان بتخطيط أسنان تلك الضحية المجهولة يوم الاثنين، وستعمد إيما إلى إرسال المواصفات عبر نظام NCIC".

أصدر بويد صوتاً ينم عن الاستهجان، وطرق على ركبتي بذقنه ليعلمني أنه ما زال هنا، أو أنه ما زال ينتظر الحصول على البيض.

سألني بيبي: "كم ستطول إقامتك هنا؟"

"سأبقى طيلة الوقت الذي تتطلبه مساعدة إيما بتلك العظام. إن عالمة الأنثروبولوجيا المحلية غائبة هذه الأيام. أخبرني الآن عن قضية هيرون".

"حضر الزبون يوم الأربعاء. إنه يدعى باتريك برتولدز فلين. يطلق عليه أصدقاؤه اسم بوك".

أخني بويد تناول حصته من البيض.



"إنه تافه وتفكيره محدود. قدمت القهوة إلى فلين فأخبرني أنه لا يتناول المنبهات. تصرف وكأنني عرضت عليه أن نشترك بتناول بعض الحشيشة".
أبعد بيبي طبقه. أسرع بويد للاستدارة ثانية حول الطاولة ما إن سمع صوت الطبق أثناء تحريكه على سطح الطاولة. أطعم بيبي الكلب قطعة من الخبز المحمص.
"أعتقد أنه أقدم على استعراض يدل على الغرور. إنها مواجهة مباشرة وصریحة".

"قدمت تحليلاً مذهلاً للشخصية. هل فلين هو زبون قدم عندك؟"
هزّ بيبي رأسه: "لم يكن زبوني قبل الآن. قال لي فلين إن أمه من لاتفيا، وقال إن اسمها هو دانيا كالينين، وأضاف أنه انتقاني لأنه يعتبرني منتمياً إلى قبيلته".
"وماذا يريد؟"

"استغرق دهرأ ليبلغني ما يريده. استفاض بالحديث عن الكتاب المقدس والناس غير المحظوظين في هذه الحياة، وعن المسؤولية التي تفرضها المسيحية. بدأت في الواقع بأخذ ملاحظات سريعة على ورقتي في كل مرة سمعت فيها كلمة التزام، أو واجب. أفلعت عن أخذ الملاحظات عندما وصلت إلى الملاحظة رقم مليون".
لم أرَ نهاية قريبة لهذه القصة لذلك التزمت بالصمت. فسّر بيبي سكوتي وكأنه تأنيب له.

"ظنّ فلين أنني آخذ ملاحظات. أتريدين المزيد من القهوة؟"
أومأت، فأسرع بيبي ليملاً كوبينا. ثم جلس، واسترخى في مقعده.
"أريد إيجاز القصة لك. دأب فلين ومجموعة من زملائه الإنجلييين على تمويل هيرون وكنيسة رحمة الله. ويبدو أن المتبرعين قد خاب ظنهم في الفترة الأخيرة من جرّاء ما يروونه من انعدام التقارير المالية".

كشط بيرودي الطاولة بمخالبه، ثم تحرك بسرعة ليخرج من الغرفة. لاحظت أن نظرة بويد لم تنصرف عن طبق بيبي.

"تورطت ابنة فلين مع هيرون منذ ما يزيد عن ثلاث سنوات. تنقلت هيلين، وهذا هو اسمها، بالعمل في العديد من عيادات الفقراء التي يمولها ذلك القس. يقول فلين إنها دأبت على الاتصال به في البداية لتخيره عن العمل البائس الذي تقدمه

كنيسة رحمة الله للفقراء، وكيف أنه من المريح أن يقدم المرء مساعدته في هذه الجهود".

نفخ بيوتي على كوب قهوته، ثم ارتشف منه.

"قلت الاتصالات مع مرور الوقت. وبدأت هيلين مشوشة عندما تتصل، واشتكت من شح الأدوية في العيادة التي تعمل فيها، وأنها أصبحت في حالة مزرية، كما أن المرضى لا يدفعون ما يتوجب عليهم بالكامل. بدأت هيلين تميل إلى الظن بأن كنيسة رحمة الله تتلاعب بسجلات المحاسبة، وأن الأطباء الذين يشرفون على العيادة هم الذين يجنون كل شيء".

ارتشفنا المزيد من القهوة.

"اعترف فلين أنه لم يُظهر ما يكفي من التعاطف مع ابنته، وأضاف أنه اعتبر أن ابنته تقود حملة للدفاع عن الفقراء. ويبدو أنها تظاهرت بذلك أكثر من مرة. قال الرجل أيضاً إنه يريد أن تسلك ابنته مساراً مهنيًا تقليدياً. تغيرت العلاقة بين الرجل وهيلين نتيجة لذلك، فأصبحت باردة ومشوشة. أعتقد أن بولك ليس بذلك الرجل الدافئ أو المشوش".

"إذاً، يريد فلين وأصحابه أن يحصلوا الآن على حسابات تبين كيفية إنفاق الأموال. لماذا غيروا مواقفهم؟"

"انقطعت الاتصالات بغض النظر عن الأسباب. وتلكأت كنيسة رحمة الله في البداية عن الاستجابة لطلب فلين ربما بسبب انشغالها بكسب أتباع جدد".

"لا يتحارب فلين بلطف مع الذين يتجاهلونهم".

"صحيح، وهكذا تصبح قضية الأموال من مهماتي الأساسية، لكن برزت أمامنا قضية أخرى. اختفت هيلين عن الأنظار، ولم يكلف هيرون نفسه عناء تقديم أي تفسير إلى فلين ليشرح له سبب اختفائها. أعتقد أن اهتمام فلين بقضية هيرون نتج جزئياً عن الصلف، والكبرياء المخروحة، وجزئياً عن الشعور بالذنب".

"كم مضى على غياب هيلين؟"

"لم يسمع فلين عن ابنته شيئاً منذ ما يزيد عن ستة أشهر".

"ماذا بشأن السيدة فلين؟"

"توفيت منذ عدة سنوات، ولا وجود للأقارب".

"هل انتظر فلين إلى هذه الأيام كي يبدأ البحث عن هيلين؟"

"انتهت مكالمتهما الهاتفية الأخيرة بشجار. قالت له هيلين إنها لا تريده أن يتصل بها بعد الآن، وهكذا كفف الرجل عن محاولته إجراء الاتصالات. إن السبب الوحيد الذي حدا به لإثارة قضية هيلين في هذا الوقت يرجع إلى أنه قرر البدء بالتحقيق المالي، ولشعوره أنه يستطيع معرفة أسباب رحيل هيلين في الوقت ذاته، أو هذا على الأقل هو ما قاله لي".

قوّست حاجبي نتيجة الدهشة.

"إن فلين رجل شديد الصلابة".

"ألم يسأل هيرون عن هيلين؟"

"نعم، لقد فعل ذلك، لكن التمكن من الالتقاء بالقس يشبه محاولة شخص الالتقاء بالبابا. أبلغ رجال هيرون فلين أن هيلين قد أخبرت بعض رجال كنيسة رحمة الله قبل مغادرتها أنها تسعى للحصول على وظيفة في إحدى العيادات المجانية في لوس أنجلوس. أضافت هيلين أن العيادة هي من ضمن عملية أكبر".

"إذاً هذا هو السبب؟"

"نجح فلين في إقناع رجال الشرطة بالتحقيق مع صاحبة الشقة التي استأجرتها هيلين. قالت صاحبة الشقة إن هيلين قد أرسلت لها ظرفاً بالبريد يحتوي على رسالة ذكرت فيها أنها راحلة. احتوى الظرف أيضاً على مفتاح الشقة، بالإضافة إلى بدل الإيجار المستحق. قالت السيدة إن هيلين تركت بعض الأغراض، لكن ليس من بينها شيء قيّم. تألفت الشقة من غرفة واحدة، واشتملت على مطبخ وحمام صغيرين".

"وماذا بشأن الحسابات في المصارف؟ وماذا عن بطاقات الائتمان؟ أو تسجيلات مكالمات الهاتف الخليوي؟"

"لم تؤمن هيلين بجدوى الممتلكات الدنيوية".

"لعل هذه هي القصة بكاملها، ولعلها انتقلت للجانب الآخر من الشاطئ، وأرادت أن لا يعرف أحد أي شيء عنها".

"يُحتمل ذلك".

فكرت للحظة. لا أعتقد أن القصة صحيحة بكاملها.

"إذا افترضنا أن فلين كان من كبار المتربعين، ألا يُفترض أن يلتقيه هيرون شخصياً؟"

"أعتقد أن مليوناً ونصف من الدولارات هو مبلغ كبير بما فيه الكفاية؟ أنا أوافق معك. يُفترض أن يبذل هيرون أقصى جهوده كي يحدّد مكان وجود هيلين. يوجد أمر غريب آخر، لماذا لم يبدأ فلين جهوده هذه قبل الآن؟ إن اهتمامي يتركز الآن على الأموال".

ارتشف بيّتي آخر قطرة من كوب قهوته، ثم وضع الكوب على الطاولة.

"أو بحسب تعبير ذلك المحسن الإنساني الكبير جيرمي ماك غواير الذي قال فتش عن المال".

6

انطلق بيبي بعد انتهائنا من تناول الفطور مباشرة ليقوم بزيارته المفاجئة إلى كنيسة رحمة الله. استرخيت على الشرفة، ووضعت عشرين سجلاً أزرق اللون، لكن بويده لم يتعد عن قدمي.

وجدت صعوبة كبرى في التركيز بسبب هواء المحيط، أو ربما بسبب تلك الامتحانات التي أصححها في المنزل. لم أستطع إبعاد ذهني عن ذلك القبر في دي ويز، أو عن العظام الموضوعة فوق طاولة التشريح، أو حتى عن وجه إيما الذي يطفح بالألم. تذكرت أن إيما همّت بالكلام عندما خرجنا من المستشفى، ثم غيرت رأيها. هل كانت على وشك أن تفسّر لي ما علمته من المكالمات الهاتفية؟ تأكدت من أن المكالمات الهاتفية أزعجتها. لماذا؟

هل كانت على وشك أن تخبرني شيئاً يتعلّق بالميكال العظمي؟ أم أنها تخفي عني هذه المعلومات؟ إنه احتمال بعيد.

انشغلت بتدوين العلامات إلى أن عجزت عن التحمّل. ألقيت نظرة على جدول المد بعد الساعة الواحدة بقليل، ثم انتعلت حذائي النايك، ومشيت عدة أميال بمحاذاة الشاطئ مع بويده. لم يبدأ موسم الازدحام بعد، ولذلك لم تطبق القوانين المتعلقة بتحديد حالات السماح للكلاب التي هي من غير لجام بصرامة. ألقى الكلب بنفسه وسط الأمواج بين الحين والآخر، ومشيت فوق المنطقة التي كانت الأمواج تسحب منها. ولم تكثر طيور الطيطوى بنا.

مشيت في طريق عودتي من هذه الجولة في جادة المحيط، وتناولت صحف همار
الأحد. أسرعت بالاستحمام، ثم ألقيت مع بويده نظرة على محتويات المخزن.
وجدنا ستة أنواع من شرائح اللحم المطهوه الباردة، وأربعة أنواع من
الأجبان، ومخللات حلوة وحارة، وحنطة، وجاودار، وخبز البصل. وجدنا كذلك
سلطة الكرنب والبطاطا، والكثير جداً من رقائق البطاطا المقلية، أكثر من تلك
الموجودة في مصنع فريتو - لاي.

أعرف أن بيتي يعاني من نواقص عدة، لكن باستطاعة هذا الرجل أن يملأ مخزناً
بالمواد الغذائية. حضرت بعض البستما، وبعض الجبن السويسري وسلطة الجاودار،
ثم فتحت زجاجة كوكاكولا مخصصة للحمية، وأخرجت الصحف إلى الشرفة.
أمضيت ساعة ونصف وسط شعور من السعادة مع صحيفة نيويورك تايمز.
ولم أحتسب المدة التي أمضيتها في حل لغز الكلمات المتقاطعة. قرأت أيضاً كل
الأخبار المهمة، واستمتعت بها.

تناولت الخبز المحمص، وما تبقى من البستما التي تقاسمتها مع بويده الذي
استغرق بعدها بإغفاءة قرب قدمي.

كدت أضيّع شطيرتي بعد مرور عشر دقائق من البدء بقراءة صحيفة بوست
وكورييه. تصفحت القسم المحلي الموجود في الصفحة الخامسة. وظهر أمامي عند
منتصف الصفحة تقريباً عنوان كُتب بخط عريض ولافت.

جثة مدفونة في شاطئ منعزل

تشارلستون، أس. سي. عشر طلاب الآثار الذين كانوا يتقنون في موقع في
جزيرة دي ويز، على شيء ليس من ضمن جثث الهنود المتوفين منذ زمن طويل.
عشر الفريق، الذي تترأسه الدكتورة تمبرنس برينان، التي تعمل في جامعة
كارولينا الشمالية - شارلوت، على قبر حديث العهد تشغله جثة جديدة.

رفضت برينان التعليق على هذا الاكتشاف المريع، لكن يبدو أن هذه
الجثة كانت ملفوفة بالملابس، ومدفونة على عمق يقل عن 60 سنتيم تحت سطح
الأرض. يقدر برغيس أن القبر قد حُفر في غضون السنوات الخمس الماضية.

لم يتم استدعاء رجال الشرطة إلى المكان، لكن المحققة الجنائية لمقاطعة تشارلستون، إيما روسو، اعتبرت هذا الاكتشاف مهماً إلى درجة أنها أشرفت شخصياً على نبش القبر. يُذكر أن روسو التي انتخبت للمرة الثانية لمنصبها هذا، قد تعرضت لانتقادات في المدة الأخيرة بسبب دور مكتب المحقق الجنائي في معالجته الخاطئة لقضية وفاة حدثت السنة الماضية على متن سفينة سياحية. نقلت بقايا الشخص المجهول بعد نبشها من دي وينز إلى مشرحة مستشفى MUSC. رفض الموظفون الذين يعملون في مشرحة المستشفى التعليق على هذه القضية.

- خاص بوست وكورييه من مراسلها هومر وينبورن

أظهرت صورة (غير واضحة تماماً) بالأبيض والأسود، وجهي، وقفا إيما. أظهرتنا الصورة مستنتين على أيدينا وركبتنا في دي وينز. هرعنا إلى المنزل، وتبعني بويد. أمسكت بساعة أول هاتف رأيت، وطلبت رقماً معيناً. جاءت تصرفاتي متسارعة إلى حد أنني اضطررت لطلب الرقم نفسه مرتين.

أجابني المجيب الصوتي.

"يا للجنة!"

انتظرت الإشارة التي تسمح لي بترك رسالة، وهمت على وجهي من غرفة إلى غرفة.

بيب.

"هل تصفحت جريدة اليوم؟ هل أنت سعيدة هكذا! أصبحنا في الأخبار!" توجهت إلى الغرفة المزججة، وألقيت بنفسي على الأريكة. نهضت، فانزلت بوودي إلى الأرض، ثم اختفى عن أنظاري.

"تستطيعين نسيان أخبار مولتري. نال وينبورن قصب السبق تصفحي بوست وكورييه. إن ذلك الرجل هو في طريقه إلى القمة!" عرفت طبعاً أنني أصرخ في وجه آلة، لكنني لم أتمكن من التوقف.

"لا أعجب...".

انساب صوت إيما بتناقل، وبدا الأمر وكأنني أيقظتها من نومها: "أنا هنا".
"لا أعجب إن كان ذلك المتطفل الحقير قد سلمنا آله النيكون. احتفظ ذلك التافه بكاميرا احتياطية، وأخفاها بعناية بالغة!"
"تعب".

"هل أخفى هذا الرجل كاميرا ذات عدسة واحدة في بنطاله القصير! أم هل أخفى كاميرا ذات زاوية تصوير عريضة في قلمه! أم لعله أخفى كاميرا فيديو في مكان ما! من يعرف؟ لعلنا سنظهر في برنامج المحكمة التلفزيونية!"

سألني إيما: "هل انتهيت؟"

"هل قرأت المقالة؟"

"نعم".

فكرت بسحق سماعة الهاتف: "ما رأيك فيها؟"

"ما رأيي بماذا؟"

"ألست غاضبة؟"

"بالطبع أنا كذلك، وأستشيط غيظاً. هل انتهيت من تنفيس غضبك؟"

إذاً هذه هي حقيقة الأمر، أي أنني أنفّس عن غضبي.

بدا صوت إيما بطيئاً: "إن هدفنا هو تحديد هوية الهيكل العظمي، وقد

يساعدنا انكشاف هذا الأمر".

"كان هذا هو توجهك نهار الجمعة".

"ما زال كذلك".

"إن مقالة وينورن قد تنبه القاتل".

"إذا كان هناك من قاتل. يُحتمل أن يكون الرجل قد مات نتيجة جرعة

مفرطة. ويُحتمل أن يكون أصحابه قد خافوا وتخلصوا من جثته في مكان ظنوا

أن أحداً لن يجده فيه. أعتقد أننا لا نواجه أمراً أخطر من حرق الفصل السابع

عشر".

"سأهاجم".



"إننا أمام تخلص غير لائق من جثة. اسمعي، لعل أحد ما يفتقد هذا الشخص.
إذا كان هذا الشخص من السكان المحليين، فلعله سيقراً المقالة ويتصل بنا هاتفياً.
يتعين عليك أن تعترفي بذلك، وسبق لك أن اعترفت أن وينبورن قد فاقنا ذكاءً".
رفعت يديّ في الهواء في حركة تدلّ على عدم التصديق.
اعتاد بويده أن يحرك شعرات حاجبيه عندما يرتبك، وهذا ما فعله الآن من
مكانه الآمن قرب الباب.

قالت إيما: "أراك غداً صباحاً".

صعدت الدرج، وتوجّهت إلى الحمام، ثم أسندت جبهيّ على المرآة. شعرت
ببرودة المرآة تضغط على جلدي المتورد.

يا للصحفيين الفضوليين، والمتدخلين! اللعنة على وينبورن!

أخذت نفساً عميقاً، وأخرجته ببطء شديد.

إنني مزاجية. أعترف بذلك. أفقد أعصابي بين حين وآخر، وأبالغ برد فعلي.
أعترف بهذا أيضاً. أكره هذه النوبات، وأمتعض من الذين يقدرّون على الضغط
على ذلك الزر في رأسي.

أعتقد أن إيما محقة عندما اعتبرت أنه لا ضرر من تلك المقالة. نفذ وينبورن
مهمته، ونجح في التغلب علينا بمناوراته.

أخذت نفساً عميقاً آخر.

لم أشعر بالغضب تجاه وينبورن. غضبت من نفسي لأنني سمحت للرجل الذي
يملك دماغ العوالق بالتغلب عليّ.

انتصبت واقفةً، وحدّقت بنفسي في المرآة، وبدأت بالتقييم.

رأيت عينين مشرقتين بلون البندق يعتبرهما بعض الناس عميقتين. ظهرت
بعض التجاعيد على زواياهما، لكنهما تظلان أفضل مميراتي.

رأيت العظام العالية لخدّي، والأنف الذي يميل إلى الصغر، والفك الثابت.
ولاحظت القليل من شعرات الشيب في رأسي، لكن الشعر البنيّ - العسلي ما زال
هو السائد.

تراجعت قليلاً لأحصل على نظرة تشمل كامل جسمي.

يبلغ طولي 157 سنتم، أما وزني فيبلغ 60 كلغ.
أعتقد أن هذه هي نتيجة لا بأس بها عموماً لمن مشى مسافة أربعين ميلاً.
توقفت عند نظرة العينين البندقيتين في المرآة. تردّد صوت مألوف في دماغي.
قومي بوظيفتك يا برينان. تجاهلي الشرود وركّزي. أنهي مهمتك. هذا هو
واجبك، انتهي من المهمة.

مشى بوييد ولمس ركبتي. فوجّهت إليه تعليقي التالي.
تحركت شعرات حاجبيه بطريقة هستيرية: "اللجنة على وينورن، وعلى
العنوان الذي تمسك به".
رفع بوييد أنفه إلى الأعلى في حركة تدلّ على موافقته التامة. فربتُ على
رأسه.

رششتُ الماء على وجهي، ووضعت بعض مساحيق التجميل، وجدلت
شعري ولففته في أعلى رأسي، ثمّ أسرعت إلى الطابق السفلي. انشغلت بتعبئة
أطباق الحيوانات، وفجأة سمعت صوت إغلاق الباب بعنف.
"لقد عدتُ يا عزيزتي!"

ظهر بيبي حاملاً المزيد من أكياس البقالة.
"هل تحطّط للاجتماع مع رفاقك من رجال البحرية؟"
أدى بيبي تحية عسكرية، وأجابني بشعار رجال البحرية: "سيمير فاي".
تناولت مرطباناً من سمك الرنكة المخلّل من الكيس الذي حمله بيبي، ووضعتّه
في التلاجة.

استدار بيبي من حولي، وتناول زجاجة من سام آدامز، ثمّ فتحها مستخدماً
مقبض أحد الأدراج.

منعتُ نفسي عن تأنيبه. لم تعد عادات بيبي السيئة من اختصاصي أنا.
قال بيبي: "أمضيت وقتي في محاولة استمالة بعض الأشخاص للتجاوب مع
أسئلتني".

قلت في محاولة مني لتفسير كلامه: "ألم تستطع الاقتراب من هيرون؟"
"لا".



"إذا ماذا فعلت؟"

"شاهدت الكثير من الصلوات، ومن الأصوات المفرحة التي تسبّح الله. عممت صورة هيلين على بعض المؤمنين بعد انتهاء الاحتفال."

"وبعد ذلك؟"

"لاحظت أن معظمهم يتميّز ببطء في الفهم بشكل لافت."

"ألم يتذكرها أحد؟"

تناول بيتي صورة من جيبه، ووضعها على الطاولة. اقتربت من الطاولة كي أتفحصها.

لاحظت أن الصورة ضبابية بعض الشيء، وأنها صورة مكيرة عن صورة مأخوذة من رخصة القيادة، أو عن صورة جواز السفر. حدّقت الشابة في هذه الصورة بالكاميرا من دون أن تبتسم.

افتقدت هيلين للجمال، مع أن ملامحها كانت متناسقة بطريقة لطيفة. فرقت شعرها في منتصف رأسها، ولفتته حول مؤخرة رقبتها.

أعترف أن هيلين فلين تمتلك القليل الذي يميزها عن آلاف النساء الأخريات المساويات لها في السن.

قال بيتي: "انشغلت بعد ذلك بالتحدث مع صاحبة الشقة التي استأجرتها هيلين. لم أحصل على الكثير من المعلومات. قالت تلك السيدة إن هيلين كانت مهندبة، واعتادت على دفع الإيجار في الوقت المحدد، ولم تكن تستقبل زواراً. اعترفت لي أن الفتاة بدت قلقة بعض الشيء في المدة الأخيرة، وأن رحيل هيلين كان مفاجأة لها. لم تمتلك السيدة أية فكرة عن نية هيلين بالرحيل إلى أن وصل الظرف الذي احتوى على الدفعة الأخيرة من الإيجار المستحق."

نظرت مجدداً على الوجه الذي يظهر في الصورة. بدا أنه من السهل نسيانه، ولهذا أدلى من شاهدها بأوصاف غير مفيدة عنها. قالوا إنها متوسطة الطول، ومتوسطة الوزن، لكنّ أحداً لا يتذكر وجهها.

سألته: "ألا تمتلك فلين صوراً أخرى لابنته؟"

"ما من صور تعود إلى ما بعد دراستها الثانوية."

"غريب".

"إن فلين رجل غريب حقاً".

"ذكرت لي أنه استخدم محققاً خاصاً".

أوما بيتي: "استخدم رجل شرطة سابق يدعى نوبل كروكشنيك، كان يعمل سابقاً في شرطة شارلوت - ماكلينبيرغ".

"وهل اختفى كروكشنيك هكذا ببساطة؟"

"توقف الرجل عن إرسال التقارير والرد على المكالمات الهاتفية. قمتُ ببعض الأبحاث بنفسي، ووجدت أنه لم يكن الرجل المفضل في دائرة شرطة شارلوت - ماكلينبيرغ. طلب منه تقديم استقالته من تلك القوة في عام أربعة وتسعين، بسبب تعاطيه المخدرات".

"هل تمتع الرجل بخيارات عديدة؟"

"لم يتمتع الرجل بذكاء خارق، ولم يصبح كروكشنيك مرشحاً ليكون رجل التحري الخاص المفضل لهذا العام. ويبدو أنه استخدم حيلة اختفائه مع زبائن آخرين. اعتاد الرجل على التعهد بالقيام بمهمات، وبعد أن يقبض أتعابه مقدماً، ينغمس باحتساء الكحول".

"ألا يخسر التحري الخاص رخصته بسبب ذلك؟"

"يبدو أن كروكشنيك لا يؤمن بشيء اسمه مستندات، كما أنه يعاني من مشكلة مع شرطة شارلوت - ماكلينبيرغ".

"ألم يعرف فلين أن كروكشنيك كان يحتسي الخمر، ولا يحمل رخصة للعمل؟"

"لقد استخدم فلين بواسطة شبكة الإنترنت".

"إن خيارات الشبكة مخوفة بالمخاطر على الدوام".

"ادعى كروكشنيك في إعلانه أنه متخصص بالأشخاص المفقودين، وهو الاختصاص الذي احتاج فلين إليه. أعجب الرجل أيضاً بفكرة أن كروكشنيك عمل في شرطة شارلوت وتشارلستون".

"متى استأجره فلين؟"



"فعل ذلك في شهر كانون الثاني (يناير) الماضي، أي بعد مضي عدة أشهر على اختفاء هيلين. يعتقد فلين أن مكالمتهما الهاتفية الأخيرة قد جرت في أواخر شهر آذار (مارس). أبلغه كروكشك أن عملية البحث تحقق تقدماً، لكنه لم يعطه أية تفاصيل إضافية. ولم يسمع منه أي شيء بعد ذلك".

"ما هي الأماكن التي قصدتها كروكشك ليحتسي الكحول فيها؟"

"ذهب ذات مرة إلى أتلانتك سيتي، ومرة أخرى إلى فيغاس. لا يعني ذلك أن كل زبائن كروكشك كانوا ساخطين منه، لأن معظم الذين قابلتهم يعتقدون أنهم حصلوا على نتائج معقولة مقابل المال الذي دفعوه".

"وكيف حصلت على أسمائهم؟"

"سَلَّم كروكشك فلين قائمة بزبائنه. بدأت بمؤلاء، ثم انتقلت أسماء جديدة في مرحلة لاحقة".

"ما الذي تعرفه عن نشاطات كروكشك الأخيرة؟"

"لم يقبض كروكشك آخر شيك أرسله إليه فلين، وكان دفعة مستحقة عن شهر شباط (فبراير). ولم يحرّك الرجل بطاقة الائتمانه، ولا حسابه المصرفي، منذ شهر آذار (مارس). بقي عليه مبلغ يزيد عن ألفين وأربعمئة دولار من حساب بطاقة الائتمان، ويقسي له مبلغ أربعمئة واثنين وخمسين دولاراً في الحساب المصرفي. ودفع الرجل آخر فاتورة هاتفية مستحقة عليه في شهر شباط (فبراير). وأقل الحساب منذ ذلك الحين".

"لا بد أنه كان يمتلك سيارة".

"لا نعرف شيئاً عنها".

"وماذا بشأن هاتفه الخليوي؟"

"توقّف اشتراكه في أوائل شهر كانون الأول (ديسمبر) بسبب عدم الدفع، ولم تكن المرة الأولى التي يتوقّف فيها اشتراكه".

"وأَيّ حجرٍ خاص يعمل من دون هاتف خلوي هذه الأيام؟"

"هزّ بيقي كفيه: "لعل الرجل يحب أن يعمل بمفرده، ويُجري كل مكالماته الهاتفية من منزله".

"ماذا بشأن عائلته؟"

"إنه مطلق، ومن دون أولاد. لم يكن الانفصال ودياً. تزوجت الزوجة ثانية ولم تسمع أي شيء عنه منذ سنوات عديدة".

"وماذا عن أشقائه وشقيقاته؟"

هزّ بيتي رأسه: "كان كروكشك وحيد والديه اللذين توفيا منذ مدة. تحوّل الرجل نحو التوحد والانعزال عند تعرضه لأزمته مع شرطة شارلوت، ولم يُعرف أنه كان قريباً من أحد".

عدت لموضوع كنيسة رحمة الله.

"ما هي خطواتك التالية بعدما فشلت بالوصول إلى هيرون؟"

أشار بيّتي بإصبعه إلى السماء: "لا تخافي أيتها السيدة الجميلة، فذلك العارف الآتي من لاتفيا قد بدأ السباق لتوه".

عندما تعرفت على بيّتي كان طالب حقوق، وكان قد اتخذ له هذا اللقب منذ بداية دراسته. لم أعرف أبداً من أطلقه عليه، ولطالما شككت أنه بيّتي نفسه. أغمضت عيني قليلاً، ثم ركّزت انتباهي مجدداً نحو البقالة. تناولت جبن الفيتا، ووضعت العلبة في الثلاجة.

أرجع بيّتي كرسيه إلى الوراء قليلاً، وأسند قدميه على حافة الطاولة. بدأت بمحاولة الاعتراض، لكنني تذكّرت أن هذه ليست مشكلتي. أليست هذه مشكلة آن وحدها؟

"وكيف كان يومك يا حلوتي؟"

تناولت صحيفة بوست وكوررييه، ووضعتها على الطاولة، وأشرت نحوها. قرأ بيّتي مقالة وينورن.

"هاي، ألاحظ هنا استخداماً رائعاً لقوافي كلمات العنوان".

"إنه شعر خالص".

"أفهم من هذا أنك لست راضية عن نشر هذا القبيّ للخير في الصحف".

"لست راضية عن أية كلمة وردت في مقالته".

لم يسبق لي أن فكّرت بتوفر بالذات. متى استطاع وينورن إجباره على الكلام؟ وكيف أقتع توفر بالإدلاء بتصريحه هذا؟



"ليست الصورة بهذا السوء".

رميت بيبي بنظرة مني.

"ما هي قصة تلك السفينة السياحية التي تورطت صديقتك فيها؟"

"لا أعرف".

"هل تعترمين أن تسألينها؟"

"بالتأكيد لا".

وضعت الفلفل المشوي، وشرائح سمك السلمون، وشراب بين وجيري في
الثلاجة. وأودعت رقائق الشوكولاته والفستق في الخزانة. ثم التفت ثانية نحو بيبي.

"هناك رجل توفي، ولا تعرف عائلته بأمره بعد. أعتبر أن رواية وينورن تعتبر
تعدياً على خصوصية الأسرة. هل أنا مخطئة في هذا؟"

هزّ بيبي كتفيه، ثم شرب شراب الشعير.

"الأخبار هي الأخبار يا عزيزتي. أتعرفين إلى ماذا تحتاجين؟"

قلت بحذر: "إلى ماذا؟"

"تحتاجين إلى القيام بنزهة".

"تناولت شطيرة عند الساعة الثالثة".

لخص بيبي موقفاً كرسيه على الأرض، ثم أمسكتني من كتفي، وجعلني أستدير،
ثم دفعني بلطف خارج المطبخ.

"اذهبي وأحضري صحيفة، أو أي شيء مماثل، وانضمي إليّ عند الثامنة في
العزبة".

"لست متأكدة من ذلك يا بيبي".

لم أكن متأكدة بالفعل، لأن كل خلية من خلايا دماغي كانت ترفع علماً
لتحذيري.

مضى على زواجي من بيبي قرابة عشرين سنة لم تنفصل فيها إلا لمدة قصيرة
جداً. أعرف أن زواجي قد فرض عدة تحديات عليّ، إلا أن التجاذب الجنسي بيننا
لم يكن من بينها أبداً. استمتعنا كثيراً في بداية عهدنا بالزواج، وما زلنا قادرين على
ذلك الآن.

لولا أن بيتي قد كسر كل العهود.
أفلقني هذا الانجذاب نحو بيتي. أعرف أن أموري تسير بشكل مرضٍ مع
رايان، لذلك فأنا لا أريد أن أفعل أي شيء يهدد علاقتي به. أتذكر أيضاً أننا
أصبحنا في آخر ليلة قضيناها معاً، مثل ولدين في صندوق شاحنة شيفي.
قال بيتي: "لا أعرف! انطلقني".
"بيتي...".

"يتوجب عليك أن تأكلي، وأنا أيضاً. سنقوم بذلك معاً، لكن على القليل من
الرمال".

أعرف أن هناك شيئاً ما في أعماقي يربط ما بين الطعام والتفاعل الإنساني.
اعتدت عندما أكون وحدي في المنزل أن أعيش على الشطائر، أو الأغذية
المثلجة. واعتدت عندما أسافر وحيدة أن أطلب إحضار الغداء إلى غرفتي، وأتناوله
برفقة ليرمان، أو رايغوند، أو أوبراه.
بدت لي الرفقة أمراً حسناً، بالإضافة إلى أنني أعتبر بيتي من الطهارة الماهرين.
"لا تعيره موعداً غرامياً يا بيتي".
"بالطبع لا".



7

صحّحت أوراق ثلاثة اختبارات إضافية قبل أن أضجر من التصحيح. تقلّبت على جانبيّ فوق وسائدي، وتنقلت في عالم ما بين اليقظة والنوم، وحلمت بأشياء لا معني لها. شاهدت نفسي وأنا أركض على الشاطئ، وفي مرة أخرى شاهدت نفسي وأنا أرتّب العظام مع إيما.

رأيت نفسي في موضعٍ آخر وأنا أجلس في حلقة من حلقات جمعية صدمني شرب الخمر المجهولين. رأيت رايان معنا، وبيتي، وذلك الشخص الطويل الأشقر الشعر. انشغل الثلاثة بتبادل الأحاديث، لكن وجوههم كانت في الظلمة، لذلك لم أتمكن من مشاهدة تعابيرها.

استيقظت لأجد نفسي في غرفة يغمرها ضوء الشمس البرتقالي، ووجدت النسائم تتلاعب بأوراق أشجار النخيل الصغيرة المزروعة أمام الشرفة الخارجية. أشارت عقارب الساعة إلى الثامنة وعشر دقائق.

مشيت إلى الحمام، وفككت شعري المرفوع إلى الأعلى، لأن خصلات شعري اختارت أن تذهب كل واحدة في اتجاهها الخاص. بلّلت هذه الخصلات، وتناولت فرشاة شعري، ثم بدأت بالتجفيف بواسطة جهاز الهواء الحار. توقفت قبل أن أنتهي من التجفيف. لماذا أفعل هذا؟ ولماذا شغلت نفسي بوضع بعض مساحيق التجميل على وجهي؟ رميت بالفرشاة جانباً، وهرعت إلى الطابق السفلي.

يرتبط منزل آن بالشاطئ بطريق خشبي عريض. وتحتل العزبة (غرفة صغيرة للاستراحة) موقعاً في أعلى نقطة في هذا الطريق. وتشرف العزبة على الكنبان الرملية. شاهدت بيتي هناك يحتسي الشراب، بينما كان آخر وهج صادر عن الشمس الغاربة يبعث الدفء في شعره.

إنه نفس شعر كاتي. ويبدو أن البصمة الجينية المشتركة كانت قوية جداً بينهما، بحيث إنني أعجز عن النظر إلى شعر أحدهما من دون رؤيتي للآخر. سرت حافية القدمين، ولذلك لم يلاحظ بيتي تقدمي باتجاهه. تمكن الرجل من إيجاد غطاء طاولة، وحمالة شموع فضية، وإناء للزينة، ووعاء لحفظ مكعبات الثلج. أعد بيتي المكان لشخصين، كما لاحظت وجود براد صغير على أرضية العزبة.

حافظت على جدّيتي، وسيطر عليّ إحساس بالخسارة. لا أؤمن عادةً بفلسفة وجود رفيق واحد للروح، لكنني عندما التقيت بيتي تحول الانجذاب نحوه إلى اندماج نووي، أما عندما تلامست أذرعنا، فأحسست بالنار تسري في أعماقي. وأسرع قلبي بدقاته عندما كنت أراه وسط حشد من الناس. علمت منذ البداية أن بيتي هو الرجل الذي سأتزوجه.

نظرت إلى وجه بيتي الآن. ورأيت بعض الخطوط والسمره فيه، ولاحظت أن جبهته زحفت قليلاً إلى الشمال. اعتدت أن أرى ذلك الوجه عند استيقاظي كل صباح لفترة تزيد عن عقدين من الزمان. امتلأت تلك العينان بالجزع عند ولادة ابنتنا. أعرف أن يديّ قد لامستا تلك البشرة آلاف المرات. أعرف كل منحنيات جسده، وكل عضلة فيه، وكل عظمة من عظامه.

أتذكر كل عذر اختلقته شفتاه.

وأتذكر كل مرة مرّقت الحقيقة فيها قلبي.

انتهى الأمر، لا فائدة.

"مرحباً أيها المتألق".

نفض بيتي، والتفت ناحية مصدر صوتي: "ظننت أنك أخلفت الموعد".

"آسفة، لقد استغرقت في النوم".

"أتريدين طاولة قرب النافذة سيدتي؟"

جلست على كرسي. ثني يتي ذراعه وتناول زجاجة كوكاكولا للحمية من وعاء مكعبات الثلج، ثم وضعها على معصمه كي أدقق فيها. قلت: "إنها سنة ممتازة".

سكب بيبي الشراب في كوبي، ثم بدأ بنشر الطعام. وضع أولاً القريدس البارد، ثم سمك السلمون المرقط المدخن، وسلطة الكركند، والجبن الأبيض الطري المملح، وقطع من خبز الأرز، والتاينايد. أشك بقدره زوجي الغريب الأطوار على البقاء في عالم يفتقد للمخازن التي تباع المواد الغذائية.

تناولنا الطعام، وراقبنا أشعة الشمس المتسللة وهي تتغير من اللون الأصفر إلى اللون الرمادي. بدا المحيط هادئاً، وتناهت إلى أسماعنا سيمفونية الأمواج في عزفها أثناء تمددها بلطف على الشاطئ. سمعنا بين الحين والآخر صوت طائر البحر وأجابه بعد حين طائر آخر.

انتهينا من تناول الفطائر بينما بدأ اللون الرمادي بالتحول إلى الأسود.

نظف بيبي الطاولة، ثم وضعنا أقدامنا على الدرايزون.

"يناسبك الشاطئ يا قيب. تبدين رائعة".

بدا بيبي رائعاً هو الآخر، وخصوصاً بشعره الأشعث على طريقة بيبي بيترسونز.

كررت تحذيري السابق له: "لا تعتبر هذا بمثابة موعد غرامي يا بيبي".

أجاب ببراءة: "ألا أستطيع التحدث عن واقع كونك رائعة؟"

ظهرت الأنوار الصفراء الخافتة في المنازل المخاذية للشاطئ. إنه يوم آخر يوشك على الانتهاء. استغرقت مع بيبي بمشاهدة هذا المنظر، بينما كان النسيم المنقل بالملوحة يتلاعب بشعرنا.

لاحظت أن نبرة صوته أصبحت أكثر عمقاً عندما تكلم ثانية.

"إن ما يصعب عليّ تذكره هو سبب افتراقنا".

"افترقنا لأنك مزعجٌ كثيراً، ولأنك خائن مدهش".

"الناس يتغيرون يا قلمب".

بدت كل التعليقات على كلامه هذا باهتة، لذلك لم أعلق بشيء.
"أعتقدين...".

رنّ هاتفى الحلوي في تلك اللحظة. تناولته من جيبي، وضغطت على الزر
لأجيب.

انساب صوت رايان: "كيف حال أجمل امرأة في هذا الكوكب؟"
أنزلت قدمي، واستدرت بمقعدي نصف استدارة.

"هل انشغلت كثيراً هذا اليوم؟"

"لم يكن بذلك السوء".

"هل من شيء جديد عن هيكلك العظمي؟"
"لا".

ملاً بيتي كوبه بمزيد من الشاردوناي، ثم دفع بزجاجة كوكاكولا باتجاهي.
هزرت رأسي إشارة لعدم رغبتى بالكوكاكولا.

انسابت أصوات عبر الهاتف، أو أن رايان قد لاحظ تحفظي: "هل جاء اتصالي
في وقت غير مناسب؟"

صرخ نورس في الأعلى:

"أنا على وشك إنهاء غدائي".

"هل أنت على الشاطئ؟"

أردت أن أقول له "إنها ليلة جميلة"، لكنني اعتبرتها عبارة باهتة، فاستبدلتها
بقولي: "أراد بيتي أن تقوم بنزهة".

بقي رايان صامتاً لبرهة كاملة، ثم أجاب: "حسناً".

"كيف حال ليلي؟"

"إنها بخير... سأحدث معك في وقت لاحق يا قلمب".

أقفل الخط فيما أبقيت السماعة في يدي.

سأل بيتي: "هل من مشكلة؟"



هززت رأسي بالنفي، ثم نهضت: "سأدخل إلى المنزل. شكراً على الغداء، كان رائعاً بالفعل".

"على الرحب والسعة".

شرعت بالسير على الطريق الخشبية.

"تعب".

استدرت.

"أحب أن أتحدث إليك عندما تصبحين مستعدة للإصغاء".

مشيت باتجاه المنزل، وشعرت بنظرات يبقي تلاحق ظهري.

استغرقت في إغفائي طيلة فترة ما بعد الظهر، أي إلى ما بعد الساعة الثالثة بكثيراً.

هل قلقي بشأن انزعاج رايان هو سبب اضطرابي؟ لم يردّ رايان على مكالماتي المتعددة.

هل انزعج رايان فعلاً؟ أم أنني أصبحت شديدة الارتياب؟ ألم يكن هو الذي قصد نوما سكوتيا لزيارة ليلي. أليست والدّة ليلي في نوما سكوتيا أيضاً؟ مهما يكن الأمر.

تساءلت عن السبب الذي يزعج إيما؟ لا بد أن الشخص الذي اتصل بها يوم السبت لم يحمل إليها أخباراً مفرحة. هل تواجه متاعب جديدة في قضية السفينة السياحية؟

تساءلت عن الشخص الذي ركن سيارته خارج منزل آن في صبيحة هذا اليوم؟ أيمكن أن يكون ديكي دوبري؟ هدّدي ذلك الرجل، لكنني لم أحمل تهديده على محمل الجد. هل سينتقل دوبري إلى التهديد الجسدي؟ لا أعتقد أنه سيفعل ذلك شخصياً، لكنه قد يرسل شخصاً آخر يكلفه بتنفيذ تهديداته.

هل لدوبري علاقة ما بالهيكل العظمي المدفون في دي ويز؟ بدا ذلك افتراضاً ذهب بعيداً.

هل تسببت البكتيريا بتلويث عظام رجل الجليد فعلاً؟ وهل أمضى ذلك الرجل خمسة آلاف سنة في جبال الألب ليقع الآن فريسة للميكروبات؟ لماذا توجد طريقتان لكتابة معجون الطماطم في الإنكليزية Ketchup و Catsup؟ ومن أين أتى الاسم على أي حال؟

تقلبت فوق السرير لساعات طويلة، ثم استغرقت بنومي يوم الاثنين إلى وقت تعدي ما خططت له.

وصلت إلى المستشفى بعد الساعة العاشرة. ووجدت أن إيما قد سبقتني إلى هناك. سبقني أيضاً طبيب الأسنان الشرعي، بجسده البدين وبذلته الرياضية التي لا بد أنه اشتراها في وقت إقفال متجر كاي مارت. قدمته إيما لي على أنه بيرني غرايمز.

اكتشفت أن مصافحة غرايمز هي من النوع الذي يحار المرء بكيفية التعاطي معها. إنها أضعف من تدوم، وأقوى من قدرة المرء على التخلص منها. حررت يدي أخيراً بعد أن وجهت ابتسامة نحو غرايمز. بادلني الابتسامة، وبدأ لي أنه أشبه بيرميل ملفوف بالمخمل الأزرق.

اكتشفت أن إيما قد انتهت من نقل الهيكل العظمي من البراد. استلقى هذا الهيكل على نفس العربة المدولة التي شغلها يوم السبت، ولاحظت أن ظرفاً نبياً كبيراً يغطي أضلاعه. وانتشرت صور الأشعة السينية لأسنانه فوق علبة الضوء.

تبرّع غرايمز بتقدم شرح لوضعية الهيكل التركيبية نقطة فنقطة، وشرح لنا الحالة الصحية للفم، والسجل الطبي لأسنان الهيكل الذي يحمل رقم CCC-2006020277. بدا أن صاحبه كان يُهمل تنظيف أسنانه بالفرشاة، أو يخطط الحزير. شرح لنا وجود حشوات الأضراس، وكل الفجوات التي لم تُعالج، وتراكم القلاح (الصفرة التي تعلق الأسنان)، وأضاف أن الرجل لم يقصد طبيب أسنان قبل سنوات عديدة من موته. لم أستطع التركيز على ما قاله، لأنني كنت على عجلة للانتقال إلى العظام.

أخيراً، انتهى غرايمز من محاضرتي، وأسرع بمغادرة الغرفة بصحبة إيما من أجل تعبئة نموذج قضية للمركز الوطني لمعطيات الجرائم. تفحصت الصور التي التقطت



للجسم واحدة فواحدة. بدأت بالجمجمة، وبالأطراف العليا، ثم الأطراف السفلى،
والحوض.

لم أدهش للنتيجة، فأنا لم ألاحظ شيئاً واضحاً عندما اهتممت بالعظام.
انتقلت إلى منطقة الجذع.

عمد تقني المختبر إلى بسط الأضلاع، وقام بتصويرها من الأعلى لأنها لم تحتوي
على آثار اللحم. لم ألاحظ أي شيء يثير الشبهة في الجانب الأيمن. أوشكت على
الانتهاء من تفحص الجانب الأيسر عندما لاحظت علامة داكنة، بشكل هلال،
قرب الطرف الذي يلامس العمود الفقري للضلع الثاني عشر.

تقدّمت نحو العربة المدولبة، واخترت ضلعاً، ثم أخذته لأتفحصه تحت المجهر.
بدا التشوه تحت التكبير بشكل كسر صغير محاط بكتلة عظمية صغيرة عند طرف
العظمة السفلى. بدا التشوه حقيقياً بالرغم من صغره.

هل نتج الكسر عن نصل سكين؟ وهل تعرض رجلنا المجهول إلى الطعن؟ أم
هل نتج هذا الكسر عن عمل حدث بعد الوفاة؟ أم نتج عن ضربة مالج؟ أم هل أنه
نتج عن حلزون، أو إحدى القشريات؟ لم أصل إلى إجابة مقنعة رغم أنني قلبت
الضلع على أكثر من زاوية، وبالرغم من زيادتي لقوة التكبير، وبالرغم من تعديل
وضعية المجهر الذي يعمل بالألياف البصرية.

عدت إلى صور الأشعة السينية، وتفحصت عظام الصدر والترقوة، وعظام
الكتف، ثم انتقلت إلى بقية الأضلاع. بدا كل شيء في مكانه الطبيعي.

انتقلت بعد ذلك إلى العمود الفقري. لاحظت أنه تم تصوير الفقرات بعد
فصلها ووضعها بشكل منبسط، أي مثلما كانت حال الأضلاع، وجمعت
الفقرات وصورّت ثانية من الجانبين.

يُصاب عادة القوس الخلفي، أو المنطقة الخلفية من الفقرات، وتكون هي
المنطقة التي تتلقى الضربة، عندما تتم عملية الطعن. شاهدت صور الفقرات واحدة
تلو الأخرى. لم تعطيني أي واحدة منها منظراً واضحاً لهذه المسطحات.

عدت إلى الهيكل العظمي مجدداً، وبدأت الفحص عظمةً فعظمة. قمت
بتقليب وتفحص كل عظمة تحت العدسة المكبرة المخاطة بمصباح فلوري.

لم أجد شيئاً إلى أن حلّقت جيداً بالعمود الفقري.

تختصّ كل عظمة بشيء معيّن، حتّى الفقرات. إن الفقرات العنقية السبع تدعم الرأس وتسمح بحرية حركة الرقبة. أما أضلاع الصدر الاثني عشر فهي التي تدعم القفص الصدري. أما الفقرات الخمس الموجودة في الظهر فتوسط قوس الظهر. وتشكل عظام أسفل الظهر الخمس جهة الذيل من الحزام الحوضي. إنّها وظائف مختلفة، وأشكال مختلفة.

شدّت انتباهي فقرة العنق السادسة.

إنني أقوم هنا بتبسيط شديد. تمتلك فقرات العنق وظائف أخرى إلى جانب دعم الرأس، وإحدى هذه الوظائف هي توفير مرور آمن للشرايين المتوجهة إلى مؤخرة الدماغ. يشتمل ممر العبور هذا على فجوة صغيرة - أو ثقب - تتواجد في العظمة المستعرضة، ومنصة عظمية صغيرة تتواجد ما بين كتلة الفقرة وقوسها. يحمل الهيكل العظمي، الذي يحمل الرقم 2006020277-CCC كسراً مفصلياً عمودياً، يمتدّ من العظمة المستعرضة اليسرى عبر الفجوة.

قرّبت العظمة من العدسة. فوجدت كسراً دقيقاً جداً في جانب القوس من الفجوة.

لم أجد أثراً يدلّ على عملية التئام مفصلي، فتأكدت من أن الكسرين نتجا عن صدمة تعرضت لها عظام حية. يبدو أن الإصابة تتزامن مع وقت حصول الوفاة.

استرخيت في مقعدي لأفكر بالاحتمالات.

ماذا تعني إصابة الفقرتين C-6، وأسفل الرقبة؟

هل نتجتا عن سقطة؟ تتسبب السقطات بانضغاط شديد على نحو مفاجئ. يؤدي هذا الانضغاط في العادة إلى كسر في الفقرات، لكن الكسور الناتجة عن السقطات تبدو ضاغطة بطبيعتها، وعادة ما تؤثر على كامل الفقرات. لاحظت أنني أمام كسر مفصلي للعظمة المستعرضة.

هل نتج الكسر عن عملية خنق؟ يؤثّر الخنق عادة على العظمة اللامية، وهي عظمة صغيرة تتواجد في مقدمة الخنجر.

هل نتج عن مقبض سوط؟ إن هذا أمر مستبعد.
هل نتج عن ضربة على الذقن؟ أم على الرأس؟
لم أستطع التفكير. بمشهد يتناسب مع النمط الذي أشاهده أمامي.
تابعت البحث وسط خيبة أمل شديدة من جانبي.
وجدت أشياء أكثر.

تميّزت فقرة الصدر الثانية عشرة بشقين شبيهين بذلك الذي لاحظته في الضلع الثاني عشر. لاحظت أن الفقرتين الأولى والثالثة من فقرات أسفل الظهر حملتا شقاً واحداً في كلٍ منهما. بدت أنماط هذه الشقوق محيرة، مثلما هو الكسر الذي لاحظته في الرقبة.

هل ما أشاهده هو مجرد آثار سكين؟ أعرف أنه لكي يتمكن المرء من اختراق فقرات أسفل الظهر، يتوجب عليه أن يطعن بشدة كي يخترق كامل البطن. ويتعين أن تكون الطعنة قوية جداً.

فكرت في هذه الشقوق الصغيرة جداً والتي نتجت عن آلة حادة.
ماذا جرى بحق الجحيم؟

عادت إليما فيما أنا مستغرقة بالتفكير بالاحتمالات.

سألته: "هل ذهب غرايمز؟"

أومأت إليما. لاحظت اختفاء الألوان التي ظهرت سابقاً على وجهها، وهو الأمر الذي كثّف الدوائر السوداء الموجودة تحت عينيها: "انتهينا من النموذج، والأمر يعود الآن إلى الشريف".

يستمرّ النظام الوطني لمعطيات الجرائم بالعمل في كل الأوقات، ومن دون توقف. ولا يُسمح بالوصول إليه إلا للأفراد الاتحاديين المولجين بفرض النظام، ورجال أمن الولايات، ورجال الأمن المحليين.

"هل سيعمل غوليت على إرسال النموذج على الفور؟"

رفعت إليما يديها راسمة إشارة من يدري، وتناولت كرسيّاً من جانب الجدار.
ثمّالكت على الكرسي وأسندت مرفقيها على فخذيها.

سألته: "ما الأمر؟"

هزّت إيما كتفيها: "يبدو الأمر محبطاً في بعض الأحيان".

انتظرتهما كي تكمل.

"لن يضع غوليت عبارة أولوية على هذه القضية. وما هي احتمالات إيجادنا لنتيجة عندما تُدخل مواصفات هذا الرجل في النظام؟ تفرض القوانين الجديدة أن يكون الشخص معاقاً، أو ضحية كارثة طبيعية، أو أن يكون محتجزاً، أو محتطفاً، أو معرضاً للخطر، قبل إدخال معطياته إلى النظام".

"ماذا يعني هذا الكلام؟"

"يعني أن يكون الشخص مفقوداً برفقة شخص آخر، وتحت ظروف توحى أن سلامته (أو سلامتها) الجسدية في خطر شديد".

"هل يعني هذا أن الكثير من الأشخاص المفقودين لا تدخل أسماؤهم في النظام إطلاقاً؟ وأنه يُحتمل أن لا تكون معطيات الرجل قد أُدخلت عند اختفائه؟"

"يسود الاعتقاد أن معظم الأفراد البالغين المفقودين قد اختفوا بإرادتهم. ويشمل ذلك الأزواج الذين غادروا المدينة مع عشيقاتهم، والزوجات المتعطشات اللواتي يتطلعن إلى أشياء أكثر، وكذلك الأشخاص المدنيين المتهربين من دفع ديونهم".

تذكرت قضية شغلت وسائل الإعلام منذ عهد قريب: "أو مثل العروس الهاربة".

استرخت إيما في جلستها، ومدّت قدميها: "إن مثل هذه القضايا الرئيسية هي التي تغدّي عقلية المرء. إنك محقة، لأن الغالبية العظمى من الأشخاص البالغين المفقودين هم من الأشخاص الذين يحاولون الهرب من واقع حياتهم فحسب. أعلم أنه لا وجود لقوانين تمنع هذا النوع من الأشخاص من الاختفاء، كما أن إدخال معطيات هؤلاء من شأنه إرباك قاعدة المعلومات هذه".

أغمضت إيما عينيها، وأرجعت رأسها إلى الخلف مستندة على الحائط.

الفتفت نحو العربة المدولة وقلت: "أشك أن هذا الرجل قد اختفى هكذا،

وبكل بساطة. انظري إلى هذا".



سمعت حركة، ثم تبعتها صوت حاد بينما كنت مشغولة بترتيب الفقرات.
استدرتُ.
ورأيت إيما مكومةً على الأرض المبلطة.

8

وقعت إيما على أعلى رأسها. تحدّب ظهرها في حين تشنّجت أطرافها
وساقها، وبدت مثل أرجل عنكبوت أحرقتها الشمس.
هرعت نحوها، ووضعت إصبعين من أصابعي فوق حنجرتها. لاحظت أن
نبضها ثابت لكنه ضعيف.

"إيما!"

لم تردّ عليّ.

أنزلت جسد إيما ليصبح مستلقياً على الأرض، ووضعت خديها بلطف على
البلاط. بعدها انطلقت نحو الرواق.

"مساعدة! أحتاج إلى مساعدة طبية هنا!"

فُتح الباب، وظهر وجه من خلاله.

"انمّارت إيما روسو. اتصلوا بقسم الطوارئ".

تقمّوس حاجبا وفم صاحب الوجه.

"الآن!"

انسحب الوجه. ركضت عائدةً نحو إيما. اقتحم مساعدان طيبان الغرفة بعد
مرور عدة لحظات، وانهمرت أسألتهما أثناء انهماكهما بوضع إيما على العربة
المدوّلة.

"ماذا حدث لها؟"



"لقد أمارت".

"هل قمت بتحريكها؟"

"قلبتها كي تتمكن من التنفس".

"هل تعاني من مشاكل صحية؟"

نظرت نحوه بعينين طارفتين نصف مفتوحتين.

"هل كانت تأخذ أدوية؟"

شعرت باليأس فأنا لا أعرف إن كانت تخضع لعلاج معين.

"ابتعدي عن طريقنا من فضلك".

سمعت أزيز الدواليب المطاطية على البلاط، وكان صوتها أشبه بصريير

ناعم..

انغلق باب غرفة التشريح بشدة.

أغمضت عينيها. شاهدت أنبوباً يبدأ من ذراعها اليسرى ويصل حتى

كيس المصل المعلق فوق رأسها. بُت الأنبوب بأشرطة لاصقة بيضاء اللون.

لاحظت أن لون هذا الشريط اللاصق لا يختلف كثيراً عن لون جلد إيما.

عرفت هذه المرأة ككتلة نشاط عاتية مليئة بالطاقة، ولطالما كانت قوة من

قوى الطبيعة. بدت الآن صغيرة وضعيفة على سريرها في المستشفى.

مشيت ببطء عبر الغرفة، وأمسكت بيد صديقتي.

فتحت إيما عينيها.

"أنا آسفة يا قلب".

فاجأتني كلماتها، ألسنت أنا من يجدر به الاعتراض. ألم أكن أنا من تجاهل

علامات وجعها؟

"استريح الآن يا إيما. ستحدث لاحقاً".

"إنه ورم ليمفاوي غير خبيث".

"ماذا؟"

اجتاحني موجة من رد فعل إنكاري. أعرف تماماً الأشياء التي تتحدث عنها إيما.

لاح شبح ابتسامة باهتة على شفتيها: "أعاني من ورم ليمفاوي غير حيث (NHL)، وأنا لا أتحدث هنا عن لعبة الهوكي".

شعرت أن شيئاً بارداً بدأ يتجمع في صدري: "منذ متى؟"
"منذ مدة؟"

"حدّدي لي طول هذه المدة؟"
"عدة سنوات".

"ما هو هذا الورم؟"

شعرت أن سؤالاً هذا لا معنى له، لأنني لا أعلم شيئاً تقريباً عن الأورام الليمفاوية. "ليس بالورم المستغرب، إنه ورم ليمفاوي لخلايا - ب الكبيرة".
أجابتنى وكأنها سمعت العبارة أو قرأتها آلاف المرات. يا الله، يبدو أن هذا هو ما حصل فعلاً.

بلعت ريقى: "وهل تخضعين لعلاج؟"

أومأت إيما: "كنت في فترة نقاهة، لكنني انتكست. إنني أخضع حالياً لنظام CHOP لكنني ألتقاه خارج العيادات. إنني أتناول فينكريستين، وبريدنيسولون، ودوكسوريوبيسين، وسايكلوفوسفاميد. إن أشدّ ما يخيفني هو أن أصاب بعدوى. أعرف أن الأدوية المسممة للخلايا تفتح الباب على مصراعيه أمام العدوى، وأعرف أن أي تعرض لهجوم عنقودي يستطيع أن يجعلني طريحة الفراش".
أردت أن أغمض عيني، وأن تنتهي كل الأشياء التي أسمعها الآن، لكنني أبقيتهما مفتوحتين.

رسمت ابتسامة اضطرارية على شفتي: "إنك امرأة جبارة، ستكونين على ما يرام".

"عرفت يوم السبت أنني لا أستجيب للعلاج بالصورة التي يأملها طبيبي".

تذكرت المكالمات الهاتفية التي حملت الأنباء السيئة. هل هذه الأخبار هي التي أوشتك إيما على إبلاغي إياها عندما خرجنا من المستشفى؟ وهل استغرقت كثيراً بالعمل على ذلك الهيكل العظمي بحيث لم أصغ إليها؟ وأخيراً هل أقدمت على شيء جعلها تياس من إفشاء سرها لي.

"هل أخبرت أحداً؟"

هزت إيما رأسها.

"إذاً لم يكن الصداع النصفي هو ما أصابك يوم السبت؟"

"لا".

"كان عليك أن تتقي بي يا إيما. كنت تستطيعين الوثوق بي".

هزت إيما كتفيها: "لا تستطيعين مساعدتي، فلماذا أقلقك؟"

"هل أعلمت الموظفين الذين يعملون في مكتبك؟"

توهجت نظرة غريبة في عينيها: "خسرت بعض الوزن وبعض الشعر، لكنني

ما زلت قادرة على القيام بوظيفتي".

"بالطبع، ما زلت قادرة على القيام بوظيفتك".

مسدت يد إيما. أعرف أنني أفهم هذه الصديقة، لكن بشكل جزئي.

هتتم إيما بواجباتها كثيراً، وهي لا تدع أي شيء يمنعها من تأدية هذه

الواجبات. إننا نتشارك معاً في هذه الميزة.

تمتّع إيما روسو بدافع آخر. إنها تتمتع بقوة محرّكة لم أفهمها تماماً. هل

تسيطر عليها الرغبة في الحصول على السلطة؟ أم الحصول على التمايز؟ هل هي

رغبة مهووسة للتفوق؟ هل تتحرك على رقع طبول لم أسمعها؟

لا أتمتع بموهبة الاعتناء بالآخرين، فاخترت استخدام عبارة مستهلكة: "يحرز

الطب تقدماً كبيراً في معالجة الأورام هذه الأيام".

"أنت محقة تماماً".

رفعت إيما راحة يدها، فلاقيتها براحة يدي، ثم أنزلت يدها بعد ذلك إلى

السريير.

إنها خلايا - ب الكبيرة المنتشرة. إنها نوع متقدم من الورم الليمفاوي. بدا

ذلك السرطان مدمراً فضلاً عن تحركه بسرعة كبيرة.

شعرت بعينيّ تحرقاني. نجحت مجدداً بإبائهما مفتوحتين. نجحت كذلك

برسم ابتسامة على شفطيّ.

انساب لحن الرجال الفاسدون من خزانة بجانب السريير.

قالت إيما: "إنه هاتفى الخلوي".
"هل هذا هو لحن نشيد الشرطة؟"
أشارت إيما باهتمام: "إنه في كيس النايلون بين ثيابي".
أمسكت بالهاتف وكانت الموسيقى قد توقفت. تفحصت إيما هوية المتصل،
وضغظت على زر إعادة الاتصال.
أعرف أنه يتوجب عليّ الاعتراض ونصحها بالاستراحة وتجنب الإرهاق،
لكن ذلك كان بلا معنى. أعرف أن إيما ستفعل ما تريد. إننا نشترك معاً في هذه
الخاصية أيضاً.

"إيما روسو".

سمعت صوتاً خافتاً على الجهة الأخرى من الخط.
قالت إيما: "أنا مقيدة".

بدأت بالتساؤل عن معنى كلامها أنها مقيدة.

أسكنتني إيما بإشارة من يدها.

أغمضت عيني، لكن إيما وجهت إلي إصبعاً تحذيراً.
"من هو المتصل؟"

أجاب الصوت الخافت، لكنني لم أفهم أي شيء من كلماته.
"أين؟"

أشارت إيما إليّ كي أحضر إليها شيئاً لتكتب عليه. تناولت قلماً وورقة
صغيرة من حقيبتي الصغيرة. أصدر أنبوب المصل صوتاً عندما بدأت إيما بالكتابة.

"من يتولى القضية؟"

تحدث الصوت الخافت مطولاً.

"أعطني التفاصيل".

نقلت إيما الهاتف إلى الجهة الأخرى، ولهذا لم يعد بإمكانني أن أسمع الصوت.
تطلعت عيناها باتجاه ساعة يدها، لكنها لم تكن موجودة في مكانها. أشارت إلى
ساعتي، فمددت معصمي باتجاهها.

"لا تلمسوا الخنثى. سأكون هناك في غضون ساعة".



انتهت المكالمة. أسرعت إيما إلى نزرع الغطاء عنها، ثم أرجحت ساقها على
الجهة الأخرى من السرير.

وضعت يداً على كل ركبة من ركبتيها: "مستحيل. أعتقد أنك فقدت وعيك
منذ ساعات قليلة، إلا إذا كنت محطمة".

"يقول طبيب الطوارئ إن فقدانك لوعيي نتج عن الإرهاق الذي يسببه
العلاج، لكن كل مؤشرات الحويبة تعمل بانتظام".

أعرف أنها لم تتجح في انتقاء الكلمة المناسبة: "إرهاق؟ أفررت كلياً، وكدت
تركبن دماغك على الأرض".

"أنا بخير الآن".

وقفت إيما، وخطت خطوة واحدة، لكن ركبتيها اشتتا. استندت على اللوحة
المثبتة فوق السرير، وأغمضت عينيها، ثم أجبرت أعضاء جسدها على استئناف
عملها.

همست: "إنني بخير".

لم أزعج نفسي بالجدال. أمسكت يديها وساعدت إيما على الرجوع إلى
سريرها، ثم سحبت الغطاء فوق خصرها.

قاومتني قليلاً: "لدي الكثير من الأعمال".

قلت لها: "لن تذهبي إلى أي مكان حتى يسمح لك الطبيب بالمغادرة".

أغمضت إيما عينيها بطريقة كادت تسبب ناهمار الدمع من عيني.

تطلعت نحو صديقتي التي تفتقد إلى الزوج والأولاد، حتى أنه لا علم لدي
عن وجود شخص يجيها. أخبرتني ذات مرة عن شقيقة غريبة، لكن ذلك حدث
منذ سنوات عديدة. ولا تمتلك إيما أي شخص في حياتها مقرب منها على حدّ
علمي.

"هل لديك أصدقاء يمكنهم الاعتناء بك؟"

حدّثت إيما بشيء وهمي في الغطاء: "لدي أسراب منهم، لست بتلك المرأة

المتوحدة الغريبة التي تظننيها".

قلت كاذبة: "أنا لا أفكر بك مطلقاً بهذا الشكل".

دخل طبيب الطوارئ المقيم في تلك اللحظة إلى الغرفة. لاحظت شعره الأسود اللامع، وبدا وكأنه موجود هنا منذ أن دخل ريغان إلى البيت الأبيض. شاهدت اسمه بلس مكتوباً على بطاقة معلقة على صدره.

تخيلت أن هذه البطاقة هي نوع من التحية العفوية؟ أتمنى لكم دوام النعمة.
بدأ بلس بتقليب الأوراق المتعلقة بإيما.

قالت إيما: "أخبرها أنك لا تعتبرني المتبرعة التالية بأعضائها (بعد وفاتها)".
نظر بلس باتجاهي: "إنك على ما يرام".

قلت: "لكنها غابت عن الوعي منذ ساعتين".

التفت بلس نحو إيما: "يتسبب العلاج الذي تخضع له بالوهن أحياناً. لا يجدر بك الاشتراك في سباق الماراتون، وسأسمح لك بالخروج فيما عدا ذلك، لكن على افتراض أن تتصلي بطبيبك الذي يعالجك".

رفعت إيما إيماها (علامة النجاح).

قلت: "إنما مضممة على البدء بالعمل فور خروجها".

قال بلس: "لا أحبذ هذه الفكرة. اذهبي إلى البيت، وخذي قسطاً من الراحة كي تستعيدي قوتك".

قالت إيما: "لن ألعب في الخط الأمامي لصالح ثور كارولينا".

انشغل الطبيب بتدوين بعض الملاحظات في سجله: "ماذا تعملين؟"
قلت: "إنها المحققة الجنائية".

توقف بلس عن الكتابة وتطلع نحو إيما: "لهذا بدا الاسم مألوفاً لدي".

ظهرت ممرضة من المدخل، وسرعان ما طلب منها بلس نزع أنبوب المصل.

استأنف بلس تقليب أوراق بياناته: "إن صديقتك بخير. لا تعلمي في ما تبقى من هذا النهار. إذا لم تستريحي فرما ستعرضين إلى نوبة ثانية".

هرعت إيما إلى هاتفها لتتصل بغوليت، وذلك بعد مرور لحظات قليلة على مغادرة بلس للغرفة. لم يكن الشريف موجوداً، ولهذا قالت إيما إنها سترسل نماذج النظام الوطني لمعطيات الجريمة شخصياً.

ارتدت ملابسها بعدما أنهت الاتصال، ثم خرجت من الغرفة. تبعتها وأنا مصممة على أن أبقى بقربها لإقناعها بالذهاب إلى منزلها. عازمت على البقاء قربها كي أقدم لها المساعدة إذا ما تعرضت إلى نوبة ثانية.

تساعدنا معاً لنضع الهيكل رقم CCC-2006020277 في كيسه النايلوني، ثم طلبنا من تقني المختبر أن يعيده إلى البراد. عمدنا بعد ذلك إلى وضع صور الأشعة، وبقية الأوراق التابعة له في مكانها. دأبت أثناء ذلك على ترويح خططي التي تقضي بذهاب إيما كي تستريح في بيتها.

دأبت إيما على ترديد عبارة *أنا بخير*.

بدأت مغادرة المستشفى بمثابة مواجهة حوض مليء بالعسل الدافئ. ركضت إيما نزولاً على المنحدر وكأنها تقصدت أن تُبقي على مسافة تفصل بيننا. لحقتها، فأطلقت محاولة أخيرة.

جاءت لهجتي أكثر حدة مما قصدت في البداية، ويرجع ذلك إلى خيبة أمني من فشل جدالي معها: "إيما. تبلغ درجة الحرارة خمسة وتسعين فهرنهايت، وأنت متعبة. لا أؤمن بوجود قضية لا تحتل التأجيل حتى الغد".

زفرت إيما دلالة على تضايقها من كلامي.

"جاءت المكالمات الأخيرة من المحققين الذين يعملون معي. عثر رجالان على جثة في الغابات هذا المساء".

"دعي المحققين الذين يعملون معك يعالجوها".

"قد تكون قضية بالغة الحساسية".

"كل وفاة هي قضية بالغة الحساسية".

"عجباً يا قحب. عملت على آلاف القضايا، وأظن أنني لم ألاحظ هذا".

اكتنفت بالنظر إليها.

رفعت إيما خصلات شعرها عن جبهتها: "أسفة. احتفى فتى يبلغ الثامنة عشرة من عمره منذ ثلاثة أشهر. يعاني الفتى من الاكتئاب المزمن، ولا يمتلك أي أموال، ولا جواز سفر، أو أية ممتلكات".

"هل شك رجال الشرطة بعملية انتحار؟"

أمأت إيما: "لم يعثروا على رسالة منه، أو على جثته. يظنّ المحققون أن الجثة التي عثر عليها تعود له".

"دعي المحققين يتولون عملية النيش".

"لا نملك مجالاً للخطأ في هذه القضية، فوالد الفتى سياسي محليّ. يُمضي الوالد أوقاته مع الرجال النافذين في السلطة، وكلمته نافذة، وهو غاضب الآن. إن هذه عوامل خطيرة".

تساءلت مجدداً إن كانت صدمة حادث السفينة السياحية ما زالت تؤثر عليها أكثر مما أظن.

"من دلّ المحقق على المكان؟"

"تدلّت البقايا من شجرة. تقع الشجرة على بعد أقل من ميل من أقرب عنوان معروف لذلك الفتى".

تخيّلت المشهد. فبدت الصورة مألوفة جداً لديّ.

"هل أبلغ الوالد؟"

هزت إيما رأسها.

انتقلت إلى الخطة - ب.

قلتُ مقترحةً: "ما رأيك بهذا؟ أبلغني الوالد أن اختفاء ابنه يحظى بالأولوية المطلقة. قولي له إن جثة قد وُجدت، لكن مرور ثلاثة أشهر على الوفاة يجعل عملية التحقق من الجثة صعباً بسبب التحلل. قولي أيضاً إن الأمر يتطلب خبرة من الخارج لتحديد هوية صاحب الجثة".

فهمت إيما، كعادتها، قصدي على الفور: "يريد مكتب المحقق الجنائي أفضل خبرة ممكنة، والكلفة ليست عقبة في هذا السبيل".

"أنا معجبة بطريقة تفكيرك".

ابتسمت إيما ابتسامة باهتة: "هل ستقومين بهذا فعلاً؟"

"هل تتمتعين بالسلطة التي تحوّلك إقحامي في القضية؟"

"نعم".

"سأقوم بذلك شرط أن تعديني بالذهاب للاستراحة في سريرك على الفور".



قدّمت إيما اقتراحاً مضاداً: "ما رأيك بهذا؟ أقوم أنا بتسليم الشريف النماذج الخاصة بالمركز الوطني لمعطيات الجريمة، وسأحتّه على العمل على قضية الهيكل في دي ويز. وتشرفين أنتِ على استعادة الجثة المعلقة. وسنبقى على اتصال فيما بيننا عبر الهاتف".

"لكن بعد أن تنامي".

"نعم، نعم".

يبدو أننا توصلنا إلى رسم خطة.

9

سأورد الآن كل ما تعرفه إيما عن القضية.

تميّز ماثيو سمرفيلد الرابع بأنه ابن عائلة لا تتساهل مع النقائص. تدعى والدته سالي بنت ميدلتون، وهي تنحدر من عائلة ميدلتون التي كان أفرادها أعضاء في أول كونغرس على صعيد البلاد. تخرّج الوالد من السياتادل (القلعة)، وكان أكثر الأعضاء نفوذاً في المجلس البلدي لمدينة تشارلستون.

حاول ماثيو الرابع أن يجذو جذو ماثيو الثالث، لكنه تعرّض للوم بسبب تدخين الماريجوانا عندما كان طالباً. اختار الوالد أن يكون صارماً رغم محبته لولده، فقرر طرده من منزل العائلة.

انتقل ماثيو الرابع للعيش مع أصدقائه، واستطاع كسب بعض المال عن طريق شراء الأرز والفاصولياء الجففة من متاجر بيغلي ويغلي، وإعادة تعبئتها وبيعها للسياح بشكل حساء فاصولياء يحتوي على ثلاث عشرة حبة، وخليط جون. ترك الشاب مات كشكه الكائن قرب شارع الخليج الشرقي، في سوق المدينة القديم، في يوم الثامن والعشرين من شهر شباط. قصد هذا الشاب شارع ميتنغ واحتفى، وكان حينها في الثامنة عشرة من عمره.

أوصلتني تعليمات إيما إلى نهر واندو، وإلى الشمال من منزله غابة فوانسيس ماريون القومية، وهي عبارة عن غابة بشكل مثلث وتتألف من سهل ساحلي تبلغ مساحته ربع مليون أكر، ويحده شمالاً نهر شاتي، وتحده شرقاً القناة المائية الداخلية



المحاذية للساحل، وتحده غرباً بحيرة مولتري. تأثرت هذه المنطقة كثيراً بإعصار هوغو الذي ضربها بشدة عام تسعة وثمانين، لكن الغطاء النباتي في غابة فرانسيس ماريون عاد إلى الظهور بنفس الحيوية التي تميّز بها الغابات البرازيلية. رحبت أفكر طوال قيادتي للسيارة بالمفاجآت التي تنتظرنى هناك.

لم أجد أساساً لقلقي. اصطفت العربات بكثافة وراء بعضها. وتواجدت سيارات الشرطة بكثرة هناك مطلقة العنان لأضوائها. لاحظت أيضاً وجود العربة المخصصة للمحققة الجنائية، وسيارة الجيب التابعة لحرس المتنزه، بالإضافة إلى سيارة شيفي نوفا تعرضت لأكثر من صدمة. لاحظت أيضاً وجود عربتي "SUV" استند ركابهما على دفاعاتهما الأمامية، ولاحظت أيضاً أنهم يرتدون السراويل القصيرة وأن وجوههم تحمل تعابير متماثلة من الفضول الشديد، ولا بد أنهم بدأوا برواية ما حدث بينهم وبين أنفسهم.

سررت لأنني لم أشاهد عربات تابعة لوسائل الإعلام، لكنني شككت أن يستمر هذا طويلاً نظراً لكثافة الحشد.

لم أشاهد، بالإضافة إلى حشد الفضوليين، سوى رجل شرطة واحد، وصييين أسودين. نزلت من السيارة بعد أن تناولت حقيبي وتوجّهت نحو الحشد.

بدأ لي أن الصييين الخليقي الرأس هما في حوالى السادسة عشرة من العمر. ارتدى الصبيان ملابس فضفاضة يرتديها لاعبو كرة السلة عادة، وتتألف من قميصين وسروالي جينز. خمنت، نتيجة تقرير إيما، أنهما الولدان المحظوظان اللذان عثرا على الجثة.

لاحظت أن رجل الشرطة هو رجل صغير الجسم، أما عيناه فيتراوح لونهما ما بين البني والأسود. علمت عندما نظرت إلى بطاقته أن اسمه ها. تايبي. حرص المساعد تايبي على اعتمار قبعة تصل إلى حاجبيه بالرغم من الرطوبة الشديدة، ورأيت تغضنات وجهه العميقة.

انتبه تايبي لتقدمي، فأوقف استجوابه ونظر باتجاهي. بدأ أنفه حاداً بعظامه الضئيلة والبارزة. تصوّرت أن زملاءه ينادونه الصقر.

نظر الصبيان نحوي وقد ضالبا أذرعهما، ومالا برأسيهما حتى كادا يلامسان
كتفيهما. خلا وجه تايبي من أية تعابير، وهكذا بقيت لي الحرية لتفسير مشاعره
بالطريقة التي أختارها. اخترت أن أفسر ملامحه على أنها تدلّ على الغرور.

تقدمت من الفتیان الثلاثة الذين يعملون بجهد.
عرّقت بنفسي، وشرحت لهم علاقتي مع المحققة الجنائية.

مال تايبي برأسه نحو الغابة.

"إن الجثة هي في تلك الناحية".

الناحية؟

"يدّعي ابنا المنطقة هذان أنهما لا يعرفان شيئاً".

مال ابنا المنطقة برأسيهما، وتبادلا الابتسامات فيما بينهما.

تكلمت مع أطولهما: "ما اسمك؟"

"جمال".

"ماذا حدث يا جمال؟"

"أخبرناه بما حدث".

"أخبرني أنا".

هرّ جمال كتفيه: "رأينا شيئاً يتدلّى من الشجرة، هذا كل ما في الأمر".

"هل عرفتما هوية الشخص الذي يتدلّى من الشجرة".

"لم تكن ملامح ذلك الرجل واضحة".

"ما هو سبب تواجدهما في هذه الغابة؟"

تبادلا الابتسامات مجدداً: "إننا نستمتع بالطبيعة".

سمعنا صوت سيارة تقترب، فالتفتنا جميعاً نحو الطريق.

رأينا على المنعطف سيارة فورد إكسبلورر بيضاء ذات نجمة زرقاء على

جانبها. راقبنا السيارة حتى توقفت وراء إحدى سيارات الكروزر. ترجّل منها
رجل، ولحقه كلبه.

بدا الرجل طويلاً، ولعل طوله يصل إلى 185 سنتم، ولاحظت أنه ذو صدر

عريض وكأنه ملاكم. ارتدى الرجل بذلةً كاكية اللون، ووضع نظارة



يستخدمها الطيارون. بدا لي أن الكلب البني اللون ينتمي إلى سلالة كلاب الصيد.

بدأت أشعر وكأنني عارية. سأحضر بويده معي في المرة القادمة. تقدّم الرجل باتجاهنا، وشعرنا أنه ينظر إلى نفسه وكأنه يتمتع بصلاحية التحدث مع الحاكم في أي وقت يشاء. شاهدت عبارة الشريف جونيوس غوليت مطرزة على الجانب الأيسر لقميصه الأبيض المجدد. أسدل جمال ذراعيه، ووجه يديه نحو الأسفل. أدخل الفتي أطراف أصابع يديه في جيبه.

رفع تايبي طرف قبعته: "عمت مساءً يا سيدي. تقول السيدة إنها تعمل مع المحققة الجنائية".

"تحدثت مع الآنسة روسو. ويبدو أن هذا صحيح".
لفظ الرجل كلمة روسو وكأنه يلفظ كلمة روزا.
تحرك الكلب باتجاه الغابة متوقفاً قليلاً عند كل شجرة من بعض أشجارها.
تفحصني غوليت صعوداً ونزولاً. مدّ الرجل ذراعه بعد ذلك وصافحني بقبضة حديدية تكفي لسحق كرة.

تكلم الرجل من دون لحن: "أنتِ الدكتورة القادمة من شارلوت".
"أنا عالمة الأنتروبولوجيا".
"تستعين الآنسة روسو بخدمات جافر في العادة".
"أنا متأكدة من أنها أخبرتك بوجوده خارج البلاد".
"يبدو الأمر غريباً بعض الشيء، لكن القرار يعود للآنسة روسو. هل أطلعتك على خلفية القضية؟"
أومأت.

لا ينتمي هذا الشريف إلى فئة الذين يحبون تقديم أنفسهم، فدخل في صلب الموضوع مباشرة: "يعيش الفتي على بعد أقل من ميل واحد من هذا المكان مع جماعة من أصحابه. هل رأيت الجنة؟"
"وصلت لتوي".

اتسعت ابتسامة جمال حتى كادت تتعدى وجهه: "أصبح ذلك الرجل طعاماً للديدان".

استدار غوليت بوجهه ببطء. بدا وجهه خالياً من أية تعابير عدا الضجر. مرّت فترة سكون طويلة وغير مريحة: "ألا تعتقد أنك ذهبت بعيداً يا بني في عدم احترامك للموتى".

هزّ جمال كتفيه: "يا رجل، إن رأس ذلك...".

وجه غوليت إصبعاً سميناً باتجاه صدر الفتى: "هل ستقبل فمك كي تتمكن من الإصغاء؟ إن طعام الديدان الذي تتحدّث عنه هو واحد من الأرواح التي خلقها الله، أي مثلنا تماماً... ولربما مثل روحك أنت يا بني".

حدّق الشابان بأحذيتيهما الرياضية بشكل مركّز.

وقال لي: "تجدين هناك طريقاً يقود إلى المستنقعات. لا يُعتبر ذلك القسم من المتنزه مرغوباً فيه من قبل السكان المحليين والسياح. وتُعتبر تلك المنطقة فقيرة بالصيد، بالإضافة إلى وجود الكثير من الحشرات التي تجعل من التحميم أمراً غير مريح".

أومأتُ بالموافقة.

"أتمنى أن تكوني جاهزة لذلك".

أومأت مرة ثانية.

"أعتقد أنه لا يمكن لأي شيء أن يربح ذلك المسكين بعد الآن".

سبقنا الكلب بينما مشيت وراء غوليت.

مشينا باتجاه الغابة، وركّزت تفكيري على مشهد طريقة موت الفتى. سأعمد من الآن فصاعداً إلى تجاهل التفاصيل، ولن أركّز إلا على الأشياء المهمة. أعتزم أيضاً أن أنتبه إلى كل نبتة خضراء، وإلى كل غصن مكسور مهما كان صغيراً. أعتزم كذلك أن أهتم بكل رائحة، وكل حشرة. بدأت أستعد لتجاهل الأحاديث التي يتبادلها الذين من حولي، والتي سأعتبرها بمجرد ضجيج فارغ.

بدأت الغابة هنا مزيجاً كثيفاً من أشجار الصنوبر، والأشجار الصمغية، والشوكران، وشجر الزان. احتلت أشجار القرانيا، والمشتركة، وبعض الجنبات

الأخرى الصف الأدنى في العلو. تشبّع الهواء نتيجة لوجود كل هذه الأشجار
بجلاوة الألوان التي سمرّتها الشمس.

مشى غوليت بسرعة. تسلّلت أنوار الشمس من خلال شبكة الأشجار
الموجودة فوقنا محدثةً لوحة هندسيّة حرّة من الأضواء والظلال. اهتزت أوراق
الأشجار بين الحين والآخر محدثةً أصواتاً تشبه أصوات بعض الكائنات المرتعبة.
أحسستُ أن الأرض التي نمشي عليها ناعمة ومشبعة بالرطوبة.

مشينا مسافة عشرين ياردة داخل الغابة قبل أن نصل إلى فسحة صغيرة. رأيت
مستنقعاً إلى يميني، ولاحظت أن سطح مياهه الذي يشبه سطح زجاج أسود اللون
يبقى ساكناً إلى أن يغطس فيه أحد اليعاسيب، أو بعض الحشرات الأخرى التي
تبحث عن الماء.

أحاطت شجيرات صنوبر بالمستنقعات. بدت الأشجار وكأنها وصلت في
نموها إلى حدٍّ معيّن ثم توقفت، أو كأنها أشجار بدائية، وبدا أن جذوعها ذات
اللون الشبيه بلون الخبز الداكن مخفية. لاحظتُ أن جذور هذه الأشجار كثيرة
العقد ومكسوة بالطحالب الخضراء.

شاهدت شجرةً واحدة من نوع السنديان الأبيض تقف وحيدة على حافة
المستنقع. تدلت جثة من أقرب غصون هذه الشجرة إلى الأرض، وبالكاد ارتفعت
أصابع القدمين عن الأرض.

اقتربت من هذا المشهد الكئيب، وتساءلت عن سرّ تلك السوداوية التي دفعت
باتجاه مثل هذه النهاية. ما هي تلك الحالة الذهنية المعذبة التي دفعت بهذه الروح
المتألّمة إلى التفكير بهذه الأنشطة، وشد الحبل جيداً، ثم القفز؟

وقف رجال الشرطة والمدنيون يتحدثون، ويطردون الذباب، ويقتلون
البعوض. بدت كل قمصان الرجال متجعدة، ورسم العرق هلالاً داكناً تحت كل
إبط.

انشغلت امرأة بالنقاط صور فيديو، وتدلّت آلتا تصوير من رقبتها. شاهدت
شعار المحقّق الجنائي لمقاطعة تشارلستون، مطرزاً على قميصها.

عبرت الفسحة، وقدمت نفسي. قالت لي إن اسمها لي آن ميلر. بدت وكأنها

تعمل لصالح شركة أحشاب، ورأيت ضفائرها بلونها الأحمر النحاسي وكأنها تدلت من زجاجة.

"أتمنّعين إن تفحصت الجثة؟"

رفعت ميلر شعرها، ووجهت ابتسامة تمائل باتساعها ميناء تشارلستون: "ابدئي على الفور يا عزيزتي".

"لا أمانع إذا انتظرتُ ريثما تنتهين من التصوير".

حرّكت ميلر رقبتها أكثر من مرة، ثم رسمت نفس الابتسامة العريضة مجدداً: "لا أستطيع العمل وأنتِ حولي، إلا إذا أردتِ أن لا أعمل بالطريقة الصحيحة".
بادلتها الابتسامة بالرغم من الظروف المحيطة بنا. بدت لي آن ميلر امرأة يستطيع المرء أن يجد عندها الراحة النفسية، أو النصح، أو حتى مجرد ضحكة مناسبة.

انشغل غوليت بالتحدث مع أحد الرجال بينما كنت أتجه نحو الشجرة. لم أعطيه سوى القليل من الانتباه لأنني انشغلت بمحاولة استيعاب الصورة بكاملها.
تدلّت الجثة من الشجرة بواسطة حبل أصفر من ثلاثة أطواق. وضعتُ الأنشطة في مكان منخفض من الرقبة، أي قرب مستوى الفقرتين العنقيتين الثالثة والرابعة. اختفى من فوق هذا الموضع الرأس، والفقرتان العنقيتان الأعلى.
لاحظت أن العظام مغطاة بأنسجة متعفنة. بدت الملابس فضفاضة، وكأنها معلقة على فزاعة. شاهدت بنظراً أسود اللون، وسترة قطنية متينة، وهي الملابس التي توحى أن عملية الشنق قد جرت أثناء طقسٍ أكثر برودة. ولاحظت وجود الجوربين البنين، وحذاءين عاليين باليين.
حذاءان عاليان.

تطلّعت من حولي. ووجدت عظام الساق اليمنى على بعد عشرة أقدام من الجثة، وشاهدت علماً أصفر عليها.

مشيت باتجاه العظام. وجدت أن عظام القدمين والنهايات القصبوى لعظمتي الساق الكبرى (الظنوب) والقصبة الصغرى، قد بقيتا في الحذاء. أما النهايات الأدنى لهذه العظام فكانت مفقودة، ولاحظت أن عظام القصبات الكبرى كانت



متشققة ومتكسرة. وبدأت على عظمة الفخذ نفس الأضرار التي ظهرت على العظام الأخرى.

اقرب مني غوليت: "اشرح لي لنا هذا".

"إن الحيوانات تفتنص الفرص، ومعظمها جاهز لتنظيف العظام من اللحم إذا ما أتاحت لها الفرصة".

حطت بعوضة على ذراعي ولدغتي. فقتلتها، وتابعت طريقي.

استلقت الجمجمة في منحدر على مسافة تبعد ستة أقدام عن الشجرة، وقد التف عليها جذر من جذور الشجرة والذي نبت من جذعها. بدت الجمجمة بالية بدورها.

رأيت الجمجمة خالية من اللحم هي الأخرى.

بقي غوليت إلى جانبي: "لا أعتقد أن حيواناً قد قطعها".

سمعت صوت أجنحة ترفرف من فوقي. تطلعت لأشاهد غراباً يستقر على غصن من غصون الشجرة: "يتسبب تعرض الجثة المشنوقة بسقوط الرأس في أحيان كثيرة. وتقوم العصافير بالمساعدة في هذه العملية أحياناً، أما الحيوانات فتركز على تنظيف الساقين من اللحم".

أخذت أتفحص الفك وأنا أتكلم.

قلت: "إن الفك مفقود".

قال ببساطة: "أنا أهتم بالأمر".

جلست القرفصاء كي أستطيع تفحص الرأس بتركيز أكبر، بينما انهك غوليت بتوجيه الأسئلة إلى ميلر. اختار كلب غوليت، لأسباب يدركها هو وحده، أن ينضم إلي. لا أستطيع بحال من الأحوال أن أسمع بوجود كلب يفكر بأخذ دليل الجريمة مني، لكنه كان كلب غوليت. أعتقد أنني أمتلك ما يكفي من الحكمة كي أحجم عن تحدي الشريف المقاوم للصدمات.

وضعت قفازاً في يدي اليمنى، وأخذت بعض الملاحظات الذهنية. لاحظت أنه لم يتبق سوى القليل من الشعر. انتهت الشمس من تبيض هذه الجمجمة، والتفت تشكيلة منوعة الألوان من الجذور الصغيرة فوق سطحها. رأيت عدداً كبيراً من الخنافس الصغيرة ما تزال تتحول في تجاويها.

قَلَبْتُ الجمجمة بلطف مستخدمةً إصبعاً واحداً.

التصقت بقع من النسيج على الخد الأيمن والصدغ الأيمن، وظهرت آثار بقع نتجت عن الأرض التي وُجِدَت الجمجمة عليها. بقيت عين واحدة، ولاحظت وجود حبة زبيب أسود نصف مجففة في محجر امتلأ بالتراب وبقايا الأعشاب.

أرجعتُ الجمجمة بكل حرص إلى مكانها الأصلي، بينما عبرت غيمة قرص الشمس. خفت ضوء الشمس قليلاً، وانخفضت درجة الحرارة. شعرت برعشة برد. بقيتُ أهدقُ ببقايا آثار اليأس القاهر الظاهر أمامي.

عدت لتفحص الجثة، وتقدمت لأختبر التربة الموجودة تحت القدمين مباشرة. لم أجد أثراً للدد، لكنني لاحظت غلافات اليرقات التي تشكل دليلاً على عبورها. تناولت قارورة بلاستيكية من حقيبتي، وملاًتها بعينة منها.

ربض كلب غوليت، واكتفى بالمراقبة، وتدلى لسانه من زاوية فمه. لمحتُ غوليت عائداً: "لم نجد الفك".
هضتُ واقفةً.

"ما رأيك بإرسال عدة رجال يتوزعون في الغابة بشكل مروحة كي يبحثوا عنه".

سارع غوليت لإعطاء الأمر بذلك، بينما فكّرت في بعض التفاصيل. خلا المكان من براز الحيوانات، لكن المكان احتوى على جلود الحشرات المنزوعة، وعلى الخنافس، وعلى النمل. وجدنا بعض الشقوق (الحزوز) على جذع الشجرة، وبعض الكشط على فرع رئيسي منها. لاحظت أن طرفي الجبل منسولان، وأن عقدة الأنشطة موجودة على قفا الجانب الخلفي من الرقبة.

"تريد ميلر أن تعرف كم ستحتاجين من الوقت بعد".
قلتُ: "لقد انتهيت".

دوّى صوت غوليت، ثم رسم شكل دائرة بيده: "حان وقت العمل".
عبرت ميلر إلى مكان دخولنا إلى الفسحة بعد أن رفعت إهامها، وتحدثت إلى أحد الرجال الذين كانوا يراقبون، واختفى الرجل على الفور.

استعانت ميلر بمُشاهد آخر لنقل الحمّالة إلى مكان الشجرة. فكّت أربطة الحمّالة، وأنزلت أحزمة الأمان إلى الجانبين، وفكّت زمام كيس النايلون المخصص لوضع الجثة، ثم ردت الغطاء إلى الخلف.

انضمّ إلينا المُشاهد الأول بعد أن أحضر سلماً قابلاً للانشاء. أشار غوليت للرجل باتجاه أعلى الشجرة.

فتح الرجل السلم إلى أبعاد مدى له، ثم تسلّق درجاته، وثبت نفسه مستعيناً بذراعيه، وأبعد غصن الشجرة عنه. تدخل غوليت ليشرّف على ما يجري. راقب الآخرون عن بعد، وتسمّرت أعينهم على الجثة.

ناولت ميلر الرجل الذي تسلق الشجرة مقصاً للتقليم طويل المقبضين. عمدت بعد ذلك مع مساعدتها إلى تعديل مكان الحمّالة، ثم أدخلت ساق الضحية في طرف الكيس بحرص شديد. رفعت ميلر الطرف الآخر بحيث أصبح أقرب ما يكون إلى الجثة المعلقة، وعلى خط متواز معها.

تطلّع الرجل الذي تسلق الشجرة نحو ميلر متسائلاً عن الخطوة التالية. بقي وجه غوليت خالياً من كل التعابير: "أنزله، لكن بلطف". تدخلت قائلة: "ابتعد عن الأنشطة قدر ما تستطيع".

انحنى المتسلق قليلاً إلى الأمام، ثم وضع الحبل بين شفرّتي المقص القصيرتين والمقوستين، وضغط على المقبضين.

تقدّمت قليلاً لأجهّز نفسي لتوجيه اتجاه الجثة كي تدخل في الكيس. نجح المقص بقطع الحبل في المحاولة الثانية.

رفعت ميار طرف الكيس الذي تمسك به، وخفض الرجل الذي يساعدها الطرف الذي يُمسك به. رفعتُ ذراعيّ كي أمنع الجثة من الانزلاق باتجاهي.

انزلقت الجثة إلى مكانها في الكيس. تعرّق الاثنان وهما أثناء إنزالهما الكيس من فوق رأسيهما ليضعاه فوق الحمّالة. قلتُ: "أعتقد أنك قمت بذلك قبلاً".

أومات ميلر، ومسحت بساعدها العرق المتصيب من وجهها.

بدأ **غوليت** بتفتيش الملابس التي كانت على الجثة بحثاً عن بطاقة هوية الضحية، بينما انصرفت ميلر لجمع الرأس وعظام الساقين. لم يجد الرجل شيئاً في البنطال، وكذلك في القميص. ثم ترددت عبارة غير معقول في المكان.

سحب **غوليت** محفظةً من إحدى جيوب السترة. بدا جلد المحفظة مترهلاً بسبب عملية التحلل التي احترقت القماش.

استخدم **غوليت** ظفر إبهامه لفتح غطاء المحفظة الأمامي. بدت المحفظة من الداخل مبللة ومتصلبة.

استخدم الشريف نفس الظفر لإزالة التراب عن سطح الطبقة البلاستيكية الأولى.

أظن أن خديه قد تغضنا بمقدار يقل عن حجم شعرة واحدة.
"حسناً، حسناً".



10

"إنما رخصة قيادة صادرة عن ولاية كارولينا الجنوبية العظيمة".
استمرّ غوليت بحكّ البلاستيك بظفره، ثم وضع نظارته فوق رأسه، وراح
بحركّ المحفظة بمنّة ويسرة.
قدّم غوليت المحفظة إلى ميلر: "يستحيل أن يكون هذا الفتى المسكين ماثيو
سمرفيلد".

قلّبت المحفظة الجنائية المحفظة البلاستيكية كما فعل الشريف، ثم أعطتني إياها:
"لك الحق في ذلك. إن الحروف أصغر من أن تراها عيناى المستنّان".
لاحظت أنه يستحيل أن تكون صورة ذلك الرجل عائدة لفتى، وذلك رغم
التلف الشديد الذي أصابها. امتلك صاحب الصورة ملامح مترهلة، ونظارة ذات
إطار أسودّ اللون، وشعراً خفيفاً وناعماً. جهدتُ كي أستطيع قراءة حروف الاسم
المطبوعة على يمين الصورة.
قلتُ: "يبدو الاسم قريباً من شيستر، وكلمة ما (اسم الأب)، وعائلته
بيني، أو لربما كانت بيكني، أو بينكني، لكن بقية المعلومات ليست واضحة
بالمرّة".

تناولت ميلر كيساً يفتح بزمام (سحاب) منزلق، وقمتُ أنا بوضع المحفظة
فيه. وأسرعتُ ميلر إلى إعطاء غوليت هذا الكيس الصغير.
"سنسلّم بقايا هذا السيد المتوفى إلى المشرحة، هذا إذا لم يكن لديك مانع.

وسترغب الآتسة روسو بمعرفة هوية الضحية، وذلك كي يصار إلى إبلاغ الأقرباء بأسرع وقت ممكن".

نظرت هيلر إلى ساعتها، وسرعان ما حذا الجميع حذوها، أي على طريقة جرّاء "بافلوف" (التقليد العفوي لتصرف الآخرين).

قال غوليت: "سنغادر عند الساعة، فلن تحدث أشياء أخرى هذه الليلة".
أوماً الشريف باتجاهي أنا وهيلر وعدلّ من وضع نظارته على أرنبه أنفه، وصفر لكلبه، ثم انطلق باتجاه الطريق.

انشغل المساعد بتحرير الجزء المتبقي من الحبل، بينما وصلت وهيلر إلى اقتناع يفيد بعدم قدرتنا على الحصول على معلومات إضافية من هذا الموقع. تهاست عرائش العنب، والأجمات الآشنة، من فوقنا. أزت أسراب البعوض، بينما راحت البرمائيات تعزف سيمفونيتها وسط الظلمة الكئيبة للمستنقع.

جنحت السماء للاستسلام لظلمة هذه المنخفضات، بينما أغلقت هيلر الأبواب المزدوجة لعربة المحققة القضائية. شاهدت وجهها المبقع نتيجة لدغات البعوض، أما العرق فتكفل بجعل ظهرها وصدرها داكنين أكثر.

قلت: "سأتصل بإيما في أقرب وقت، وسأعطيها المعلومات التي توصلنا إليها".

"شكراً لك يا حلوتي. جعلتني أرتاح من هم آخر".

اتصلت بإيما بينما كنت في طريقي. أجابت بعد ثلاث رنات، وبدا لي صوتها رقيقاً ومنفعلاً. شرحت لها ما جرى.

"لا أعرف كيف أشكرك".

قلت: "لا داعي لذلك".

"سيرتاح آل سمرفيلد".

إنه المشهد المعتاد. تتلقى إحدى العائلات خبراً مفرحاً، بينما تتلقى إحدى العائلات الأخرى أخباراً سيئة. قلت بفتور: "نعم".

سمعت صوت نفس قوي من الجهة الأخرى، ثم لا شيء.

"ماذا؟"

"لقد فعلت الكثير".



"لم أفعل شيئاً في الواقع".

"لا أحب أن أطلب منك شيئاً آخر".

"اطلبي".

مرت فترة تردد، ثم سمعتها: "لدي جلسة علاج في الغد. أنا...".

"متى موعد الجلسة".

"عند الساعة السابعة".

"سامر لاصطحباك عند السادسة والنصف".

"شكراً لك، يا قلب".

كاد الارتياح الذي بدا في صوتها يدفعني للبكاء.

وصلت، مرة أخرى، إلى المنزل ورائحة الموت تفوح من ملابسي. اتجهت مباشرة - مرة أخرى - إلى الحمام الخارجي، ووقفت تحت ماء ساخن حتى أفضى درجة أستطيع تحملها، وانهمكت بفرك جسمي بالصابون حتى غطته الرغوة، وكررت ذلك مرة بعد أخرى.

استقبلني بويد بحماسة المعتاد، ووقف على قائمته، ثم راح يدور حول قدمي راسماً شكل 8. بينما اكتفى بيردي بالمراقبة معبراً عن سخطه، أو عن استخفافه. يصعب على المرء أن يفسر مشاعر الهررة.

ارتديت بعض الملابس، وملأت أوعية طعام الكلب والهررة، ثم ألقيت نظرة على هاتف المنزل. لم يتصل رايان، كما أنه لم يترك لي رسالة على هاتفي الخليوي.

لم أشاهد سيارة بيتي مركونة على طريق المنزل الخاص. بدا المكان خالياً من كل شيء، ما عدا "بيرد" والكلب.

فككت قيد بويد فانطلق بحركات دائرية هستيرية فوق أرضية المطبخ، ثم أهماها بحفّض محالبه الأمامية، بينما رفع رذفيه إلى الأعلى. اصطعبته في نزهة طويلة على الشاطئ.

رجعنا إلى المنزل، وأسرعنا إلى تفحص هاتفي، ولم أجد شيئاً.

سألت بويد: هل أتصل برايان؟"

حرّك الكلب شعرات حاجبه، وحرّك رأسه.
"أنت على حق، فإذا كان مستاءً سنعطيه بعض الجمال، أما إذا كان منشغلاً
فسوف يقوم بالاتصال عندما يستطيع".
تسلّلت إلى غرفتي، وفتحت الأبواب المنزلة لواجهتي الزجاجية، واستلقيت
على السرير. ريض بويده على الأرض. بقيت مستيقظة لوقتٍ طويل، وأصغيت إلى
صوت الأمواج، واستمتعت برائحة المحيط.
وثب بيردي إلى السرير، والتفّ على نفسه بجاني من دون أن ألاحظه.
استسلمت إلى النوم عندما بدأت بالتفكير بشيء آكله.
أثبت غوليت أنه على حق. لم يحدث شيء تلك الليلة.

"بينكني؟"

وصلتُ وإيما في صباح اليوم التالي - بعدما تجاوزت عقارب الساعة الحادية
عشرة - إلى غرفة العلاج التي تقع على مسافة شارعين إلى الشرق من المستشفى
الرئيسي. ارتدت إيما رداءً فضفاضاً من الأثواب المخصصة لمرضى المستشفى. امتدّ
أنبوب حقن وريدي إلى ذراعها اليسرى، بينما حملت في يدها اليمنى هاتفاً خلويّاً
وقربته من أذنها. هل هذا مجرد عمل استعراضي تقوم به المحققة الجنائية، والتي قررت
إعفاء نفسها من تطبيق القانون الذي يمنع استخدام الهواتف الخلوية في المستشفيات.

سألت إيما: "الخط البري؟"

مرّت فترة سكون.

"ما هو العنوان؟"

مرّت فترة سكون أخرى.

"أعرفه، سأذهب إلى هناك في غضون ساعة تقريباً".

أنهت إيما المكالمة، وتكلّمت معي.

"شستر تايروس بينكني".

قلتُ لها: "اقتربتُ جداً من الاسم الحقيقي".

"قطع خط الهاتف، لكن العنوان لا يبعد كثيراً عن رو كفيل".



"ألا يبعد المكان كثيراً إلى جهة الجنوب؟ ويقع قرب كيواه وسيبروك؟"
"إنه في جزيرة وادمالو. إن المنطقة زراعية بالكامل".
فكّرت بما قالته.

"ارتحل السيد بينگني مسافة طويلة جداً ليشنق نفسه".
دخلت امرأة إلى الغرفة قبل أن تتمكن إيمّا من الإجابة. ارتدت المرأة معطفاً
أبيض اللون، ولاحظت أنها تحمل أوراق جداول في إحدى يديها. بدا وجهها ودياً
لكنه لم يحمل أية تعابير تدلّ عن حقيقة مشاعرها.
قدّمت إيمّا المرأة على أنها الدكتورة ناديا لي رسل. لاحظت بعض العصبية
الكامنة في صوتها، مع أنها أظهرت شجاعة تامة منذ الصباح.
قالت رسل: "سمعت أنك وقعت بمشكلة".
علّقت إيمّا: "إنه إرهاب فقط".

"هل فقدت وعيك؟"

اعترفت إيمّا: "نعم".

"هل حدث معك هذا من قبل؟"

"لا".

"هل تشعرين بالحمى؟ أو الغثيان؟ أو تتعرقين في الليل؟"

"أشعر ببعض هذه العوارض".

"بماذا تشعرين بالتحديد؟"

"أعاني من كل العوارض التي ذكّرتيها".

كتبت رسل بعض الملاحظات، ثم قلبت بعض الصفحات في جداولها.
ترددت في الغرفة أصوات الأضواء الفلورية المعلقة في السقف.

تابعت رسل القراءة. بدا أن صمتها يُنذر بأمر مشؤوم. شعرت بحزومات
باردة تضغط على صدري. فلقد كان الأمر يشبه انتظار إصدار حكم المحلفين.
ستعيشين، لن تعيشي. أنت أفضل حالاً، لست بأفضل حال. أجبرت نفسي
على الابتسام.

أخيراً، تكلمت رسل.

"أخشى أن أقول إنني لا أحمل أخباراً سارة إليك يا إيما. لم تتحسن معطيات تعداد كريات الدم عندك على النحو الذي كنت أتمناه".

"هل انخفضت؟"

"دعيني أقول فقط إنني لا أرى بوادر التقدم الذي كنت أنتظره".

شعرت أن الغرفة تنطبق من حولي. وتقدّمت لأمسك بيد إيما.

بدا وجه إيما متصلباً، ولاحظت أن صوتها خلا من كل أثر للعواطف: "والآن

ماذا؟"

قالت رسل: "سنستمر بالعلاج. يمثّل كل مريض حالة مختلفة، ويبدو أن

العلاج يستغرق وقتاً أكبر بالنسبة لبعض الناس كي يثبت فعاليته".

أومأت إيما.

"إنك شابة وما تزالين قوية. استمري بالعمل إن كنت تَميلين لذلك".

"سأفعل".

لحقت نظرات إيما رسل أثناء مغادرتها الغرفة. رأيت الخوف والحزن في

عينها، لكنني لاحظت التحدي أكثر من أي شيء آخر.

"تستطيعين المراهنة بكل ما لديك أنني سأستمر بالعمل".

تصف كراسات السياحة وادمالو باعتبارها أكثر جزر تشارلستون التي

بقيت على طبيعتها، لكنني لاحظت في حالتنا هذه أنها أيضاً الأقل إغراءً من

بينها.

تُعتبر وادمالو تقنياً جزيرة نختها نمرًا بوهيكت، وإديستو الشمالي، من البر

المحيط بها. تشكل جزيرتا كياوا وسيروك، المجاورتان لجزيرة وادمالو، حاجزاً

ضخماً بينها وبين المحيط، وتنتشران إلى الجنوب وإلى الغرب منها. سأورد الآن

الأخبار الطيبة: تُعتبر وادمالو جزيرة مستقرة، ونادراً ما تتعرض للأعاصير المدمرة.

نأتي الآن إلى الأخبار السيئة: تفتقد الجزيرة للشواطئ الرملية. يُذكر أيضاً أن سطح

وادمالو هو خليط من الغابات والأهوار، أي أنه يشتمل على المناطق البيئية التي

نادراً ما تجتذب السياح ومشتري منازل قضاء العطلات.

يتألف معظم سكان الجزيرة من المزارعين، والصيادين، وصيادي الكركند، وصائدي القريدس، وذلك بالرغم من وجود عدد قليل من المنازل الفخمة التي شيدت حديثاً. إن منطقة الجذب الوحيدة في الجزيرة هي مزرعة تشارلستون. تحمل المزرعة التي بدأت العمل في عام 1799، لقب أقدم مزرعة شاي في أميركا، لكن لعلها تكون مزرعة الشاي الوحيدة في هذه القارة.

لا يعلم أحد ماذا يجيء المستقبل لهذه الجزيرة، فإذا ما اهتم السياح المهتمون بالمحافظة على البيئة بهذه الجزيرة، فستشهد عصرها الذهبي.

تقع قرية روكفيل في طرف جزيرة وادمالو الجنوبي. انطلقت وإيما باتجاه هذه المدينة بعد مغادرتنا العيادة. حاولت أثناء توجهي إلى سيارتي أن أفتح موضوع أخذها لإجازة من العمل. أوضحت لي إيما أن تلك القضية تتعدى حدودي. انزعجت من موقفها في البداية. لماذا تطلب مني أن أرافقها، ثم تستبعدني عن الموضوع؟ لكن أليست هذه هي الطريقة التي سأصرف بها بالضبط فيما لو كنت مكافأ؟ وهل كنت سأقضي على مشكلتي عن طريق تجاهل الحديث عنها كلياً؟ لم أكن متأكدة، لكنني رضخت لرغبات إيما. إنه مرضها هي، وهي المسؤولة عنه.

قادت السيارة، والتزمت إيما الصمت. قادتنا تعليماتها إلى الطرف الجنوبي الغربي عبر جزيرتي جايمس وجونز، حتى وصلنا إلى طريق مايبانك السريع، ثم وصلنا إلى طريق بيرز بلوف (خداع الدببة). التزمنا الصمت التام فيما عدا تعليمات السير التي وجهتها، وبعض الأحاديث القليلة التي تبادلناها، والمتعلقة باللوحات الموجودة على الطريق. اكتفينا بسماع صوت مكيف هواء السيارة، ومراقبة الحشرات التي تصطدم بزجاج السيارة الأمامي.

وجهتني إيما أخيراً كي أنعطف إلى طريق ضيق، تصطف على جانبيها أشجار السنديان التي تتدلى منها الأشنة الإسبانية. أمرتني بعد وقت قليل بالانعطاف إلى اليمين مجدداً. سرنا ربع ميل آخر قبل أن ننعطف إلى اليسار لنسير على طريق ترابي مليء بالحفر.

انحنت الأشجار المعمرة على جانبي الطريق، والتي جذبتها أشعة الشمس المتسربة إلى الطريق. انتشرت الخنادق وراء الأشجار الخضراء والداكنة بفعل الأشنة والمياه المالحة.

انتشرت هنا وهناك بعض الصناديق البريدية القديمة، والتي دلت على بداية الطريق التي تلتف حول قطع الأراضي المنتشرة. غطت النباتات الكثيفة الطريق. شعرت وكأنني أسير بين ممر يربط ما بين المكان والزمان في الفضاء. "هناك".

أشارت إيما إلى صندوق بريدي. فاقتربت منه. شكّلت الأحرف المعدنية صفّاً غير مستقيم عليه، وهي من نوع الأحرف التي تشتريها من مخزن هوم ديبو وتلصقه على الصندوق. وبرز الاسم، بينكني. شاهدت لوحة منزلية الصنع موضوعة بشكل عمودي عليه. جاء في اللوحة "أرانب للبيع. أفضل طعام".

سألتُ إيما: "ماذا يصطاد المرء بواسطة الأرانب؟" أجابت إيما: "إنها حمى الأرانب. انعظني من هنا". سرنا مسافة ثلاثين ذراعاً، ولاحظنا أن الأشجار اختفت لتحل مكانها الشجيرات المتشابكة. سرنا عشر ياردات أخرى لنلاحظ أن الشجيرات اختفت، وظهرت باحة ترابية صغيرة مكانها.

لا يُعتبر هذا مكاناً يجذب أصحاب المشاريع السكنية. لم أشاهد أي منازل، ولا ملاعب لكرة المضرب، ولم أشاهد أي أثر يذكرني بديكي دوبري. شاهدت منزلاً صغيراً مبنياً من الألواح الخشبية في وسط هذه الباحة. وشاهدت الإطارات المطاطية المكسرة المعتادة مع هذا النوع من المنازل، بالإضافة إلى قطع السيارات، وبعض قطع الأثاث المتكسرة، وبعض الأدوات المنزلية الصدئة. يتألف هذا المنزل من طابق واحد رُفِع عن الأرض بواسطة بعض الردميات الحجرية المتفتتة. شاهدنا الباب الأمامي مفتوحاً، لكنني لم أستطع مشاهدة أي شيء في الداخل بسبب المناخل الخارجية.

شاهدت إلى يمين الباحة سلكاً معدنياً ماراً بقائمتين عموديتين. ولاحظت وجود لجام يتدلّى من السلك، ورأيت في نهايته القرية من الأرض طوقاً مع سلسلة. رأيت إلى يسار الباحة كوخاً خشبياً صغيراً غير مطلي. افترضت أن هذا الكوخ هو مأوى تلك الأرانب البائسة.

شاهدت إيما وهي تأخذ نفساً عميقاً وطويلاً. أعرف كم أهما تكره ما هي مقدمة عليه. نزلت إيما من السيارة. وتبعتها. صفعنا الهواء الساخن المثلث بالرطوبة، ورائحة الخصار المتعفنة.

انتظرت في أسفل الدرج، بينما صعدت إيما إلى الشرفة. حرصت على التحديق فيما حولي، وبقيت محترسة من أي ثور، أو من كلب ضخمة الجثة. إنني أحب الكلاب، لكنني واقعية أيضاً. إن القوارض الريفية تشكل خطراً كبيراً على الغرباء، وكثيراً ما تتسبب بجرحهم. قرعت إيما الباب.

نعق طائر كبير فوقنا، واندفع ليصبح فوق الكوخ الصغير. شاهدته وهو يرتفع بحركة لولبية ليختفي بعدها فوق الأشجار الصنوبرية الكثيفة المنتشرة وراء الباحة. نادى إيما وقرعت الباب ثانية.

سمعت صوت رجل، ثم سمعت صرير المفصلات الصدئة. تطلعت مجدداً نحو المنزل. ورأيت آخر إنسان توقعت أن أراه.

11

دقت إيماء على الباب ففتح لها رجل يرتدي بنظالاً فضفاضاً أصفر اللون، وقميصاً ذا لون مشمشي كُتب عليها اذهب إلى بيتك. الأرض مليئة وبتعل صندلاً سميك النعل منزلي الصنع. وضع الرجل نظارته ذات الإطار الأسود، ولاحظت أن شعره اللامع ممشط بطريقة غريبة هي أشع ما رأيت.

"من يدق على بابي اللعين؟"

جمدت في مكاني، وفتحت فمي، ورحت أحدق بشمستر بينكني.

لم تر إيماء رخصة القيادة الممنوحة لبينكني، ولذلك لم تنتبه أبداً إلى أنها تكلم الشخص الذي تظهر صورته في الرخصة. تقدّمت إيماء من دون أن تنتبه لردّ فعلي.

"كيف حالك سيدي. هل لي أن أسأل إذا ما كنت أحد أفراد عائلة بينكني؟"

"أعتقد أن هذا المكان كان منزلي اللعين منذ أن نظرت إليه آخر مرة."

"نعم سيدي. وأنت من تكون؟"

"هل السيدتان بحاجة إلى شيء لمساعدتهما على الصعود؟"

"لا سيدي. أود التحدث إليك بشأن شيستر تايروس بينكني."

تحوّلت نظرة بينكني إليّ.

"هل هذه مزحة ما؟"

قالت إيماء: "لا يا سيدي."

همست: "إيماء".

أسكتني إيما بإيماءة خفيفة من يدها.
ارتسمت ابتسامة على شفتي بينكي، فكشف بذلك عن أسنان اصفرّت
نتيجة التدخين المستمر منذ سنوات، وأيضاً نتيجة الإهمال.
سأل بينكي: "هل أرسلكما هارلان؟"
"لا يا سيدي. أنا المحققة الجنائية لمقاطعة تشارلستون."
"وهل عيّنوا امرأة في منصب المحققة الجنائية؟"
أبرزت إيما شارفها للرجل.
تجاهل بينكي الشارة.
حاولت مرة ثانية أن ألفت انتباهها: "إيما."
"أنت تقصدين بالحديث عن جثث مثل تلك التي نشاهدها على شاشة
التلفاز؟"

"نعم سيدي. هل تعرف شيمستر بينكي؟"
أعتقد أن سؤال إيما قد أصابه بالتشوش، أو لعل بينكي كان يفكر في طريقة
تقديمه لإجابة ذكية، لذلك اكتفى بالتحديق فيها بشروء.
تدخلتُ شخصياً: "سيد بينكي."
نظر بينكي وإيما نحوي في وقت واحد.
"أبغتم أن تكون قد فقدتَ محفظتك؟"
خفضت إيما حاجبيها، ونهضت، ثم أغلقت عينيها وقد رفعت رأسها نحو
الأعلى. هزّت رأسها قليلاً، ثم عادت لتتركز على بينكي.
سأل بينكي: "وهل هذا هو كل شيء؟"
جاءت نبرة إيما أكثر استرخاءً هذه المرة: "هل أنت شيمستر تايروس بينكي؟"
"وهل أشبه هيلاري كلينتون السيئة الذكر؟"
"أنت لا تشبهها يا سيدي."
"هل قبضتم أخيراً على ذلك الحثير الذي سرق محفظتي؟ هل ساستعيد مالي؟"
"متى فقدتَ محفظتك يا سيدي؟"

"لم أفقد تلك المحفظة المعينة، بل سرقت مني".
"ومتى حدث ذلك؟"
"حدث ذلك منذ وقت طويل لا أستطيع تذكره".
"حاول أن تتذكر من فضلك"
فكر بينكني بالمسألة قليلاً.
"حدث ذلك قبل أن تستقر شاحنتي في قناة المياه، ومن يومها لم ألح رخصة قيادتي".
انتظرنا بينكني كي يكمل كلامه. ولكنه لم يفعل.
حنته إيما ثانية: "ومتى كان ذلك؟"
"أعتقد أننا كنا في شهر شباط (فبراير)، أو آذار (مارس). أتذكر أن الطقس كان بارداً، وكدت أجمد في طريق عودتي إلى البيت مشياً على الأقدام".
"هل أبلغت الشرطة؟"
"لم تكن تساوي شيئاً. بعثتها لتجار الخردة".
"إنني أتحدث عن محفظتك".
"أنت محقة، رفعت تقريراً بشأنها. احتوت المحفظة على أربعة وستين دولاراً نقداً وعداً".
شدّد بينكني على مقاطع كلماته.
بدأت إيما بأخذ ملاحظات في هذا الوقت: "ما هو اسم المكان الذي فقدت فيه المحفظة؟"
"لم أفقد المحفظة، بل تعرضت للسرقة".
"هل أنت متأكد؟"
"وهل أبدو لكما شخصاً أحقق لا يستطيع المحافظة على ممتلكاته".
شدّد الرجل على مقاطع كلماته مرة أخرى.
"لا سيدي، صف لنا الحادثة من فضلك".
"خرجنا لنلاقي بعض السيدات".
"ماذا تقصد بقولك خرجنا؟"



"أقصد أنا وصديقي آلف".

"أخبرني ماذا حدث".

"ليس هناك الكثير مما يُروى. أعددتُ وآلف بعض المشاوي، وتناولنا بعض المشروبات. وصحوت في صباح اليوم التالي من دون أن أجد محفظتي".

"هل بحثتما عنها في جميع المؤسسات التي زرتها؟"

"بحثنا في تلك التي استطعنا تذكرها".

"أين كنتما؟"

هز بينكني كفيه: "اعتقدت لفترة أننا كنا في دوبل آل. أفرطتُ وآلف بالشراب".

وضعت إيما دفتر مذكراتها في جيب قميصها.

"وجدنا محفظتك يا سيد بينكني".

صاح بينكني مستهجنًا: "ظننت أنني لن أرى الأربعة وستين دولاراً أبداً. لا أحتاج لرخصة القيادة لأنني لم أعد أملك شاحنة".

"أنا آسفة يا سيدي".

تضيق عينا بينكني: "ولماذا تكلف المحققة الجنائية نفسها عناء المحي لتخبرني

بهذا؟"

تفحصت إيما بينكني، وراحت تفكر، كما أظن، بذلك القدر من المعلومات الذي تستطيع التحدث عنه بشأن الظروف التي أحاطت باسترجاع المحفظة.

قالت إيما: "إنني أساعد الشريف قليلاً".

نزلت إيما الدرج بعد أن شكرت بينكني على التحدث معنا. استدرنا معاً

لتعبر الباحة بعدما اقتربت مني.

أعاق طريقنا كلب رمادي اللون وبحالة مزرية، ولاحظنا أن طوقاً زهري اللون أحاط عنقه. وشاهدت سنجاباً ميتاً بين مخالبه الأمامية.

نظر الكلب باتجاهنا بفضول، ونظرنا إليه بدورنا.

شقّ الهواء صفيحاً وقصير أطلقه بينكني: "دوغلان، تعال إلى هنا".

فرض دوغلان، وأمسك بالسنجاب بين أنيابه، ثم دار من حولنا.

سمعت صريراً، ثم طرقةً حادة، أثناء توجّهي مع إيما نحو السيارة.

قالت إيما: "يا للساذج اللطيف والمسّن".

"أقصد دوغاناس؟"

"لا. أقصد بينكني"

"إنه يتجول مع السكرين".

حدّقت إيما بي.

شعلت محرك السيارة، واستدرت بها، ثم انطلقت نحو الطريق.

سألني إيما: "هل لاحظت دوغاناس؟"

"يبدو الطوق قديماً بعض الشيء، لكن دوغاناس سعيد به. يتناسب الطوق مع

لون عينيه".

سألت إيما: "ما هي احتمالات أن يكون ذلك المففل قد تعرّض للسرقة فعلاً؟"

أجبتها: "ما هي احتمالات اختياري لأكون بطلة أميركا لهذا العام؟"

قالت إيما عندما وصلنا إلى الطريق المزفت: "لدينا ضحيتان".

"لدينا الرجل المشنوق على الشجر، ورجل دي ويز المدفون في قبر".

"يا للسجع الرائع".

"يرجع الفضل في ذلك للدم الإيرلندي الذي يسري في عروقي، وبالمناسبة

كيف تشعرين اليوم؟"

"إنني متعبة قليلاً، لكنني بخير".

"حقاً؟"

أومأت إيما.

"جيد".

لم تسألني إيما ما إذا كنت سأساعد في تحليل عظام الرجل المشنوق على غصن

الشجرة. أعرف الجواب. أعرف أيضاً أن غوليت سيقوم ببعض الأعمال القانونية،

ولا شك في أنه سيسخر من انغماسي في قضية أخرى.

تخلّلت الحديث الذي سيجري بينه وبين إيما، وقدت السيارة إلى المشرحة

مباشرة.

اتصلت إيما بغوليت لتتنقل إليه آخر الأخبار، ولاحظت أن فترة ما بعد ظهرية يوم الثلاثاء هي تكرر، أو نسخة، لما حدث في صبيحة يوم السبت. رأيت نفس براد المشرحة، ونفس الأرض المبلطة وغرفة التشريح بتجهيزاتها المؤلفة من الفولاذ الذي لا يصدأ. وتنشقت نفس رائحة الموت المعقمة.

أعطت ميلو حثة الرجل المشنوق رقم CCC-2006020285.

ارتدت إيما الرداء الرسمي للعمل، وساعدتها على نقل الحثة رقم CCC-2006020285 من الكيس إلى طاولة التشريح. وضعنا أولاً أجزاء المفاصل، ثم الجمجمة، وأخيراً وضعنا أجزاء الجسد التي سقطت، أو انتزعت انتزاعاً بواسطة الحيوانات المفترسة.

افتقدت الحثة للدماغ والأعضاء الداخلية. بقيت أجزاء الجذع، والذراعين، وعظام الساقين العليا، مغطاة بالعضلات والأربطة، والتي كانت فاسدة في بعض الأماكن، أما في بعض الأماكن الأخرى فبدت مسمرّة جداً وقاسية، بسبب تعرضها الطويل لأشعة الشمس والرياح. لم تكن الحثة صالحة لإجراء تحليل للعظام عليها، لكنها كانت تعد بإمكانية التعرف على هوية صاحبها. إن وجود الأنسجة يعني وجود الجلد، والجلد يعني إمكانية أخذ البصمات.

لاحظت أن كمّ (ردن) السترة ساهم في حفظ اليد اليمنى من التلف، ووقاها بذلك من اليباس، لكن عملية التحلل جعلت الأنسجة هشّة جداً.

سألت إيما ألدريك (محلول تحسين نوعية الأنسجة، وهو محلول ملحي مخفف يحتوي على حامض الستريك (أو الليمونيك))، وهو المحلول الذي يُستخدم في ترميم الأنسجة الجافة أو التالفة.

"بعد إذن المحنطة المفضلة عندي".

"سخّنيه إلى درجة تقارب الخمسين درجة مئوية".

جعلتني إيما أبدو وكأنني الرئيسة في عملية تشريح هذه العظام، أي مثلما فعلت في قضية دي ويز. لا أعرف كم من الوقت سأسمح لها بالاستمرار في هذه اللعبة، لكنني صممت على إتمام المهمة حتى يعلن شخص ما عن انتهائها.

"هل نستخدم فرن الموجات الصغرى؟"

"لا بأس في ذلك".

انتهزت فرصة مغادرة إيما الغرفة كي أنتزع جميع أصابع اليد اليمنى التي قطعتها على مستوى مفاصل السلاميات. عادت إيما، فوضعت هذه الأصابع المنتزعة في إناء المحلول، ووضعتها جانباً كي تتشبع به.

"أتمنعين إذا خرجت بسبب مهمة إعادة رسم موقع وفاة تتطلب اهتمامي. أعطي البصمات عند جهوزها إلى تقيّ المختبر، وهو سوف يرسلها إلى غوليت".
"سأفعل ذلك".

جرى فحص العظام بطريقة سهلة جداً. ذكرني هذا الفحص بالتحليل الذي أجرته لرجل دي ويز المجهول، فيما عدا الضجر الناتج عن عملية تقطيع الأنسجة وانتزاعها.

وجدت أن عملية فصل العمود الفقري إلى أجزاء هي الأصعب. بدأت بالعمل على العظام الأقل تماسكاً، والتي مازالت مغطاة باللحم أثناء وجودها مبللة في المحلول. استنتجت من شكل عظام الجمجمة، وعظام الحوض، أن الضحية ذكر. واستنتجت من مؤشرات الأسنان، والأضلاع، والعظام العانية الارتفاقية، أن هذا الرجل قد عاش فترة تتراوح ما بين خمسة وثلاثين عاماً إلى خمسين عاماً. دلّني العظام القحفية والجمجمة على أن أجداده قدموا من أوروبا. إنه رجل أبيض آخر في الأربعينيات من عمره. تنتهي هنا نقاط التشابه الجسدية.

إن رجل دي ويز كان طويلاً، لكن مقاسات عظام الساق الطويلة للرجل المشنوق في الشجرة، دلّت على أن طوله تراوح ما بين 165 و170 سنتم. إن شعر رجل دي ويز كان طويلاً وأشقراً، بينما شعر الرجل المعلق كان قصيراً، ومجعداً، وبنيّ اللون.

افتقد الرجل المعلق في الأشجار للأسنان الصناعية، بالإضافة إلى ثلاثة أسنان طاحنة وسنّ ما قبل أسنان الطواحن في الفك الأعلى، وذلك بعكس ضحية دي ويز. بقيت الأسنان السفلى مجرد لغز لأنني لا أمتلك الفك الأسفل. ودلّت البقع المنتشرة في جانب اللسان على أن الضحية قد استمتع كثيراً بتدخين السجائر.



بدأت البحث عن شذوذٍ محتمل في الهيكل العظمي، وذلك بعد أن انتهيت من إعداد ملخصٍ بيولوجي. بحثت، كالعادة، عن عيوبٍ خلقية (منذ الولادة)، أو تغيرات بنوية في العظام نتيجة النشاطات المتكررة، أو عن أضرارٍ أخرى وصلت إلى حالة شفاء، بالإضافة إلى أي شيء يدلّ على سجل العلاج الطبي للضحية. لاحظت أن الرجل المشنوق قد تعرض لكسور، بما فيها كسر في عظمة الساق اليمنى الصغرى، وكسور في عظام الخدين، ونوعٍ من الإصابة في عظمة الكتف، لكنها شفيت جميعها. وأظهرت صور الأشعة السينية وجود بقعة معتمة غريبة على عظمة الكتف اليسرى، وهو الأمر الذي أوحى باحتمال وجود كسرٍ قديم.

لم يكن الرجل ضخماً الجثة، لكنه كان مرماً عظيماً. انتصبت في وقتي، وحرّكت كتفيّ، ثم رأسي بعد ذلك. شعرت وكأن غوراً قد مرّرت مخالهاً على ظهري. أشارت عقارب ساعة الحائط إلى الرابعة والأربعين دقيقة. حان وقت تفحص الأصابع.

لانت الأنسجة بشكلٍ مرضٍ. استخدمت محقنة صغيرة، وحقنت المحلول الملحي الحامضي TES في منطقة باطن راحة اليد. غاصت أطراف الأصابع. غسلت كل إصبع بالكحول (السيبرتو)، ووضعت كل واحد فوق مختمة حبر، ثم طبعته على الورقة. ظهرت خطوط البصمات واضحة بشكلٍ معقول على الورقة.

ناديتُ التقني، وسلّمته البصمات، وعدتُ إلى العظام. لاحظت أن التلف الذي وقع بعد الوفاة كان محدوداً بمنطقة أسفل الساقين. دلّت العضّات والتمزقات التي شاهدتها، والتي ترافقت مع وجود جروح وثقوب دائرية صغيرة على احتمال أنها حصلت بسبب الكلاب. لم أجد أيّ دليل يتعلّق بجروح حدثت قبل الوفاة مباشرة، ولا أي شيء يدلّ على أن الوفاة حدثت من أي شيء عدا السبب الواضح: الخنق الناتج عن انضغاط بنية الرقبة. يعني ذلك بلغة الناس العاديين حدوث عملية شنق.

اتصلت بي إيما عند الساعة السابعة. فأعطيتها آخر المعلومات. وقالت لي إنها تنوي التعرّيج على مكتب الشريف بعد وقت قليل، وذلك من أجل وخز غوليت بحسب تعبيرها.

ذَكَرْتَنِي كلمات إيما بالجوع الذي بدأت أشعر به فتوجّهت إلى مطعم المستشفى. تناولت وجبة شهية من اللازانيا مع القليل من الصلصة، وطبقاً غنياً من السلطة. وعدت بعد انتهائي من هذه الوجبة إلى غرفة التشريح.

لاحظت أن بعض الأجزاء لم تتشبع بالماء بشكلٍ كافٍ، لكنني تمكّنت بالرغم من ذلك من تحرير أجزاء كبيرة من العمود الفقري من غطائها العضلي المتعفن. تركت قطعة متصلة كي تتشبع بالماء، ووضعت الفقرات العنقية والصدرية على الصبينة التي تضم فقرتين عنقيتين سبق لي أن انتزعتهما من قاعدة الجمجمة.

عدت إلى المنظار. بدأت بفحص الفقرة C-1، ثم وجهت العدسة جنوباً كي أفحص باقي الفقرات. لم أجد أي شيء غير اعتيادي حتى وصلت إلى الفقرة C-6. تكرر بعدها المشهد الذي حدث يوم السبت.

وجدت أمامي جسم الفقرة، والقوس، والتواءات المستعرضة التي تحتوي على الثقوب الصغيرة التي تمرّ الأوعية القحفية من خلالها. وجدت إلى يسارها كسراً مفصلياً.

عدّلت قوة تركيز عدسة المنظار، وغيّرت موضع الضوء. بدا كل شيء واضحاً أمامي. ظهر كسرٌ دقيق جداً يمتدّ عبر يسار التواء المستعرض، ثم انتشر من الجهات المتقابلة للثقب.

وجدت أمامي النمط ذاته الذي شاهدته في الهيكل العظمي الذي وجدناه في دي ويز. أثبت لي الكسر المفصلي، وانعدام التفاعل العظمي، أن هذا حدث أيضاً نتيجة ضربة تعرضت لها عظام حية. تزامن هذا الكسر مع وقت حصول الوفاة.

لكن كيف؟

إن فقرة C-6، والمنطقة السفلية من الرقبة، هما في منطقة أبعد من أن يصلها تأثير عملية الشنق. ربما سقط الرأس بفعل حيوان مفترس، لكن الأنشطة بقيت في مكانها الذي يقع بين الفقرتين C-3 و C-4.

هل نتج ذلك عن خلج مفاجئ عندما قفز الضحية من الغصن؟ وإذا كان قد قفز من فرع الشجرة، فكيف وصل إلى ذلك الفرع؟ هل تسلق الرجل الشجرة صعوداً ليصل إلى ارتفاع 180 ستم؟ يبقى ذلك احتمالاً وارداً.

أغمضت عيني، وحاولت أن أتخيل الجثة المتدلية من الشجرة. تواجدت الأنشودة خلف الرقبة، وليس إلى جانبها. لم أجد أن ذلك يتناسب مع شيء يتسبب بكسر واحد. دقت ذهنياً بصور ميلر التي التقطتها لمسرح الجريمة.

هل يفسر الشنق الكسر الذي أصاب عنق الضحية في دي ويز؟ هل أقدم على الانتحار هو الآخر؟

إن هذا احتمال وارد، لكنني متأكدة من أن الرجل لم يحفر قبره بنفسه.

هل تسير إيما على الطريق الصحيح؟ أيعقل أن يكون رجل دي ويز قد قتل نفسه، ثم قام أحد أصدقائه، أو أحد أقربائه، بدفنه؟ ولماذا؟ هل حصل ذلك نتيجة الشعور بالعار؟ أم بسبب التردد في تحمل نفقات الدفن؟ وهل نتج ذلك عن الخوف من أن شركة التأمين سوف ترفض دفع التكاليف؟ بدا ذلك احتمالاً بعيداً. يستغرق الأمر أحياناً عشر سنوات قبل الإعلان عن وفاة شخصٍ مفقود.

هل تتحول قضية دي ويز إلى قضية لا تتعدى التخلص غير اللائق من جثة إنسان؟

استعرضت التفسيرات البديلة لكسر الرقبة الوحيد الذي لاحظته عند الرجل الذي شُنق على فرع شجرة. بقيت التفسيرات ذاتها هي التي استعرضتها بالنسبة لضحية دي ويز.

هل نتج الكسر عن سقطة؟ أم عن عملية خنق؟ أم عن مقبض سوط؟ أم عن ضربة على الرأس؟

لم أجد أي منطق في كل هذه الاحتمالات بسبب طبيعة الكسر وموقعه.

استغرقت في تفكيري إلى أن اقتحمت إيما باب الغرفة.

"عرفنا هويته!"

ابتعدت عن المنظار.

لوّحت إيما بورقة مطبوعة باتجاه الهيكل العظمي: "مرّر غوليت البصمات في نظام AFIS (أي النظام الآلي للتعرف على البصمات) فظهر صاحبنا على الفور". لفظت إيما الاسم، وسرعان ما شعرت أن كياني اهتزّ بكامله.

12

"نوبل كروكشنيك".
يا الله القدير".

لم ألاحظ ما إذا كان ردّ فعلي هذا قد أدهش إيماناً.
"إن كروكشنيك هو رجل متقاعد من رجال شرطة شارلوت - ماكلينبيرغ،
لكن تقاعده ليس هو السبب في ورود اسمه في النظام. يتم أخذ بصمات المتطوعين
الجدد في شرطة شارلوت - ماكلينبيرغ في معهد الشرطة بالطبع، لكن هذه
البصمات تبقى شأناً داخلياً لديهم. قبض على كروكشنيك في عام اثنين وتسعين
لقيادته سيارته تحت تأثير الكحول، ولذلك تم إدخال معطياته في بصمات النظام".
أعرف جواب السؤال الذي ينم عن غيبي، والذي طرحته عليها: "هل أنت
متأكدة من أنه كروكشنيك؟"
"أنا متأكدة مئة بالمئة".

تناولت الورقة المطبوعة، وقرأت مواصفات كروكشنيك: ذكر، أبيض، الطول
165 سنتم. ويشير تاريخ الميلاد إلى أن عمره سبعة وأربعون عاماً.
تناسبت هذه المعلومات مع التقديرات التي وضعتها. تدلّ حالة اللجنة على
مرور شهرين على وفاة صاحبها، وتعرضها لشتى العوامل. تأكدت أنه
كروكشنيك.

إنه نوبل كروكشنيك، وهو التحري المفقود الذي استخدمه بوك فلين.

تفحّصت الصورة. إنها صورة مبرغلة باللونين الأبيض والأسود، وتعطي انطباعاً بأن صاحبها هو رجل.

بيّنت الصورة أن بشرة كروكشنيك مليئة بيثور الجدري، أما أنفه فكان مقوساً، ولاحظت أن شعره مسرح إلى الخلف ومجمدٌ في نهاياته. بدا لي أن اللحم بدأ بالترهل على امتداد فكّه وخدّيه، ولعله يحمل من الوزن أقل مما كان يرغب فيه. ظلّت تعابير وجهه مع ذلك تنم عن ذكورية رجل صلب.

"إنه نوبل كروكشنيك بالتأكيد."

"أتعرفينه؟"

"لا أعرفه شخصياً. طُرد كروكشنيك من الشرطة في عام أربعة وتسعين، بسبب قضية تورط بها مع جيمي بي. عمل الرجل كمحققٍ خاص إلى أن اختفى في أواخر شهر آذار (مارس)."

"أعتقد أننا نحصل على هذه المعلومات بسبب...؟"

"أتذكرين بيتي؟"

"إنه زوجك."

"إنه زوجي الذي انفصلت عنه. كلّف بيتي للتحقيق ببعض التعاملات المالية التي قامت بها كنيسة رحمة الله، بالإضافة إلى الاستقصاء عن مكان وجود ابنة موكله المختفية، والتي تورطت مع هذه الجمعية. استخدم بوك فلين، وهو اسم الموكل، كروكشنيك قبل أن يكلف بيتي بهذه القضية. اختفى كروكشنيك أثناء إجراءات لتحريراته."

"أعرف أن بيتي هو محام."

"أعرف ذلك. يتحدر بيتي من لاتفيا، وكذلك والدة فلين. يتق فلين به لأنه من أبناء قومه."

"هل اختفت ابنة فلين هنا؟"

"يفترض هذا. تخصص كروكشنيك في البحث عن الأشخاص المفقودين، واختار منطقة عمل تقع ما بين تشارلستون وشارلوت. انتمت هيلين فلين، أي الابنة، إلى كنيسة رحمة الله التي يُعتبر بوك أبرز المتبرعين لها."



"يرأس أوبري هيرون هذه الكنيسة، لكن يوجد شيء مثير للاهتمام هنا. ألم يُدهش فلين عندما توقّف محققه الخاص عن إرسال التقارير إليه؟"

"يبدو أن كروكشنيك معروف بحفلات الثمل."

"وهل أقدم فلين على استخدام رجل سكير؟"

"لم يعرف هذا عنه إلا بعد مرور وقت على استخدامه له. وجدّ اسم كروكشنيك في شبكة الإنترنت. فضّل الرجل لهذا السبب بالذات استخدام شخصٍ من العرق البلطقي."

طرحَت إيما السؤال الذي كنت على وشك أن أطرحه بنفسِي.

"ما هي علاقة كروكشنيك بحفلة بينكني؟"

قلت مرتجلة: "هل وجدها؟"

"هل سرقها؟"

"هل حصل عليها من شخصٍ عثر عليها، أو سرقها؟"

"قال بينكني إن الحفلة اختفت في شهر شباط (فبراير)، أو آذار (مارس)، وهو الوقت الذي يتناسب مع انتحار كروكشنيك."

"أنت تفترضين أنه انتحار."

"على سبيل الافتراض، ولعل شخصاً وجد الجثة معلقة في تلك الغاية، فدرس الحفلة فيها."

سألتُ: "ولماذا يفعل ذلك؟"

"هل هذا نوع من المزاح الثقيل؟"

"إنه نوع سقيم من المزاح."

"أو هل قصدوا التشويش على عملية تحديد هوية الضحية عندما يحين الوقت؟"

"أعتقد أن الحفلة كانت في جيب السترة، أليس كذلك؟ لعل كروكشنيك استعار، أو وجد، أو أخذ، السترة من دون أن يدري أنها تحتوي على الحفلة. هل ذكر بينكني شيئاً عن فقدانه لسترته؟"

هزّت إيما رأسها.

"ولماذا لم يكن كروكشنيك يرتدي، أو يحمل، أي شيء يخصه؟"
فكرت إيما للحظة: "إن الذين يفكرون بالانتحار جدياً عادةً ما يتخلون عن
ممتلكاتهم الشخصية، لكن لماذا اختار ذلك الرجل غابة فرنسيس ماريون؟ وكيف
وصل كروكشنيك إلى هناك؟"

قلتُ: "إنه سؤال وجيه، سيدتي المحققة الجنائية."
افتقدتُ إيما، وكذلك أنا، للأجوبة الوجيهة عن هذه الأسئلة.
رفعتُ الورقة المطبوعة الآتية من المركز الوطني للتعرف على البصمات: "هل
أستطيع الاحتفاظ بالورقة؟"

قالت إيما بينما كنت أضع هذه الورقة على الطاولة: "إنها نسختك. إذا أقدم
السيد كروكشنيك الذي يخصك على شق نفسه."
صححت لها: "إن السيد كروكشنيك يخص بيتي."
"وهل بيتي موجود هنا في تشارلستون؟"
"آه، نعم."

قوّست إيما حاجباً مستغرباً.
جاء ردّ فعلي قوياً.

عدت إلى منزل البحر على امتداد أميال عندما قاربت الساعة التاسعة.
وجدت أن ثمار الدراق والطماطم تغطي طاولتين من طاولات المطبخ. إنه يوم
الثلاثاء، فافترضتُ أن بيتي قد مرّ على سوق المزارعين في جبل بلازانت.
جلس بيتي برفقة بويد في الغرفة يشاهدان مباراة للبيسبول على جهاز
التلفاز.

بدا أن فريق التوينز كان متقدماً بنتيجة عشر إلى أربع إصابات على فريق
وايت ساكس، وهو الفريق المفضّل لدى بيتي. انضمّ بيتي إلى فريق الساكس في
فترة صباه التي قضاها في شيكاغو، وعندما نُقل مركز فريق AAA إلى مدينة
شارلوت، شعر بيتي بالإحباط.

قلتُ من دون مقدمات: "مات كروكشنيك".

لهض بيّتي، وحوّل كل انتباهه نحوّي، لكن بويد أبقى عينيه على الوعاء نصف
الممتلئ بالفوشار.

"ألا تمزحين؟"

"شئق الرجل نفسه".

"هل أنت متأكدة من أنه كروكشك؟"

"أجربنا مقارنات الاثنني عشرة نقطة في النظام الوطني للتعرف على
البصمات".

أزاح بيّتي وسادة على الأريكة فتهاككتُ عليها. بدأت يسرد ما جرى مع
بينكني، ثم مع الرجل الذي علّق على شجرة، بينما تقدم بويد ببطء نحو وجبتنا
الخفيفة (الفوشار) على مهل.

"كيف حصل كروكشك على محفظة الرجل الآخر؟"

"من يدري؟"

"وهل تنوي إيما إجراء مقابلة صريحة أخرى مع بينكني؟"

"أنا متأكدة من أهما ستفعل".

أبقى بويد نظرته على بيّتي، واستدار برأسه جانباً، ثم مرّر لسانه فوق صحن
الفوشار. أسرع بيّتي بنقل مكان الوعاء إلى الطاولة التي تقع خلفنا مباشرة.
بقي بويد متفائلاً كالعادة، فقفز إلى الأريكة، وضغط بثقله إلى جانبي.
مسّدت أذنه من دون انتباه.

سأل بيّتي: "ألا يوجد شك في أن يكون كروكشك قد أقدم على قتل
نفسه؟"

ترددت قليلاً عندما تذكرت أنني وإيما نفتقد إلى الأجوبة الوجيهة، بالإضافة
إلى ما لاحظته في الفقرة العنقية السادسة.

"ماذا؟"

"لعله ليس بالأمر المهم".

ابتلع بيّتي ما تبقى من زجاجة شراب الشعير هاينكين، من دون إخفاء صوت
ابتلاعه، ووضع الزجاجة، واتخذ له وضع المستمع المهتم.

وصفت له الكسر المفصلي الذي ظهر إلى يسار التواء المستعرض من تلك
الفقرة.

"وما الغريب في هذا الكسر؟"

"لا تتناسب هذه الإصابة مع فرضية الشنق، وخصوصاً إذا أخذنا بعين
الاعتبار وجود الأنشوجة خلف الجمجمة، وليس إلى جانبها. لكن الأمر يتعدى
ذلك، يمتلك الهيكل العظمي الذي وُجد في دي ويز كسراً في المكان عينه."

"وهل هذا بالأمر المهم جداً؟"

"لم أرَ مثل هذا النمط من الإصابة من قبل، ثم فجأة يظهر أمامي مرتين في
أسبوع واحد. ألا تظن أن هذا أمر يثير الريبة؟"

"وما هو تفسيرك؟"

"أمتلك عدة تفسيرات، لكنها غير مقنعة."

"إن التردد هو مفتاح المرونة."

وضع بويد ذقنه على كتفي فأصبح أنفه على بعد سنتيمترات قليلة من وعاء
الفوشار. فأبعدته جانباً. واستلقى بعدها على حضني.

سألته: "كيف كان يومك؟"

ابتسم بيّتي ابتسامة عريضة: "أليس هذا شيئاً رائعاً؟ كأننا متزوجان بالفعل."

"لطالما كنا متزوجين بالفعل، ولم يكن الأمر رائعاً."

"إننا ما زلنا متزوجين بالفعل."

وكزت بويد. تحرك الكلب عبر حضني، وحضن بيّتي، ثم حشر نفسه معه.

بدأت بالنهوض.

رفع بيّتي يديه الاثنتين: "حسناً، حسناً. تجوّلت اليوم حول كنيسة رحمة الله."

عدت إلى الجلوس: "هل تحدّثت مع هيرون؟"

هزّ بيّتي رأسه: "نثرتُ بعض الكلمات المخيفة مثل، مقاضاة، إساءة إدارة

أموال التبرعات وهدرها."

"إنها كلمات مخيفة."

رَنّ هاتفني الخلوي في تلك اللحظة. تفحصت الشاشة الصغيرة. وبرز رقم إيما.

"استطاع غوليت أن يتعقب أثر عنوان كروكشنيك. يبعد المكان قليلاً عن كالهون، ويقع بالقرب من مجمع MUSC. ذهب الرجل إلى هناك، واستطاع إقناع المالك بالتوقف عن مشاهدة الذي في دي، لفترة كانت كافية ليعرف منه أن كروكشنيك استأجر شقة عنده لمدة تقارب الستين، لكن الرجل لم يظهر في شقته منذ شهر آذار (مارس). يدعى مالك الشقة هارولد باروت، وهو رجل إنساني بطبعه. أقدم باروت على جمع أغراض كروكشنيك في صناديق كرتونية، وغير الأقفال، ثم نظف الشقة، وذلك بعد أن تأخر ثلاثين يوماً عن دفع الإيجار".

"وماذا حدث لهذه الصناديق الكرتونية هذه؟"

رفع بيتي حاجبين متسائلين. أومأت عندما تلفظ بكلمة كروكشنيك.

"كدسها باروت في الطابق السفلي، وافترض أن كروكشنيك قد غادر البلدة، لكنه لم يكن يريد الوقوع بمشاكل إذا ما عاد وظهر مجدداً مطالباً بأغراضه. فهم غوليت أن باروت كان يخاف من كروكشنيك. سيعود غوليت إلى هناك في الصباح، وسوف أرافقه. وأظن أنك ترغبين بالانضمام إلينا".

"أين يقع المكان؟"

قرأت إيما العنوان، فدوتته.

"ومتى ستذهبان؟"

وجه بيتي إصبعاً نحو صدره.

"سننطلق عند التاسعة".

"وهل أليكما هنا؟"

"يبدو أننا اتفقنا".

شدّ بيتي من توجيه إصبعه إلى صدره.

"أتمنعين إذا انضمّ بيتي إلينا؟"

"يبدو أن اتفاقنا أصبح أكثر متعة".

بدأ اليوم سيئاً واستمرّ على هذا النحو.

اتصلت إيماء بي قبل الثامنة بوقت قصير، وأبلغتني أنها مرّت بليلة صعب
وسألتني إن كنت أمانع بالانضمام إلى غوليت وباروت بمفردي؟ وشرح
للشريف أنني أقدم استشارتي بشكل رسمي في هذه القضية، وطلبت من مكتبه تقد
كل العون لي.

دلّني صوت إيماء على مدى المرارة التي تشعر بها، وشعرت بالثمن الذي تدف
صديقتي بعدم اعترافها بحقيقة أن جسمها بدأ بالانهيار. أكّدتُ لإيماء أنني سأكو
على ما يرام، وأني سوف أبلغها بما يستجد فور مغادرتي شقة باروت.

رأيت بيقي وهو يعلق هاتفه الخليوي بعدما أنهى مكالمته مع فلين، وذلك ف
دخولي المطبخ. بدا بوك متضايقاً مما حصل، لكنه أبدى ارتياحه لتحديد مك
وجود كروكشنيك. أبدى بوك سروراً أكبر عندما علم بإمكانية الاجتماع
هيرون، واحتمال الحصول منه على بعض الأجوبة عن أسئلته العديدة.

اتصل بيقي أيضاً بصديق له في مركز شرطة شارلوت - ماكلينبيرغ.
يدهش الرجل عند سماعه أخبار موت زميله السابق الذي عرفه أثناء عمله كمحا
خاص ضمن قوة المركز. أضاف الرجل أن كروكشنيك كان سبطانة مسدس
القم تنتظر من يطلقها.

شاهدتُ وبيقي، سيارة الإكسبلورر التابعة لغوليت عند المنعطف، وذلك
إن خرجنا من شارع كاهون إلى طريق فرعي غير نافذ. شهدت هذه المنه
السكنية أياماً كانت فيها كثيفة الأشجار، لكن التطوير الحديث الذي مرّت
جرف في طريقه شجيرات الدفلى والبيلسان الساحرة. امتدت المكاتب والمب
التجارية إلى جانب المنازل الضخمة القديمة التي تعود لأيام الاتحاد القديم.

قادنا العنوان الذي أعطتني إياه إيماء إلى مبنى قديم استطاع الصمود إلى أيام
قبل الحرب الأهلية الأميركية، ويتمتع بهندسة تشارلستونية أصيلة: واجهة ضي
واتساع في الداخل، وشرفات جانبية في الطوابق العليا والسفلية.

ترجلتُ وبيقي من السيارة، وبدأنا نصعد الممر الموصل إلى المدخل. لاحظ
ازدياد نسبة الرطوبة، مع أن غطاء الغيوم أبقى درجات الحرارة معتدلة. شعرت
مرور لحظات قليلة أن ملابسي تلتصق بجسمي.



اقتربنا من المبنى، ورحت أحتزن تفاصيله. لاحظت الخشب المتعفن، والدهان الذي بهتت ألوانه مع مرور الزمن. رأيت أنه أصغر حجماً من المبنى الملكي في برايتون. ولاحظت وجود لوحة مزخرفة فوق المدخل كُتب عليها ماغوليا مانور. لم أشاهد شجيرات الماغوليا، ولا أية أزهار، لكنني لاحظت تشابك الشجيرات المعرشة على باحة جانبية.

لاحظت أن باب مدخل المبنى لم يكن مقفلاً. دخلتُ وبيتي من الباب، فانتقلنا بذلك من الجو الدافئ اللطيف، إلى جو دافئ لطيف أكثر برودة بقليل.

إن الردهة التي كانت فخمة ذات يوم أصبحت الآن رواقاً يضمّ درجاً مسيحاً، وجدراناً تضمّ حاملات مصابيح، وسقفاً تدلّي الثريات منه. وعكس الأثاث القليل الموجود كل الروعة التي يشاهدها المرء في عيادة طبيب الأسنان. شاهدتُ خزاناً خشبياً مصقولاً، وأريكة مصنوعة من الفينيل، ونبته بلاستيكية، وغطاءً نايونياً للطاولة، وسلّة نفايات بلاستيكية مليئة بإعلانات مهملة.

دلّ صفّان من لوحات أسماء المستأجرين على أن المنزل مقسّم إلى ست وحدات سكنية. شاهدت بطاقة وُضعت إلى يمين وأسفل الأزرار، مكتوبة بخط اليد، وتحمل رقم مدير هذا البناء السكني.

نقرت الأرقام. وأجابني باروت بعد الدقّة الثالثة.

عرّفت عن نفسي. قال باروت إنه موجود مع غوليت في الطابق السفلي، ثم دلّني على طريق النزول من خلال الرواق الرئيسي الذي يؤدي إلى المنطقة الخلفية للمبنى. أضاف أن باب الدرج موجود إلى يساري.

أشرت لبيتي أن يتبعني.

وجدت باب القبو (أو الطابق السفلي) حيث توقعت، وكان مفتوحاً على مصراعيه.

قلت بصوت خفيض: "لم يُقدم كروكشنيك على اختيار هذا المنزل القديم بسبب نظامه الأمني".

قال بيتي: "لا بد أن هندسته الداخلية الرائعة هي التي جذبته".

تناهى إليّ من الأسفل صوتا غوليت وباروت وهما يتحدثان.

أضاف بيّتي: "بالإضافة إلى الاسم الذي يمتلك جاذبية خاصة".
انخفضت الحرارة نصف درجة على الأقل أثناء نزولي الدرج الخشبي مع
بيّتي. امتلأ الهواء في الأسفل برائحة عقود من العفونة ورائحة الثرى المشبع
بالرطوبة. لم أعرف ما إذا كان يجدر بي التنفس من أنفي، أم من فمي.
وجدت القبو كما توقعته، فأرضه ترابية، وسقفه منخفض الارتفاع، وجدرانه
حجرية تحمل آثار الطين المتداعي. تمثلت التنازلات القليلة التي تدل على القرن
العشرين بغسالة ثياب ومجففة ثياب قديمتين، وبسخان ماء، وبمصباح كهربائية
خفيفة الإنارة تتدلى من أسلاك سيئة التوزيع.
تجمّعت السلع القديمة في كل مكان. رأيت أكوام الصحف، وبعض الصناديق
الخشبية، وبعض المصايح المكسورة، وأدوات العمل في الحدائق، ولوحة نحاسية.
وقف غوليت وباروت في الجهة البعيدة من الغرفة، ورأيت علبة كرتونية
مفتوحة ووضعت على طاولة بينهما. أمسك غوليت ظرفاً أسمر اللون في يده، بينما
راح يقلّب محتوياته باليد الأخرى.
التفت الرجلان فور سماعهما لوقع خطواتنا.

قال غوليت بطريقته الفريدة في بدء الأحاديث: "يبدو أنك أصبحت أمراً ثابتاً
بالنسبة لمحقتنا الجنائية. لا أعترض على هذا، طالما أن كل واحد يعرف حدوده
ومجالات عمله".
"بالطبع".

عرّفته على بيّتي، وأعطيته أكثر الشروحات اختصاراً عن سبب اهتمامه
بالمستأجر السابق عند باروت.

"إن السيد كروكشك كان شخصاً مليئاً بالمشاغل يا حضرة المحامي".
"إنني منشغل كروكشك بطريقة غير مباشرة فقط...".

قاطع غوليت: "قتل الرجل نفسه في مدينتي. إن ذلك يجعله من اختصاصي
أنا، لكنك حرّ بالتجول مع الدكتورة هنا. أنصحك أن تُبقي أية أفكار ارتجالية قد
تخطر على بالك في مكانها".
لم يقل بيّتي شيئاً.



قال الرجل بنبرته الباردة المعتادة: "تقول الآنسة روسو إنك تبحث عن شابة تدعى هيلين فلين".

أجاب بيبي: "هذا صحيح".

"أيمكنني أن أسأل عن السبب، يا سيدي؟"

"قلق والد هيلين عليها لأنها خرقت اتفاقاً".

"وماذا ستفعل عندما تجد تلك الشابة؟"

"سأخبر والدها".

تأمل غوليت بيبي لفترة كانت كافية لتجعلني أعتقد أنه سيطرده من المدينة:

"لا بأس في ذلك، عندما تختفي ابنتي عن الأنظار، فلا بد من أن أعرف السبب".

أغلق الشريف الظرف الأسمر، وهزّه.

"إن قراءة محتوى هذا الظرف هي أمر شيق".

13

عكسَ غوليت وضعية الظرف حتى تتمكن من قراءة الاسم المكتوب بخط اليد عليه. فلين، هيلين. توافق التاريخ مع أول اتصال أجراه بوك فلين مع كروكشك.

ناول غوليت الظرف إلى بيتي، واستدار نحو الصندوق الكرتوني، ثم تابع البحث. سحب ظرفاً آخر، وقرأ عنوانه، ثم أعاده إلى جوار الملفات الأخرى.

تفحص بيتي محتويات ملف هيلين فلين.

راقبتُ باروت. إنه رجل أسود ومسّنّ وأجعد الشعر، ويفرق شعره إلى الجانب مع تلميسه بشدة. رأيت أمامي نات كينغ كول بقميص داخلي. بدا الآن عصبياً مثل رجل ينتظر لكمة على خاصرته.

التفت غوليت نحو باروت بعد أن سحب عدة ملفات.

"هل وضعت أنت كل هذه الملفات في هذه الصناديق، يا سيدي؟"

"لم أضع الملفات. إنما على الحالة التي تركها عليها كروكشك بالضبط. عملت أنا على ترتيب تلك الصناديق التي هناك."

أشار باروت إلى كدسة من الصناديق الكرتونية.

"جمعت كل ممتلكات السيد كروكشك، أليس كذلك يا سيد باروت؟ ألم

تضع شيئاً في غير مكانه، أو تضيّع أي شيء من هذه الصناديق؟"



تحوّلت نظرة باروت من غوليت نحوي، ثم توجهت نحو الأرض: "بالطبع وضعت كل شيء في مكانه. لم أحضّر قائمة بما، إن كان ذلك ما تقصده. اكتفيت بوضع كل هذه الأشياء في الصناديق".

صوّب غوليت نظرة حادة باتجاه مالك المبنى.

مرّر باروت يده فوق رأسه. لم تتزحزح أية شعرة من مكانها. بدا الشعر مصقولاً، ولامعاً أكثر من كعكة كريسي كريم المحلاة.

مرت الثواني، ومرت دقيقة بأكملها. وسمعت في مكانٍ لم أستطع تحديده صوت حنفيه مياه تقطر ماءً.

كرّر باروت تمسيد شعره. ووضع ذراعيه بشكل متصالب، وما لبث أن أسدلها. وبقيت نظرة الشريف مسرّرة على وجه باروت.

أخيراً، كسر غوليت الصمت المخيم: "هل تمنع يا سيدي إذا نقلت أغراض السيد كروكشنيك لحفظها في مكان آمن؟"

"ألا تحتاج إلى تفويض قانوني، أو إلى نوع من الأوراق الرسمية؟"

لم تتحرك أية ألياف عضلية في وجه غوليت.

ارتفعت يدا باروت إلى الأعلى: "حسناً. حسناً. لا مشكلة أيها الشريف. كنت أحاول أن أكون قانونياً فقط. تعرف ذلك، هناك شيء يسمى حقوق المستأجرين، أو ما يشبه ذلك".

تواجهت ستة صناديق كرتونية. أخذت صندوق الملفات، بينما قام بيبي وغوليت بجولتين نقلًا فيهما صندوقين في كل مرة. أجريت مكالمات مع إيما من سيارة الإكسبلورر، وذلك أثناء انهماك الرجلين بالنقطة الثانية. بدا أنها في حالة أفضل، لكنني لاحظت أنها ما تزال على ضعفها.

أبلغتها أننا سنتوجه إلى مكتب الشريف. فشكرتني إيما، وطلبت مني أن أبقئها على اطلاع بما يجري.

تركنا ماغوليا مانور وسرنا، وأنا وبيبي لمدة عشرين دقيقة وراء غوليت، ثم انعطفنا بالسيارة إلى باحة تقع خلف مكتب الشريف في مقاطعة تشارلستون. شُيد هذا المبنى المنخفض الارتفاع من أحجار القرميد والجص، ويقع في شارع باين

هافن الذي يشكل قسماً من تشارلستون الشمالية. احتاجت الصناديق الكرتونية نقلتين حتى أصبحت في غرفة اجتماعات صغيرة.

انشغل غوليت بالاتصال بشرطة مدينة تشارلستون، بينما انشغلتُ وبيتي بتفحص ممتلكات كروكشك. تفحص بيبي ملف فلين، بينما بدأت بتفحص العلب.

وجدت في العلب الأولى مناشف حمام، وبعض العطور الرجالية، بالإضافة إلى معجون الأسنان، وشفرات الحلاقة، وكريم الحلاقة، والشامبو، ومسحوق الأرجل. احتوت العلب الثانية على أدوات مطبخية، مثل أكواب وأطباق بلاستيكية، وبعض الأكواب الزجاجية، وبعض الملاعق والشوك الرخيصة.

اشتملت العلب الثالثة على إناء لحفظ اللحوم، وعلى إناء لحفظ الشرائح المجمدة، وفروت لوبس، وعلى سبائيتي محففة وبعض المعكرونة. وجدت أيضاً عدة علب من حساء كامبل، وعدة علب من الفاصولياء المقلية، وبيبي وبيتي. انشغلت بترتيب أغطية العلب الكرتونية كما كانت: "لم يكن الرجل طاهياً متمرساً في المنزل".

ركزت على الملف، بينما اكتفى بيبي بإصدار همهمة محايدة.

احتوت العلب الرابعة على ساعة منبه، وأغطية سرير، وحرامات. امتلأ الصندوق الخامس بالوسائد.

واحتوى الصندوق السادس على بعض الملابس.

ركّز بيبي على الأوراق التي كان يفتش فيها: "هل وجدت أي شيء؟" "وجدت الكثير من القمصان الرديئة".

لم يصغ بيبي لما قلته: "حقاً؟"

"أحبّ الرجل اللون البني".

كتب بيبي شيئاً ثم ألغاه: "هم".

"وجدت بذلة سباحة ماركة دايل إيفانز. يصعب إيجاد هذه الماركة في هذه الأيام".

"همم".

"وأربطة للجوارب".

ارتفع رأس بيتي: "ماذا؟"

عرضت عليه قميص عمل بني اللون.

"يا لك من امرأة مسلية، يا حبة السكر".

سألته: "هل وقعتَ على شيء له أهمية؟"

"استخدم الرجل نوعاً من نظام اختزال".

عبّرت الغرفة، ونظرت إلى إحدى الصفحات التي كتبها كروكشنيك بخط

يده. تألفت هذه الأوراق من مجموعات من الأرقام، والحروف، والعبارات

القصيرة.

2/20

LM

CI-9-6

Ho-6-2

AB CI-8-4

CD CI-9-4

Mp no

No F

23 i/o

2/21

LM

CI 2-4

Ok stops

Ho 7-2

AB CI-8-5

CD CI-8-1

???

No F
31 i/o
2/22
LM
No CI
???
AB CI-12-4
No F
CI 9-6
28 i/27 o
Si/so rec! photos

أشرت إلى السطر الأول من كل مقطع: "لعله يدلّ على التاريخ. الواحد والعشرين من شباط (فبراير)، والحادي والعشرين من شباط (فبراير)، وهكذا دواليك".

وجه بيتي ابتسامة نحوي: "يبدو أن لا علاقة لك بريجوسكي يا عزيزي".
انتظرت قليلاً.

"أتعني نظام إنغما؟"
هزّ رأسه.

"استخدم الألمان خلال الحرب العالمية الثانية نظام تشفير كهربائي - ميكانيكي ذا قاعدة دوارة. عُرف النظام باسم إنغما. استطاع ريجوسكي أن يفكّ نظام الشيفرة باستخدام الرياضيات النظرية".

عدت باهتمامي إلى الصناديق: "إنك تعمل بمفردك أيها العالم القادم من لاتفيا".

اكتشفت شيئاً في الصندوق ما قبل الأخير. دلتّ محتويات الصندوق رقم سبعة على أشياء تتعلق بطاولة، أو منصة عمل. رأيت كدسات ورق، وظروفاً، وأوراق ملاحظات بيضاء، وأقلاماً، ومقصاً، وشريطاً لاصقاً، وجهازاً لتثبيت الأوراق،



ومشابك للأوراق، وأربطة مطاطية، ومجموعة من "الرزات" (لتثبيت الأوراق).
عُثرت على علبة أسطوانة مدججة.
نزعنا الغلاف الخارجي عن علبة الأسطوانات، وحررت الأسطوانات من
عمودها المركزي. عدتُ ست أسطوانات، وتفحصت كل ملصقاتها.
خلت خمس أسطوانات من أي تعريف، وحملت الأسطوانة السادسة كتابة
عليها.

شعرت بتدفق الأدرينالين في شراييني.
كُتبت الكلمات السوداء بقلم عريض فلين، هيلين.
شعرت بانحسار طفيف للأدرينالين. لماذا؟ هل شعرتُ بخيبة أمل؟ وماذا
افتترضتُ أن يحتوي الملصق؟ "القبر الغامض في جزيرة دي ويز؟"

"بيتي".

"همم"

"بيتي".

ارتفع رأس بيتي على نحو مفاجئ.
أمسكت الأسطوانة بيدي.
ارتفع حاجبا بيتي، وكان على وشك أن يتكلم عندما ظهر غوليت. فعرضت
عليه الأسطوانة المدججة.

"ألدريك جهاز كمبيوتر نستطيع استخدامه لنرى محتويات هذه الأسطوانة؟"
"أتبعاني".

قادنا غوليت إلى مكتبه، وجلس على كرسي جلدي وراء مكتب صغير. نقر
غوليت بعض الأوامر، ثم مدّ يده. أعطيته الأسطوانة ثم نقر المزيد من الأحرف على
لوحة المفاتيح.

همهم جهاز الكمبيوتر عندما تلقّف أسطوانة كروكشك المدججة. نقر غوليت
على مزيد من المفاتيح، ثم أشار لنا بالوقوف وراءه.

استندتُ وبيتي، ووقفنا وراء طاولة المكتب، ثم رحنا ننظر من وراء كنفَي
غوليت. رأينا أن الشاشة مليئة بمربعات صغيرة من نوع ملفات JPEG.

نقر غوليت على المربع الأول مرتين، وما لبثت أن امتلأت الشاشة بصورة.

أظهر المشهد بناية حجرية من طابقين ذات باب في الوسط ونافذتين كبيرتين على جانبيه. لم يحتوِ الباب أو النافذتان الزجاجيتان على أية كتابات، أو على أي رمز من أي نوع كان. لم نلاحظ علامات تدلّ على الشارع، أو لوحات عناوين المنازل والتي يمكن أن تساعد على تحديد موقع البناية. لم نستطع مشاهدة أي شيء داخل البناية بسبب الستائر المسدلة.

قلتُ: "ألاحظ وجود عمق أقلّ لمجال الصور، وأنها محببة جداً (ميرغلة)، ولا بد أنها أخذت عن بُعد بواسطة عدسة مقرّبة".

قال بيقي: "إنها عين خبيرة".

سألتُ غوليت: "هل عرفتَ المكان؟"

"أنا أكيد من أنه ليس راينبو رو، وعدا عن ذلك يُمكن للبناية أن تقع في أي مكان".

أظهرت الصور التالية نفس البناء، لكن من زوايا متنوعة. لم تتضمن هذه الصور أية بنايات مجاورة، أو معلماً معروفاً.

أشرتُ إلى صورة تُظهر رجلاً يغادر البناية: "دعنا نرى هذه الصورة".

نقر غوليت مرتين على الملف.

لاحظتُ أن الرجل متوسط الطول، لكنه يمتلك جسماً قوياً. يمتلك الرجل أيضاً شعراً داكناً، ويرتدي معطفاً مع حزام وقناع. لم يكن الرجل يتطلّع إلى الكاميرا، ولم يكن مدركاً لوجودها.

أظهرت الصورة التالية رجلاً آخر يغادر البناية. يتميّر الرجل بشعر داكن هو الآخر، لكنه بدا أطول من الرجل الآخر، ويتميّز عنه بعضلات أشد، ولعله كان أصفر سنّاً. ارتدى هذا الرجل بنطال جينز وسترة قصيرة من الجلد. ولم ينظر هذا الرجل أيضاً إلى الكاميرا، تماماً مثلما فعل الرجل الأول.

ظهرت امرأة في الصورة التالية. لاحظتُ أنها امرأة سوداء وذات شعر أشقر، وبدت بدنية جداً.



احتوت الأسطوانة المدبجة على مجموعة من اثنتين وأربعين صورة. أظهرت جميع الصور، ما عدا أول صورتين، شخصاً ما يدخل، أو يغادر، البناية الحجرية. ظهر فتى وقد علّق إحدى يديه برباط حول عنقه. ظهر رجل عجوز معتمراً قبعة تيلي. بدت أحياناً امرأة تحمل طفلاً مثبتاً إلى صدرها.

أشرت إلى أيقونة في مجموعة الخيارات: "غَيّر المنظر".

نقر غوليت على السهم الموجود إلى يمين الشاشة الصغيرة الزرقاء اللون، وتردّد قليلاً.

لم أرغب أن أبدو وكأنني أوجه الأوامر، لكنني اقترحت عليه: "جرّب المنظر المفصّل".

أسرع غوليت إلى النقر مرتين على الخيار الأخير. وتحوّلت الشاشة على الفور إلى أعمدة من الكتابة. فصلّ العمود الرابع تاريخ وزمن تصوير كل ملف JPEG.

أعلن بيّتي عمّا هو واضح أمامنا: "أخذت الصور جميعها يوم الرابع من شهر آذار (مارس)، ما بين الساعة الثامنة صباحاً، والرابعة من بعد الظهر".

سألت بصوت منخفض: "هل من خط مباشر (ساخن) مع ريجيوسكي؟"

تجاهل العالم القادم من لاتفيا إشارتي هذه.

عاد غوليت إلى المشاهد المصغرة، وفتح الصورة الأولى: "إذا، كان كروكشك حياً يوم الرابع من آذار... وكان يراقب هذا المكان".

"أو أن شخصاً آخر قام بالمراقبة ثم أعطى كروكشك هذه الأسطوانة".

قال غوليت بعد أن نظر بتساؤل من وراء كتفه: "لا تتمتع الأسطوانة بأهمية

كبيرة، لأن الرجل أقدم على قتل نفسه. إنها عملية انتحار. ألا تظنين هذا يا سيدي؟"

بحثت عن الكلمات المناسبة: "يُحتمل أن تكون طريقة الوفاة معقدة".

استدار غوليت ليواجهني مباشرة. أسند بيّتي أحد وركيه على خزانة كتب،

بينما استندت أنا على الأرض.

تحدّثت عن الصدمة التي تعرضت لها فقرة كروكشك العنقية السادسة.

وأصغى غوليت من دون أن يقاطعني. شرحت بعد ذلك أن صدمةً مماثلة موجودة

في الهيكل الذي انتشلته مع إيما من القبر الضحل في دي ويز.

لم تظهر الدهشة بقدر ما ظهر الاهتمام في صوت غوليت: "كان الاثنان رجلين في الأربعينيات من عمرهما".

أوماتُ.

"يُحتمل أن يكون ذلك مجرد صدفة".

إنما صدفة بحجم متنزه سيرينغيتي (في أفريقيا): "يُحتمل ذلك".

استدار غوليت ثانيةً ليوأجه شاشة الكمبيوتر: "إذا لم يقتل كروكشنيك نفسه سيريز السؤال الذي يتعلّق بمن ساعده؟ ولماذا؟ وما هي أهمية المكان الذي يظهر في هذه الصور؟"

قلت مقترحةً: "لعله لا أهمية للمكان هنا، ولعل مركز الاهتمام كان أحد الأشخاص الظاهرين في الصور".

قال بيّتي: "وجدنا أسطوانة واحدة عليها ملصق مكتوب عليه اسم هيلين فلين".

قلتُ: "دعونا نتفحص الأسطوانات الأخرى".

فعلنا ذلك. ووجدناها جميعها فارغة.

سأل غوليت: "هل بحثتما في كل الصناديق؟"

"بحثنا فيها كلها ما عدا واحداً".

عدنا إلى غرفة الاجتماعات. احتوى آخر صندوق على أوعية هيلمان الزجاجية فيما مضى. فتحت أغطية الصندوق بينما اكتفى بيّتي وغوليت بالمراقبة. رأيت كتباً، وصوراً مؤطرة، وألبوم صور، وكأساً تقديرياً، وتذكاراتاً من دائرة الشرطة.

ولم نجد أية أسطوانات.

أعدت أغطية الصندوق، فقال غوليت: "دعونا نراجع بعض الوقائع. يُحتمل أن يكون كروكشنيك هو الذي قام بمراقبة تلك البناية، ويُحتمل أن يكون شخص آخر قد أقدم على ذلك. وإذا كان الشخص الآخر هو الذي فعل ذلك، فمن تراه يكون؟ ولماذا فعل ذلك؟ وما هي مصلحة كروكشنيك في هذه الصور؟"

سأل بيّتي: "وكيف عمكّن من التقاطها؟"

فكرت قليلاً.

بدأت باستخدام أصابعي: "هناك عدة احتمالات: أولاً، أن يكون كروكشنيك هو الذي التقط الصور بنفسه. أما الاحتمال الثاني، فهو أن شخصاً آخر هو الذي أعطاه الأسطوانة. يبقى الاحتمال الثالث وهو أن يكون شخص آخر قد أعطاه بطاقة كاميرا سمارت، أو رقاقة تصوير. أما الاحتمال الرابع فهو أن يكون قد استلم هذه الصور إلكترونياً".

قال بيبي: "يعني ذلك أننا لا نملك أي دليل".

"لكننا نعرف شيئاً مهماً".

تطلع الرجلان نحوي.

"ما هو الشيء الذي تحتاجه لتحميل صور من كاميرا رقمية؟ أو من بطاقة سمارت؟ أو من موقع إلكتروني على الشبكة؟ أو لاستلام بريد إلكتروني؟ أو لحفظ ملفات على أسطوانة؟ أو لرؤية الصور المخفوفة على أسطوانة مدججة؟"

تكلم بيبي وغوليت الواحد بعد الآخر.

"امتلك كروكشنيك جهاز كمبيوتر".

"أعتقد أن هناك احتمالاً كبيراً في أن يكون قد امتلك كاميرا رقمية كذلك".

تضيق عينا غوليت غضباً. يُحتمل ذلك، ويُحتمل أنني تخيلت وجود هذا الغضب.

"حان الوقت لنزور باروت، مالك البناية الطيب، مجدداً".

أشرت إلى الملفات والصندوق الذي يحمل رقم ثمانية: "بالمناسبة يمكننا اصطحاب الملفات والصندوق معنا؟"

شدّ غوليت حزامه، وزمّ شفته السفلى. مرّت الثواني، ولم أستطع التأكد مما إذا كان غوليت سيتجاهل طلبي، أم أنه يفكر فيه. شدّ الرجل حزام بنطاله مرة أخرى، وأخرج نفساً طويلاً من فمه.

"إنني في الواقع أفتقد لمساعدتي هذه الأيام. تثق الآنسة روسو بك إلى درجة كافية كي ترغب بالاستفادة من خبرتك. أعتقد أنه لا بأس إذا بحثت في بعض

الصناديق. تأكدي من أخذ جردة بكل الموجودات وتوثيقها، ثم ضعي توقيعك بعد ذلك على القائمة بكاملها. وانتهي إلى موضوع الأمن".

لم يكتفِ غوليت بهذا القدر من التحذيرات، لكن ليس هناك من ضرورة لذكر هذه التحذيرات الإضافية.

كدنا ندخل جبل بلازنت عندما رنَ هاتفني الخلوي، وكان بيّتي هو من يقود السيارة.

تناولت الهاتف من حقيبتي الصغيرة. وأظهرت الشاشة رقماً محلياً لم أستطع تمييزه. أوشكت على تجاهل المكالمة، ثم غيّرت رأبي. ماذا لو تعلقت المكالمة بأخبار إيما؟

وجدت بعد قليل أنه كان من الأفضل لي لو أنني اتبعت إلهامي الأول.



14

"كيف تسير أمورك يا دكتورة؟"
استغرقني الأمر جزءاً من مليار من الثانية لأميّز الصوت. إنه صوت بلانكتون.
"كيف عرفتَ هذا الرقم؟"
"إنه رقم مميز، أليس كذلك؟"
"أنا لا أجري مقابلات يا سيد وينورن."
"هل رأيتِ مقالتي في بوست وكورييه؟ أعني المقالة المتعلقة بالجنّة في دي
ويز".
لم أقل شيئاً.
"طار المحرر فرحاً بـها. وأعطاني الضوء الأخضر لمتابعة الموضوع".
لم أقل شيئاً مجدداً.
"إذاً لدي بعض الأسئلة لك".
استخدمت صوتي الفولاذي، وهو الصوت الذي تعلمته من رجال الشرطة،
ورجال الجمارك: "أنا لا أجري مقابلات".
"لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة فقط".
قلت بصورة قاطعة: "لا".
"من الأفضل لك أن...".
"سأقطع المكالمة الآن. لا تتصل بي هاتفياً بعد الآن".

"أصحك أن لا تفعل ذلك".

"أما زلت تمتلك كاميرا النيكون، سيد وينبورن؟"

"ما زلت أمتلكها بالتأكيد".

"أصحك أن تأخذ هذه الكاميرا وتتخلص منها إلى حيث لا تشرق عليها

الشمس...".

"أنا أعرف قصة الجنة التي أنزلتها في متنزه فرنسيس ماريون".

نجح تلميحه هذا في حملي على عدم قطع الاتصال.

"يدعى الرجل نوبل كروكشك، وكان شرطياً سابقاً في شرطة شارلوت".

استنتجت من كلام بلانكتون هذا أن لديه مخبراً.

سألت بصوت جليدي: "من أين حصلت على كل هذه المعلومات؟"

أجاب الرجل بسخرية ظاهرة: "تعرفين أنني لا أستطيع ذكر مصادر ي يا

دكتورة، لكن الحقائق التي أوردتها هي حقائق ثابتة، صحيح؟"

"أنا لا أؤكد لك شيئاً".

بدأ بيتي ينظر بتساؤل باتجاهي. أشرت له أن يُقي اهتمامه على الطريق.

أكمل وينبورن بصوت بطيء وثقيل. بدا لي أنه شاهد الكثير من حلقات

مسلسل كولومبو: "عمل كروكشك بصفته محققاً خاصاً، وكان شرطياً سابقاً.

ويُحتمل أنه كان يعمل على قضية عندما مات. إن ما يجير العقل هو السبب الذي

يدفع برجل مثله إلى شنق نفسه".

ساد صمت مطبق عبر الهاتف.

"سأستعرض الآن بعض المعلومات الشخصية. إنه رجل ذكر، وأبيض، وتجاوز

الأربعينيات من عمره. ألا تبدو هذه المعلومات مألوفة لديك؟"

"إنك تبدو مثل كينو ريفز".

تجاهل وينبورن ملاحظتي هذه، أو أنه لم يفهمها: "وهكذا فأنا أتحقق الآن من

القضية التي كان يعمل عليها كروكشك عندما شنق نفسه. ألدك أية معلومات

حول هذه النقطة؟"

"لا تعليق".

"إنني أعمل أيضاً على إيجاد الروابط ما بين كروكشك وبين العظام التي اكتشفتها في دي ويز".

"هناك أسباب عديدة تدفعني لأنصحك أن لا تطبع شيئاً".
"حقاً؟ هيا أعطني سبباً واحداً".

"أولاً، إذا كانت الجثة المكتشفة في فرنسيس ماريون تعود إلى نوبل كروكشك، فلا أعتقد أن قصة رجل يقوم بشنق نفسه تشكل خيراً جديراً بالنشر. وثانياً، تعرف أن كروكشك كان شرطياً سابقاً، وأعتقد أن زملاءه السابقين لا يرغبون بتمرير اسمه في الوجل. وثالثاً، مهما كانت هوية الضحية، لا أعتقد أن كشف معلومات تتعلق بالوفاة قبل إعلام الأقارب، يُعتبر عملاً أخلاقياً".

"سأفكر بالأمر".

"سأقطع الاتصال الآن يا سيد وينورن. إذا التقطت صوراً لي مرة أخرى، فسأرفع دعوى قضائية ضدك".
قطعتُ الاتصال.

كدت أرمي هاتفني بعيداً ومن خلال زجاج السيارة الأمامي.
سأل بيبي: "أتجبن أن تتناول طعام الغداء؟"

منعني غضبي من التكلم، لذلك اكتفيت بالإيماء علامة على الموافقة.

انعطف بيبي من جادة كولمان باتجاه أوك درايف (طريق السنديان)، وذلك عندما وصلنا إلى شيم كريك. يُعتبر أوك درايف شارعاً سكنياً فرعياً تحيط به بيوت من طابق واحد، وتستطيع أن تخمن أنه مظلّل بأشجار السنديان الحقيقية، بالإضافة إلى الآشنة الإسبانية.

اتجه بيبي يساراً ودخل في هادرل، ثم انعطف يساراً ليدخل في باحة تُستخدم لإيقاف السيارات.

نظرت عبر الباحة فرأيت مبنى شركة واندو للمأكولات البحرية، ومبنى آخر لشركة ماغوود وأولاده للمأكولات البحرية. لاحظت وجود بناء متداعٍ، يظهر وكأن جماعة متافرة قد شيدته. يطلق السكان اسم الحطام على مطعم حطام

ريتشارد وشارلان. لا يتمتع هذا المطعم بأية دعاية، أو أية علامات فارقة، ولذلك يُمكن اعتباره سرّاً تشارلستون المخفي.

تمضي القصة هكذا. قذف الإعصار هوغو مركب صيد يُدعى ريتشارد وشارلان إلى قطعة أرض يمتلكها أصحاب المطعم. اعتبرت زوجة مالك المطعم أن هذا المركب هو فآل حسن، ولذلك أطلقت اسمه على المطعم تكريماً لهذا الحطام.

استرخ واستسمع قصة...

جرت هذه الحادثة في عام 1989، ومازال الحطام هناك، وما زال مطعم الحطام هناك أيضاً. ويستنكف أصحاب المطعم عن كل أنواع التسويق والدعاية لمطعمهم، حتى أنهم امتنعوا عن إقامة لوحات باسم هذا المطعم.

لاحظت أن الأرض ما تزال اسمتية، بينما تتدلى المراوح من السقف. رأيت الشرفات المحمية بشبكات حماية. أقام أصحاب المطعم نظام تقديم شراب الشعير المجاني الموجود في براد وُضع على متن القارب، هذا في حالة اضطر الزبون للانتظار كي يجد طاولة ليجلس عليها. نُححت هذه المعادلة، لذلك ترى المكان مزدحماً على الدوام.

وجدنا المكان هادئاً جداً عند الساعة الرابعة والنصف. لا تبدأ الخدمة الفعلية في هذا المطعم قبل الساعة الخامسة والنصف، لكننا جلسنا على مقعدينا. هل هذا أمر غريب؟ لكن مطعم الحطام هو هذا النوع من الأماكن.

يُعتبر نظام الطلبات في الحطام بسيطاً جداً مثل لائحة الوجبات. استخدم بيتي الطباشيرة الموجودة لكي يرسم دائرة حول سلة الروبيان، وحساء ثمار البحر، وحلوى البودينغ، وأشار إلى أنه يريد حصصاً بحجم ريتشارد. اخترت من جهتي سلة بحجم شارلان تتألف من المحار (الرخويات البحرية)، بالإضافة إلى زجاجة كوكاكولا للحمية، واخترت لبقي زجاجة كارولاينا بلوند.

إنه غداء جنوبي (الولايات الجنوبية) بامتياز.

وصلت المشروبات، فقال بيتي: "دعيني أحمن. أنت تلك المكاملة من صحفي".

"إنه الجرد اللعين ذاته الذي تسلل إلى الموقع الذي عملت فيه في دي ويز".

"وهل هو متخصص بالعزف على وتر الجريمة؟"

لم يَحْتَفِ غَضْبِي، ولذلك قلت بشيء يشبه الصراخ: "وهل أبدو مستشارة
توظيف غبية؟ يمتلك الرجل معلومات أكثر مما ينبغي له".
"لا بد أنه يمتلك مخيراً خاصاً به".
"حقاً! أتعتقد ذلك؟"

شرب بيّتي جرعة من شراب الشعير، واسترخى في جلسته بطريقة أوحى أن
الحديث قد توقف حتى أستطيع السيطرة على نفسي: "حسناً، حسناً".
شاهدت، من خلال شبكة الشرفة، نوارس البحر أثناء تحليقها الدائري فوق
سفن الصيد الراسية على محاذة رصيف الميناء. أفلح تحليقها المبتهج والمليء بالأمل
بتهدئة نفسي بطريقة ما.

حضرت وجبة غدائنا، فقلت: "آسفة، لست منزعجة منك".
أشار بيّتي إلى الروبيان: "لا مشكلة في ذلك. هناك الكثير من المراسلين
يتنصتون على موجات الطوارئ".

"فكّرت في ذلك. يُحتمل أن يكون وينبورن قد التقط إرسال موجات
الشرطة المتعلقة باكتشاف الجثة، لكن لم يكن باستطاعته التعرف على هوية الجثة
بتلك الطريقة".

"أيعقل أن يكون ذلك المخبر رجلاً من داخل مكتب المحققة الجنائية، أو من
مكتب الشريف؟"
"يُحتمل".

"أيعقل أن يكون أحد موظفي المشرحة؟"

"إن ذلك هو أمر وارد".

بدأ بيّتي بالتكلم قبل أن يتردد قليلاً: "إلا إذا...".

توقفت عن تناول قطعة من خبز الذرة: "إلا إذا ماذا؟"

"ماذا بشأن صديقتك إيما؟ إنها تمتلك برنامجاً لا تعرفين عنه شيئاً؟"

فكّرت في ذلك. تذكّرت كيف أن إيما توسطت لوينبورن، وجادلت بأن

وجوده في دي ويز لا يضرنا على الإطلاق.

لم أقل شيئاً، لكن بيّتي أثار نقطة هامة جداً.

ماذا بشأن إيما.

تناولنا الطعام، وتحدثنا بمواضيع أخرى. تحدثنا عن كاتي، ووالدة بيتي التي ستجري عملية استبدال الورك. تحدثنا عن عائلي، وعن الرحلة التي قمنا بها إلى كياواه قبل عشرين عاماً. مرّ الوقت، وتطلّعت إلى ساعتني لأجد أن عقريها يشيران إلى الخامسة وخمس وأربعين دقيقة.
"حسناً".

أصرّ بيتي على دفع الفاتورة. دفع نقداً لأن بطاقات الاعتماد غير معتمدة في مطعم الحطام القديم.

سألني بيتي عندما انعطفت نحو البحر على مدى أميال: "أتريدن مساعدتي لتفحص ملفات كروكشك؟"
"أتمنى ذلك، لكنني وصلت إلى أقصى المهلة بالنسبة للبت في الامتحانات الميدانية".

"ألا تستطيع هذه الامتحانات أن تنتظر يوماً آخر؟"

"إن يوم غد هو آخر موعد لتقديم العلامات. ويتعيّن عليّ كتابة تقرير أولي واحد، على الأقل، يتعلّق بالحفريات التي أجريت في دي ويز، وسأقدم هذا التقرير إلى مكتب عالم آثار الولاية في كولومبيا، ومن يدري ماذا سيستجدّ بعدها".

لاحظت آثار الحزن على وجه بيتي: "يبدو أنني سأعمل بمفردي".

ابتسمت، ووكزت بيّتي في كتفيه: "استخدم حبل الإنقاذ. اتصل برينجوسكي".

صعدت إلى غرفتي وطلبت رقم إيما. ردّ عليّ مجيها الصوتي فتركت رسالة لها.

أهيت آخر أوراق الامتحانات عند الساعة الثامنة، وجمعت العلامات، ثم أرسلت القائمة عبر البريد الإلكتروني إلى أمينة سرّ الكلية في جامعة UNCC. وافقت أمينة السرّ هذه على تمرير هذه اللائحة بالنيابة عني إلى مكتب التسجيل. طلبت رقم إيما مجدداً. وسمعت نفس التسجيل، فقطعت الاتصال.



أهّيت عند الساعة العاشرة كتابة نصٍ مختصرٍ يتعلّق بمواقع دفن قبيلة السيوي في جزيرة دي ويز، وضمّنت هذا النصّ رأيي بقيمة الموقع الثقافية. أرسلت هذه الوثيقة عبر البريد الإلكتروني إلى مكتب عالم آثار الولاية، ثم أرسلت نسخاً إلى قسم جنوب كارولينا للأرشيف والتاريخ، وكذلك أرسلت نسخة إلى دان جافر في جامعة جنوب كارولينا - كولومبيا.

جلست باسترخاء بعدها كي أفكّر. هل أرسل تقريراً إلى ديكي دوبري؟ أعرف أن الرجل يشبه ابن عرس. لا، لعل ذلك أمر يظلم ابن عرس. أعرف أن الموقع هو في أرض دوبري، ويُحتمل أن يؤثر تقرير التقييم على القرارات التي قد يتخذها، والله أعلم بالمدى الذي يُحتمل أن تصل إليه.

التفّ بيردي على نفسه فوق طاولة إلى يساري.

"ما رأيك يا بيرد؟"

انقلب الهر على ظهره، ومدّ قوائمه الأربع إلى أقصى مداها.

"أنت على حق".

استخدمت شبكة الإنترنت لأجد العنوان الإلكتروني، وأرسلت نسخة من التقرير إلى دوبري.

وجدت بيتي وبويد في عرينهما مجدداً. لاحظت أن جهاز التلفاز يعرض فيلماً، لكن لم يكن أي منهما يشاهده. لاحظت أن الفيلم المعروض كان فيلماً قديماً لبوب هوب.

جلس بيتي على الأريكة، ومدّ رجليه العاريتين على الطاولة الصغيرة. لاحظت أن ملف هيلين فلين كان مفتوحاً فوق حضنه. انشغل بيتي بتدوين ملاحظات على رزمة أوراق رسمية صفراء اللون من الحجم الكبير. استلقى بويد على جانبه واضعاً مخالبه الخلفية على ركة سيده. تواجدت علبة الملفات الكرتونية، والصندوق الثامن، جنباً إلى جنب على المقعد المجاور للنافذة.

أهمك الرجل على شاشة التلفاز في وصف الأموات الأحياء (الزومبي)، وقال إنهم يمتلكون عيوناً لا حياة فيها، وهم يتبعون الأوامر من دون أن يدركوا طبيعة

الأشياء التي يقومون بها، كما أنهم لا يكثرثون بشيء.

سأل هوب: "أتعني أنهم مثل الديمقراطيين؟"

لقى بيبي برأسه إلى الخلف، وضحك.

"ألم تنزعج من هذا التشبيه؟"

أجابني بيبي، وهو من مؤيدي الحزب الديمقراطي: "إنه مجرد مرح وفكاهة".

فتح الكلب عيناً يغلبها النعاس. ورآني واقفةً عند الباب، فارتمى على الأرض.

أشار بيبي بقلمه نحو التلفاز: "يعتبر هذا الفيلم أفضل أفلام هوب التي تنم عن الذكاء واللباقة".

أتذكر أنه عندما التقيت بيبي لأول مرة، وخلال السنوات الأولى من زواجنا، كانت الأفلام القديمة أبرز هواياتنا. سألته: "وما هو عنوانه؟"

قاهر الأشباح.

"أليس هذا فيلم رجال بُوري (اسم أحد شوارع نيويورك)؟"

أصدر بيبي صوتاً حاداً: "لا، لا! خطأ، كان ذلك فيلم **مطاردو الأشباح**".

لم أستطع إلا المشاركة في الضحك. بدا الأمر طبيعياً تماماً.

شاهدت بيبي في تلك اللحظة، ولاحظت أن ضوء المصباح الكهربائي عمل على تلطيف خطوط وجهه، وتأثرت على الفور. أعترف أنه لم يمض يوم من دون أن أفكر بزواجي، وعلى الأقل بشكلٍ عابر، رغم فراقنا الذي مضى عليه بعض الوقت، وبالرغم من أننا عشنا حياتين منفصلتين.

تلاشت الضحكة عن شفتي.

تظاهرت بعدم الاكتراث واللامبالاة، فسألته: "ما هي حبكة القصة؟"

"ورث بوليت غودارد قلعةً مسكونة بالأشباح. إنها خطوط تقليدية يتبعها هوب".

"هل أحرزت تقدماً بالنسبة للشيفرة؟"

هزَّ بيبي رأسه بالنفي.

مشيتُ نحو الأريكة المجاورة للنافذة، وتناولت أغراض كروكشنيك ثم جلست على الأريكة. بدأت بالتقليب في الأغراض بعدما وضعت الصندوق على الأرض بين قدمي، وفتحته.

تناولتُ أولاً كأساً تمثل شخصاً صغيراً يضع قبعة على رأسه، ويحمل مضرباً بيده. قرأت اللوحة المعدنية التي ألصقت على قاعدة الكأس. جاء في اللوحة: "بطولة الاتحاد، 24 حزيران (يونيو)، 1983". وضعت الكأس على الطاولة الصغيرة.

تناولت بعد ذلك كرة بيسبول، ورأيت أن سطحها الخارجي مليء بالتواقيع. وضعت كرة البيسبول إلى جانب الكأس، ورحت أتساءل عما إذا كان هناك رابط بينهما. وبدأ عقلي بالتأمل.

اعتاد كروكشنيك على اللعب ضمن فريق. أين؟ وما هو الموقع الذي احتله ضمن هذا الفريق؟ تساءلت إن كانت نتائج الفريق جيدة بشكل دائم، أم أن هذه الكرة، والكأس، تمثلان بطولة أحرزها الفريق لموسم واحد؟ تساءلت كيف جرت الأمور في ذلك اليوم من حزيران (يونيو) الذي أحرز الفريق فيه هذه البطولة؟ هل كان ذلك اليوم حاراً؟ أم هل كان ممطراً؟ وهل شاب النتيجة انخيازٌ ما؟ وهل فاز فريق كروكشنيك عن طريق ضربة موفقة واحدة؟

هل احتفظ كروكشنيك بكرة هذه المباراة لأنه قاد الفريق إلى فوزه؟ وهل وثب زملاؤه على ظهره حينها؟ هل ذهبوا جميعاً لتناول شراب الشعير ليتحدثوا ملياً عن المباراة؟

هل استمر كروكشنيك في استعادة تلك اللحظة في السنوات التي تلت؟ هل فعل ذلك لوحده أثناء احتسائه الشراب، وهل رأى ذلك الملعب ثانية، وأحسّ بمقبض المضرب بين راحتي يديه، وهل سمع الفرقة التي ترددت أصداؤها من تلك البقعة الجميلة؟

وهل استغرب الرجل كيف أن حياته قد اتخذت طريقاً خاطئاً؟

تابع هوب تمكمه على شاشة التلفاز: "تطلق عليّ الفتيات اسم الحاج، لأنني أحقق تقدماً طفيفاً في كل مرة أرقص فيها مع إحداهن".

استغرق بيبي بالضحك بينما كنت أتناول صورتين مؤطرتين من بين أغراض كروكشنيك. أظهرت الصورة الأولى خمسة جنود بلباسهم الرسمي. بدا أن الجنود يتسمون بينما وضعوا أذرعهم على أكتاف بعضهم بعضاً. وقف صاحب الصورة في آخر الصف إلى اليسار.

تفحصت صورة ذلك الشخص الصغير. تميّز شعر كروكشنيك بالقصر، وكانت عيناه نصف مغمضتين بسبب وقوفه مواجهاً للشمس. بدت تغضضات وجهه أقل عمقاً، لكنها أعطت فكرة عن مظهره عندما يتقدم بالسن. غرقت بتساؤلات أكثر.

هل أدى كروكشنيك خدمته في الجيش؟ وهل كان من ضمن الحرس الوطني؟ أعرف أنه كان صغيراً جداً ليرسل إلى فييتنام. وأين أمضى خدمته الإجبارية؟ أظهرت الصورة المؤطرة الثانية رجالاً بلباسهم الرسمي الداكن مصطفين بخطوط رسمية ومستقيمة. أعتقد أن المنظر يُظهر صفّ التخرج في أكاديمية الشرطة التي التحق بها كروكشنيك.

احتوت علبة معدنية مستديرة على تذكارات أخرى تعود إلى فترة خدمته في الشرطة. شاهدت أيضاً قلادة نحاسية تُمثل كافة الوحدات التي خدم كروكشنيك فيها. رأيت أيضاً بعض الأوسمة الملونة التي افترضت أنها جوائز ومكافآت رسمية له. كما شاهدت درعاً مزدوجاً.

احتوى ظرف متغضض أسمر اللون على شهادة من أكاديمية الشرطة، وعلى عدة شهادات أخرى أعطيت له بعد إتمامه لدورات تدريب متخصصة، بالإضافة لمزيد من الصور. بدا كروكشنيك في إحدى هذه الصور وهو يصافح مسؤولاً رفيع المستوى في الشرطة. وأظهرت صورة أخرى كروكشنيك مع ثلاثة رجال يزيهم الرسمي. وبدا كروكشنيك مع رجل شرطة آخر، وهما واقفان أمام كنيسة مع الإنجليبي بيلي غراهام.

فنتشتُ عن صورٍ أخرى.

وجدت ولاعة سحائر تحمل علامة زييو، وشعار قسم شرطة شارلوت - ماكلينبيرغ، وسلسلة مفاتيح، وسكين جيب، ومثبت ربطة عنق يحمل شعاراً ما.



وجدت أيضاً شارة قسم شرطة شارلوت - ماكلينبرغ، وأصفاداً، ومفاتيح، ورباطاً قديماً، ومشبك حزام قديماً ماركة سام براون، وقراب مسدس بالياً.

وضعت كل شيء على الطاولة.

عثرت في أسفل الصندوق على كتاب وعدة ظروف. اخترت من بينها ظرفاً كبيراً أسمر اللون، فككتُ الشريط، وأفرغتُ محتويات الظرف على حضني.

وجدت مجموعة من الصور المحببة (المبرغلة) داكنة الألوان والباهتة عند أطرافها. تناولت هذه الصور ورحت أتفحصها.

أظهرت كل صورة نفس المرأة الشقراء بأنفها المعقوف، ووجهها المليء بالشمش، وذكّرني بالوجه الذي يرد في قصة بيت صغير في البرية.

ظهرت المرأة لوحدها في بعض الصور، بينما ظهرت مع كروكشك في بعضها الآخر. ظهر الاثنان في صور قليلة ضمن مجموعة أكبر من الأشخاص في مناسبات متنوعة مثل حفلة ميلاد، وجولة تزلج، ونزهة في البرية. تخمنت أن الصور قد التقطت في أواخر السبعينيات، أو أوائل الثمانينيات، وذلك استناداً إلى تسريحات الشعر، أو موضحة الملابس.

قلّبت كل صورة، ولاحظت أنها خلت جميعها من الكتابات، ما عدا واحدة كُتبت عليها جملة: *نوبل وشانون، شاطئ مارتيل، تموز 1976*.

تناولت آخر صورة. ظهر نوبل وشانون في هذه الصورة وهما يتسمان، وكان العالم سيعني لهما الشباب على الدوام. لم أكن أبتسم لأن عقلي كان يحوم فوق مكان مظلم جداً.

التقطت صورة الكوداك هذه لحظة جلس نوبل وشانون قبالة بعضهما بعضاً باسطين أيديهما، وقد شبكا أصابعهما. ارتدت المرأة ثوباً صيفياً أبيض اللون، ووضعت بعض الأزهار في شعرها. ارتدى الرجل سترة بلون أزرق شاحب. ارتفعت يافطة كُتب عليها "مقر فيفا لاس فيغاس لعقد القران". وظهر أمامها، وعلى مستوى منخفض قليلاً، مجسماً لنشبه ألفيس برسلي يتطلع نحو الكاميرا. وضع الرجل نظارة شمسية، وارتدى بذلة بيضاء لماعة مؤلفة من قطعة واحدة.

حدّقت في الصورة التي جمّدت لحظة من الزمن في لحظة ولادة زواج بئس.
تحوّلت الصورة الآن إلى لا شيء أكثر من ذكرى محفوظة في ذلك المغلف الأسمر
القديم، بعد أن كانت لحظة ثمينة في وقت من الأوقات.
تحوّلت ببصري نحو بيتي. أحسست بحرقه في جفني. عدت إلى تفحص
أغراض كروكشنيك، وأعطاني هذا راحة مؤقتة.
مثّلت كل هذه الأغراض حياة كاملة. مثّلت رجلاً استمتع بصدقاته، وخدم
بلده، وعمل شرطياً، ولعب البيسبول، وتزوج. مثّلت فوق كل ذلك رجلاً اختار
أن يُنهي تلك الحياة.

لكن هل أقدم على ذلك بالفعل؟

وقع نظري على صورة شاطئ ميرتل التي تجمع ما بين شانون ونوبل.
أحسست بالزواج الذي ضاع، وبالحياة التي ضاعت.
شاهدت على شاشة جهاز التلفاز أحد الممثلين يسأل بوب عمّا إذا كان
يعتقد ما إذا كان يتعيّن على غودارد أن يبيع القلعة.
"أنصحك أن يحافظ على القلعة، وأن يبيع الأشباح".

اخترق صوت الضحكة التي أطلقها بيتي، جدار لامبالاتي المصطنعة. كم من
المرات ضحك معي؟ وكم من المرات التي أضحكني فيها؟ وكم مرة اشترى لي
الزهور في وقت لم تكن تمتلك المال فيه؟ وكم من مرة رقصنا سوياً عندما كنت
غاضبة؟ لماذا توقفت الضحكات؟ ومتى؟

نظرت ثانية إلى المجموعة المحزنة الموجودة أمامي، وشعرت بالأسى على الخيار
زواج نوبل وشانون. وأحسست بالأسى نتيجة قساوة موت كروكشنيك، ونتيجة
كارثة زواجي الضائع، وأخيراً نتيجة التشوُّش الذي يعصف في داخلي.
خسرت هذا الزواج.

شعرت بأنفاسي تتصاعد بصعوبة من صدري، فنهضت عن الأريكة.
ظهر الارتباك على بيتي: "تعب؟"

كدت أتعرّش بالصندوق الموجود أمام بيتي عندما انطلقت خارجة من الغرفة،
وكنت غافلة عن المكان الذي سأقصده.

هل أريد استنشاق هواء المحيط؟ أم هل أريد الوصول إلى النجوم؟ أم إلى الحياة؟

فتحتُ الباب الأمامي على مصراعيه، وهرعت نزولاً على الدرج. سار بيّتي خلفي تماماً. وضع بيّتي يده على كتفي عندما وصلت إلى الفناء الأمامي، وما لبث أن أدارني، فأصبحت في مواجهته تماماً، ثم غمرني بذراعيه واحتضنني.

أخذ يربّت على شعري: "حسناً لا بأس. هيا يا قلب. لا بأس". حاولت أن أقاومه في البداية، ثم استسلمت له. سمحتُ لدموعي بالانسياب، بينما أسندت خدي بقوة على صدر بيّتي.

لا أعرف كم بقينا واقفين على هذا النحو، فبينما استغرقتُ بالنشيج، كان هو يصدر أصواتاً تبعث على الهدوء.

مرت لحظات، قبل أن تطلّ سيارة من طريق أوشن درايف (طريق المحيط). وقفتُ السيارة قليلاً، ثم دخلت إلى فناء البحر على امتداد أميال. رفعتُ بصري. وتسأل ما يكفي من ضوء القمر الفضي لأعرف أن السائق كان وحيداً.

وقفتُ السيارة آخر الأمر. هل هي سيارة جيب؟ أم أنها عربية رياضية صغيرة؟ شعرت بالتوتر الذي أحسّ به بيّتي، واستطعت التأكد من أن الرجل كان طويلاً ونحيفاً.

لكنني تأكدت من شيء آخر.

يا الله!

جهد الرجل في مكانه، وبدا لي ظلاً، نتيجة أضواء مصابيح السيارة.

شعرت أن قلبي قد ففز من مكانه.

وما لبث أن وضع جهاز ناقل الحركة في سيارته في وضع الرجوع، وانطلق مسرعاً كالسهم في الطريق.

شاهدت أنوار سيارته تدور.

وقفتُ أراقب الأضواء الخلفية للسيارة حتى أصبحت بقعاً صغيرة من اللون

الأحمر.

15

بدأت ضربات قلبي بالتصاعد بعدما انطلقت صعوداً، وصعدت بخطواتي درجتين درجتين. دخلت المنزل كالسهم، وتناولت هاتفي الخلوي، ونقرت على مفتاح المكالمات المستعجلة.

دقّ الهاتف أربع مرات قبل أن يقطعه صوت خدمة إجابة الزبائن.

أدخلت رسالة في الهاتف باللغتين الفرنسية والإنكليزية.

طلبت الرقم ثانية، وأخطأت بنقر المفاتيح الصحيحة، بدت أصابعي غير دقيقة بسبب الإثارة. نقرت الأرقام ثانية.

ولقيت نفس النتيجة.

"ارفع جهاز الهاتف. هيا!"

تسبعت بيقي أثناء تجوالي من غرفة إلى غرفة، وحرص بويده على اللحاق به: "فقط أخبريني من كان هذا الرجل".

ضغطت على زر إعادة الاتصال في لوحة الاتصال السريع للمرة الثالثة.

أعلمني صوت آلي أن الاتصال بالشخص الذي أحاول الاتصال به غير ممكن حالياً.

"هيا، استمرّ بعزل نفسك!"

رمى جهاز الهاتف. ارتدّ الجهاز من الأريكة إلى الأرض. سرّ بويده لشم هذا الشيء الغريب الذي هاجمه.



تحدّث إليّ بيّتي بنبرة يستخدمها الطبيب النفسي من أجل تهدئة المرضى المصابين بالمستيريا: "تحدّثي إليّ. من كان ذلك الرجل؟"
أخذت عدة أنفاس عميقة كي أهدئ نفسي. ثم استدرتُ كي أواجهه.
"إنه آندرو رايان".

مرّت لحظة استوعب فيها بيّتي إجابتي: "هل هو الشرطي من كيبك؟"
أومأتُ.

"لماذا ظهر، ثم انصرف من دون أن يتكلم أية كلمة؟"
"لأنه رآنا معاً".

أجرى بيّتي المزيد من العمليات الذهنية، وتوهّجت نقاط اشتباكه العصبية.
رفع بيّتي حاجبيه، وأشار نحوي، ثم نحو الطريق الذي سار عليه رايان قبل قليل.
أومأتُ.

سألني: "هل بدا الأمر سيئاً؟"
"وماذا تعتقد؟"

طلبت رقم رايان مرتين إضافيتين. بقي هاتفه مقفلاً. أزلت تبرجي بصورة آلية ومن دون تفكير. قمت بالتنظيف المعتاد، ووضعت مرطباً للبشرة، ونظفت أسناني بالفرشاة.

أكدت لذاتي أننا لسنا طلاباً جامعيين في سنتنا الجامعية الثانية، ونعيش بوتيرة سريعة. إننا بالغون، ورايان هو رجل عاقل. سأوضح له الأمر فيما بعد، وسنضحك سوية.

لكن هل سيعطيني مسيو هاكو (المتباهي برجولته) الفرصة؟
استلقيت على السرير، وشعرت بثقل الشك في داخلي. استغرقني الأمر وقتاً طويلاً قبل أن أستسلم للنوم.

أحسست عند التاسعة من صباح اليوم التالي برغبة بإغلاق هاتفي الخليوي.

لا. أردت أن أسحقه، ثم ألقى بمحتوياته كلها في نظام مجارير بلد بعيد من بلدان العالم الثالث. أعتقد أن بنغلادش ستكون بلداً مناسباً، أو إحدى الدول التي تشكل ستان آخر مقطع من اسمها.

جاءت المكالمة الأولى عند الساعة 7:55.

"صباح الخير سيدي. أنا ديكي دوبري".

إنه مزاح معتاد من سكان الولايات الجنوبية.

"تفقدت بريدي الإلكتروني لتوي".

"تستيقظ باكراً جداً يا سيد دوبري".

"وجدت ذلك التقرير الذي أعدده. أجد نفسي مضطراً الآن للعمل مع

مجموعة من البيروقراطيين البلهاء".

"مرحباً بك يا سيدي. ظننت أنك ستسّر بنسختك من التقرير".

"إن ما لا أرحب به يا سيدي هو إبلاغك المسؤولين في عاصمة الولاية أنني

أمتلك آثاراً قيّمة في أرضي".

"ليس هذا ما أبلغتهم إياه بالضبط".

"قلت لهم شيئاً قريباً من هذا الكلام. إن تقريراً من هذا النوع سيتسبب

بتأخير أشغالي، وتأخير الأشغال يتسبب لي بضرر كبير".

قلت: "أنا آسفة إذا كانت استنتاجاتي ستؤثر بشكل سلبي على مشروعك.

تقتصر مهمتي على وصف ما أجده بدقة".

"إن تفاهات مثل هذه ستدفع بالبلاد إلى حافة الجحيم. سيصبح اقتصادنا في

الخصيخ، وسيبدأ الناس بالشكوى نتيجة عدم وجود الوظائف، وسيفتقدون

للأماكن التي يسكنون بها. إنني أوفر الوظائف، وأشيد بعض الأبنية المحترمة. وماذا

أتلقي مقابل جهودي؟ لا أتلقي سوى تفاهات مثل تقريرك هذا".

أعرف أن دوبري يعتزم بناء بيوت بمحاذاة الشاطئ للمتحمين من الأثرياء،

لكنني لم أقل هذا بالطبع.

"سيأتي الآن أحد الأغبياء الذي يمتلك شهادات أكثر مما يمتلك من تفكير،

وسيعلم أن أرضي هي من ضمن المواقع المصنفة أثرية".

"أنا آسفة إذا ما كانت استنتاجاتي تزعجك".
"تزعجني؟ أهكذا تنظرين إلى الأمور؟"
بدا سؤاله نوعاً من البلاغة، لذلك لم أرد عليه.
"إن تدخلك في شؤون أعمالي يتسبب لي بشيء يتعدى الإزعاج".
استخدمت نبرة صوتي الفولاذية مجدداً: "كان باستطاعتك أن تطلب إجراء تقييم لقيمة الأرض الأثرية قبل الموافقة على تطويرها".
"سنرى من منا سيعاني من الانزعاج، يا سيادة برينان. أمتلك أصدقاء بدوري، لكنهم يختلفون عن أصدقاك المثقفين الذين يدفنون رؤوسهم في الأوراق".
أنهى الرجل الاتصال بكلامه هذا.
توقفت للحظة متألمةً تصریح دوبري الأخير. هل يوحي لي هذا التافه أنه قد يرسل أحد الأشخاص كي يؤذيني؟
نعم، هذا صحيح، ولعله سيرسل كولونيل كي ينهشني حتى الموت، مع أن أية محاولة لمضايقتي ستبدو غبية وغير فعالة. إن ذلك لن يحل مشكلته.
اتصلت برايان. ما زال هاتفه مقللاً.
نزعت الأغطية من فوقي، وتوجهت إلى الحمام.
جاءت المكالمة التالية عند الثامنة والرربع. كنت في المطبخ عندها أرتشف القهوة، وأتناول ثمار التوت البري، وفطائر الصنوبر.
هل قلتُ التوت البري، وفطائر الصنوبر؟ نعم، كان هذا انطباعي أيضاً، لكنها كانت هناك. قرأت الملصق مرتين.
انكبَّ بيردي على وعائه ملتهماً كريات طعامه الصغيرة البنية اللون. بينما ربيض بويد في وضع من يستجدي، وأسند ذقنه على ركبتي.
"أنا غوليت".
"صباح الخير أيها الشريف".
تجاهل غوليت بدوره المقدمات التقليدية: "أتيت للتو من عند باروت. انتظرته ليشحذ ذاكرته، لكن ذلك السيد تذكر وجود صندوق غير موجود في الكومة الرئيسية".

"أيحتمل أن يحتوي هذا الصندوق على جهاز كمبيوتر وكاميرا؟"
"يبدو أن باروت لا يستطيع تذكر محتويات الصندوق بشكل دقيق، وبالكاد استطاع أن يتذكر وجود بعض الأجهزة الإلكترونية فيه."
"وماذا حدث لذلك الصندوق الضائع؟"
"يبدو أن ابنه قد أخذه عن طريق الخطأ."
"يا لأفعال الأولاد".

"أمهلت باروت ساعة واحدة لمناقشة الأمر مع ابنه. سأتصل بك عندما تصلي مكالمته".

اتصلت بإيما. وردّ عليّ مجيها الصوتي.

ثم اتصلت برايان.

"إن المشترك الذي تحاولون الاتصال به...".

استبدت بي رغبة للوصول إلى تلك المرأة القابعة على الجهة الأخرى من الخط كي أحنقها، وباللغتين.

حاولت الاتصال برايان عند الثامنة والنصف، ومجدداً عند الثامنة وخمسة وأربعين دقيقة. فلم أفلح بالتكلم معه.

وضعت الهاتف جانبا، وغرقت في لجة الهواجس التي اجتاحت أعماقي. تساءلت عن الواجهة التي قصدها رايان. لماذا أتى إلى هذا المكان، ولماذا أحاط زيارته بهذه السرية؟ هل كان يراقبني؟ هل كان يحاول أن يمسكني مع بيتي؟

اتصلت بإيما للمرة الثانية عند الساعة التاسعة. فردّ عليّ المجهب الصوتي. وطلب مني نفس الصوت المسجل ذكر اسمي ورقم هاتفي.

رحت أفكر بغرابة هذا الأمر بينما كنت أغسل فنجاني بالماء، وأضعه في غسالة الصحون. سبق لي أن هاتفت إيما مرتين في الليلة السابقة، أي عند السادسة والثامنة، ومرتين في هذا الصباح. لا أعتقد أنها من الأشخاص الذين يتجاهلون رسائلتي. ولا أظنها ستفعل ذلك في هذا الوقت بالذات الذي يشغلني فيه القلق على صحتها.



أعرف أن إيما اعتادت على مراقبة الاتصالات الهاتفية الواردة إليها، وذلك كي تتفادى الردّ على المكالمات التي لا ترغب بالرد عليها. لم تفعل إيما هذا الأمر معي في السابق، وعلى الأقل ليس على حدّ علمي. لم أكن أهاتف إيما كثيراً في تلك الأيام بسبب انشغالي في أمور حياتي العادية. هل تعتبر إيما أن قربي منها يجعلني تهديداً لها؟ هل أصبحت مصدر إزعاج لها؟ أيعقل أن يكون قلقي عليها يسبب إزعاجاً لها؟ وهل ندمت على وضع ثقتها بي؟ هل تتفادى الاتصال بي من أجل تجنّب مواجهة حقيقة مرضها؟

أيحتمل أن تكون مريضة حقاً؟
اتخذت قراراً.

مشيت عبر المنزل إلى حيث تقع غرفة نوم بيتي، قرّبت وجهي كثيراً من الباب: "بيتي؟"

"كنت أعرف أنك ستأتين لتطرقني على بابي أيتها الحلوة. أعطيني دقيقة واحدة لأضيء بعض الشموع، ولأضع أسطوانة باري وايت".
إنه بيتي، ولا يملك المرء إلا أن يجبه.
"أنا مضطرة للخروج لزيارة إيما".

فُتح الباب. لفّ بيتي نفسه بمنشفة حمام كبيرة، ولاحظت أنه غطى جانباً واحداً من وجهه برغوة الحلاقة.
"هل ستهجريني مجدداً؟"

فكّرت بإبلاغ بيتي بشأن مرض إيما، لكنني قررت أنني سأحون ثقتها بي إذا فعلت: "أسفة، لقد استجدّ أمر طارئ".

عرف بيتي أنني أراوغ: "أعرف أنك ستضطرين لقتلي كي تخبريني القصة بكاملها، صحيح؟"
"شيء من هذا القبيل".

رفع بيتي أحد حاجبيه: "هل سمعت شيئاً جديداً من الرابطة الفرنسية الخارجية؟"
غيّرت موضوع الحديث: "لا. اتصل غوليت بي، وقال إنه يعتقد أن ابن باروت يمتلك جهاز كمبيوتر كروكشنك".

"أعتقدين أنه سيعطينا جهاز كمبيوتر كروكشك، حتى نستطيع تفحص القرص الصلب للجهاز؟"

"يُحتمل ذلك. إن الشريف ليس ذلك التقنيّ، وهو يقول إنه لا يمتلك ما يكفسي من المساعدين في الوقت الحاضر. يعتبرني الشريف، بفضل إيماء، جزءاً من الفريق، أو ما يشبه ذلك".
"دعيني أعلم بكل ما يستجدّ".

"هل تستطيع تدبر أمر شحن هاتفك الخليوي وحمله معك؟"
أعتقد أن بيتي كان آخر شخص يعيش على نصف الكرة الغربي حصل على هاتف خلوي. إن ما يدعو للأسف هو أن تحمسه الشجاع لعالم الاتصالات اللاسلكية قد وصل إلى ذروته لحظة شرائه للجهاز. يبقى جهازه البلاك بيري في دُرجه عادة، لكن في حالة عدم تشغيل، أو أنه ينساه في جيبه أحياناً، أو أن الجهاز يكون في الحجيرة الوسطى لسيارته.

أدى بيتي تحية مفاجئة: "سأهتم بالجهاز وأحافظ عليه، أيتها القائدة".
قلت له: "لا تظهر رحمتك في كنيسة رحمة الله، أيها المحامي".
تبين لي لاحقاً أنني أسأت اختيار كلماتي.

تمتلك إيما منزلاً مشيداً على الطريقة التشارلستونية المفرطة في قدامها. يحيط سياج حديدي مزخرف بمحيط هذا المنزل المؤلف من طابقين، والمطلي باللون القرنفلي، وطلي سقفه باللون الأبيض، كما يتميز بشرفاته المزروجة. لاحظت أن شجيرة مغنوليا ضخمة تظلل الباحة الأمامية الصغيرة للمنزل.

كانت إيما ما تزال تفاوض لشراء المنزل عندما التقيتها. أحببت الأعمال الخشبية، والحدائق، التي يتميز بها المنزل. أحببت كذلك موقعه في شارع دونكان، والذي لا يبعد سوى دقائق قليلة عن جامعة تشارلستون وجمّع MUSC. سرت إيما كثيراً عندما قبل عرضها بشراء البيت، مع أنه كان بعيداً عن متناول يدها لشرائه في تلك الأيام.

تبين لاحقاً أنها اشترت البيت في التوقيت المناسب، لأنه في السنوات التالية شهدت أسعار العقارات في تشارلستون ارتفاعاً صاروخياً. رفضت إيما بيع منزلها



القدم بالرغم من أنه بات يساوي ثروة لا بأس بها. عانت إيما من ارتفاع قيمة قسط دفعاتها الشهرية، لكنها تدبرت الأمر بإنفاقها القليل على أشياء غير طعامها ومنزلها.

تساقط المطر طيلة الليل، فغسل عن أبنية المدينة رداء الحرارة الشديدة. أحسستُ ببرودة الهواء عندما فتحت بوابة منزل إيما. بدا كل شيء في المنزل مضخماً، بدءاً من صرير المفصلات الصدئة. رأيت الإسمت المتفتت حيث تسلل جذر مغنوليا تحته. فاحت عبر الحديقة رائحة أزهار الدفلى، والياسمين، والآس، وأزهار الكاميليا.

فتحت إيما الباب. رأيتها مرتدية رداء حمام، ومنتعلة خفياً. بدا جلدها شاحباً جداً، ولاحظت أن شفيتها جافتان ومشققتان. تدلّت الشرابب اللماعة من وشاح عليه زخرفات هندية ثبتته على رأسها.

حاولت إخفاء الصدمة من وجهي: "مرحباً أيتها الصديقة".

"أنت أكثر إلحاحاً من شاشة ياهوا (على شبكة الإنترنت)".

"لست هنا كي أبيعك منتجات خاصة بالرجل الذي تحببه".

استطاعت إيما رسم ملامح ابتسامة باهتة على شفيتها: "لا تقلقي لدي كل ما أحتاجه. ادخلي".

تراجعت إيما، ومررت أمامها في طريقي إلى الرواق. لاحظت أن رائحة الصنوبر والخشب قد أخذت مكان رائحة الأزهار.

تناسبت حالة المنزل من الداخل مع العظمة الموجودة في الخارج. رأيت أمامي مباشرة بايين مزدوجين من خشب الماهوغاني يؤديان إلى رواق واسع. رأيت ردهة واسعة إلى يميني، أما إلى يساري فتلوى درج مسيح إلى الأعلى. شاهدت السجاجيد التي تغطي الأرضية الخشبية اللامعة تنتشر في أرجاء المنزل.

بدا الإرهاق يشع من كل جزء من أجزاء جسم إيما، لكنها سألتني: "أنشربين الشاي؟"

"إذا سمحت لي بتحضيره".

تفحصت محتويات المنزل أثناء سيرتي خلف إيما.

عرفت من النظرة الأولى الوجهة التي تذهب إليها أموال صديقتي. امتلأ المكان بقطع الأثاث التي صُنعت قبل أن يخطط الرواد المؤسسون دستور هذه البلاد. تستطيع إيما تدبر احتياجاتها المالية للمئة سنة القادمة، إن احتاجت للسيولة من خلال بيع قطعها الأثرية. أعرف أن مؤسسة كريستي ستستغرق شهوراً لكتابة بيان مفهرس بهذه القطع. قادتني إيما إلى مطبخٍ بحجم متجر يعمل على امتداد ساعات اليوم، ثم جلستُ إلى طاولة مستديرة مصنوعة من خشب السنديان. أخبرتني عن صناديق كروكشوك أثناء انشغالي بتحضير وعاء وأكياس الشاي. أصغتُ إليّ من دون تعليق.

سكبت الماء المغلي في الوعاء، وسألته: "أتريدين إضافة قشدة، أم سكر؟" أشارت إيما إلى وعاء خزفي (بشكل طائر)، فنقلت هذا الوعاء إلى الطاولة الطويلة، وتناولت علبة الحليب من الثلاجة.

أبلغت إيما بأخر المستجدات أثناء ارتشافها لكوبها. أبلغتها عن الكمبيوتر المفقود، وعن الصور الموجودة على الأسطوانة المدججة. وأخبرتني كذلك عن الكسور في الفقرتين العنقيتين.

طرحت إيما عليّ بعض الأسئلة، وكانت كلها أسئلةً ودية جداً. أحببتها عن أسفلتها ثم غيرت لهجتي.

"لماذا تتجاهلين مكالماتي؟"

نظرت إيما نحوي، فبدت بالنسبة لي مثل طفلة تحمل ممسحة مطاوية، تطلب أن تقوم بتنظيف الزجاج الأمامي لسيارتي، وتنتظر لتعرف ما إذا كنت سأقول لها "شكراً"، أو "اغربي عن وجهي". وضعت كوبها الكبير على الطاولة بعناية شديدة، وبدأ لي أنها اتخذت قراراً.

"أنا مريضة يا تمب."

"أعرف ذلك."

"أنا لا أتجاوب مع العلاج."

"أعرف ذلك أيضاً."

أشاحت إيما بوجهها عني، لكن ليس قبل أن ألاحظ الألم الذي ظهر في عينيها: "نالت مني جولة العلاج الأخيرة. عجزت عن أداء وظيفتي. كانت المرة



الأولى لثمان الاثني، والآن هذا اليوم. أمتلك هيكلًا عظيمًا أفضل في تحديد هويته، والآن تخبريني أنه لدي جثة شرطي سابق، والذي يُحتمل أن لا يكون قد قتل نفسه. وماذا تريني أفعل؟ أنا في البيت أنام معظم الوقت".

"تقول الدكتورة رسل أنك ستعانين من بعض الإرهاق".

ضحكت إيما، مع أن كلامي لم يحمل مزاحاً: "لا تتواجد الدكتورة رسل هنا لترى ما أعانيه من تقيؤ".

بدأت بالاعتراض. رفعت يدها لتقاطعي.

خففت إيما نظرها، وركزته على كوبها الكبير: "لن تتحسن حالتي. يتعين عليّ أن أواجه هذا الواقع. يتعين عليّ أيضاً أن أفكر بالموظفين الذين يعملون تحت إمرتي، وبالاجتماع الذي انتخبني كي أخدمه".

شعرت أن فمي أصبح جافاً: "ليس عليك اتخاذ أية قرارات مهمة في هذا الوقت".

تراقصت نسيمات الهواء بأصواتها الفرحية خارج النافذة، غير أبهة بالقلق الموجود عند الناحية الأخرى من الزجاج.

قالت إيما بنعومة: "يتوجب عليّ أخذ هذه القرارات في وقت قريب".

وضعت كوبي على الطاولة. بردّ الشاي في داخله، والذي بقي كما هو.

هل أسألها؟

ترددت أصداء النسيمات الناعمة مرة أخرى.

"هل تعرف شقيقتك بالأمر؟"

نظرت إيما إلى عيني مباشرةً. انفرجت شفتاها. ظننتُ أنها علي وشك أن تطلب مني الاختفاء في الجحيم، وأن أتوقف عن التدخل في شؤونها، وأن أهتم بشؤوني الخاصة. ولكنها اكتفت، بدلاً من ذلك، بهزّ كتفها بحركة نافية.

"ما اسمها؟"

قالت بصوت بالكاد سمعته: "سارة بيرفيس".

"أتعرفين أين تقيم؟"

"تزوجت أحد الأطباء في ناشفيل".

"هل ترغبين أن أتصل بما؟"

"لا أعتقد أنها ستهتم".

نهضت إيماء مبتعدةً عن الطاولة، واقتربت من النافذة. تبعتها، ووقفت خلفها، ثم وضعت يديّ على كتفيها. مرّت فترة صمت فيما بيننا ولم نتحدث.

حدّقت إيماء باتجاه صف من الرفوف التي تحمل أزهاراً صغيرة بيضاء اللون في الحديقة الخارجية: "أحبّ رائحة الطفل الصغير. تبيع بائعات الأزهار عطور الأطفال في السوق. أتريّن تلك المجموعة من السويقات الخضراء والبيضاء، والتي تتوجّها أوراق طويلة ورفيعة؟ أتعرفين ما هي؟"

هزرتُ رأسي بالنفي.

"إنها تبغ الأراب. اعتبر الشاي الذي يحضّر من مغليّ تبغ الأراب أفضل علاج بارد في منطقة سهول كارولينا. يستمرّ الريفيون بتدخين هذه النبتة كعلاج للربو حتى هذه الأيام. تلقّب هذه النبتة بالحياة الخالدة. بدأت بزراعتها...".

أخذت إيماء نفساً عميقاً ومتعباً.

شعرت بتوتر شديد في حنجرتي، لكنني حرصت على إبقاء صوتي منخفضاً وهادئاً.

"دعيني أساعدك يا إيماء، أرجوك".

مرّت سمة هواء، ثم مرّت واحدة أخرى.

أومأت إيماء من دون أن تلتفت.

أخذت نفساً عميقاً، ثم أخرجته ببطء: "لكن لا تتصلي بشقيقي، ليس بعد".

نزاحمت العواطف في رأسي أثناء قيادي للسيارة في طريق العودة من منزل إيماء. ملأني القلق بشأن علاقتي مع رايان، وكذلك الإحباط الناتج عن قضيتي دي ويز وكروكشيك. سيطر عليّ أيضاً القلق على صحة إيماء، والغضب نتيجة عجزتي بوجه مرضها.

تحركتُ وسط أنوار الشمس الساطعة لذلك الصباح الرائع. حرّبت تناسي المحاوف والغضب، والشكوك، والتي تحوّلت كلها إلى شيء جديد. وتحوّلت إلى شيء إيجابي.

لم أستطع الوصول إلى نقي عظم صديقي من أجل استخلاص الحياة التي
تحاول خللاياها انتزاعها منها. أستطيع، مع هذا، التركيز على مهنتي وأن أريحها من
مشاغلها المهنية، وذلك كي أعطي إيما الأجوبة التي تريدها في ما يتعلّق بالمياكل.
توصلت في أعماق قلبي إلى قرار حاسم.
استعدّدت السهول للكشف عن سرّ آخر في هذه الأثناء. ستُكتشف جثة
أخرى في غضون الساعات الأربع والعشرين التالية. وستعطيني هذه الجثة الجديدة
أشياء تتعدى العظام الجافة.

16

أعادني قراري الجديد إلى MUSC. لماذا؟ لعل ذلك حصل بسبب افتقادي لفكرة أفضل.

وجدت المشرف على المشرحة، وشرحت له من أكون، وقلت له إنني أعمل بالنيابة عن المحققة الجنائية. طلبت منه إخراج الهيكلين CCC-2006020277، و CCC-2006020285. وصلت العربتان المدولبتان، وتناولت الفقرة العنقية السادسة لكروكشانك، ولفيكل دي ويز، ونقلتهما إلى مكان المنظار. أكّدت لي نظرة سريعة عليهما أنه يظهر نفس النمط على كل عظمة عنقية منهما. حسناً، أصبحت متأكدة تماماً الآن.

ما هو سبب تأكدي؟

وما هو الرابط بين القضيتين؟

تأملت بهذين السؤالين ملياً كما فعلت من قبل. انتقلتُ بعدها لأفحص التراب الذي جمعه توفّر من قبر دي ويز. لماذا؟ لم أمتلك فكرة أفضل.

وضعت حوضاً من الفولاذ الذي لا يصدأ، مستطيل الشكل في المغطس، ووضعت منخلاً في أعلى الحوض. تناولت أحد أكياس النايلون الثلاثة السوداء اللون، والتي تحتوي على أشياء وُضعت في أسفل العربة التي تحتوي على الهيكل المستخرج من دي ويز. فككتُ السلك الذي يربط الكيس، وسكبت بعض التراب بهدوء، ثم هزرتُ المنخل.



بدأ التراب الرملي بالتسرب من خلال شبكة المنخل. بقي فوق المنخل شيء من الحصى، والأصداف الصغيرة، وأجزاء من قنافظ البحر، ونجوم البحر، وبعض الرخويات الأخرى، وسرطان صغير. تفحصت هذه البقايا بعدسة مكبرة، وتخلصت منها، ثم سكبت المزيد من التراب.

احتوت الدفعة الجديدة على نفس أنواع الحصى، وبعض أجزاء من المخلوقات البحرية.

استرعت انتباهي شظية صغيرة جداً أثناء تفحصي الكيس الثاني. تواجدت هذه الشظية في صدفة حلزون مكسورة، وكانت من الصغر بحيث إنني كدت لا أنتبه لها.

هل هي خيط صغير جداً من نوع ما؟ هل هي خيط بالفعل؟ استخدمت الكلاب كي أستخرج صدفة الحلزون، ثم وضعتها فوق يدي التي ألبس فيها قفازاً. لم يتجاوز طول صدفة هذا المخلوق الثلاثة سنتيمترات، وكانت بنية اللون وملتفة، لكنني لاحظت أنها أكثر سماكة من تلك التي اعتدت على رؤيتها على الشاطئ.

عدت إلى العربة المدولة، وتفحصت المصق الذي وضعه توفير. احتوى الكيس الذي كنت أنفحصه على تراب أخذ من حول العظام مباشرة. انتقلت إلى طاولة جانبية، انتزعت ذلك الخيط الدقيق من الصدفة بالكلاب، ووضعت في وسط شريحة، ثم غطيته بشريحة زجاجية رقيقة جداً. ووضعت الشريحة بعد ذلك تحت المجهر، ثم اقتربت من عدسة المجهر.

بدت العينة وكأنها خط منحني غير واضح. عدلت مقبض التكبير حتى أصبح واضحاً.

تأكدت أن ذلك الشيء كان رمشاً. إنه رمش أسود اللون. رن هاتفي الخليوي أثناء تأملي لهذا الرمش. أظهرت شاشة الجهاز رقماً مؤلفاً من مجموعة من ثمانية، ثم أربعة، ثم ثلاثة أرقام لرمز المنطقة. إنه ليس رقم رايان.

شعرت بالإحباط. نزع قفازي، وتحضرت للرد على الاتصال.

"تعب برينان".

"أنا غوليت. حصلنا على جهاز كمبيوتر كروكشك المحمول، وهو من ماركة دل لاتيبيود، بالإضافة إلى كاميرا رقمية من ماركة بنتاكس أوتيو 5.5 أوتيو".
"إذاً كان الأمر مجرد سوء حظ غير سار".
"نعم، كان باروت الأب آسفاً ومعتذراً. ويبدو أن باروت الابن يستمتع بوقته".
"وماذا الآن؟"

"اكتشفت أن الكاميرا فارغة، إما أن كروكشك لم يترك شيئاً فيها، أو أن ابن باروت قد محا كل شيء ليحمي نفسه. وجدت أن نظام جهاز الكمبيوتر مقفل بكلمة سر. حاولنا قليلاً فتح النظام، لكننا لم ننجح، ولم نصل إلى نتيجة".
"هل أستطيع تجربة حظي في فتحه؟"
مرّت فترة صمت قبل أن يتكلم غوليت ثانية.
"هل تمتلكين خبرة بهذه الأشياء؟"
"نعم".

قلّتها بلهجة عكست ثقة أكبر مما شعرت بها في الواقع. استخدمت كلمات السرّ كثيراً في جهاززي، لكنني لست شارلوك هولمز في فك الرموز الأمنية. ولم أحاول أن أفتح نظام كمبيوتر من قبل.
أصغيت إلى الصمت في اللحظات التالية. ثم سمعت غوليت يقول على نحو مفاجئ: "لا بأس، فالآنسة روسو تثق بك، كما أن المساعدين الذين يعملون تحت إمرتي لديهم ما يشغلهم في هذه الأيام".
"أنا في المشرحة".
"سأكون هناك في غضون ساعة".

لم ينتج عن التراب المتبقي أي شيء مهم. وصل الشريف عندما كنت أعيد ربط آخر كيس.
وضع غوليت صرةً ملفوفة بالنايلون على الطاولة الجانبية. بعد ذلك، طوى نظارته، وعلّقها في جيب سترته الأعلى. ركّز غوليت نظره لبعض الوقت على العريبتين المدولبتين الموجودتين خلفي.

سألني: "هل الآنسة روسو موجودة هنا؟"

قلتُ: "لديها ما يشغلها في مكان ما. انظر إلى هذه".

تقدّم غوليت باتجاه المنظار. وضعت إحدى الفقرتين العنقيتين التي تحمل كسوراً تحت العدسة. تفحصها غوليت لبعض الوقت من دون أن يعلّق. ثمّ انتقلت إلى الفقرة الأخرى.

انتصب غوليت، ونظر نحوي.

أوضحت له أن العينة الأولى تعود لكروكشك، أما الثانية فتعود إلى الجثة المجهولة التي وُجدت في دي ويز.

تكلم غوليت بتشدقه البارد، والممل، الذي عُرف به: "يوجد كسر في كل عظمة عنقية".

"هذا صحيح".

"لكن كيف؟"

"لا أعرف".

أدخلت الشريحة التي تحتوي على الرمش، وطلبت منه إلقاء نظرة أخرى.

"وما هو الشيء الذي أتطلع إليه؟"

"إنه رمش".

حدّق غوليت من خلال عدسة المجهر للحظاتٍ أخرى، ثمّ تطلّع إليّ من دون أن تشي تعابيره بما يفكر فيه.

قلتُ: "وجدنا هذا الرمش في مقبرة دي ويز".

"يعيش مليارات من البشر على هذا الكوكب. كم من مليارات الرموش يمتلكون؟"

"وُجد هذا الرمش على عمق 45 سنتيم تحت الأرض، وكان ممتزجاً بالتراب الملتصق بالجثة".

لم تتغير ملامح وجه غوليت.

قلتُ: "إن هذا الرمش أسود اللون، لكن الرجل الذي دُفن في دي ويز كان شعره أشقر وفتحاً".

"هل يُحتمل أن يكون هذا الرمش قد أتى من أحد رجالك الذين قاموا بالحفر؟"

هزرتُ رأسي بالنفي: "إن لون شعرهم أفتح بكثير من هذا".
اعتقد أن حاجباً كثافاً قد تحرك ميكرو ميلليمتر واحد.
"هل تصلح الرموش لفحص الحمض النووي؟"
"إنها تحتوي على الميتوكوندريا".

لم يُبدِ غوليت أي ردّ فعل.
بسّطت الموضوع كثيراً، لكن توضيحي كان كافياً: "إنها نوع من الحمض النووي الذي يحتوي على مورثات من أقارب الأم".
أوماً غوليت، ومشى نحو الطاولة الطويلة، ثم سحب مذكرة نقل دليل من صرّته.

انضمت إليه، ووقعتُ اسمي، ثم دوّنت التاريخ.
نزع غوليت نسختي، وناولني إياها. طوى النموذج، ودسّه في جيب سترته الداخلي. عادت عيناه لتتطلعا مجدداً نحو العربتين المدولبتين.
"هل وجدت شيئاً يربط ما بين هذين الرجلين؟"
"لا".

"فيما عدا نجاح كل واحد بكسر رقبته".
"صحيح، فيما عدا ذلك".
"إذا كان هناك رابط ما بين الرجلين سنكون أمام جريمة مزدوجة. إن هذا على سبيل الافتراض بالطبع".
قلت موافقةً: "إنه على سبيل الافتراض".
"أتعنين وجود قتل تسلسلي؟"

هزرتُ كتفي بما معناه يُحتمل: "أو أنه يعني أن الرجلين كانا يعرفان بعضهما بعضاً".

"تابعي".

"لعلهما شهدا شيئاً أدّى إلى قتلها معاً".

لم يَرَف جفن غوليت.

"لعلهما كانا متورطين في شيء ما".

"مثل ماذا؟"

"أُحدِّثُ عن شيء مثل المخدرات، أو التزوير، أو خطف ليندبرغ".

"على سبيل الافتراض".

"على سبيل الافتراض".

"استطاع رئيس فريق مساعدي الشرطة الخاصة التابعين لي أن يداهم تلك

البنائة".

ظهرت بعض الملامح على وجهي. وظهرت ملامح التشوش.

"وجدنا أسطوانات كروكشك المدبجة، وصوره. يقول المخبر الخاص إن تلك

الباية الحجرية هي عبادة مجانبية إلى جانب تلك الموجودة في ناسو".

طرحت سؤالي أخيراً: "ومن يدير هذه العبادة".

"إن كنيسة رحمة الله هي التي تديرها".

"أتعني هيرون وجماعته. يا الله! هل يُعقل أن تكون ذات العبادة التي عملت

هيلين فلين فيها؟"

"فهمت الآن لماذا يهتم صديقك بـمذنب الرجلين، لكن شهادة الحقوق التي

يحملها لا تجعل منه تحريماً في النطاق الجغرافي لصلاحيتي. وإذا كنا أمام جريمة قتل،

وأنا لا أقول إننا كذلك، فأنا لا أريد أن يقدم راعي بقر متهور على تنيبه المشتبه

بهم المحتملين".

بدا لي أنه من غير المجدي إبلاغه أن بيتي ليس صديقي، أو أنه ليس متهوراً.

وجه غوليت نحوي إصباعاً في وضع تحذيري: "اطلبي من ذلك الرجل البقاء ضمن

حدوده، لأنه إذا خرجت الأمور عن السيطرة، فسأكون أنا من يتحمّل الملامة".

قلت: "هل ستستكشف تلك العبادة؟"

"لا شيء يستدعي ذلك في الوقت الراهن".

نقر غوليت على جهاز الكمبيوتر: "هاتفيني عندما تعرفين مفتاح دخول

النظام، وإلا سنرسل هذا الشيء إلى مركز شرطة كارولينا الجنوبية".

سألته: "ألا يعني ذلك فترة طويلة من الانتظار؟"
عدّل غوليت وضعية نظارته ماركة راى بانسز: "جربي أنت أولاً يا سيدتي".
هاتفْتُ إيما عندما انصرف غوليت. طلبت مني تسليم الرمش، وصدفة الخبزون
الصغيرة إلى لي آن ميلر حيث سترسلهما إلى المختبر الجنائي التابع للولاية.
انتهيت من تصوير الفقرات العنقية المكسورة، ووضعت الرمش وصدفة
الخبزون في كيس صغير مصنوع من النايلون، وسلمتهما إلى ميلر، وأخبرتها أنني
انتهيت من العمل لهذا اليوم. رأيت أن عقارب الساعة تشير إلى الثانية، فتوجّهت
إلى المنزل.

اتصلت في طريقي بجهاز بلاك بيري الذي يحمله بيتي. هل من مفاجأة كبيرة
إذا لم يردّ؟

بلغ حماسي لاختراق نظام كروكشك الكمبيوترى حدّاً منعني من التوقف
لتناول الغداء. وصلت إلى منزل البحر على امتداد أميال، واصطحبت بويدي في
نزهة سريعة على الطريق، ثم أعددت شطيرة من اللحم والخبز، وجلست إلى
طاولة في المطبخ.

اشتغل الكمبيوتر المحمول، وظهرت الشاشة التي تحمل شعار ويندوز، ثم
أصبحت الشاشة زرقاء. ومض مؤشرٌ بشكل متقطع في الشاشة منتظراً إدخال
مفتاح الدخول إلى النظام من أجل تحميل البرامج.

بدأت بالمفاتيح (كلمات السر) الأكثر شيوعاً: 123456، 123123،
1A2B3C. ادخُل يا مفتاح التشغيل.

لا فائدة.

هل أحزّب الأحرف الأولى لاسم كروكشك؟ أم تاريخ ميلاده؟
نحّضت من مكاني، وتناولت الورقة المطبوعة التي أخذتها من نظام التعرف
على البصمات التي أعطتني إيما.
نوبل كارتر كروكشك.

حاولت إدخال NCC، CCN، وبمجموعة أخرى من الاحتمالات التوافقية
للأحرف الأولى لاسم الرجل. أدخلت تاريخ مولده في بعض الأحيان، ولم أدخله



في أحيان أخرى، وأدخلت هذه الأحرف بالاتجاهين. عكست كل اسم، ثم غيرت ترتيب مجموعات الأحرف. حاولت بعد ذلك استبدال الأرقام بالأحرف، والأحرف بالأرقام.

لم يتزحزح المؤشر من مكانه.

انتقلت لتجربة اسم قسم شرطة شارلوت مكالينبيرغ.

جربت كل الاحتمالات التوافقية مستخدمة أحرف هذا الاسم بترتيبات متنوعة. أدخلته مع الاسم ومكان الولادة أحياناً، وبدولهما أحياناً أخرى. لا فائدة. تذكرت شانون. لم أستطع تذكر الاسم الأوسط لهذه المرأة، ولا اسم عائلتها. متى تزوجا؟ لا أمتلك أية فكرة. حملت الصورة على الشاطئ تاريخ تموز 1976. جربت احتمالات توافقية إضافية.

لم يقبل المؤشر أيّاً من هذه الاحتمالات.

تذكرت البيسبول. أحضرت الصندوق، وتناولت الكأس التذكارية. شاهدت التاريخ المكتوب على اللوحة الملصقة: 24 تموز 1983.

ماذا بشأن تاريخ الميلاد؟ أو تاريخ إحراز بطولة الاتحاد. أدخلتهما سوية بالترتيب، ومن دون ترتيب أيضاً، وبطريقة عكسية. لم أحصل على نتيجة.

تلاعبت بعنوان كروكشنك، وأدخلت كل تاريخ ظهر في مطبوعة نظام

التعرف على البصمات.

فرغت الأفكار من جعبتي عند الساعة الرابعة والنصف.

أبلغت المطبخ الفارغ: "لا أمتلك ما يكفي من المعلومات الشخصية".

هبّ بويده واقفاً على قائمته الخلفيتين.

"أما زلت غاضباً من تلك النزهة القصيرة جداً؟"

فتح بويده فمه، وتدلّى لسانه من فوق لفة أرجوانية اللون.

"أعرف يا معشر الكلاب أنك متسامحة".

رفع الكلب رأسه، ووجه أذنيه إلى الأمام.

"دعنا ننتقل إلى الملفات".

أقفلت الكمبيوتر المحمول، ثم انتقلت إلى الحجرة. ورافقني بويد أثناء انتقاله. شاهدت أن الصندوق الذي يحتوي ملفات كروكشك ما زال على المقعد المجاور للنافذة. نقلته إلى الطاولة الصغيرة، وجلست على الأريكة. أخذ بويد يثب إلى جانبي. التقت عيوننا وما لبث بويد أن عاد إلى الجلوس على الأرض.

احتوى الصندوق على ما يقارب الأربعين ظرفاً أسمر اللون، وحمل كل ظرف التاريخ والاسم، مكتوبين بخط اليد. بدت بعض الملفات سميكة، بينما كان بعضها الآخر قليل السماكة. قمت بتقليب الملفات.

بدت الملفات منظمة حسب ترتيبها الزمني. لاحظت من خلال التواريخ أن كروكشك كان يعمل على قضايا متعددة. بدت هناك فراغات في تواريخ القضايا لعلها كانت الفترات التي يفرط فيها الرجل بالشرب. سحبتُ أقدم ملف.

كُتِبَ على الملف مردوك، ديبورا آن. آب (أغسطس) 2000 م.

حمل ملف ديبورا مردوك المعلومات التالية:

كُتِبَ بعض الملاحظات بطريقة الاختزال، مثل تلك التي كُتِبَت في ملف هيلين فلين.

وجدتُ بعض الشيكات المسحوبة على الحساب المشترك لديبورا وجايسون مردوك. حمل آخر شيك تاريخ الرابع من شهر كانون الأول (ديسمبر) 2000. وجدتُ أيضاً صورة لشخصين يدخلان ويخرجان من مطعم، أو من ملهى، أو من فندق.

تواجهت رسائل موجهة إلى جايسون مردوك في "زاوية مونكس"، في كارولاينا الجنوبية. حملت هذه الرسائل توقيع نوبل كروكشك. امتد تاريخ الرسائل ما بين شهري أيلول (سبتمبر) وحتى تشرين الثاني (نوفمبر) من عام 2000.

بدأت أفهم ما جرى، واكتفيت بقراءة رسالة واحدة فقط.



تأكدت الآن أن ديورا هي المرأة التي تظهر في الصور، لكنّ الرجل لم يكن جايسون.

تابعت بحثي.

لانغ، هنري. كانون الأول (ديسمبر)، 2000 م.

تكرّر الأمر ذاته. وجدت ملاحظات، شيكات، وصور، بالإضافة إلى تقارير. أمضى كروكشيك ستة أشهر وهو يعمل على هذه القضية. وجدت هنا زوجاً غادر منزله.

نظرت إلى الملف التالي.

تودمان، كايل. شباط (فبراير) 2001 م.

تتعلّق هذه القضية بتاجر أثريات شكّ في أن شريكه يخونه. استغرق الأمر شهراً كاملاً حتى استطاع كروكشيك إيقاف ذلك الغشاش.

تابعت العمل بسحب ملف إثر ملف. حملت القصص حزناً متشابهاً. وجدت شركاء زواج مخادعين، وآباء وأمّهات مفقودين، ومراهقين هارين. حملت قلة من القصص نهاية سعيدة. ما هي العبرة من كل تلك القصص؟ استنتجت أنه إذا اعترفت بشكوكك، فأغلب الظن أنك ستجدها في محلها.

تطلّعت إلى الساعة. أشارت عقاربها إلى السادسة وخمس عشرة دقيقة.

تساءلت عمّا يفعله بيتي في هذا الوقت.

تساءلت عمّا يفعله رايان.

تفحصت هاتفني الخليوي. لم ترد أي رسائل، وأنا متأكدة من أن حالة البطارية جيدة.

إنها بالتأكيد في حالة جيدة.

عدت إلى الملفات.

إثريدج، باركر. آذار (مارس) 2002 م.

إنه أحد أكثر الظروف الموجودة في الصندوق سماكة.

عاش باركر إثريدج وحده، وكان بعمر الثامنة والخمسين. ذهب ابن باركر في شهر آذار (مارس) من عام 2002، لكي يصطحبه في رحلة صيد طويلة ومخطّط

لها مسبقاً. لم يكن إثيريدج في منزله، ولم يشاهده أحد بعد ذلك. أمضى كروكشك أكثر من سنة واحدة في التحقيق. استغنى إثيريدج الابن عن خدماته في شهر أيار (مايو) في عام 2003.

فرنكلين، جيورجيا، آذار (مارس) 2004م.

اختفت طالبة تبلغ التاسعة عشرة من عمرها في شهر كانون الأول (ديسمبر) من عام 2003. غادرت الفتاة غرفتها المخصصة للطلبة الداخليين في كلية تشارلستون. غضب والدا جيورجيا من تلكئ الشرطة في إيجاد ابنتهما بعد مرور أربعة أشهر على اختفائها، فأقدا على تكليف كروكشك بإيجادها، وهذا ما فعله بالضبط. وجدها تعيش مع صائغ مجوهرات بوذي في آشفيل، كارولينا الشمالية.

بو، هارمون. نيسان (أبريل) 2004م.

إنه رجل عاطل عن العمل. شوهد لآخر مرة في مركز أتش. جونسون في فرجينيا الطبي. أبلغ أحد أصدقائه عن اختفائه.

فريغوغليتي، سيلفيا. أيار (مايو) 2004م.

إنها امرأة مسنة. تاهت المرأة من مركز لمساعدة المسنين. وُجدت عائمة في الميناء بالقرب من باتريوت بوينت.

تفحصت ساعتني، وهاتفني الخلوي مجدداً.

أشارت الساعة إلى الساعة واثنتين وخمسين دقيقة، ولا مكالمات.

شعرت بالإحباط، فرفعت كتفني، وبسطت ذراعني من فوق رأسي. فتح بويد جفنين أنهما العاس.

قلت: "لم تضع جهودي سدى بالكامل".

نظر بويد نحوي.

"أعرف على الأقل أن حرف (أم) في السطر الأول يعني أن القضية أُقفلت".

بدأ لي أن بويد لم يقتنع بالكامل. لم آبه له. علمت أنني على وشك معرفة شيء ما.

أسدلت ذراعني فعدتُ لأتابع من حيث توقفت.

سنايب، دانيال. آب (أغسطس) 2004م.

اختفى أثناء قدومه من سافانا، في جيورجيا، لزيارة تشارلستون. بقيت
تذكرته للعودة بالباص غير مستخدمة. أبلغت حفيدته تيفاني سنايب عن اختفائه.
والتون، جوليا. أيلول (سبتمبر) 2004م.
إنها سيدة منزل هاربة، وُجدت لاحقاً تعيش مع عشيقها في مدينة تامبا،
فلوريدا.

احتوت بعض أحدث الملفات على قصاصات من الصحف، وبعض
الملاحظات المكتوبة بطريقة الاختزال، فقط. لم أجد شيكات، ولا صوراً
فوتوغرافية، ولا تقارير.

قرأت عدة قصاصات. تحدّثت كل قصاصة عن شخص مفقود.

"أين هي القضايا التي كلف كروكشك التحقيق فيها؟"

لم يمتلك بويد إجابة عن هذا السؤال.

"أم هل كان يبحث عن الأشخاص المفقودين لسبب آخر؟"

أم لأي سبب يا ترى؟

فتحت آخر ملف، وقرأت قصاصة ورق أخرى.

لفت انتباهي اسم أعرفه جيداً.

17

برز اسم هومر وينورن على رأس أحدث مقالة. روت المقالة التي شغلت عمودين، قصة اختفاء رجل يدعى لوي آيكمان في العام 2004.

طلبت امرأة تعيش في جبل بلازنت من السكان أن يراقبوا ابنها. اختفى الابن، واسمه لوي آيكمان منذ سنتين، أي عندما كان في الرابعة والثلاثين من عمره. هذا ما أبلغته سوزي روث لصحيفة أبناء مولتري.

قالت السيدة آيكمان: "اختفى هكذا، بساطة. قال لي: أراك لاحقاً يا أمي. ثم انطلق ولم يعد أبداً".

استشارت آيكمان وسيطاً روحياً بعد فشل الشرطة في تحديد مكان وجود لوي. أخبرها الوسيط الروحي أنه موجود في منطقة تشارلستون. وتقول السيدة آيكمان أن استشارة الوسيط كانت آخر ورقة في يدها.

شرحت آيكمان: "عندما تفقد شخصاً فستصبح مستعداً للإيمان بأي شيء يعطيك أملاً".

بحث آيكمان عن ابنها، ووضعت لافتات تطلب من أي شخص يمتلك معلومات عنه الاتصال بها، أو بشرطة تشارلستون، أو بمكتب الشريف. تقول آيكمان إن ابنها يعاني من انفصام في شخصيته، وأنه كان يتعالج وقت اختفائه. تخشى المرأة أن يكون ابنها قد اختطف.



قالت آيكمان: "أخشى أنه موجود في مكان ما رغمًا عنه".
يبلغ طول لوي آيكمان خمسة أقدام وثمانى بوصات، ويبلغ وزنه مئة وستين باونداً. عيناه خضراوان وشعره بني اللون.

نُشرت المقالة في صحيفة أخبار مونتري في عددها الصادر في الرابع عشر من شهر آذار (مارس). وضع كروكشك دائرة حول عمر آيكمان، وحول تاريخ اختفائه، وحول كلمة "انقسام في الشخصية".
ألقيت نظرةً على عدة قصاصات أخرى. وضع كروكشك دائرة حول المعلومات المشابهة في كل مقالة.

تأكدت عندها أن كروكشك، اهتمك بجمع تقارير عن أشخاص مفقودين. بدا لي أن هذه الحالات ليست قضايا لزيائن. لم تحتوِ الملفات على شيكات، ولا تقارير. لماذا إذاً كل هذا الاهتمام؟

احتوى ملفان من ملفات كروكشك على ملاحظات كُتبت بخط اليد، ولا شيء غير ذلك. حمل أحدهما عنوان هيلمز، ويلي، بينما حمل الملف الآخر عنوان مونتاغيو، أونيج. استنتجت من وجودهما في أعلى الصندوق أن كروكشك قد حضرهما قبل وفاته بقليل. لماذا؟ من كان ويلي هيلمز وأونيج مونتاغيو.
شعرت بالإحباط، لكنني بدأت بفتح ملف جديد في جهاز كمبيوترى، ثم عدت لتفحص الملفات، وسحبت قضايا الأشخاص الذين لم تجد قضاياهم حلولاً.

إثريدج، باركر، ذكر أبيض، 58، 5 أقدام و7 بوصات، 135 باونداً، شعر أشيب، عينان زرقاوان. شوهد لآخر مرة في شهر آذار (مارس) من عام 2002.

مون، روزمارى، أنشى سوداء، 28، 5 أقدام و3 بوصات، 105 باوندات، شعر أحمر، عينان بنية. شوهدت لآخر مرة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام 2002. مدمنة معروفة على المخدرات، وتعمل بائعة هوى.

واتلسي، روبي آن، أنسى سوداء، 39، 5 أقدام و 5 بوصات، 140 باونداً، شعرها أسود ينسدل حتى كتفيها، عينان بنيتان. شوهدت لآخر مرة في شهر تموز (يوليو) من عام 2003. مدمنة معروفة على المخدرات وتعمل في تجارة الجنس.

بو، هارمون، 39، ذكر أبيض، 5 أقدام و 11 بوصة، 155 باونداً، شعر بني، عينان بنيتان. شوهد لآخر مرة في شهر نيسان (أبريل) من عام 2004. معروف بإدمانه على المخدرات.

سنايب، دانيال، 27، ذكر أسود، 5 أقدام و 5 بوصات، 120 باونداً، شعر أشقر ينسدل حتى الكتفين، عينان بنيتان. شوهد لآخر مرة في شهر حزيران (يونيو) من عام 2004. معروف بإدمانه على المخدرات، وقواد.

آيكمان، لوني، ذكر أبيض، 34، 5 أقدام و 8 بوصات، 160 باونداً، عينان خضراوان، شعر بني. شوهد لآخر مرة في ربيع عام 2004. يعاني من انفصام في الشخصية.

لم تتناسب معطيات الهيكل العظمي الذي وُجد في دي ويز مع أيّ من هذه المعلومات. أضفت القضية إلى الملف.

CCC-2006020277، ذكر أبيض، 35 - 50، 5 أقدام و 10 بوصات أو 6 أقدام وبوصة واحدة، شعر أشقر. يوجد كسر في الفقرة العنقية رقم C-6. توجد حروز على الضلع الثاني عشر، وعلى الفقرة الصدرية الثانية عشرة، وفي الفقرة العليا لأسفل الظهر. دُفن في دي ويز.

كتب وينبورن مقالته في شهر آذار (مارس). هل يفسّر اختفاء آيكمان سلوك وينبورن في دي ويز؟ وهل اعتقد ذلك المراسل أننا عثرنا على جثة لوني؟



اقتطع كروكشك تقرير وينبورن في يوم الرابع عشر من شهر آذار (مارس) أو بعد هذا التاريخ. هل ملف آيكمان كان آخر الملفات التي فتحتها؟ ولماذا خصص ملفين لهيلمز ومونتاغيو؟ وما هي الأشياء التي احتوتها التعليقات التي كتبت بطريقة الاختزال؟

وصل بيتي عندما كنت منهمة بفهم الملاحظات التي دوّتها. تردّد صوته في أنحاء الرواق: "هذا أنا، حامل البيترا العظيم". سمعت صوت ارتطام المفاتيح بسطح الطاولة، ثم ما لبث بيتي أن ظهر عند المدخل. ارتدى ملابس كاكية، وما بدا لي أنه قميص لاعبي البولنغ. اغتمر بيتي قبعة هورنيت تناسقت تماماً مع بقية ملابسه. انطلق بويد، وراح يتحرك بشكل دائري حول كاحلي حامل البيترا العظيم، وقرب فمه من العلبة التي تحتوي على آثار الدهون، والتي أمسكها بيتي بيديه. "اشتريت العلبة الكبيرة لأنني توقعت أنك هنا وجائعة. لماذا تعملين والأنوار مطفأة؟"

ركّرت كثيراً على ملفي الجديد الذي بدأت للتو، إلى درجة أنني لم ألاحظ أن العتمة قد خيمت على الغرفة. نظرت إلى عقارب الساعة التي أشارت إلى الثامنة والعشرين دقيقة.

"لماذا خيم الظلام باكراً؟"

"هناك عاصفة عاتية تتحرك باتجاهنا. وبدأ السكان بإغلاق أبواب منازلهم بإحكام. هل لدينا مزلاجت متينة؟ وهل هي جاهزة؟" لاحظت ألوان قبعة بيتي: "لدي أبناء سيئة يا بيتي. قرر فريق الهورنيت الانتقال إلى نيو أورليانز".

نزع بيتي القبعة، ثم نظر بإعجاب نحو الشعار: "أنا أحب هذه الألوان".

"أتعني اللونين الأرجواني والفيروزي؟"

"إنه ليس لوناً فيروزياً أيتها الريفية، بل الأزرق المخضّر. اختار ألكسندر جوليان هذه الألوان بنفسه، وكانت محط إعجاب فرق الاتحاد كلها".

"سواء أكانت الألوان من اختيار مصمم شهير أم لا، فالفريق قد غادر شارلوت".

وضع بيّتي القبعة جانباً على طاولة، وقرب رأسه نحو الملفات المكدسة إلى
جانبي: "ماذا تفعلين؟"

دغدغني إحساس من أعماقي. إنه إحساس يدعوني للانتباه.

ماذا؟ أنتبه من أي شيء يا ترى؟

"لن الإدارة المركزية إلى تمب".

عدت إلى عالم الواقع.

كرّر بيّتي سؤاله: "ماذا تفعلين؟"

"أفحص قضايا كروكشك".

"أفترض أنك تحاولين تشغيل كمبيوتر كروكشك. هل حالفك الحظ معه؟"

هزرتُ رأسي بالنفي: "لم أستطع إيجاد مفتاح التشغيل. أين كنت طيلة

اليوم؟"

"علقت بمشكلة اثمانية. ما هي الأشياء التي تحمل اللونين الأسود والبني والتي

تنطبق على المحاسين؟"

رفعت راحتي يدي، لكنني عرفت أنها غلطة.

"إنها كلاب من نوع دوبرمان".

"إنه وصف غير مناسب".

"لكنه صحيح، ولا بد أن هؤلاء اختاروا مهنة المحاسبة لأنهم عجزوا عن أن

يكونوا رجال أعمال".

"هل استجوبت هيرون بشأن هيلين فلين؟"

"فضّل ذلك القس المحترم أن نبدأ بدفاتر المحاسبة".

رفعت حاجبي نحو الأعلى.

"لا تنظري إلي هكذا. استأجرتي بوك كي أتبع أمواله، وفي هذه الأثناء عليّ

أن أعرف كل ما بوسعي معرفته عن ابنته".

"هل أخبرت هيرون أن كروكشك قد مات؟"

"نعم".

"وماذا كان ردّ فعله؟"

"أظهر الرجل الصدمة، والحزن، ودعاء من القلب كي يرقد بسلام. هل وجدت شيئاً في الملفات؟"
"يُحتمل ذلك".

انتقلنا إلى الشرفة. استطاع النسيم تحريك مروحة السقف بدون مساعدة من الكهرباء.

نشرت الأطباق والمناديل الورقية. ووزّع بيتي البيتزا. شرحت له الأشياء التي عرفتها أثناء تناولنا الطعام.

"إن وجود حرف أم في السطر الأعلى يعني أن القضية قد أُقفلت".

"استطعنا الآن فقط البدء بإحراز تقدم".

"سبق لي أن أبلغت بويد هذا".

وجّه بويد أذنيه إلى الأمام، لكن أنفه لم يبارح حافة الطاولة.

"وجدت أن الكثير من ملفات كروكشيك الحديثة لم تتضمن سوى قصاصات عن أشخاص مفقودين. فتحت ملفاً جديداً، وبدأت بملاحظة الأنماط. ما هذه؟"

أشرت نحو كرات صغيرة سوداء اللون فوق قطعة البيتزا في صحن.

"إنها زبيب مجفف. وماذا وجدت أيضاً؟"

"فتح كروكشيك ملفات لامرأتين وأربعة رجال، أبلغ عن اختفائهم في منطقة تشارلستون منذ عام 2002. لم تحتوِ الملفات على شيكات أو تقارير. وجدت قضيتين لم تحتويا على شيء غير المذكرات".

"يعني ذلك أنه لم يستخدم في الحقيقة ليبحث عن هؤلاء الأشخاص".

"هذا ما أظنه".

فكّر بيّتي قليلاً في هذا الاحتمال: "يُحتمل أن يكون رجل دي ويز أحد

الأشخاص المفقودين الذين كان كروكشيك يتابع قضاياهم؟"

"إن مواصفاته لا تتناسب مع معطيات أيّ من هؤلاء الأشخاص".

"ومن هم هؤلاء؟"

"أحدهم رجل أسود، وثلاثة من البيض. تتراوح أعمارهم ما بين السابعة والعشرين والثامنة والخمسين. يعمل أحدهم قوّاداً. واثنان منهم مدمنا مخدرات.

وتبيّن أن أحد المفقودين مصاب بانفصام في الشخصية. وجدتُ من بينهم امرأتين سوداوين يتراوح عمرهما ما بين الثامنة والعشرين والتاسعة والثلاثين، وتعملان في تجارة الجنس، كما أنّهما مدمنتا مخدرات".

"أعتقد أننا أمام نوع من قاتل تسلسلي، أو أنه رجلٌ يفترس المومسات ومدمني المخدرات؟ هل ينتقي أشخاصاً هامشيين لا يفترسهم أحد؟"
"لا أعرف التاريخ المحدد لاختفاء آيكمان، أو حتى اسم الرجل الذي وجدناه في دي ويز. مرّت ثمانية أشهر ما بين اختفاء إثريدج ومون، ومرّت ثمانية أشهر أخرى ما بين اختفاء مون وواتلي. مرّت تسعة أشهر غيرها قبل أن يختفي بو، ثم مرّ شهران آخران قبل اختفاء سنايب. يبدو أن النمط غير تام إذا كنا نريد اعتبار القتل تسلسلياً".

تناول بيبي المزيد من البيترز: "ألا تعتقد أن القتل التسلسليين غير نمطيين في العادة؟"

"جاء المفقودون من مناطق مختلفة. إنهم رجال، ونساء، من السود ومن البيض. وتراوح أعمارهم ما بين السابعة والعشرين والثامنة والخمسين".
"ألا تقتصر المجموعة على المراهقين من أولاد الشوارع؟ أو على الطلاب الذين يفرقون شعرهم من الوسط؟"

أدركت إشارات بيبي لأنماط الضحايا التي كان يفضلها جون غاسي وتيد بوندي: "هل أصبحت كاتب سير؟"

"إنني مجرد متقف مطلع، بالإضافة إلى كوني حامل البيترز".

سألته: "من الذي أشار بإضافة الزبيب المحفف؟"

"إنه آرتورو".

مرّت لحظات قليلة أصغينا فيها إلى أصوات الأمواج وهي تتلاطم على الشاطئ. كسرت جدار الصمت.

"كتب هومر وينبورن المقالة عن اختفاء لوبي آيكمان. ظهرت هذه المقالة في صحيفة أنباء مولتري في عددها الصادر في الرابع عشر من آذار (مارس). نعرف من هذا أن كروكشك كان حياً في هذا التاريخ".



"هل وينبورن هو الرجل الذي ظهر في موقع الحفريات الذي كنت تشرفين عليه؟"

أومات بالموافقة.

"هل اتصلت به هاتفياً؟"

"سأفعل".

"هل تلقيت شيئاً من مسيو...".

"لا".

تناولت قطعة بيتزا أخرى بعد أن انتزعتُ الزبيب المحفف عنها ووضعتُه على طريقي.

قال بيتي: "هل هي صعبة الهضم قليلاً؟"

"الزبيب المحفف والسّمك الصغير لا يمتازجان فعلاً. أخبريني ماذا حصل مع هيرون".

"لم ألتق هيرون شخصياً".

وصف لي بيتي الأشياء التي حدثت مع محاسبي كنيسة رحمة الله. لم يبالغ في كلامه، وبدأ لي أنه وصل إلى حائط مسدود. تذكّرت الأشياء التي أخبرني إياها غوليت.

"تعرف أحدهم في مكتب الشريف على تلك البناية الحجرية التي تظهر في الصور التي احتفظ بها كروكشنيك على أسطوانته المدججة".

انشغل بيتي بتناول البيتزا: "أوه، حقاً؟"

"إنها عيادة مجانية تديرها كنيسة رحمة الله".

"وأين تقع؟"

"إنها تقع في شارع ناسو".

توقّف فكّ بيتي عن الحركة، ثم بلع: "عملت هيلين فلين هناك. عملت هناك في وقت ما على الأقل".

"هذا ما أظنه. إن هذا يجعل اهتمام كروكشنيك بذلك المكان منطقياً".

مسح بيتي فمه، وكوّر منديلَه الورقي، ثم وضعه على طبقه: "هل ينوي

غوليت متابعة الموضوع؟"

"لا يضع الشريف قضية دي ويز، ولا قضية كروكشك على رأس أولوياته. جعلته يشاهد الفقرتين العنقيتين المكسورتين، لكنه ما زال غير مقتنع أن أياً منهما قد قُتل".

"لعله يجدر بي...".

"لا يريد غوليت بالتأكيد الاتصال بأي شخص يعمل في تلك العيادة، وكان جازماً بذلك".

"وما يضيره لو...".

"لا".

"ولمَ لا؟"

تميّز صوت بيتي بالحدة. أعرف تلك الحدة. إن زوجي السابق ليس بذلك الرجل الذي يقبل أن يعترض طريقه أحد.

"أرجوك يا بيتي. لا تفسد الأمر بيني وبين غوليت. إن الرجل يسمح لي ولك بالتدخل في شؤون ليست من اختصاصنا، ونحن لدينا جهاز كمبيوتر كروكشك وملفاتاه. لدينا الكثير من الأشياء التي يُمكن أن نخسرها. لا أريد المجازفة بهذه الأشياء. يتعين عليّ مساعدة إيما على حلّ هذه القضايا".

"لقد فعلت ما بوسعك. إن إيما هي المحققة الجنائية هنا، ولا تنسى أن غوليت يمثل مشكلتها هي".

تحوّلت بنظري إلى الظلمة الموجودة خارج الشاشة. بدت الأمواج بلون أبيض مائل إلى الفضي وراء تلك الأشكال السوداء التي أعرف أنها كتبان رملية. اتخذت قراراً بشكل مفاجئ.

"إن إيما مريضة".

"ما هو مدى خطورة مرضها؟"

أخبرته عن الورم الليمفاوي، وعن انتكاستها الصحية الأخيرة.

"أنا آسف يا قلم".

وضع بيتي يده فوق يدي. جلسنا من دون أن نتبادل الحديث. بدا لنا أن صوت المحيط في الخارج هو هتاف صاحب.



ركزت أفكارى حول إيماننا بماذا يفكر بيبي يا ترى؟ إنه سؤال مهم. لا أمتلك أية فكرة عن الأشياء التي يفكر بها. هل يفكر بهيلين فلين؟ أو بتقود أموال كنييسة رحمة الله؟ أم هل يفكر بشيفرة كروكشنيك؟ هل يفكر بالحلوى؟

أريك الهدوء المخيم بويلا، فاقترت مني، وأسند رأسه على ركتي. مسدت رأسه ونهضت لأرفع بقايا البيتزا. بدا لي أن تعبير الموضوع هو أمر ضروري.

"وجدت رمثاً عندما خللتُ التراب الذي استخرجناه من قبر دي ويوز. إن الرمث أسود اللون، بينما الشعر الموجود في القبر أشقر".

"ألا يمتلك كل الناس رموشاً سوداء اللون؟"

"لا. إلا إذا استخدموا أصباغ الأهداب".

"ألا تعتقد أن الرمث يسقط من الشخص الذي دس ذلك الرجل؟"

"يمتلك جميع الطلاب الذين استخرجوا الجثة شعراً فاتح اللون".

سلط بيبي نحوي نظرة عارفة: "لعلها نظرية لوكارد التبادلية".

قلت: "أنا مسهورة من هذا التحليل".

أشار بيبي إلى مبدأ يشيع جداً بين المخرمين. قال لوكارد إنه عندما يتقارب شيان من بعضهما فسنبادلان الجسيمات فيما بينهما. يحدث هذا عندما يدخل محتال إلى المصرف، أو عندما يستند قناص على غصن شجرة، أو عندما يقوم قاتل ما بالحفر بالرمال. يحمل كل مجرم أثراً من مسرح الجريمة، ويترك وراءه بعض الآثار.

سأل بيبي: "هل ستجرين اتصالاً مع هذا الرجل وينورن؟"

نظرت إلى ساعتني. كادت عقاربها تشير إلى العاشرة.

"سأفعل ذلك في النهاية. سأفحص بعض ملفات كروكشنيك لبعض

الوقت".

"لماذا عبر ذلك المحاسب الطريق؟"

تطلعت نحوه. أعرف أن بيبي مسجل على لوائح المحاسبين.

"يقول الملف إن هذا هو ما فعلوه السنة الماضية".

وقعت عيناي على قنعة بيبي ما إن جلست على الأريكة. همست لي عقلي

اللاواعي القلق مجدداً. يا الله!

ماذا؟ هل هذا هو شعار الاتحاد الوطني لكرة السلة؟ أم أنه يعود للهورنيت؟ أم للتوركواز؟

تذكّرت تيل!

جيمي راي تيل.

متى قرأت هذه المقالة؟ تذكّرت أنني قرأتها في آخر صباح من فترة الدراسة الميدانية. جرى ذلك منذ أقل من أسبوع.

راح بيتي يجول في أرجاء المنزل، وافترضت أنه يتأكد من أن أقفال المنزل مُحكمة الإغلاق.

ناديته قائلة: "متى تأتي شاحنة جمع النفايات؟"

"لا أعرف إطلاقاً. لماذا؟"

سبق لي أن نقلت يوم الاثنين الماضي كميات كبيرة من الأوراق إلى مستوعب النفايات الموجود في الباحة الأمامية.

كرّر بيتي سؤاله: "لماذا؟"

تناولت مصباحاً يعمل على البطارية، وتوجّهت نحو الباب الأمامي، ثم نزلت الدرج. شاهدت الرياح التي تصفع شجيرات النخيل بقوة. استطعت أن أشم رائحة المطر، وبدا لي أن موعد هبوب العاصفة ليس بعيداً. رفعت غطاء المستوعب، وتناولت منه وعاءً بلاستيكيّاً أزرق اللون يُستخدم لإعادة تدوير الصحف.

بدأت من القاع، ورحت أرفع الصحف، وأتأكد من تواريجها، بمساعدة الضوء الذي يبعثه مصباحي. وضعت الصحف التي لا أريدها جانباً. تنبّهت إلى قدوم سيارة تسير صعوداً على جادة المحيط عندما أصبحت في منتصف مهمتي. وتابعت عملي على تفحص رزمة الصحف.

اقتربت أضواء السيارة مني.

نححت أخيراً! ها هي صحيفة يوم التاسع عشر من أيار. نظرت إلى مواضيع الصفحة الأولى. لفحت النسائم الصفحات التي بين يدي.

أبطأت السيارة في سيرها، لكنني تجاهلتها تماماً.

وجدت تغطية يوم الجمعة الفائت للأخبار الاقتصادية، والإعلانات المبوّبة،
والأخبار المحلية وأخبار الولاية.
توقفت السيارة قبالة منزل البحر على امتداد أميال. شكّلت حزمنا ضوء
مصاييح السيارة زاوية مع المستوعب.
رفعت رأسي، لكنني لم أستطع تمييز أي شيء عدا الأضواء.
هل هو رايان؟ شعرت بصدري يختلج.
لم تتحرك السيارة ولم تعطف باتجاه الجادة.
وقيتُ عينيّ.
شغل السائق محرك السيارة. دارت عجلات السيارة فتسببت بتطاير الحصى،
وما لبثت السيارة أن انطلقت للأمام.
تطاير شيء ما باتجاهي.
فأسقطت الصحيفة بعد أن رفعت يديّ إلى الأعلى.

18

ارتطم شيء صلب بمرفقي فشعرت على الفور بألم كبير في ذراعي. شعرت بوجود سائل، وشممت رائحة شراب الشعير.
حرّكت المصباح بيدي السليمة بحركة دائرية. وقعت حزمة الضوء على زجاجة شراب الشعير التي استقرت إلى جانب مستوعب النفايات.

من رمى هذه الزجاجة؟

هل هم صبية يقومون بنزهة مرح؟

هل أرادوا الحصول على بعض المرح؟

هل رمى هؤلاء الزجاجة باتجاهي عن قصد؟ هل قصدوني شخصياً؟

تطايرت صحيفة يوم الجمعة الغائت، والتصقت أجزاء منها على المستوعب بفعل الرياح. جمعت هذه الأجزاء، وعدت إلى المنزل. لاحظت أن بيتي ليس موجوداً في المطبخ وأنه توجّه إلى الغرفة. رأيت منهكاً بالكتابة على دفتر المذكرات. رفع رأسه، فلاحظ عندها أنني أمسك بذراعي.

"هل أصابتك صاعقة؟"

لاحظت على الأقل أن هذه ليست إحدى نكات المحاسبين.

"رمى أحد المغفلين زجاجة باتجاهي من نافذة سيارة."

قوّس بيتي حاجبيه: "هل أنت بخير؟"

"سيتكفل القليل من الثلج بمعالجة الأمر."

استخففتُ بالحادث ظاهرياً، لكن الشك المزعج بدأ يتزايد في أعماقي. سبق ليبيتي أن لاحظ سيارة غريبة أمام المنزل في وقت مبكر من صباح الأحد. وحصل الآن هذا الحادث. هل أراد أحدهم توجيه رسالة لي؟ هل هم من العابثين المتجولين الذين لا يكثرثون بتحديد أهدافهم؟ أم أنهم يقصدون إصابة الناس؟ أم أنهم يعبرون بهذا عن انزعاجهم من شيء أقدمتُ عليه؟ هل هو ديكي دوبري؟ صممت أن أتبه منذ الآن لما حولي.

وضعت بعض الثلج حول مرفقي، وقرأت في هذه الأثناء تقريراً ورد في عدد يوم الجمعة الفائت من بوست وكورييه، ثم أدخلت معطيات جيمي راي تيل إلى الملف الجديد الذي بدأت به.

تيل، جيمي راي، 47. ذكر. شوهد لآخر مرة يوم الثامن من أيار (مايو) وهو يغادر شقته الكائنة في شارع جاكسون. راهب. موعد مع الطبيب.

انشغلت بالتساؤل عن خلفية تيل العرقية عندما خطرت على ذهني فكرة أخرى. أعرف أن ماثيو سمرفيلد، وهو ابن عضو في المجلس البلدي، مفقود أيضاً. لاحظت أن معطيات هذا الفتى لا تتطابق، في الواقع، مع نمط الأشخاص المفقودين الآخرين في تشارلستون. أي غط هو هذا؟

سمرفيلد، ماثيو الرابع، 18. ذكر أبيض. شوهد لآخر مرة في 28 شباط (فبراير) مغادراً سوق المدينة القديمة. مدمن على المخدرات.

غفوت وأنا أصغي إلى العاصفة القاسية التي أحبرني بيقي عنها.

حلمت تلك الليلة أحلاماً مضطربة. شاهدت رايان وهو يحمل طفلاً رضيعاً بين يديه. وسمعت غوليت وهو يصرخ بكلمات لم أستطع فهمها. رأيت رجلاً من دون أسنان يستجدي بواسطة قبة تحمل شعار فريق الهورنيت. وشاهدت إيما تخرج من غرفة مظلمة. لم أستطع تحريك قدمي عندما شاهدتها، فابتعدت عني.

أيقظني صوت هاتفني الخلوي. وشعرت بألم في مرفقي عندما مددت يدي
كي أمسكه.

سمعت أصواتاً على الجهة الأخرى من الخط، وأصوات أجهزة هواتف: "أنا
غوليت، لدينا قضية أخرى".
شعرت بتوتر في معدتي.

"حملت العاصفة برميلاً إلى الجنوب من شاطئ فولي. ألقى صيادان نظرة إلى
داخل البرميل، فشاهدا جثة. التقط مكثي المكالمات الهاتفية لأن المنطقة تقع ضمن
صلاحياتي. وعلمت أن الأنسة روسو متوعدة مجدداً، وقالت بوجوب اهتمامك
بالموضوع. يبدو أنك قد أصبحت المحققة الجنائية الفعلية أيتها الشابة".

لم تكن الشابة مستعدة لجواب لبق عند الساعة السابعة صباحاً. قلت وأنا
منهمكة بالبحث عن قلم وورقة: "أعطني إرشادات الوصول إلى المكان".
"لا أملك وقتاً أضيعه عليك في حال أخطأت في الوصول. لاقيني في المشرحة
بعد ثلاثين دقيقة".

"لماذا العجلة؟"

يتعبن عليّ تسريح شعري، لكن ربما كان غوليت على حق، لأنني قد أجد
صعوبة بإيجاد المكان.
"سيأتي المدّ بعد قليل".

ارتديت بنطال جينز، وبلوزة في شيرت، ووضعت بعض الصباغ على
أهدابي، ثم أسرعت كي أنزل الدرج.

لاحظت أن بيتي قد غادر المكان، وافترضت أنه يريد متابعة شؤونه المحاسبية.
رأيت بويد وبيرودي في المطبخ واقفين يراقبان بعضهما بعضاً فوق وعاء الحبوب.
ابتعد بيرودي عندما حضرت إلى المطبخ، لكن بويد بقي جالساً، ورأيت بعض
الحليب على أنفه.

"تبدو بحالة مزرية أيها الكلب".

وضعت الوعاء في حوض غسيل الصحون، وسكبت بعض القهوة، ثم تفحصت
ذراعي. ووجدت أن الكدمة بدأت تنورم وتكبر كثيراً، وأن ألوها قد تعددت.



تحول بويد إلى حالة الهياج عندما فككت طوقه. سمحت له بالركض باتجاه المنعطف. وجدت أن أجزاء من أغصان شجر النخيل، وأشياء أخرى، قد تناثرت في الباحة.

جال بويد على مستوعب النفايات، وصندوق البريد، وعلى غصن وقع على الأرض، ثم سار على الطريق. أرجعته إلى المنزل، دور الكلب شعرات حاجبيه، وكأنه يريد أن يقول: هل أنت مجنونة؟ قلت: "يتوجب عليك أن تدفع ثمن النزهة".

بدأت شعرات حاجبي الكلب بالتراقص.

تناولت لوح الغرانولا، وتوجهت نحو مستشفى MUSC. وجدت أن الشريف ينتظري عند باب المشرحة.

اخترار غوليت سلوك جسر جزيرة جايمس الذي يمر فوق نهر آشلي، وتوجه جنوباً. رأيت، بعدما سرنا مسافة قصيرة، لوحات إرشادية للوصول إلى شاطئ فولي.

شاركني غوليت بالمعلومات التي يمتلكها أثناء قيادته للسيارة. لم تزد هذه المعلومات كثيراً عما أخبرني إياه عبر الهاتف. أخبرني عن الصيادين، والبرميل، والجلثة.

سألته عن السبب الذي دفع المحققة الجنائية إلى طلب وجودي. قال إنه يعتقد أن الجلثة ليست قديمة العهد.

حدقت بالمناظر التي تمر بنا من خلال زجاج نافذة السيارة، وشاهدت البيوت المعروضة للإيجار، والأشجار، وأعمدة الكهرباء. لم يحادثني غوليت بعد ذلك. لاحظت أنه دأب على النظر باتجاه مرفقي المصاب.

تذكرت السيارة التي رآها بيبي صباح يوم الأحد، والزجاجة التي ألقيت علي في الليلة الماضية. ماذا يعني كل ذلك. أعتقد أنه إذا كان هناك شخص يريد إنزال الأذى بي، فرمما يجدر بي أن أخبر الشريف عنه. لذا أخبرته بما حدث لي.

سأل غوليت بنبرته الهادئة المعتادة: "هل تثيرين المشاكل هنا؟"

"سبق لي أن طردت مراسلاً صحفياً يدعى هومر وينبورن".

"لا أعتقد أن وينورن يتسبب بالأذى".

"وهل الأمر نفسه ينطبق على رجل المشاريع الإسكانية ريتشارد دوبري؟"
"تعجبت للسبب الذي منع وزارة الخارجية من أن تستفيد من خدمات ديكي العجوز. إن هذا الرجل هو دبلوماسي بالفطرة".

"وهل يمكن اعتباره غير موذٍ؟"

تردد غوليت قليلاً: "غالباً".

غالباً؟ تغاضيت عن الأمر.

انحرف غوليت إلى طريق ضيق يمر عبر المستنقع، وذلك بعد مرور خمس عشرة دقيقة على عبورنا نهر آشلي. لاحظت أن الأعشاب الطويلة قد التفتت حول أشجار العنبر باتجاه السماء زرقاء وصفافية. أنزلت زجاج النافذة، وسرت إلى أنفي روائح أولية ناتجة عن النباتات النامية والتعفن، وعن الرخويات البحرية، وعن السرطانات، وعن ملايين اللافقاريات التي هي أقدم من الزمن نفسه. شعرت بالتفاؤل فبدأت المحادثة.

"هل تعلم أن كارولينا الجنوبية تحتوي على مساحة مستنقعات تفوق أية ولاية أخرى تقع على شاطئ الأطلسي؟"

نظر غوليت نحوي، ثم عاد ونظر باتجاه الطريق.

"انتهى العاملون في المختبرات من التدقيق بمحفظة بينكني".

"هل وجدوا شيئاً غير رخصة القيادة؟"

"لم يجدوا شيئاً ذا قيمة. وجدوا رزمة من القسائم التي تخول الزبون الحصول على وجبة مجانية إذا دفع ثمن واحدة، بالإضافة إلى بطاقة حسم لأحد محلات البقالة، وتذكرة يانصيب، وأربعة وستين دولاراً، وتروجان ماغوم من القياس الكبير جداً".

"يبدو أن بينكني كان رجلاً متفائلاً".

"يبدو أنه كان كذلك بأكثر من طريقة".

انشغلت بمراقبة طيور البلشون البيضاء لبقية الرحلة، ولاحظت أجسامها البيضاء، وسط الأعشاب الخضراء المتماوجة، وأرجلها الطويلة والنحيلة التي تظهر من بين بقع الوحول.



أوقف غوليت سيارة الجيب الإكسبلورر، لكنني لم أملك إلا فكرة غير واضحة عن المكان الذي نتواجد فيه. رأيت كوخين أمامنا تظللهم شجيرات كثيفة. لاحظت وراء الكوخين وجود رصيف ميناء خشبي يمتد في ما ظننته نهر ستونو، أو في مصب نهر آخر من الأنهار التي تصب في الأطلسي.

رأيت سيارتين، إحداهما سيارة كروزر، تُركت أضواؤها وامضة، وسمعت صوت جهاز اللاسلكي ينطلق منها، ثم رأيت شاحنة بلوحة سوداء اللون.

شاهدت عصفير سوداء بأجنحتها الحمراء تترقز جماعياً أثناء ترحلنا، أنا وغوليت، من الإكسبلورر. ترحل رجل شرطة من الكروزر لتحتينا. لاحظت أنه المدبب والتغضبات الحادة التي ظهرت على وجهه. عرفنا الرجل بنفسه على أنه المساعد أتش. تايبي.

لمس تايبي حافة قبعته ليحيي كل واحد منا: "حضرة الشريف. أيتها السيدة. اكتشف سيد يدعى أوزوالد مولتري، في صبيحة هذا اليوم رجلاً وُجد متوفياً، وذلك عندما كان يتفقد أوعية صيد السرطانات. إنه يسكن هناك". رفع تايبي ذقنه باتجاه الكوخ الأول.

أخذ غوليت يحدّق إلى ما وراء تايبي باتجاه ذلك الرصيف الخشبي الممتد في البحر: "هل اعتقدوا أنهم عثروا على كنز قرصان اللحية السوداء الضائع؟" لم يكن المرح من بين ميزات تايبي: "لا أعلم الجواب عن هذا السؤال يا سيدي. أحطنا الموقع بناءً على تعليماتك، وتركنا كل شيء كما وجدناه".

"هل حصلت على الإفادات؟"

"نعم يا سيدي".

"من يسكن في الكوخ الآخر؟"

"تعود ملكية الكوخ ذي المظلة الحمراء فوق النافذة إلى ليلاند، وهو شقيق مولتري".

تبعنا غوليت عندما ترك تايبي، ومشى نحو مجرى الماء. استطعت أن ألاحظ ضيق ذلك الممر المائي الصغير إلى حدّ أنه كان يضيق في بعض الأماكن بحيث يمنع مرور قاربين معاً. ابتعد المدّ فظهر الرصيف الخشبي عالياً فوق الضفة.

ذَكَرني ذلك الرصيف المتزعزع بالبلشون الأبيض الذي يرتفع عن الوحل بساقيه الطويلتين والنحيلتين.

جلس رجلان يدخنان تحت مظلة كوخ ليلاوند. بدا الرجلان وكأهما من مهرّجي السيرك. لاحظت أن الرجلين النحيلين هما من السود، ويضعان نظارتين ذواتيّ إطارين بلاستيكيين رماديين اللون. إنهما الشقيقان مولثري.

رأيت لي آن ميلر وأحد مساعدي الشريف في طرف الرصيف الخشبي من جهة الشاطئ. فانضمتُ وغوليتُ إليهما. تبادلنا التحيات. علمت أن اسم المساعد هو زام زاو. بدا لي أنه مريض بعض الشيء.

دخلت رائحة حادة إلى أنفي أثناء تقديمي باتجاه الرصيف. شممت رائحة كريهة تداخلت مع رائحة الملح والخضار التالفة. استمرّت المحادثة من خلفي، وكانت عبارة عن تخمينات حول كيفية وصول البرميل إلى هذا الممر (الجون) الصغير، وكذلك قُدّمت الاقتراحات عن أفضل الطرق لاستعادته.

حاولت التركيز وسط كل هذه الأصوات.

لاحظت أن الرصيف مجهز بمنصة خشبية تُستخدم لوزن الأسماك واستخراج أحشائها. وانهمكت أسراب الذباب بإقامة مهرجاناً على سطح تلك المنصة. رأيت وعائين يعلوهما الصداً على أحد جوانبها. ورأيت على الجانب الآخر فأساً طويلة المقبض.

نظرت إلى الأسفل.

شاهدت الماء بلونه الأخضر الداكن، والوحول الزلقة السوداء اللون. تحرّكت السرطانات في هذا الاتجاه أو ذاك، وباتجاه الجوانب، ولاحظتُ أنها تلوّح ببرائنها وكأفها الدروع التي يستخدمها المصارعون. استطعت أن أرى هنا وهناك أنماط مسارات الطيور الثلاثية المخالب.

استقرّ البرميل في حالة نصف طفو بعد أن حملته العاصفة إلى الشاطئ. رأيت آثار الأحذية الثقيلة باتجاه البرميل ومنه. لاحظت أن الوحول التي انتشرت حول البرميل كانت في حالة فوضى، بعد أن طحتها جهود الشقيقين مولثري حين حاولا سحب البرميل صعوداً عبر المنحدر.

رأيت سلسلة حديدية ملتفة حول اليرميل، ولاحظتُ أن بعض الحلقات صدئة، بينما بدت معظم الحلقات الأخرى متينة. لفت انتباهي أيضاً بعض الحزوز التي ظهرت على اليرميل والسلسلة.

شاهدت غطاء اليرميل ملقى على الوحول، وظهرت جهته الداخلية إلى الأعلى. ثبت أحدهم حافة الغطاء بواسطة إزميل غارز بعمق في الوحل. تطلّعت إلى داخل اليرميل فاستطعت رؤية فروة رأس صلعاء، ووجه. بدت ملامح هذا الوجه شاحبة بشكل مرعب في المياه الموحلة البنية الداكنة. حضّرت نفسي.

انضممت إلى الآخرين وقلتُ: "يبدو أنه يرميل نفظ".
قالت ميلر: "إنه صدئ مثل مسمار تابوت. أعتقد أن أي شعار، أو كتابات، لا بد أن تكون قد اتمحت منذ وقت طويل".

"لعل اليرميل قديم العهد، لكن السلسلة ليست كذلك. يتعيّن علينا أخذ صور عن قرب، ووضع الفأس في كيس من النايلون. لعل الشقيقان قد حاولا فتح الغطاء بمعالجة الحلقات بواسطة الفأس، ثم نزعوا الغطاء بضربة من جهة الفأس غير الحادة".

قال المساعد زام زاو: "يدّعي ليلاند أن الغطاء قد انفتح من تلقاء نفسه".
قلت: "هذا صحيح".

سألت ميلر: "كيف تريدنا أن نتعامل مع الجثة؟ أظن أنه من الأفضل أن نتعامل مع هذا الشيء بجملته".

قلت موافقةً: "بالتأكيد، فنحن لا نعرف ما هي الأشياء الموجودة داخل اليرميل".

ظهرت على شفّتي ميلر إحدى ابتساماتها العريضة: "حضّرت الشاحنة المخصصة للمهمات غير النظيفة، وأكثر واحداً من الأغذية البلاستيكية، وذلك عندما سمعتهم يتحدثون عن يرميل. سبق لي أن استخرجت هذا النوع من الجثث مرةً، أو مرتين، في حياتي".

تحدّث غوليت إلى زام زاو: "أحضّر عربتك إلى هنا".

أسرع الرجل مبتعداً.

التفت غوليت نحو ميلر: "هل أحضرت سلاسل معدنية؟"
"أحضرتُ حبلاً".

"هل جهّزتِ جزمات أيضاً؟"

أومأت ميلر إيماءةً تخلو من الحماسة.

"سوف نلّف ذلك الشيء بالحبال، ونسجبه إلى الضفة، ثم نضعه على عربة مدولية".

تطلّعت ميلر نحو ذلك الممر المائي: "يحتّم وجود الأفاعي داخل اليرميل".

لم يحمل صوت غوليت أي أثر للتعاطف وهو يقول: "يحتّم وجود أفعى مياه، أو أكثر لأن هذا النوع يحب المياه". مشت ميلر نحو الشاحنة وعادت منها حاملة الجزمات (الأحذية الطويلة المانعة لتسرّب الماء)، ولقّتين من حبال بولي بروبيلين الصفراء. وضعت كل هذه الأشياء أمامنا، وبدأت بالتقاط صور لليرميل الذي يُعتبر مسرح الجريمة. وضع تايبي الشاحنة في مكانها المناسب مستفيداً من إرشادات قدّمها زام زاو بيديه. أقدم زام زاو على ربط حبلين بمصدّ الشاحنة، ثم مدّ كل واحد باتجاه نهاية الرصيف الخشبي.

بقي تايبي وراء عجلة القيادة. انضمت ميلر وزام زاو إلى غوليت وإلى. لم يتحرك أحد باتجاه الجزمات.

قالت ميلر: "هذه الفتاة المسنة ليست أميرة في المياه".

بدا وجه زام زاو بلون أخضر شاحب، وهو اللون الذي استخدمه مونييه في لوحاته التي رسمها للطبيعة.

اكتفى الشقيقان مولتري بالمراقبة من على مقعدَيّ حديقتهما.

بدأ حرّ النهار بالتزايد، وبدأ المدّ بالانحسار. تجمعت من خلفنا جماعات

الذباب وراحت تمارس رقصتها النهريّة حول أحشاء الأسماك التي شوّتها الشمس.

نزعنا حذائي الرياضي، وتناولت الجزمة، ورفعت بنطالي، ثم ثبتّ شريط

الأكتاف جيداً. أخذتُ نفساً عميقاً، وانطلقتُ فوق الرصيف الخشبي، ثم نزلت

إلى الضفة. رمت ميلر قفازين باتجاهي، فأسرعت بوضعهما تحت إبطي.



وجدت أن الوحول لزجة، لكنها مستقرة. تقدمت بحذر شديد، وتحسّست
طريقي باتجاه الريميل، ورأيت السرطانات تتعد عن طريقي.

وضعت القفازين، ثم تقدمت نحو الغطاء، ورفعته ووضعتها إياه في مكانه.
شعرت بمعدني تدور. صدمتي الرائحة المنتنة بشكل يثير الغثيان. استخدمت حجراً
لتثبيت الغطاء في مكانه بعدة ضربات، نزعنا القفازين، وأشرت لتقريب الحبل.
رمى زام زاو أول جزء من الحبل. صنعت أنشودة ولففتها حول ذلك الجزء
من الريميل غير الغاطس، وأنزلتها حوالي ثماني عشرة بوصة، ثم شددت الأنشودة
جيداً.

أمسكت الريميل جيداً، وناورت للوصول إلى الطرف الغاطس من الريميل.
لاحظت أن شظايا من الصدا بدأت بالتفسخ والهبوط باتجاه الوحول.
وقفت عند سطح المياه، وأجريت مسحاً سريعاً. لم أشاهد في الداخل أي جثة
ملتفة.

أخذت نفساً عميقاً، وانطلقت. اكتشفت أن المنحدر هو أكثر انحداراً مما
توقعت. خطوت خطوة واحد، فغمرت المياه ساقي، وعندما خطوت الخطوة
الثانية، غمرت المياه ركبتي.

شققتُ طريقي قدماً، لكن بصعوبة، واستدرت حول الريميل. وصلت المياه في
هذه الأثناء إلى خصري، أما ساقي فقد غابتا في الظلمة الحالكة.

أشرت باتجاه زام زاو الذي قذف حبلاً آخر باتجاهي. صنعت أنشودة أخرى
ووضعتها في أعلى الريميل. أخذت نفساً عميقاً، ثم جلست القرفصاء.

شعرت ببرودة المياه على وجهي. أغمضت عيني، وحاولت تحريك الأنشودة
صعوداً من حول الجزء الغاطس من الريميل. انزلت الأنشودة مرة بعد أخرى.
رفعت رأسي لأتنفس مرة بعد أخرى، وقرفت مجدداً، وبذلت مجهوداً أكبر.
حاولت تثبيت وضعيتي في الوحول، وأدخلت الحبل ما بين الريميل والضفة. تسبب
هذا المجهود الذي بذلته بألم شديد في ذراعي.

سمعت غوليت وهو يصرخ بصوت عالٍ عندما رفعت رأسي لرابع مرة فوق
سطح المياه: "اجمدي مكانك!"

أبعدت خصلات شعري المبللة عن وجهي، وتطلّعت عالياً. تسمّرت نظرة
غوليت على الضفة الأخرى. قلتُ لاهتةً: "ماذا حصل؟"
قال بصوتٍ خافتٍ وهادئٍ: "توقفي... عن الحركة".
التفتّ وتبعّت خطّ نظر غوليت من دون أن أصغي لكلماته.
وشعرت أن قلبي ترك مكانه وقفز نحو فمي.



19

رأيت تمساحاً من نوع موندو يبلغ طوله ما بين ستة وسبعة أقدام. استطعت رؤية الحراشف المكسوّة بحلقات من الوجود، ولاحظت رقبتة الصفراء والبيضاء، وأسنانه البارزة من فكّه القوي.

كان فكّه موجّهاً نحوّي مباشرة.

انزلق تمساح الموندو من الضفة أثناء مراقبتي له، ثم اختفى تحت سطح المياه. ازدادت سرعة دقات قلبي، واندفعت الدماء في أطرافي، فأسرعت نحو الشاطئ.

قفز غوليت من الرصيف الخشبي، وبدأ ينزلق عبر الوجود. مدّ إحدى يديه ليحافظ على توازن اليرميل، بينما مدّ يده الأخرى باتجاهي. تمسّكت بيده، واندفعت إلى الأمام بكل قوتي. هزّني الألم بسبب مرفقي الذي جرحته الزجاجية.

تسبب الوحل الممزوج بالنفط بانزلاقي فوق الوجود، فأفلت من قبضة غوليت. سقطت إلى الخلف، وأطبقت عليّ المياه. امتلأت "الجزمة" بالمياه فأصبحت أثقل بكثير.

انطلق هورمون الأدرينالين في أنحاء جسمي. رفعت كتفي، واستدرت، ثم تحسّست طريقي، لكن العتمة غمرتني.

أين اليرميل؟

يا الله القدير، أين اختفى التمساح؟

بدأت أركل على طريقة الضفادع من فرط يأسِي، وتحسست الضفة بيديّ. ثبتّ قدميّ ورفعت رأسي، ثم طفوت على سطح المياه. أخذت غوليت بالصفير، وأشار بيده إلى جبلٍ قذفه نحوي إلى المياه.

أخذت ميلو بالصياح: "أسرعي يا عزيزي! أسرعي!"
وقف أحد الشقيقين مولتري إلى جانب ميلو. حمل الرجل شيئاً ما في يديه، ثم وقف إلى جانب زام زاو، ونظرا إلى يساري.

جعلت الجزمة المثقلة بالماء من حركتيّ عملاً شاقاً، وجعلت من كابوس الليلة الماضية حقيقةً واقعة. توترت عضلاتي، لكنني مشيت بتناقل باتجاه الجبل، ومن دون أن أنسى ذلك الحيوان الزاحف الذي يقبع ورائي.

هل كان ورائي فعلاً؟

اندفع شيء ما إلى سطح المياه إلى يساري. أعددت نفسي لحالة تنغرز الأسنان فيها في جسدي.

صاحت ميلو بي: "اسحي!"

وصلت إلى الجبل، فضغطت بركبتي على الضفة، وأخذت أسحب الجبل، وحاولت الاندفاع نحو الأعلى. وشعرت بيديّ غوليت تمسكان بي، وفجأة أحسست بالأرض الصلبة تحت قدميّ.

وقفت مشدوهة للحظة، وأخذت ساقاي بالارتعاش، بينما تدفق الماء الموحل من جزمي. تطلّعت من حولي لأجد أن ميلو تضحك بابتهاج رافعة إبهاميها الاثنتين نحو الأعلى، وراحت تبتسم بابتهاج.

قلت لاهتة: "لم أكن أظن أن التماسيح تحبّ المياه المالحة."

تناول مولتري رقبة دجاجة من دلوه المليء بالأشياء التي يستخدمها كطعم في صيده، ورماها بعيداً في مجرى النهر، وراح يتسم: "لا يعرف هذا التمساح كيف يتتقى طعامه."

تماوجت المياه راسمة أحرف V معكوسة عندما سبح التمساح باتجاه قطعة الدجاج.



انتظرنا عشرين دقيقة على الرصيف الخشبي. شربنا القهوة، وراقبنا التمساح في رقدته المستقرة على بُعد عشر ياردات أعلى النهر الصغير. غمرت المياه كامل التمساح ما عدا فقراته وطرف خطمه. لم نتأكد ما إذا كان التمساح ينظر إلى الخلف نحونا، ولم نعرف ما إذا كان يحمي غداءه، أم أنه يغط في نوم عميق. أسقط غوليت الأشياء التي في يده في الوحل، وقال: "لن تنحسر المياه أكثر من هذا المستوى. من يرغب بمنزلة رامون؟" زودنا أوزوالد مولتري باسم التمساح، وقال إنه زائر دائم في هذا النهر الصغير.

"لعلني على استعداد لمنزلته، فأنا مبتلة سلفاً".
لا أعتقد أن كلمة مبتلة تفي بالغرض، لأن الوحول غطت كامل جسدي.
قالت ميلر: "لا حاجة بك كي تبرهني أنك لا تخافين من التماسيح".
تثير الأفاعي في الرعب، لكنني أبقيت هذه الحقيقة لنفسني، لذلك قلت بصدق: "أنا لا أخاف من التماسيح".
لوح زام زاو بيندية ريمينغتون التي أحضرها من صندوق سيارة الكروزر:
"عليك أن تدفسي نفسك الآن. سيبدأ هذا المخلوق بالتحرك في هذا الاتجاه. وسأودع رصاصة في دماغه".
قال غوليت ملاحظاً: "لا حاجة لك كي تقتله. تستطيع الرمي على مساره، وسيراجع".
ناولت ميلر كوبي البلاستيكي: "اطلبي من مولتري أن يُبقي على جهوزية البوجانغلز".

نزلت عن الرصيف الخشبي، كما فعلت في المرة السابقة، وعبرت فوق الوحول، ثم استدرت حول اليرميل الموجود في النهر الصغير.
لاحظت أن الشريف محق لأن مدّ المياه بدأ بالارتفاع. زحفت المياه إلى نقطة لا تبعد عن حافة اليرميل إلا قليلاً.
وضعنا حطّة في هذه المرة. ساقوم بالنزول إلى تحت سطح المياه، وأناور لكي أضع الحبل تحت الحافة السفلى لليرميل. وسأنتقل بعد إنجاز هذه الخطوة إلى

الإمساك بالجهة العليا للبرميل، بينما يقوم غوليت وزام زاو بالإمساك بجبلين آخرين مربوطين بالجهة السفلى للبرميل.

نجحت الخطة، بالرغم من ترافقها مع بعض الصعوبات. تمكنا من إحكام لفّ الحبل حول البرميل بعد ثلاث محاولات فاشلة. بدأت، لاهثة والماء يقطر مني، بشدّ الأنشوطتين، وأجريت تجربة سحب اختبارية. بدا الحبلان متينين.

أشرت لغوليت. وأشار غوليت بدوره إلى ميلر التي نادى تايبي. سمعت صوت محرك الكروزر يهدر وراء الرصيف الخشبي.

أخذ الحبلان بالانشداد ببطء. تحرك البرميل وترنح قليلاً في مكانه.

لوح غوليت بيديه. صاحت ميلر. وهدر محرك الكروزر ثانية. حبست أنفاسي وانخيت إلى الأسفل، مثلما يفعل لاعب البيسبول الذي يتلقى الكرة، ثم دفعت الجهة السفلى من البرميل مستخدمةً كتفيّ. لم يتزحزح البرميل قيد أعملة.

شعرت بحرقة في رئتيّ، لكنني استمررت بالدفع مجدداً، وشعرت أن البرميل يتحرك.

رفعت رأسي وسط أصوات السحب والاحتكاك. بدأ البرميل يتحرك من المياه إلى الوحول.

انشغلتُ وغوليت بدفع البرميل، بينما أخذ زام زاو على عاتقه توجيه إرشاداته، وبدأ البرميل بالزحف باتجاه أعلى الضفة، ورأينا الماء المتسح ينساب من الشقوق الموجودة على جوابه.

مرّت فترة حسبتها دهنراً قبل أن يرتفع البرميل فوق حط المذد. مرّت فترة مماثلة أخرى قبل أن نتقل من الوحول إلى الأرض الصلبة. وجدنا ميلر بانتظارنا عندما وصلنا إلى الضفة بعد أن جهّزت آلة التصوير وعربة يدوية مدولية.

أشار ليلاند مولتري بصمت إلى وجود صبور مياه قرب شرفته. شكرته، وتحركت نحو المنزل. نسزعت جرمي، وانخيت، ثم وضعت رأسي تحت المياه الهادرة التي تخللت شعرت وغمرت وجهي. ظهر أوزوالد مولتري من داخل المنزل وقدم لي منشقةً. كدت أحتصنه من فرط امتناني له.

عدت من جلسة التنظيف ولاحظت أن ميلر ما زالت منهمكة بالتقاط الصور. وقفت لأراقب المياه تنساب من البرميل، وأخذت بالتساؤل عن الشخص القابع في داخله. هل مضت عقود من الزمن على وفاة هذا الرجل، أو المرأة؟ هل مضت سنوات؟ أم شهر واحد فقط؟ هل أصيبت الجثة بالانتفاخ، وتغيّر لونها، نتيجة مرور وقت طويل عليها في البحر. وهل تسألّت الأسماك الناهشة، أو زحفت، أو سبحت، من خلال شقوق البرميل، وتكفّلت بذلك بنزع اللحم عن العظام؟

هل ستقدم إيمًا على الطلب مني معاناة العظام إذا كان القيام بعملية تشريح كاملة أمراً مستحيلاً؟

هل تعودت الملكة أن تحبّ أصحاب المؤهلات من ذوي الخبرة؟
خطرت فكرة مفاجئة على ذهني. هل يُحتمل أن تكون الجثة الموجودة في البرميل عائدة لأحد الأشخاص المفقودين الذين تابعهم كروكشوك؟
إنها فكرة رهيبة. أيعقل أن تكون هيلين فلين؟

أعادي ضحيج ناتج عن احتكاك معدني إلى الحاضر.
رأيت ميلر وهي تحاول وضع العربة المدولة تحت البرميل. انهمك غوليت بالدفع، ورفع إحدى جوانبه، وما لبثت العربة أن أصبحت تحته. دفعت ميلر شحنتها باتجاه العربة المخصصة للمحققة الجنائية بمساعدة تايبي وزام زاو.
انتهى الأمر بعد أن قمت بمهمتي. تستطيع ميلر ومساعدوها وضع هذا الشيء اللعين في العربة.

بقي المساعدان نظيفين وغير مبتلين.
استندت إلى سيارة الكروزر العائدة لتايبي كي أنتعل حذائي الرياضي. وتوجّهت بعدها نحو سيارة الإكسبلورر العائدة لغوليت. تناولت مشطاً من حقيبتي الصغيرة، ومشطت شعري.

نظرت إلى صورتي في مرآة السيارة. بدت فكرة وضع صباغ الأهداب فكرة سيئة.

بقي تايسي وزام زاو وراءنا لالتقاط صور الفيديو، ولإكمال استجواب الشقيقتين مولتري وتجولا في المكان. تبعت ميلر إلى مستشفى MUSC برفقة غوليت، وفصلنا حاجز بلاستيكي عن مقاعد الأكسبلورر.

أهيت استحمامي، وارتديت الرداء الرسمي للعمل، بينما قامت ميلر بإزالة اليرميل. انضمت إليها في المنطقة المخصصة للوصول والمحاطة بأبواب معدنية متحركة، وذلك بعد وصولنا إلى المستشفى بخمس عشرة دقيقة.

سألتها: "أين غوليت؟"

"تلقي مكالمة".

"هل كانت المكالمة من مصمم الأزياء؟"

ضحكت ميلر: "ربما. يحرص الشريف على هندامه إلى درجة أنه لا يحب تلويث بذلته بالوحوول. أعتقد أنه منهمك الآن بتنظيف سيارته (SUV). قال إنه يريدك أن تعلميه بما يستجد معنا".

"هل اتصلت بإيما؟"

أومات ميلر: "تريد المحققة فتح اليرميل. سأتولى أنا مهمة التشريح، بينما تحصلين أنت، أو أحد أطبائنا على المديح".

"وهل ستبقين هنا؟"

"لن أحرم نفسي من هذه المهمة".

سجلت ميلر هذه القضية (الحالة)، وحضرت قلماً بخط عريض للكتابة على بطاقة التعريف، ثم أعطت الجثة الرقم CCC-2006020299. وضعت أنا بطاقة التعريف، بينما اهتمكت هي بالتقاط صور لليرميل، والسلسلة التي تحيط به.

حدقت ميلر من خلال عدستها: "يبدو أن السلسلة بحالة جيدة، لكن اليرميل صديء جداً".

"يُحتمل أن يكون اليرميل والسلسلة مصنوعين من معدنين مختلفين".

"ويُحتمل أن تكون السلسلة الجديدة تحيط باليرميل القديم".

تحوّلت المنصة الإسمنتية حيث نعمل إلى بركة ماء مشبعة برائحة العفونة. انتهت ميلر من التصوير، فانتقلنا لتفحص المنطقة الخارجية من اليرميل. تأكّدنا



أنه لا وجود لأية شعارات أو كلمات، نتيجة لمرور الزمن وكما توقعت مسبقاً.

قلتُ: "لا بد من وجود عدد كبير من الشركات التي تصنع براميل بسعة خمسة وخمسين غالوناً".

قالت ميلر موافقةً: "هناك العشرات منها".

التقطت ميلر بعض الصور الفورية الاحتياطية، ثم اختفت، وما لبثت أن عادت حاملةً مَخْلًا، ومنشاراً آلياً.

"حسناً يا عزيزتي، كيف تريدن معالجة الأمر؟"

قلتُ: "ما من سبب يمنعنا من فتحه ببساطة".

وضعت ميلر قفازين جلديين كبيرين، وأدخلت المخل عند حافة البرميل، ثم حاولت أن ترفع الغطاء، لكن الغطاء بقي في مكانه: "هل عملت مع لاري ومو سابقاً؟"

قالت ميلر: "من تبت هذا الشيء اللعين بهذا الشكل المحكم".

"استفدتُ من بعض الأدرينالين".

جرّبت ميلر إدخال المخل في مكان آخر، ثم شدّت المقبض نزولاً بقوة. تحرّرت نصف الغطاء، وانطلقت بسبب ذلك جسيمات الصداً نزولاً. دسّت ميلر أصابعها، وحاولت سحب الغطاء من نقاط أخرى في محيطه، ثم شدّت نحو الأعلى. تحرّرت الغطاء المعدني كلياً، واستقرّ بين يديها.

تصاعدت رائحة رطوبة قديمة من البرميل، وامترجت مع رائحة الأعشاب البحرية المتعفنة، والمياه المالحة الراكدة منذ زمن، بالإضافة إلى رائحة أخرى، أي رائحة الموت.

وضعت ميلر الغطاء على الأرضية الإسمنتية، وتناولت مصباحاً يعمل على البطارية، ثم انحنينا سوياً.

لاحظنا أن الشكل بشريّ، لكنه ليس إنسانياً، فهو يبدو كنسخة قبيحة مصنوعة من الشمع الأبيض. تقوَّس ذلك الشيء على نفسه واضعاً رأسه بين ركبتيه.

تضيقُ أنف ميلر: "أتوقع أن لا يُعجزك هذا عن تحديد هويته، يا دكتورة".

لم أتق بكلامها هذا، لأن عملية الهدرجة والتحلل المائي لمواد الجثة الدهنية تؤدي إلى تكوين مادة تحتوي على الحوامض الدهنية والجليسيرول. تُعرف هذه المادة الدهنية، وأحياناً الشمعية، باسم "شمع القبور".

تبقى مادة "شمع القبور" مدة طويلة بعد تكوّنها، وتشكّل مع الزمن قالباً من الأنسجة الدهنية. سبق لي أن شاهدت جثثاً تمكّن فيها "شمع القبور" من حفظ ملامح الجثة والوجه، بينما أحال التعفن الأحشاء إلى مادة سائلة.

قالت ميلر: "أدخلت أقدام الضحية أولاً، ثم حُشرت في اليرميل فيما بعد". قلتُ: "أو أن الضحية قد أُجبرت على الدخول في اليرميل أولاً لتأخذ بعدها وضع القرفصة".

"وهي عارية".

اجتاحني دوامة معتادة من الحزن والغضب، فقلت من دون تفكير: "تبدو الضحية صغيرة في السن".

اجتاحت ميلر دوامة مثل تلك التي اجتاحتني، فقالت بصوت متوتر: "هل هي أنثى؟"

"أفضل أن لا أحمّن".

عرفت مسبقاً. سبق لي أن شاهدت الكثير من الزوجات المقتولات، والطالبات، وبنات الزوجات، والنادلات، والمومسات. إن جنسي هو الجنس الضعيف، وهو الذي يتلقى التعديات.

عدت للتركيز على غضبي، وقلت: "هناك الكثير من الرمال، ولربما استُخدمت لجعل اليرميل ثقيلاً".

قالت ميلر: "لا شك في أن الصخور كانت خياراً أفضل، لأن أقل صدمة من مروحة دفع لقارب، أو حتى نقطة صدأ، ستسبب بخروج الرمال من اليرميل. إن هذه الفرضية تفسر سبب طفو هذا الشيء وتحركه على سطح المياه".

قلتُ: "دعينا نضعها على الطاولة".

أنزلنا العربة المدوّلة معاً حتى أصبحت موازية للمنصة الإسمنتية. حركنا الجثة بحرصٍ شديد، وكأننا خشيناً من إزعاج تلك الضحية الراقدة في اليرميل.

بدأت جهودنا غير مجددة، لأن الوقت قد فات لعدم إزاجها.
أحضرت ميلر نظارتين للوقاية، وأسرعت إلى تشغيل المنشار الآلي، وبدأت بتقطيع اليرميل بشكل طولي من الحافة إلى الحافة ومن جانبيه، وفي قعره، ثم أزالته ذلك الجزء الذي يقع فوق الجثة.
استلقى ظهر الضحية على النصف الأسفل من اليرميل، وحُشر رأسها ما بين الساقين المطويتين. لاحظت وجود تآكلات في مسطح "شمع القبور" في المنطقة التي احتكت فيها الركبتان والساقان مع السطح الداخلي لليرميل.
استحممت وبدلت ملابسني، بينما لقت ميلر حمالةً بلفائف بلاستيكية. نزعنا نظارتها وقفازيها الجلديين، ثم دفعت الحمالة إلى موقع مناسب. تعاونت مع ميلر لنقل الصينية المتحركة للحمالة المدولة إلى الأرض ووضعناها إلى جانب اليرميل. وضعنا قفازات جراحية في أيدينا. أمسكت بالرأس، بينما اهتمت ميلر بالردفين.

قالت بصوت متوتر: "هل أنت جاهزة؟"
أومأت.

رفعنا الجثة بوضعة واحدة كي نُجرها. صمدت هذه الجثة للمساء.
قلتُ: "حسنًا".

رفعنا الجثة معاً بوضعة أخرى، ثم بوضعة أخرى، وحرصنا على أن نسحب برفق عند وجود عائق أمامها. تخلى اليرميل ببطء عن سجينه. توقفنا للحظة لكي نسمح للسائل التنن بالتقاطر. أومأت، واستدرنا وأنزلنا الجثة، ثم رفعنا الصينية. درتُ بعد ذلك حول الحمالة المدولة.

تأكدت من شكل الأعضاء التناسلية أن الضحية كانت أنثى بالفعل، بالرغم من أن الجثة كانت مشوهة ومنزوعة الشعر، وبالرغم من انسلاخ الجلد عنها. إن مرور وقتٍ طويلٍ على وجود الجثة في اليرميل جعلها قالباً في وضعٍ جنيني.
خطرت على بالي فكرة مجنونة أوحت لي أن المرأة تحمي نفسها من العار الذي سيحلبه موتها غير الطبيعي عليها. بدا لي وكأنها تحمي نفسها مني، ومن ميلر، ومن ذلك الحشد من الناس الذي سيتجمع في محاولة لرسم صورة ما حدث في

لحظاتها الأخيرة، ولوضع تفاصيل الضرر الذي حدث لها بسبب وجودها طويلاً في ذلك السجن المائي.

أراد جزءٌ مني أن يغطي هذه المرأة، وأن يحميها من الأشخاص الذين يرتدون أزياء عملهم، ومن الأضواء الساطعة، ومن مصابيح الفلاشات، ومن الأدوات اللامعة. عرف الجزء العقلاني من ذاتي أن كل ذلك لن يجديها نفعاً. أظن أن كل ما تحتاجه هذه المرأة، التي رقدت طويلاً في البرميل، هو تحديد هويتها ومعرفة اسمها، تماماً مثل ذلك الرجل الذي وجدناه في دي ويز، وذلك الرجل الذي وجدناه متديلاً من شجرة.

أقسمت على معرفة اسمها، وعلى تحديد هويتها التي ستربطها مع عالم الأحياء. أقسمت على إلقاء هذه السرية التي منعت ذوبها من الحداد عليها، ومنعت الناس من معرفة ما عانته من عذاب. عملتُ مع ميلر على وضع المرأة على ظهرها بعد أن كانت على جنبها. انتظرت حتى تنتهي ميلر من التقاط الصور. حاولنا بقليل من الضغط تحريك الأطراف المتصلبة بشدة.

قالت ميلر: "تتولى هذه الفتاة المسكينة مثل البهلوان المصنوع من الإسمنت. يتطلب هذا العمل عضلات قوية".

زدنا شدة الضغط. استجابت ذراع ثم الأخرى لجهودنا، ونجحنا بإسدال الذراعين بشكل مستقيم على جانبي المرأة.

انتقلنا إلى الساقين. وتولت ميلر الركبة اليمنى، بينما أخذتُ أضغطُ على الكاحل. نجحت جهودنا بإزالة تصلبها.

لاحظنا أن كتلة كروية قد انزلقت من بطنها واستقرت إلى جانب وركها، وذلك ما إن انبسطت ساق المرأة.

ما هذا!!

رددت ميلر ما أفكر فيه.

"يا الله، ما هذا؟"

20

قلتُ: "دعينا نُنزل الساق الأخرى".
أمسكت ميلر الركبة، بينما تولّيت أنا الكاحل. عملنا سوياً على إزالة
التصلب، وجعلنا الساق في وضعٍ مستقيم.
بدأت منطقة البطن يؤرّة لهلام متعفن، ومصدراً للرائحة الكريهة، والتي كان
من الممكن أن تتسبب بإفراغ قري بأكملها من ساكنيها.
تنفست من خلال فمي، واستدرتُ حول الطاولة.
بدأت الكتلة الكروية من نفس المادة الدهنية البيضاء التي تشكل جسد المرأة،
لكنها مغطاة بخيوط حريرية بنية اللون.
تفحصت فخذَي المرأة، فلاحظت أن الخيوط الحريرية تغطيها بالكامل.
هل ما أراه خيوطاً؟ أم شعراً؟
وخزت الكرة قليلاً. وأحسست أنها صلبة بطريقة ما، لكنها غير مستقرة مثل
ثمرة فواكه ناضجة جداً. أو لعلها كتلة لحم؟
خطررت لي فكرة مفاجئة.
استخدمت طرف إصبعي، وحككتُ بضعة خيوط منها، ثم تفحصتها.
وجدتها من نوع الفراء.
اكتفت ميلر بالمراقبة، أدخلت إصبعي داخل هذه الكتلة، واستخرجت إحدى
القوائم الصغيرة. استخرجت بعدها قائمة أخرى.

اتسعت عيننا ميلر. أسرعت، ومن دون أن تقول كلمة واحدة، إلى إيجاد القائمتين الخلفيتين، ثم تعاوننا معاً على بسط ذلك المخلوق الصغير. بدا ذلك المخلوق نحالاً من الشعر، ومنتفحاً، ومليناً بالماء، وفي حالة متحللة، ولذلك كان من الصعب معرفة نوعه.

سألت ميلر: "هل هذا المخلوق فيدو، أو فيلكس، أو فلوبيسي؟"

تفحصت المناطق السفلية لهذا المخلوق، واستطعت تحرير ذيل طويل ورفيع: "أعرف أنه ليس أرنباً. ألاحظ أن الوجه مسطح، وأن الأطراف الأمامية والخلفية تتساوى طولاً. دعينا نتفحص الأسنان".

أمسكت بالرأس، في حين تفحصت ميلر الفكّين.

قلت: "إنها قطة".

تخلّلت بيردي. تطلّعت إلى هذه المرأة التي تخلّص منها أحدهم في هذا اليرميل مع قطتها، مثلما يتخلّص من نفاياته.

قاومت دافعاً ثار في أعماقي كي أطرق بقبضتي على السطح الفولاذي الذي لا يصدأ. أغمضت عيني بدلاً من ذلك.

رغمزي يا برينان. لن نحرزي أي تقدم بالتحقيق إذا لم نتركزي.

قلت: "دعينا نكتشف هويتها".

دفعت ميلر هذه الحمالة المدولة فوق المنحدر، ودخلت بها إلى المستشفى. تبعتها، وصعدنا معاً إلى غرفة التشريح. أسرعت بتفحص أصابع الجثة كي أتأكد مما إذا كنا نستطيع استخلاص أية بصمات، أو أجزاء من بصمات. وتأكدت أنه ما من فرصة لهذا الاحتمال.

اتصلت ميلر بتقني لتطلب منه إجراء صور بالأشعة السينية. انشغلنا بتعبئة النماذج أثناء غياب الجثة، ولم تبادل الحديث فيما بيننا.

أسرعت ميلر بوضع صور الأشعة فور وصولها في العلب الضوئية المثبتة على الجدران. انهمكت ميلر والتقنيّ بنقل الجثة إلى طاولة التشريح، بينما تنقلت أنا أمام صف هذه العلب كي أتفحص الصور الرمادية والبيضاء، والتي تُظهر أجزاءها الداخلية.

ظهر الدماغ والأعضاء الداخلية بشكل هش. لم أستطع استخراج أي سائل صلب من العينين. استنتجت أن هذه ستكون حالة تشريح عظمية، إذا ستكون من نصيبي.

ركّزت على العظام. لم أستطع رؤية كسور، أو أشياء شاذة فيها. لم ألاحظ أية أشياء جراحية مزروعة، ولا دبابيس، أو صفائح. لم أشاهد أية أشياء غريبة، ولا رصاصات، وما من أثر لأي شيء معدني. لم أجد أسناناً، لا طبيعية ولا صناعية.

قلتُ: "لن نحتاج إلى خدمات بيروني غرايمز. إنها بدون أسنان بالمرّة".

سألتُ ميلر: "هل هي مواطنة مسنة؟"

شعرت بالإحباط نتيجة مشاهداتي للفيلمين الأخيرين: "أعتقد أنها متوسطة السن، وليست هرمة".

اقتربت ميلر مني.

تطلّعت نحو التقني الذي أجرى صور الأشعة السينية: "تستحق الجائزة الذهبية عن المهارة والدقة يا كايل. أخذت صوراً من زوايا مناسبة للقطعة الصغيرة". "لم أكن متأكداً...".

قاطعتُ كايل، وأشرت نحو بقعة بيضاء بحجم حبة أرزٍ صغيرة تقع في أسفل منتصف رقبة القطعة تماماً: "انظر إلى هذه".

سألت ميلر: "هل هي شيء مصنوع؟"

هزرتُ رأسي: "إنها تظهر في صورتين".

تفحّصت صور الأشعة السينية العائدة للقطعة، وتناولت مبضعاً، وعدتُ إلى الحمالة المدولبة وأحدثتُ شقاً جراحياً. أمضيت ثلاثين ثانية من التفحص، واستخرجت قطعة أسطوانية صغيرة. حملت هذه القطعة في راحة يدي، ودعيت ميلر وكايل المجتهد لإلقاء نظرة.

قالت ميلر: "أعرف أنك ستخبريني عن طبيعة هذا الشيء".

"إنها رقاقة تعريف خاصة بالحيوانات المنزلية الأليفة تُعرف باسم ترانس بوندر (جهاز استقبال وإرسال)".

تطلّعت ميلر نحوّي، وكأنني قلتُ إنّها أفعى مصممة للمناورة في الفضاء.
"يشتمل الجهاز على لفّة مصغرة، ودائرة للذاكرة محفوظة في زجاج مقاوم
للعوامل البيولوجية. يُزرع هذا الجهاز بواسطة حقنة تحت الجلد مباشرة، وتُحقن ما
بين عظام الكتف".

"هل يقوم المسؤولون عن الماتريكس (المصفوفة) بعملية الحقن؟"
"يقوم الأطباء البيطريون بهذه العملية. وتستغرق العملية أقل من دقيقة. يمتلك
هرّي هذا الجهاز من دون أن يشعر بذلك".
بدأت ميلر مشككة: "وكيف يعمل الجهاز".

"تحتوي رقاقة الذاكرة الموجودة في الجهاز على رقم تعريف مبرمج سلفاً،
بحيث يتمكن جهاز مسحي (ماسح ضوئي) من قراءته. يرسل هذا الجهاز المسحي
إشارة لاسلكية منخفضة الطاقة إلى اللفة الموجودة في جهاز الترانس بوندر. تقوم
اللفة بإرسال نسخة عن رقم هوية الحيوان الأليف إلى الجهاز المسحي. يقوم
العاملون إثر ذلك بمقارنة الرقم مع قاعدة بيانات مركزية، والتي تُحفظ فيها
سجلات مالكي الحيوانات الأليفة".

"وهكذا إذا هربت فلاقي، سيتمكّن مالكيها من استعادتها".
"يصحّ هذا إذا كانت فلاقي محفوظة بما فيه الكفاية ليُزرع الجهاز فيها".
"ألا يدعو هذا الأمر للسخرية. أعني أن إيجاد قطعة هو أسهل من إيجاد إنسان.
ما هي مدة صلاحية الجهاز؟"

"يستمر الجهاز بالعمل، نظرياً، لمدة خمس وسبعين سنة".
أظهرت ميلر أنّها تفهم ما أتحدث عنه: "ومن يمتلك هذه الأجهزة؟"
"تتواجد هذه الأجهزة عند الأطباء البيطريين، ومراكز العناية بالحيوانات،
وجمعيّات الرفق بالحيوانات. إنّها منتشرة جداً".

"وهكذا يكون ذلك السافل المغفل قد ترك دليلاً نموذجياً بالنسبة إلينا".
أومأت: "وسيساعدنا هذا على تحديد هوية الضحية".
أحضرت ميلر كيساً من النايلون بزّم ووضعت الكبسولة فيه، ثم التفتت
نحو كايل.

"ابحث لي عن طبيب بيطري يستطيع إجراء مسح لهذا الشيء".
غادر كايل ليبحث عن جهاز هاتف، بينما تابعت وميلر فحصنا للجنة.
نظرت ميلر لما تبقى من الوجه، وسألت: "أعتقدين أنها بيضاء".
"تدلّ صور الأشعة السينية التي أخذت للجمجمة، على أن الجمجمة وملامح
(هندسة) الوجه هي قوقازية".

"وما هي الأشياء التي تجعلك تعتقدين أنها في منتصف العمر؟"
"وجدت التهاباً خفيفاً في المفاصل، وأربطة عظمية حيث ترتبط الأضلاع
بعظمة القص. أعتقدين أنه بإمكانك انتزاع الملتحمة العانية (ارتفاق أو التصاق
العظام)؟"

ذهبت ميلر لتبحث عن منشار (حديدي).
ركّزت سنادة رأس مطاطية وراء رقبة المرأة. لم تُفصح ملامح وجهها إلا عن
دلائل قليلة على مظهر الوجه عندما كانت على قيد الحياة. اختفى الجفنان، وامتألاً
محجراً العينين بذات المادة الشمعية التي علقت بالعظام. اختفت الأهداب، وكذلك
الحاجبان، وشعر الرأس.

عادت ميلر. وتوليت أنا التقاط الصور، بينما قامت هي بإزالة الملتحمة
العانية، ثم أخذتها لتبحث عن وعاء نقع. لفت انتباهي شيء غريب عندما كنت
منهمكة بالتقاط صورة قريبة للوجه. وضعت الكاميرا جانباً، وانحيت قليلاً.
أحاط أخذود برقبة المرأة، ويبدو أنه اخترق طبقة اللحم الهشة بمقدار
ربع بوصة. بدا الأخدود ضيقاً، وقدّرت أن عرضه يقارب نصف عرض
سبابتي.

هل نتج الأخدود عن حادث حصل بعد الوفاة؟ أم أنه أثر نتج عن احتكاك
مع شيء موجود داخل البرميل؟ أم أن هذا الأخدود هو من صنع القمامات البحرية
(الأسماك التي تقفّات على المخلوقات الميتة)؟

تناولت عدسة مكبرة، ومرّرت إصبعي فوق الأخدود. تأكّدت أن الحواف
نظيفة ومحددة جيداً. إن ذلك يُثبت عدم وجود أي احتمال بأن يكون الشق قد
نتج عن الأسماك، أو الحيوانات القاضمة.

سمعت صوت باب يُفتح، ثم سمعت وقع خطوات. قالت ميلر شيئاً. لم أرفع بصري، لأنني كنت منشغلة بتتبع مسار الأخدود، وبالتحقق من وجهته. تفحصت أيضاً طبقة اللحم الموجودة من جهة أعلى الأخدود وما دونه. اتجه الأخدود أفقياً، ولاحظت وجود اتساعٍ شاذٍ في الجهة اليسرى من الرقبة، ثم شاهدت شقوقاً في الأنسجة المحيطة بها.

"ما هو الشيء الذي يثير انتباهك إلى هذه الدرجة؟"
ناولت ميلر العدسة المكبرة. تفحصت الأخدود وقالت: "هل هذا هو ما كنت أفترضه؟"
"نجد هنا أخدوداً، وخدوشاً ناتجة عن الأظافر، ولربما نتجت أثناء عملية دفاع عن النفس."

"هل نستطيع اعتبارها حالة خنق عن طريق ربط شيء ما على الرقبة؟"
أومأت.

"أي نوع من الأربطة؟"
"إنه ناعم، وذو مقطع مستدير وقطر صغير. أعتقد أنه سلكٌ من نوع ما".
أطلقت طبقة اللحم المثلومة ذكرىً سابقةً عندي.
تذكرت كروكشك المتدلي من شجرة سنديان في غابة فرنسيس ماريون الوطنية.

مرّت نفس الخاطرة بذهن ميلر: "ما رأيك بفرضية الشنق؟"
"يتصاعد الأخدود إلى نقطة تعليق، وذلك في حالة الشنق، لكنني ألاحظ أن هذا الأخدود يسير أفقياً حول كامل الرقبة".

تفحصت هذه المرأة المستلقية على صينية فولاذية وسط الحوض. ولاحظت أن علامات الاختناق المعتادة قد أزيلت بسبب التحلل والتصبن (التحول إلى ما يشبه الصابون). لم ألاحظ وجود نزيف تحت الجلد، وهو الذي ينتج عن ضغط وريدي متزايد. لم أجد أمامي أية علامات تدلّ على الازرقاق، ولا على نزيف في الأنسجة، ولا على قسبة هوائية، ولا مريء، ولا أي عضلة أستطيع أخذ عيّنة منها. لم أجد أي شيء يسمح لطبيب التشريح بالاستنتاج أن الوفاة قد نتجت عن عملية خنق.

"سأقوم بعد تجريد العظام بنفحص منطقة الحنجرة، وخصوصاً غضاريف العظام اللامية والغدة الدرقية. أستطيع أن أقول إنني أصبحت متأكدة تقريباً الآن انطلاقاً من الأشياء التي أراها".

كوّن دماعي لنفسه صورة فورية أخرى. عدت إلى عظام دي ويز، والحزوز الدقيقة التي لاحظتها. صمّمت على إلقاء نظرة فاحصة على العمود الفقري والأضلاع، وذلك فور إزالة ما بقي من اللحم. غيرت ميلر الموضوع: "وجد كايل طبيياً يطرأ يستطيع إجراء مسح لكبسولتك". "وأين هو؟"

وضعت ميلر ملصق إرسال بريدي أصفر اللون على أحد الصناديق الصغيرة ذات الواجهة الزجاجية الموجودة فوق الطاولة: "إنه على مسافة قصيرة من هنا، ويدعى الدكتور دين، ويقول إنه سيقى في عيادته حتى الخامسة والنصف. وسينطلق بعدها ليقضي عطلة نهاية أسبوعٍ طويلة".

نسيت أن نهار الاثنين يصادف يوم ذكرى الحنود الأميركيين الذين سقطوا في ساحات القتال". أشارت عقارب الساعة إلى الرابعة والنصف، فكان لزاماً عليّ أن أسرع قليلاً في عملي.

تقدّمت نحو طاولة العمل، وانتزعت العظام العانية من الوعاء الذي استخدمته لتبليها. انفصلت الغضاريف عن بعضها بسهولة، وهذا ما سمح لي أن أتأكد من أن سطحَي العظم الارتفاقي كانا أملسَيْن، لكنهما يتميزان ببعض الانخفاض بالنسبة لإطاريهما.

راقبت ميلر بترقب.

نزعت قفازي، وأنزلت كمامتي: "أجل. إنه يتواجد إلى الشمال أو إلى الجنوب من خط العرض 40. يتعيّن عليّ أن ألتقي الدكتور دين قبل أن يغادر عيادته. متى سيتم الانتهاء من تنظيف الهيكل العظمي بالكامل؟" "سيتم ذلك صباح الاثنين".

قلت: "لا أحب أن أطلب منك العمل في يوم إجازة، أو في عطلة نهاية الأسبوع".

ضحكت ميلو: "لم أخطط لشيء يا عزيزتي، عدا زيارتي هوم ديبو".
"يا لك من قديسة".

"أنا شفيعة المتكلمين بالإسبانية. بالمناسبة، ماذا تريدان أن أقول
لغوليت؟"

"أخبريه أنها امرأة بيضاء في أواسط عمرها، وأنها خُنقت وحُشرت في برميل
مع قطنها".

تقع عيادة الدكتور دين، من ضمن مجمّع تجاري مكسو بالحص، ويضمّ متجرّاً
لبيع الأدوات الكهربائية، ومحلاً لبيع المواتف الخلوية، ومكتباً للتأمين، ومتجرّاً
الدولار الواحد، ومحلاً لتأجير أفلام الفيديو. رأيت كلمات كُنبت باللون الأصفر
عرّفت المكان على أنه "العيادة البيطرية للعناية بالحيوانات بمحبة".

بدأ عقلي المتعب يخترع ألعاباً ليتسلى: العناية بالحيوانات بمحبة؟ الحب
والعناية للحيوانات؟ الحب والعناية؟ هل لكل منهما تسعيرته الخاصة؟ وهل تتوفر
عقود بالجملة حسب الطلب؟

احتجت بالفعل إلى مغطس فيه الكثير من الرغوة والفقاقيع، وكذلك إلى
عشاء مميز.

وقف الحظ بجانبني هذه المرة، لأن سيارةً غادرت أحد مواقف السيارات بينما
كنت في دوري الثانية للبحث عن موقف، فأسرعت وركنت سيارتي مكان السيارة
التي غادرت.

دخلت العيادة وما لبثت أن مرّت قربي امرأة تحتضن في إحدى ذراعيها فأراً
من نوع شي هوا هوا. راح الفأر يركل، لكن ماذا؟ هل يثرثر هو الآخر؟ حتى
الثرثرة لا تستطيع أن تجذب الانتباه مثل الصراخ.

بدأت غرفة الانتظار في عيادة الدكتور دين كبيرة، وافترضت أن أبعادها تصل
إلى ثمانية أقدام بعشرة. رأيت أمامي مباشرة طاولةً مكسوة بالخيزران، ووضع فوقها
جهاز كمبيوتر شخصي من طراز عام 1983 تقريباً. لم أجد أي شخص يعمل على
هذا الجهاز.

شاهدت وراء الطاولة بايين مفتوحين، حمل كل واحد منهما لوحة معلقة ومناسبةً لوضع الرسوم البيانية. انسابت أصوات مكتومة من وراء أحد الأبواب. شاهدت ملفاً مفتوحاً وراء الباب الآخر، ما دلّ على وجود أشخاص بالغرفة. اصطفّت مجموعة من الكراسي على طول الجدار قرب أحد جوانب الطاولة. ورأيت رجلاً مسناً يجلس على آخر كرسي من جهة اليمين. رأيت أمامه كلباً هراماً يتراخى على إحدى قدمي الرجل. واحتلت امرأة آخر كرسي من جهة اليسار، ورأيت عند قدميها حاملة حيوانات فيروزية اللون، وضعت على الأرضية المشمعة. استطعت أن أرى من خلال باب الحاملة عيين سوداوين صغيرتين وشارباً. هل كان نمساً؟

دلّ عقرباً الساعة على الخامسة وخمس عشرة دقيقة. يبدو أن دين لن يستطيع المغادرة عند الساعة الخامسة والنصف كما كان يخطط.

تبعني أنظار المرأة والنمس إلى الكرسي الذي جلست عليه، والموجود في وسط الصف. استمرت المرأة في تمسيد عليقتها (النمس). وتراجع النمس إلى الظلال.

تناولت مجلة تهتم بالقطط، وتراخيت في مقعدي.

قرأت صفحتين من مقالة تتحدث عن منع القطط من محاولة مصّ البطانيات. خرجت امرأة من الغرفة رقم واحد، وتبعها توأمان صبيان، وكلب صيد ذهبي اللون. ظهر من نفس الباب، ولكن بعد لحظات قليلة، رجل صغير الحجم ذو وجه بني لامع. وضع الرجل على عينيه نظارة ذهبية الإطار، وارتنى معطف مختبرات أزرق اللون، وطرّزت عليه كلمة دين.

دعا دين المرأة التي تصطحب النمس لدخول المكان الذي أحلته الوالدة والصبيان.

وقفتُ.

اقترب دين مني، وسألني إذا ما كنت الشخص الذي يمتلك الكبسولة. بدأت أشرح له الوضع. أسكتني بإشارة من يده، ومدّ إليّ راحة يده. أعطيته كيس النايلون، وما لبث أن اختفى في غرفة الفحص رقم اثنين.

جلست متسائلة إلى متى سيطول انتظاري.

جرى الأمر على هذا النحو.

الساعة الخامسة وست وخمسون دقيقة: خرجت المرأة التي تصطحب الكلب

من الغرفة رقم اثنين.

الساعة السادسة وأربع دقائق: دخلت المرأة والنمس الغرفة رقم اثنين.

الساعة السادسة واثنان وعشرون دقيقة: خرجت المرأة التي تصطحب

النمس من الغرفة رقم واحد.

الساعة السادسة وخمس وأربعون دقيقة: خرجت المرأة من الغرفة رقم اثنين،

لكن من دون الكلب.

عاود دين الظهور عند الساعة السابعة وخمس دقائق، وناولني قصاصة ورق.

كُتِب اسمان على القصاصة: كليوبترا وإيزابيلا كامبيرون هالسي. افترضت أن

الاسم الأول هو اسم القطة الميتة، أما الأخير فهو اسم مالكة القطة الراحلة. كُتِب

تحت الاسمين عنواناً في شارع كينغ.

شكرت دين، لكن ببرود ظاهر لأنني تخطيت عتبة الإفراط في اللطف. اعتقدت

أن طلبي لم يأخذ من وقت الرجل أكثر من خمس دقائق، ولا بد أنه كان بإمكانه

الانتهاء منه أولاً، فأتمكن بذلك من الذهاب في سبيلي، لكنه فضل أن يجعلني أنتظر

ساعتين كاملتين.

وجدت نفسي بعد ذلك بدقائق قليلة عالقةً بزحمة سير قرب سوق المدينة

القديمة. شعرت بالانزعاج من دين إلى درجة أنني سلكت الطريق المؤدي إلى

شبه الجزيرة بدلاً من التوجه صعوداً نحو الجسر.

انعطفت بالسيارة، ثم انعطفت مرة أخرى. بدأت الشوارع تضيق وتزدحم

بالسواح. أردت أن أكون في المنزل بدل الزحف وراء عربة تجرها الخيول.

شعرت بالانزعاج من غبائي. وجدت نفسي في غاية التعب، وبحاجة إلى

الاجتسال، إلى درجة أنني كدت أنخرط بالبكاء.

مررت قرب كنيسة مشيدة بالحجر الرمادي اللون وذات برج عال. إنها

كنيسة القديس فيليب. عرفت أنني موجودة في شارع الكنيسة، واستعدت

إحساسي بالاتجاه الذي يتعين عليّ سلوكه. شعرت بالارتياح لأنني أتقدم بالرغم من وجودي في منطقة دوين القديمة.

تباطأت عربة الخيل. استطعت أن أسمع الصوت المكتوم للسائق برغم هممة جهاز التكييف في السيارة، وافترضت أن السائق منهكٌ برواية أخبار معالم المنطقة التي يمرُّ بها. بدأتُ معدّي بالزجرجرة، فأضفت الجوع إلى قائمة الشكاوى التي أعاني منها.

بدأت أنقر على عجلة القيادة بأصابعي، وتطلّعت عبر زجاج نافذتي. رأيت حانة طومي كوندون الإيرلندية القديمة. شاهدت بعض الزبائن يتناولون عشاءهم على الشرفة. بدا لي أنهم سعداء، ونظيفون.

انحرفت أنظاري باتجاه موقف السيارات التابع لحانة طومي. رأيت سيارة جيب.

تجمّدت أصابعي على عجلة القيادة.

تطلّعت إلى لوحة الأرقام. اندفع قلبي بنبضات جنونية. لم أستطع مقاومة دافع الخروج من سيارتي. تنقلت أنظاري بين رصيف وآخر. لم أجد مكاناً مناسباً قرب الكنيسة كي أركن سيارتي فيه. أين هو مدخل موقف السيارات المخصص لحانة طومي يا ترى؟

تردّدت أصدااء وقع خطوات الخيول البطيئة، ولم أجد أمامي أيّ خيار غير السير وراء العربة.

اجتزت زاوية الشارع أخيراً. ووجدت مساحة خاليةً بعد أن وصلت إلى شارع آخر، فأسرعت إلى إيقاف السيارة فيها. أغلقت باب سيارتي بقوة، وانطلقتُ راکضةً.

21

وجدت رايان جالساً إلى طاولة في شرفة الحانة. رأيت أمامه سلّة صغيرة تحتوي على بقايا شطيرة الجبن التي تناولها، وكوباً فارغاً من شراب الشعير. استنتجت من كثرة أعقاب السجائر التي ملأت منفضة معدنية، أنه أمضى وقتاً لا بأس به في الحانة.

إنها علامة ليست بالجيّدة، لأن رايان كان لا يعود للتدخين إلا عندما يكون قلقاً، أو غاضباً.

حافظي على برودة أعصابك.

قلتُ بصوت منخفض، لكنه قوي ومتوتر إلى أقصى درجة: "هل أنت من هذه المنطقة أيها الرجل الوسيم".

أشرت باتجاه كرسي.

هزّ رايان كتفيه.

جلستُ على الكرسي.

أطفأ رايان سيجارته في المنفضة المعدنية.

عدت إلى إلحاحي: "هل هاجر طائر الثلج جنوباً طلباً للشمس والرمال؟"

لم يتنسم رايان.

"لماذا لم تدخل منزل آن ليلة الأربعاء؟"

"لأنني حجزت مكاني للقيام بجولة مشي لمطاردة الأشباح الموجودة في زنزانية".

تجاهلت وصفه هذا: "لماذا تتجاهل اتصالاتي الهاتفية؟"
"أعاني من مشكلة في استقبال الاتصالات".

"أين تقيم؟"

"أقيم في فندق تشارلستون".

"رائع".

"يقدمون هناك مناشف سميكة".

"أفضّل لو أنك نزلت في منزل آن".

"لاحظت أنه شديد الازدحام".

"ليس الأمر كما تظنّ يا رايان".

"وماذا أظنّ أنا يا ترى؟"

ظهرت نادلة أمام طاولتنا قبل أن أتمكّن من الإجابة.

"هل أنت جائعة؟"

قدّم رايان عرضه هذا مصحوباً باللطف الذي يلقاه المرء عادةً من أمناء

صناديق المتاجر الكبرى.

طلبتُ زجاجة كولا للحمية، بينما طلب رايان زجاجة من شراب الشعير

الفاتح اللون.

حسناً. لم يُسارع رايان لاحتضاني، لكنه لم يسارع للمغادرة أيضاً. يبدو هذا

في غاية الإنصاف. أعرف ما كنت سأشعر به لو أنني قدت سيارتي لمسافة ألف

وأربعمئة ميل، لأكتشف عند وصولي أن امرأة ما تعانق زوجي السابق.

لكنني لم أكن أعانق بيّتي، وأعتقد أن رايان أظهر كل الثقة بالنفس التي

يملكها طالب متوتر في صفه الدراسي الثامن.

جلسنا بصمت. امتلأ هواء الليل بالرطوبة، وهدأت النسائم. بدأت الرطوبة

تغزو ملابسني فالتصقت بجسدي، بالرغم من أنني ارتديت ملابس نظيفة قبل

مغادرتي المستشفى. وبدأ التوتر بالظهور على ملامحي.

سمحت للتعلّق بالتحكّم بمشاعري. قرّرت البدء بالحديث من زاوية مختلفة،

وذلك بعد أن أحضرت النادلة المشروبات التي طلبناها.

"لم أعلم شيئاً عن حضور بيتي إلى المنزل، أو أننا سنجتمع كلنا فيه بنفس الوقت. تلقى بيتي دعوة من آن. إنه منزلها، وكان من المقرر أن أغادره في نفس اليوم الذي وصل فيه. أعتقد أن هذا هو سبب عدم قيامها بإبلاغي أنه قادم. يشتمل المنزل على خمس غرف نوم. ماذا يمكنني أن أقول؟"

"ألا يمكنك أن لا تخلعي ملابسك؟"

"ليس الأمر هكذا".

رفع رايان راحة يده في إشارة منه إلى عدم رغبته بسماع المزيد.
زادت إشارته هذه من إعادة انبعاث التوتر في داخلي.

"أمضيت أسبوعاً قاسياً يا رايان. تستطيع أن تمنحني فرصة لأرتاح قليلاً."
"هل وضعت أنتِ وزوجك مقياساً للمصائب؟ النقطة الواحدة تعني ضربة شمس، ونقطتان تدلان على "بينو" سيئ. وتدل النقاط الثلاث على وجود الكثير من النمل أثناء نزهة على الشاطئ".

اعتدت على توجيه النصائح المناسبة لنفسي، مثل: لا تشعرني بالتوتر، لكنني عادةً ما أتجاهل هذه النصيحة. وهذا ما فعلته هذه المرة أيضاً.

صحت به: "ألم تتمتع للتو بأسبوع مع حبيبك السابقة في نופا سكوتيا؟"
"تظاهري أنك رأيتني أصفح جيبي نتيجة دهشتي باهتمامك بأموري".
تضايقت من الحرارة، وشعرت بالجوع وبالنعب، وأصبحت مثلاً سيئاً على الدبلوماسية. وأحسست أنني أضعت هذه الدبلوماسية بالفعل.

صحت به متعمدةً إضافة بعض المبالغات، ومستغلةً المناسبة: "علمت للتو أن صديقة لي مريضة، ولعلها تحتضر. ويلاحقني مراسل صحفي، كما أن صاحب مشاريع بناء يهددني. انشغلت أيضاً بالاهتمام بثلاث جرائم قتل، وأمضيت الأيام السبعة الماضية إما في قسم الطوارئ، أو في المشرحة، أو بالخوض في الوجود بحثاً عن جث متحللة... وتعرضت يوم الأربعاء الماضي لنوبة عاطفية. قلق علي بيتي فقدّم لي بعض العزاء الذي كنت بحاجة شديدة إليه. أنا أسفة لأن ذلك جاء في توقيت غير مناسب، وأسفة جداً جداً لأنني جرحت مشاعرك الذكورية".

استرخيت في مقعدي، ووضعت ذراعيّ بشكل متقاطع. استطعت أن أرى الزوجين اللذين يجلسان إلى يميننا يحدقان بنا. حملقت فيهما، فحولاً نظرهما علي الفور.

أشعل رايان سيجارة جديدة، وسحب نفساً عميقاً، ثم أخرج الدخان. حدقت بالدخان المتصاعد لولياً باتجاه المروحة المثبتة فوقنا.
"طلبت مني ليلي الابتعاد عنها".

فوجئت عندما تحدّث رايان عن ابنته، لكنني صحت بغباء: "ماذا؟ ماذا تعني؟ ومتى حدث ذلك؟"

"تورطنا بجدال في وقت ما بعد أن تحدّثت معك يوم الأحد. بدأت بمصادقة أحد البلهاء الذين تتدلى الأقران على وجوههم. سحقا، فأنا لا أستطيع أن أتذكر. غادرت ليلي المطعم غاضبة، وقالت إنني أدمر حياتها، وأضافت إنها تتمنى لو أنني أغادر حياتها، ولا أعود أبداً".

"وماذا تقول لوشيا في ذلك؟"

بدا وجه رايان جامداً مثل الحجر: "قالت إنه من الأفضل أن أراجع قليلاً عن عالم ليلي. قضيت ثمانين ومئة ساعة في محاولة مني للتحديث مع الفتاة. رفضت أن تراني، أو حتى أن ترد علي مكالماتي الهاتفية".
انحنيت إلى الأمام ووضعت يدي فوق يده: "أنا متأكدة من أن الأمور ستكون على ما يرام".

برزت عضلات فك رايان، ثم استرخت: "نعم".

"تحتاج ليلي إلى الوقت كي تتعود على فكرة كونك والدها".
"أعرف ذلك".

"مضت أقل من سنة على لقاءكما".

لم يردّ رايان.

"أترغب بالتحديث عن الأمر؟"

"لا".

"أنا مسرورة لأنك قررت المجيء إلى هنا".

ارتسمت معالم ابتسامة خجولة على وجه رايان: "أوه. نعم. إن التوجه إلى هناك كان فكرة عظيمة".

"مررت ليلة الأربعاء بحالة يرثى لها. مررت بحالة رثاء الذات، والرثاء للآخرين، وسكبت القليل من الدموع. كان بيتي يحاول أن يهدئ من روعي عندما وصلت. هذا كل شيء، ولا شيء أكثر. أنا آسفة بشأن التوقيت السيئ".

لم يتجاوب رايان مع كلامي هذا، لكنه لم ينسحب.

"لن أكذب عليك، فأنت تعرفني".

بقي رايان، مع هذا، صامتاً.

"لم يكن الأمر مهماً يا رايان".

أخذ رايان يلهو برماد سيجارته، وراح يجمعه على حافة المنفضة المعدنية. مرّت لحظة كاملة، ثم مرّت لحظة أخرى. كسر رايان الصمت أخيراً.

"امتألت أفكارى بمشاعر الذنب بعد رفض ليلي لوجودي. شعرت وكأنني رجل فاشل تماماً، وكنت أنت الشخص الوحيد الذي رغبت بالتواجد معه. بدا القرار سهلاً بالنسبة إليّ. قفزت إلى الجيب وانطلقت جنوباً. وصلت بعد أن قادت السيارة لمدة عشرين ساعة، ووجدتك هناك في الباحة...".

لم يكمل رايان فكرته. بدأت الكلام بدوري، لكنه قاطعني.

"أعتقد أنني أفرطت برد فعلي ليلة الأربعاء، وسمحت للغضب أن يتملكني وقتها. أدركت أمراً يا تمب. أدركت أنني لا أعرف ابني. حسناً، سأتحمل اللوم على ذلك، لكنني اكتشفت أنني لا أعرفك أنت أيضاً".

"أنت تعرفني بالطبع".

أخذ رايان نفساً جديداً من سيجارته، ثم أطلق الدخان: "لا أعرفك حقيقةً. أعرف أموراً تتعلق بك. أستطيع تلاوة بيان مؤهلاتك العلمية والوظيفية، فأنت عالمة أنثروبولوجيا لامعة، وأنت من ضمن حفنة قليلة فقط من الذين يشتغلون بهذا الحقل. تلقيت دراستك الثانوية في إيلينوي، واستلمت درجة دكتوراه فلسفة من جامعة نورث ويسترن. تتمتعين أيضاً بخبرة في تتبّع الجرائم، وتعملين كمستشارة للحيش الأميركي في هذا المجال، وتقدمين خبراتك في علم الجريمة للأمم المتحدة

أيضاً. إنها سيرة ذاتية مدهشة جداً، لكنها لا تعطي أدنى فكرة عن طريقة تفكيرك، أو حقيقة مشاعرك. إن ابنتي هي صفحة بيضاء بالنسبة إليّ، ويصحّ هذا الشيء بالنسبة إليك أيضاً".

سحب رايان يده من تحت يدي، وأمسك كوبه.

قلت: "تشاركت معك بأشياء تعدّي سيرتي الذاتية".

شرب رايان نصف كمية شراب الشعير الموجود في كوبه. هل فعل ذلك لتهدئة غضبه؟ أم أنه فعل ذلك للملمة شتات أفكاره؟

"أنت على حق. تزوجت الحامي بيتي عندما كنت في عمر التاسعة عشرة. تبين أنه مخادع، وبدأت أنت بالإفراط بالشرب. تحطّم زواجك، وأصبحت ابنتك مشجعة لفريق طلاب الجامعة. أعرف أن صديقك المفضل هو سمسار عقارات، وأنتك تمتلكين هراً. إنك مثل النمر التي تكره تناول جين الماعز، أعرف أنك لا ترتدين الفساتين الواسعة، ولا تضعين خناجر على وسطك. أعرف أنه باستطاعتك أن تكوني قاسية، وأن تكوني مرحة جداً، ونمرة في الفراش".

شعرت أن خدي قد أصبحا بلون الجمر: "كفى".

"عندي المزيد والمزيد في القائمة".

شعرت أنني متعبة ذهنياً وجسدياً، بحيث عجزت عن الاعتراض بالحماسة المطلوبة: "لست منصفاً هنا، وأنت تتعمّد ذلك".

وضع رايان يديه على الطاولة، وانحنى مقترباً مني. استطعت أن أشم وسط الهواء الساكن رائحة عطره الذكوري الذي يستخدمه بعد الحلاقة، بالإضافة إلى آثار دخان السجائر التي دخنها.

"مضى عقدٌ من الزمن على صداقتنا يا قمب. أعرف أنك متحمسة لعملك، وعدا عن ذلك فأنا لا أعرف شيئاً عن مشاعرك. لا أعرف ماذا الذي يجعلك سعيدة، أو حزينة، أو غاضبة، أو متفائلة".

"أنا أتبع مثال الشباب".

استرخى رايان في مقعده، وأطفأ سيجارته، ثم شرب ما تبقى في كوبه:

"أترين ما أعني؟"

شعرت بضيق في صدري. هل هو شعور الغضب؟ أم هو شعور الاستياء؟
هل هو خوف من التقارب؟

ارتشفت ما تبقى من زجاجة الكوكاكولا. وساد الصمت فيما بيننا.
نظرت النادلة باتجاهنا، لكنها استنتجت أنه من الأفضل لها أن لا تقاطعنا. دفع
الزوجان الجالسان قربنا فاتورتهما وغادرا. سمعت خطوات حصان بمحاذاة الكنيسة.
هل هو نفس الحصان الذي تبعته بسيارتي قبل قليل. شرد ذهني قليلاً.

هل يتدّمّر الحصان من الاستمرار بالمشي في نفس طريق دورته المعتادة؟ هل
اعتاد على الإطاعة يوماً بعد يوم بسبب خوفه من السوط؟ هل يُمضي الحصان
يومه في أحلام جامحة، أم أنه لا يعرف من العالم سوى ذلك الموجود بين غمّامتيه
(اللتين تحجبان عن عينيه العالم ما عدا الطريق الذي أمامه)؟

هل رايان محق؟ هل أقمت جداراً يفصلني عنه؟ وهل وضعت غمّامات عاطفية
خاصة بي؟ أم أنني حصّنت نفسي ضد ذكريات مزعجة من الماضي، وقضايا
مزعجة في الحاضر؟

اجتاحت صدري وخزة ألم. هل يبقي هو من ضمن إحدى هذه القضايا؟ هل
كنت صريحة وصادقة بالكامل مع رايان؟ أو مع ذاتي؟

شعرت بجفاف في حلقي، وبانسداد في حنجرتي: "ماذا تريد بالضبط؟"
"أبدت لوشيا فضولاً كبيراً بشأنك. لم أمتلك أحوبة عن معظم أسئلتها.
فوجئت بهذا الواقع. قلت لها إن الأشياء التي تسألني عنها ليست مهمة. أبلغتني أن
هذا قد يكون صحيحاً، ومع ذلك يجدر بي أن أعرفها".

"إن قيادة سيارة من دون وجود أشخاص آخرين معك تعطيك وقتاً للقيام
بالكثير من التأمل الذاتي. سمحت لي تلك القيادة الطويلة أن أدرك أن لوشيا هي
على حق. توجد مجالات نفتقد للاتصال فيها يا قمب، وهناك حدود لعلاقتنا".

هل يتكلم عن علاقة؟ أو عن حدود؟ لم أستطع أن أصدق أنني أسمع هذه
التعابير من آندرو رايان. يا للفتى الشقي، وهو اللاعب الرئيسي في الميدان، وهو
الدون جوان في فريق التحقيقات الجنائية في مونتريال.
تمتت قائلة: "أنا لا أخفي أي شيء عنك قصداً".

"ليست طبيعة الأشياء التي يتقاسمها الشخص مع الآخرين هي المهمة، بل المهم هو التقاسم بحد ذاته. أنت تحفّين أشياء كثيرة عني سواء عن قصد، أو غير قصد".

"أنا لا أخفي شيئاً عنك".

"لماذا تناديني رايان؟"

فوجئت بالسؤال: "ماذا؟ إنه اسمك".

"إنه اسمي الأخير، أي اسم عائلتي. يناديني زملائي في الشرطة رايان، وكذلك زملائي في فريق لعبة الهوكي. تذكري أننا توصلنا إلى أقصى ما يصل إليه شخصان من الحميمية".

"وأنت تناديني بريان".

"أفعل ذلك أثناء مكان العمل فقط".

ركّزت نظري على يديه. أعتقد أن رايان على حق. لا أدري لماذا فعلت ذلك. هل فعلت ذلك من أجل المحافظة على حاجز فصل بيننا؟

سألته: "ماذا تريد؟"

"تستطيعين أن تبدئي بالحديث يا تمب. أنا لا أسعى لحمل هموم كثيرة. أخبريني عن أمورك بكل بساطة. ابدي بعائلتك، وأصدقائك، وحبك الأول، وآمالك، ومخاوفك... وآرائك حول العقل، والوحدانية الشاذة".

تجاهلت مسعاه للتخفيف من حدة توتره.

"سبق لك أن التقيت كاي، وآن، وابن أخي كيت".

سبق له أن التقى هاري أيضاً.

جاءت أختي هاريت إلى مونتريال بحثاً عن النيرفانا في وقت ما من تلك السنوات الماضية، عندما كان رايان يدعوني للخروج معه. رفضت عندها دعوته لإقامة علاقة شخصية معه. أنهت أختي وقتها بالانضمام إلى طائفة معينة، فأسرعت ورايان لتخليصها منها. اختفى الاثنان ذات ليلة، وأشك في أنهما أتتا واجباتهما (الإنجيلية). لم أتحقق من هذا على الإطلاق، ولم يتبرع رايان، ولا هاري، بشرح ما حصل.

"والتقيت هاري أيضاً".

بدا صوت رايان أقلّ توتراً: "كيف حال هاري؟"

"إنّما تعيش في هيوستن مع صانع قيثارات".

"هل هي سعيدة؟"

"إنّما هاري".

بدا لي أنه الدكتور فيل وهو يَحْتَضِرُ ضيف برنامجي على الحديث: "عرّفني على

والديك".

"مايكل تيرنس برينان، درّس القانون، وهو ذوّاق للخمور، وشارب كحول

منذ مدة طويلة. كاترين دايزي لي، يعرفها الجميع باسم "دايزي".

"من هنا أتى اسمك الأوسط غير القابل للتهجئة".

"إنه يُلفظ مخففاً كما حرف "ز" في دايزي".

"آه، دايزي، وكأني...".

"ابتعد عن مجرد التفكير بمضايقتي بذلك الاسم".

رفع رايان إصبعين متباهياً على طريقة القسم بشرف الكشاف.

بلعت ريقتي، وتابعت الحديث.

"وجد مايكل فتاته الإيرلندية في شيكاغو، وكانت دايزي فتاة شارلوت المتمسكة

بتقاليدها. وتعرف أن أولئك الجامعيين يتزوجون في الخمسينيات من أعمارهم. التحق

مايكل بمكتب محاماة كبير، وسكن الزوجان السعيدان في بيفرلي، وهي ضاحية يسكنها

الإيرلنديون، وتقع إلى الجنوب من شيكاغو. التحقت دايزي بفريق الفتيات، وجمعية

السيدات المساعداً، وجمعية روزاري، وأصدقاء حديقة الحيوانات. وضع يحيى

مولودتهما الأولى، قمبرنس دايزي، حدّاً لطموحاهما الاجتماعية. جاءت هاريت لي

بعد ثلاث سنوات. مرّت ثلاث سنوات أخرى قبل أن يأتي كيفن مايكل".

يستمرّ الألم بتمزيقي بعد مرور ما يقارب الأربعة عقود. أعرف أنني تحدّثت

وقتها عن صيغة الغائب في الفعل الحاضر، لكنني لم أستطع إلا أن أفعل ذلك.

نجمت هذه المناورة بطريقة ما. اسأل فرويد عن السبب.

"مات الطفل كيفن بعد ولادته بتسعة أشهر نتيجة إصابته باللويميا (سرطان

الدم). شعر والدي بالانقياس، وسجّل رقماً قياسيًّا بالانتقال إلى البطالة، وتلّيف

الكبد، لينتهي بتابوت باهظ الثمن. أصيبت والدتي بالاضطرابات العصبية التي تسببت لها بالوهن، ثم أسرعتُ عائدةً إلى شارلوت، مصطحبةً معها تمبرنس وهارييت. سكن الثلاثة مع الجدة لي".

مدّ رايان يده ليمسح دمعة عن خدي، وقال بنعومة بحيثٍ إنني بالكاد سمعت الكلمة: "شكراً".

مددت يدي بشكل يشبه طريقة الإعلان عن فيلم سينمائي: "تبقى الدفعة التالية من القصة، وهي السنوات التي عشناها في شارلوت".

أحاطتنا أصوات الضجيج المتصاعدة من الحانة. مرّت ثوان. مرّت دقيقة. تلاشى قسم من التوتر الذي بان على وجه رايان عندما التقت عيوننا.

استرخى رايان في جلسته، ورفع حاجبيه وكأنه يراني للمرة الأولى. يحبّ هذا الرجل رفع حاجبيه، وهو الأمر الذي ينجح بالنسبة إليه. يعطيه هذا الأمر مظهراً من مظاهر الفضول الهادئ.

حاولت أن أتخيّل مظهري في هذه اللحظات، وعلى الأخص صباغ الأهداب الذي لا بد أنه زال بمعظمه. تحيّلت أيضاً وجهي الذي رسمت عليه الدموع خطوطها. وتخيّلت شعري المتجمع والمرفوع في كتلة واحدة.

عرفت ماذا سيحدث بعدها. وأدركت وجود سؤال صامت يستفسر عن أحداث اليوم. حسناً أعرف أن هذا السؤال يدور حول الأعمال التي هي مواضع مشتركة ومعروفة، كما أنّها محايدة.

قلتُ: "إنّما قصة طويلة".

"وهل تتضمن هذه القصة الصراع مع الوحول؟"

"تشتمل القصة على مواجهة حيوان زاحف يدعى رامون".

"أحببت هنري سيلفا لأنه صياد عظيم للطرائد الكبيرة".

حدّث بي رايان من دون إظهار أية تعابير على وجهه.

"يدعى الفيلم التمساح، وظهر في عام 1980. قُذف هذا التمساح بقسوة في نظام الصرف الصحي لمدينة شيكاغو عندما كان صغيراً. كبر رامون (اسم التمساح) حتى أصبح طوله ثلاثين قدماً، ثم أراد التمساح الخروج من النظام. إنه

فيلم عظيم أعطيه تصنيف فيلم المخلوقات (الحيوانات) B الكلاسيكي".

"هل تريد أن تسمع ما سأقوله؟"

"نعم".

"هل بإمكانك الحصول على شطيرة جبن؟"

أشار رايمان للنادلة، وطلب ما أردته، ثم وضع ذراعيه على صدره بشكل متقاطع، ومدّ رجليه بشكل متقاطع أيضاً.

بدأت بالقول: "أفترض أنك تعرف بأمر الهيكل العظمي الذي وجدناه في دي

ويتز".

"تقصدون ذلك الهيكل الذي استخرجه طلابك".

أومات: "كان رجلاً أبيض اللون، ولعله في الأربعينيات من عمره. يُحتمل أن

يكون قد مات منذ ستين على الأقل. وجدت كسراً غريباً في إحدى فقرات

العنقية، بالإضافة إلى حزوز في ضلعه الثاني عشر. وجدت حزوزاً أيضاً في بعض

فقرات أسفل الظهر. أعرف أن الرجل كان يضع أسناناً صناعية، لكننا لم نحصل

على أية نتائج عندما مررنا معطياته في النظام القومي للمعلومات عن الجرائم

ينطبق الشيء ذاته عندما قارنا معطياته مع معطيات الأشخاص المفقودين المخبئين

وجدت مع ذلك شيئاً يثير الاهتمام. وجدت رمشاً قرب العظام. إن لون

الرجل الذي وجدناه في دي ويتز هو أشقر، لكن الرمش أسود اللون. أرسلت

الرمش إلى مختبر الولاية لإجراء اختبار الحمض النووي عليه".

"إيما؟"

لم أتحمّل التحدث عن إيما روسو في تلك اللحظة بالذات: "إن إيما روسو

المحققة الجنائية في مقاطعة تشارلستون".

"هل الهيكل العظمي الذي وجد في دي ويتز هو قضيتك الأولى؟"

"نعم. حضر بيتي إلى تشارلستون للقيام بتحقيقات مالية، والبحث عن

زبون مفقودة. تدعى الفتاة هيلين فلين، واختفت منذ أكثر من ستة أشهر أثناء

عملها في عيادة عامة تديرها كنيسة رحمة الله، والكنيسة هي من بنات أفكار ميمس

تلفزيوني يدعى أوبري هيرون".

"استخدم والد هيلين بعد اختفائها محققاً خاصاً يدعى نوبل كروكشنيك. اختفى كروكشنيك بدوره بعد مرور شهرين على بدئه لتحقيقاته. نعرف أن كروكشنيك تعود أن يخصص فترات لشرب الخمر في المكان الذي شهد اختفائه، وهكذا لم يُفتح تحقيق بشأن هذه القضية. وجد بعض الفتية يوم الاثنين الماضي جثةً متدلية من شجرة في متنزه الغابة الوطنية، الذي يقع شمال المدينة مباشرة. حصلنا على بصمات، فمررناها في النظام الأمريكي للتعرف على البصمات. حصلنا على نتيجة. عرفنا أن الرجل المشنوق على الشجرة هو كروكشنيك. وسبق لنا أن وجدنا معه محفظة لرجل يدعى شستر بينكني، وهو رجل حقير من ساكني المنطقة".

"ولماذا؟"

"لا أعرف. يقول بينكني إن محفظته سُرقت منه، لكنني أرجح أنه أضعها".

وصلت شطيرة الجبن. أضفت بعض الخس، والبندورة (الطماطم)، وبعض التوابل.

"كان كروكشنيك رجلاً (ذكراً)، أبيض اللون، ويبلغ السابعة والأربعين من العمر. عانى الرجل من كسر في رقبته، وهو الشيء الذي ينطبق على الرجل الذي وجدناه في دي ويز. ويتواجد الكسر في نفس الفقرة العنقية، وفي نفس الجهة، بالرغم من أن الأنشطة قد عُقدت خلف الرأس".

"هل هناك حروز (تشققات) في الأضلاع، والجزء السفلي من الظهر؟"
"لا".

خصّصت لحظة لتناول قطعة كبيرة من شطيرتي.

"استطاع غوليت، وهو الشريف في مقاطعة تشارلستون، أن يحصل على ممتلكات كروكشنيك الشخصية من صاحب الثقة التي استأجرها. وجدنا بين هذه الممتلكات أسطوانة مدمجة تُظهر أشخاصاً يدخلون ويخرجون من العيادة التي عملت فيها هيلين فلين. احتوى صندوق آخر على ملفات عديدة، وهذه الملفات احتوت على الأشياء التي يمكن أن يتوقع المرء أن يجدها مدونة في القضايا التي يتابعها محقق

خاص. تضمّنت هذه الملفات ملاحظات، وشيكات ملغاة، ونسخاً عن رسائل وتقارير. وجدت ملفاً مخصصاً لهيلين فلين. لاحظت أن هناك ملفات أخرى لا تحتوي إلا على قصاصات تتعلّق بأشخاص مفقودين. ووجدت أيضاً ملفات أخرى لا تحتوي إلا على مذكرات مكتوبة بخط اليد.

"هل يجوزتك الكثير من هذه المذكرات؟"

"لا أملك شيئاً، لأنها كُتبت بطريقة الشيفرة. لدينا أيضاً جهاز الحاسوب الخاص بكروكشك، لكنني لا أملك كلمة السرّ لحد الآن."

"حسناً، أعرف أن كروكشك هو الضحية الثانية التي تتابعين قضيته. متى سنصل إلى قصة رامون؟"

أخبرته عن المرأة والقطة اللتين وجدناهما في البرميل.

"إنها امرأة بيضاء، وفي حوالى الأربعينيات من عمرها، ولعلها ماتت نتيجة حنق بواسطة سلك رفيع. وجدنا أن القطة كانت مسجلة باسم إيزابيلا كامبيرون هالسي. اعتزم متابعة هذا الأمر غداً."

"هل هناك شيء يربط هذه القضايا الثلاث؟"

"جميع هؤلاء من البيض، وفي أواسط أعمارهم. يمتلك الرجلان كسوراً متطابقة في الرقبة، بينما تعرضت المرأة للحنق. لم ألاحظ فيما عدا ذلك رابطاً يجمع بالفعل بين هذه القضايا. لم أنه بعد من قضية المرأة التي وجدناها في البرميل، لأنه لن يتمّ الانتهاء من تنظيف العظام حتى يوم الاثنين."

نظر رايمان نزولاً نحو منفضة السجائر المعدنية الصغيرة التي امتلأت بالرماد، لكنني اعتقد أنه لم يكن يراها بالفعل. بدا لي أنه يركّز على فكرة ما، وأنه بدأ يتوصّل إلى استنتاج ما.

سألني: "هل انتهيت فعلاً من بيتي؟"

قلت، بعد أن اخترت كلماتي بعناية: "منذ متى تركت الرجل؟"

رفع رايمان بصره حتى ركّزه على عينيّ. رأيت العينين الزرقاوين، وشعره الرملي اللون، والخطوط والتعضّات الموجودة في أماكنها المناسبة. فكّرت في أنه يحرق بمظهره هذا قوانين ست ولايات، وديزينة من الإرشادات الاتحادية. ماذا

أفعل؟ لماذا لم أجب بكلمة نعم عن سؤال رايان الذي وجهه إليّ بشأن بيتي؟ هل سأحصل الآن على قبلة أخوية على خدي، وعلى وداع حنون؟ بقيت أصابعي مشدودة على مسكة كوبي.

ابتسم رايان في هذه اللحظة.

سأل رايان بصوت هادئ وناغم: "هل سنفتح صفحة جديدة؟"

شعرت بالارتياح الغامر فأجبت: "نعم، سنبدأ من جديد".

مدّ رايان يده. تصافحنا، وبقيت أصابعنا متشابكة لبعض الوقت، ثم تباعدت

ببطء.

قال رايان: "فكّرت أُمي الغالية كثيراً قبل اختيار اسمي الأول".

قلت له: "لا تستعجل الأمور أيها المتباهي".

"سأظل أحاول أن لا أستعجل".

"هذا اتفاق عادل".

قال رايان: "أنا رجل تحريات".

"أعرف ذلك".

"أستطيع أن أتحرّى عن الأمور".

"يا لها من مهارة خاصة".

"أستطيع وضع سنوات خبرتي تحت تصرفك، إذا اقتنعت بالطريقة المناسبة".

"هل تتحدّث عن قضية إيزابيلا هالسي؟"

"والقطعة كذلك. أنا أحبّ القطط".

"أي نوع من الإقناع تقصد؟"

مرّر رايان إصبعاً فوق يدي، ثم فوق رسغي: "إني أتحدّث عن الإقناع المقنع".

أشرت باتجاه النادلة.

أسرع كلانا للحصول على الفاتورة فور وصولها. فاز رايان. فنهضتُ،

واستدرت حول الطاولة، بينما بحث رايان عن بطاقة اعتماده في محفظته.

غمزت كتفيّ رايان بذراعي، ثم وضعت خدي فوق رأسه.

وافق رايان على الانتقال إلى المنزل.

22

سمعنا صوت باب غرفة نوم بيتي وهو يُفتح أثناء انشغالنا، أنا ورايان، بتناول كابتن كرنش.

مشى ديزي آرنيز عبر المنزل، وما لبث بيتي أن اقتحم المطبخ: "ها قد وصلت إلى المنزل يا لوسي! لمن سيارة الجيب هذه... آه، ما هذه...". اندفع بوييد قافزاً، لكن رايان لم يحدُ حذوه. تلامس الشرطي والكلب، أما المحامي فرفع حاجبه باتجاه جبهته. بدا مثل ديزي تماماً.

لاح شبح ابتسامة على زاويتي فم بيتي: "ومن يكون هذا الشاب اللطيف؟" أحرقت عملية التعارف المعتادة. وقف رايان شبه منتصب، فتصافح الرجلان. ارتدى بيتي سروالاً قصيراً مخصصاً للركض، وكنزة رياضية فضفاضة من دون كمين، ومفتوحة عند العنق، وانتعل حذاء رياضياً من ماركة نايك. أدار بيتي ظهره للطاولة، وقفز على مقعد، ثم جلس مواجهاً لنا، وجعل رجليه تتدليان. سألته: "هل أمضيت البارحة وقتاً ممتعاً في كنيسة رحمة الله؟"

تنقلت نظرة بيتي ما بيني وبين رايان، لكنني لاحظت الارتعاش في زاويتي فمه: "لم يصل ذلك إلى مستوى متعتك أنت".

ضيقت عيني في إشارة تحذيرية تعني إياك أن تجرؤ.

غمرت البراءة وجه رايان، الذي بدا بمثل براءة لوسيل بال.

بقي اهتمام رايان مركزاً على الكابتن كرنش.

قال بيتي: "أرى أموالاً داخلية، وأموالاً خارجة، وأصبحت أميل الآن إلى الرأي الذي يقول إن الأب بوك يحتاج إلى محاسب، وليس إلى محام".

"هل تحدّثت مع هيرون؟"

"هذا هو الجانب الأسوأ من الأمر. اضطرّ ذلك الموقر إلى القيام بجولة مفاجئة إلى أتلانتا. قال إنه مضطر للقيام بها، ثم أظهر لي أسفه الشديد. أضاف أن موظفيه سيقدمون لي كل المساعدة التي أحتاجها".

"سيحدثون إليك عن كل المواضيع ما عدا موضوع هيلين".

بدأت قدما بيتي بالتأرجح، فأحدث عقباها أصواتاً تحت الخزائن الموجودة أسفل المنضدة (طاولة المطبخ الطويلة): "تحدّثوا إليّ. قالوا إنها كانت هنا، وأنها غادرت، وأنهم لا يعرفون إلى أين ذهبت، كما أنها لم تتصل بهم. ويُحتمل أن تكون قد غادرت إلى كاليفورنيا... آه، صلّي إلى الله كي تكون بخير".

"هل فسروا لك كيفية اختفاء إحدى أخواتهم من دون أن تترك أي أثر؟"

"إنهم يتابعون رسالتهم التبشيرية في كاليفورنيا. توجد العشرات من العيادات المجانية في بلاد الفواكه والجوز، ولا عجب أن تعمل عيادات عديدة منها على أساس الفواكه والجوز. يعتقد هؤلاء أن هيلين قد تركت التبشير لتلتحق بتعاليم بعض المجانين وترتك نظامها".

استمر الحذاء الرياضي ماركة نايك بإصدار الأصوات نتيجة احتكاكه بالخزائن.

"يصبح الاختفاء فعالاً في بعض أنظمة الحياة الجماعية حيث لا وجود لبطاقات الاعتماد، ولا وجود لفواتير تُدفع، ولا دفعات تأمين للسيارة، ولا ضرائب، ولا وجود كذلك للضمان الاجتماعي".

"يفسر هذا الأمر انقطاع سير التقارير، لأن كروكشيك أبلغ الوالد بوك أنه لم يجد شيئاً بعد نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، وعلى الأقل حتى تاريخ اختفائه هو. هل وجدت شيئاً جديداً بالنسبة لكروكشيك؟"

عاد صوت الحذاء مرة أخرى.

هزرت رأسي: "توقّف عن قرع خزائن آن".

توقفت رجلاً بيّتي عن التراجع، وما لبث أن التفت نحو رايان.

"هل قدت ذلك الجيب من كندا؟"

"اسمه وودي (اسم الجيب)".

"إنها رحلة طويلة".

"إنها رحلة صعبة بالنسبة إلى الجيب، لأن قلبه بقي في أديرونداكس".

خيمت على الجميع نظرة خالية من كل تعبير.

"لا بد أن هذا الاسم يعود لشجرة".

عاد بيّتي ليتطلع نحوي: "إنه مسل. إنه رجل مسل".

حذرت رايان بنظرة معبرة.

سأل بيّتي: "هل عرفتم سبب احتفاظ كروكشنيك بمحفظة ذلك الرجل؟"

عاد صوت الحذاء مرة أخرى.

"يدعى الرجل تشستر بينكيني. لا، لم نعرف".

"هل كان يومك بالأمس طيباً؟"

وصفت له عملية استعادة المرأة التي وجدناها داخل الريميل.

"لا يستطيع التمساح الوقوف بوجهك يا حلوة".

"لا تنعني هكذا".

"آسف".

عاد صوت الحذاء مرة أخرى.

أخبرت بيّتي عن الخنق، والقطعة، وعن الرقاقة، وعن الدكتور دين. أصغى رايان

واكتفى بالمراقبة. أعرف فلسفته. يتكلم بعض الأشخاص لغتين، لكن أفعالهم واحدة.

سأل بيّتي: "كيف هي حال إيما؟"

"تعرضت لنوبة".

"أما تزال حالها سيئة؟"

انحنى بيّتي إلى الأرض، ثم وضع أحد عيني قدميه فوق المنضدة (الطاولة

الطويلة)، ثم مدد يديه. رفرفت رموش رايان باتجاهي، ويا لسحرها. كررت نظرتي

التحذيرية باتجاهه.

سألت بيتي: "ما هي خطواتك التالية؟"
"سأركض على الشاطئ برفقة بويده، وسألعب الغولف بعد ذلك."
"غولف؟"

بدل بيتي من وضعية قدميه: "سيعود هيرون من عرضه الضخم غداً، أي
الأحد. سأنتقل عندها إلى الحلبة لأفرض تدخلتي المقدس".
"إن استعارتك اللفظية غامضة قليلاً".
"لكن النتائج التي سأحصل عليها لن تكون كذلك".
"تبدو مزهواً جداً".
أنزل بيتي رجله، وغمزني: "لا تخافي، فأنا أرتدي رباطاً رياضياً".
صوّب نحو نظرة معتادة من الرياضيين الفخوريين.
انطلق بويده يجنون بعدما أحسّ أن بيتي فكّ لجامه. جلس بيتي القرفصاء،
وربط ياقته، ثم نهض وأشار نحوي.
"تمتعي بيوم مميز".
اختفى بيتي مع كلبه.
سمعت صوته من وراء الباب: "أيتها الحلوة".

قدنا جيب رايان إلى داخل تشارلستون. قاد هو السيارة وقمت أنا بتزويده
بإرشادات الطريق. أخبرته في الطريق عن صداقتي الطويلة مع إيماء، وعن المودة
الخاصة التي تجمعنا معاً بالرغم من الفترات الطويلة التي تنقطع فيها اتصالاتنا.
أخبرته بسرّ الورم الليمفاوي الذي تعاني منه. اقترح أن نزرورها معاً بعد انتهائنا
من زيارة منزل إيزابيلا هالسي.

أخبرت رايان أيضاً عن ديكي دوبري وهومر وينبورن. سألتني عن مستوى
القلق الذي أشعر به، وطلب مني أن أحدّد درجته في مقياس من واحد إلى عشرة.
أعطيت صاحب مشاريع البناء خمس درجات، وأعطيت الصحفيّ درجة اثنتين
سلباً (تحت الصفر).

تذكّرت تعليقاً ورد في محادثتنا الليلة الماضية.

"ماذا تعني بالوحدانية الشاذة؟"

رماني رايان بنظرة تنم عن التظاهر بخيبة أمله الناتجة عن الثغرة الموجودة في ثقافتي: "إنها نوع من الثنائية في فلسفة العقل والفعل. تتمتع العمليات الذهنية بقوى سببية حقيقية، لكن قوانين الطبيعة لا تستطيع تفسير العلاقات عندما تدخل هذه القوى في الكيانات المادية".

"أي مثل علاقتنا تماماً".

"ها قد بدأت مجدداً".

"ابق على يسارك هنا. ولماذا أسميته وودي؟"

رماني رايان مجدداً بنظرة تساؤلية.

"متى أطلقت اسم وودي على الجيب؟"

"هذا الصباح".

"أنت اختلقت هذا الاسم".

"أوحى إليّ به التعريف جو".

"عمل بيتي في البحرية، وأطلب منك الآن أن لا تقول له أشياء سخيفة. لا أريده أن يعتقد أنك مهرج".

تعيش إيزابيلا هالسي في شارع كينغ، أي في قلب تشارلستون القديمة. ازدحمت تلك الناحية، كما هي في العادة، بأشخاص بدا وكأنهم وصلوا لتوهم على متن خدمة نقل مواقف "دونالد داك". تسير هناك نساء يرتدين ثياب بحر من ماركات شهيرة، أو يرتدين سراويل قصيرة من تلك التي لا تغطي إلا القليل جداً من أجسادهن. تجد أيضاً رجالاً ذوي بطون بارزة، وهم يعتمرون قبعات شبكية يضعونها لاعتبر البيسبول، وهم يتطلعون بشرود، أو يتحدثون على هواتفهم الخلوية. ارتدى آخرون قمصاناً خاصة بلعبة الغولف، وبان الاستمرار على أجسادهم. وتستطيع كذلك رؤية الأولاد الذين سمّرت الشمس أجسادهم، وكذلك الأزواج المتزوجين حديثاً وهم يسرون يداً بيد، أو الذين سيتزوجون قريباً.

بدا سوق المدينة العتيق أشبه بخلية نحلٍ تعجّ بالحركة. يستطيع الإنسان رؤية بائعي البوظة المتجولين وهم يطلقون أجراس دراجاتهم. وتبيع السيدات هناك الأزهار

والسلال الصغيرة، أو يعرضن على السيدات تصفيف شعرهن بطريقة هندسية. وترى هناك الأزواج وهم يلتقطون صوراً للأمهات والأولاد، وكذلك الرجال المتقاعدين وهم يتفحصون الحرائط التي تساعدهم على القيام برحلات المشي. وينتشر كذلك الفتيان وهم يلتقطون صوراً لبعضهم بعضاً بآلات كوداك التي تصور فيلماً واحداً، ويسير هناك أيضاً البائعون المتجولون وهم يبيعون الفول، والحلوى، ومرابي الدراق.

يقع منزل هالسي بالقرب من الباتري، وهو عبارة عن قاعات تواجه الميناء، وتمتلىء بالتماثيل، والمدافع، وتوجد قربها منصة تعود للعهد الفيكتوري. يبعث هذا المتنزه الصغير ذكرى مسيرة سوسة في ذهني.

يوقظ هذا المتنزه أيضاً ذكريات أحداث تاريخية قرأتها مع الأخت مائياس عندما كنت في الصف الرابع. شاهد سكان تشارلستون، انطلاقاً من البارقي، الجنود الكونغرديين وهم يحاربون الجنود الاتحاديين، الذين كانوا يختبئون في أماكن في قلعة سومطر. بونجور، أيتها الحرب الأهلية. تتأخر بعض الآثار التاريخية عن الاختفاء، وهي تكافح للمحافظة على العلم الكونغردي فيها، وتمضي في الهتاف بحياة الولايات الجنوبية.

توجهت مع رايان، بعد أن أوقف سيارة الجيب، جنوباً باتجاه الخليج الشرقي. مررنا بمحاذاة راينيو رو (صف قوس القزح) عبر مسافة ثلاثة بلوكات (البلوك هو المسافة الفاصلة بين شارعين) باتجاه الداخل لنصل إلى القسم الضيق المبني تشرش (الكنيسة) والمرصوف بالأحجار.

بدأ أن منزل هالسي يستأهل لقب قصر المغوليا، وذلك بعكس شقة كروكشيك المتواضعة. ازدانت نوافذ المنزل بالصناديق المليئة بالأزهار، وازدهمت الباحة الجانبية بأغصان الأشجار الضخمة القديمة العهد.

قفزت إلى ذهني أوصاف مثل بحجة الرجل العملي لوصف هذا المنزل، بالرغم من أن الوسطاء سيميلون لإطلاق عبارات أصيل، ومبتكر، وبقي كما هو، عليه. لاحظت أن الجص، ومصاريع النوافذ السوداء، والحديد المشغول، تحتاج كلها للطلاء، وأن ممر المدخل الرئيسي، والممرات المبلطة الأخرى في الباحة قد تحللتها الأعشاب الخضراء.

اقتربت ورايان من البوابة فغمرتنا رائحة الأزهار الزكية.
سأل رايان بصوت خافت: "هل أضاف واشتطون بعض الإصلاحات إلى هذا
المنزل؟"

"نام الجنرال بالقرب من هذا المكان".

استطعت أن أرى امرأة من خلال شجيرات المغنوليا، وهي تجلس أمام طاولة
في الباحة الجانبية للمنزل، ولاحظت أن ضوء الشمس قد اختلط مع شعرها
الأبيض. همكت المرأة بالحياكة. تميّزت حركة يديها بالثقة والقوة، بالرغم من أن
فكّها، ورقبتها، وذراعيها، حملت التفضينات المعتادة لأنسجة المرأة المسنة.

قلت: "إن المرأة التي اكتشفناها في اليرميل هي في الأربعينيات من عمرها.
وإذا كانت هالسي هي الضحية فلا بد أن تكون هذه المرأة والدتها".

وضع رايان يده على كتفي. تطلّعت نحوه. حملت عينا الفايكنغ الزرقاوان
تعبير لم أستطع تفسيرها. هل هي دليل الاعتراف بقلقي الذي أشعر به؟ وهل هي
إقرار بأنني أشعر، فعلاً، بعمق الأمور؟

أوما رايان مشجعاً.

ناديت باتجاه الباحة: "عفواً".

ارتفع رأس المرأة، لكنها لم تنظر ناحيتنا.

تردّدت بسبب عدم تأكدي من الكلمات التي أستطيع استخدامها: "آسفة
لإزعاجك يا سيدي. جئنا بشأن كليوترا؟"

التفتت المرأة نحونا. أخفت أشعة الشمس المنعكسة على نظارتها التعبير التي
ارتسمت في عينيها.

"سيدي؟ هل يمكننا التحدث لدية؟"

انحنت المرأة إلى الأمام، وزمّت شفيتها بحيث شكّلتنا حرف U بالمقلوب.
وضعت الكنزة التي تحيكتها على الطاولة، ولوّحت لنا بيديها داعيةً إيانا للدخول
إلى الباحة. أخرجت المرأة سيجارة، وأشعلتها في اللحظة التي تقدّمتُ فيها أنا
ورايان باتجاهها.

قدّمت المرأة لنا علبة من سجائر الدافيدوف الصغيرة: "أتريدان إشعال سيجارة؟"

رفضتُ ورايان عرضها هذا.

مدت المرأة يداً ظهرت فيها الأوردة الزرقاء: "فليبارككما الله في عليائه، وجميع ملائكته. أنتم الشباب تتحسبون التبغ، وتزيلون الكافيين من قهوتكم، وتزيلون القشدة من الحليب. إنكم جناء. هذا ما سأنتعكم به جميعاً. إنكم جناء. أتريدان بعض الشاي المحلى؟"

"لا، شكراً لك".

"أتريدان بعض الكعك المحلى؟"

"لا، شكراً لك".

"ستقولان لا بالطبع، لأنه يُحتمل أن يحتوي الكعك على بعض الزبدة المستخرجة من بقرة حقيقية. وأنت أيتها العارضة الحلوة؟" لا أعرف لماذا يطلق الناس عليّ ألقابهم المحببة: "لا يا سيدتي".

وضعت المرأة يدها تحت ذقنها، وابتسمت من خلال جفنين منغلقتين، مثلما كانت تفعل لانا تيرنو عندما كانت تجلس أمام آلات التصوير: "يجب أن ترفضني. أنت نحيلة بما يكفي. كنتُ ملكة جمال المغنوليا المزهرة لعام 1948. إن جاذبيتي ضعفت كثيراً الآن، لكن هذه الفتاة المسنة جعلت كل ذقن في تشارلستون يهتز في ذلك الوقت".

أشارت المرأة إلى مقعدٍ مصنوع من الحديد المزخرف: "اجلسا".

جلستُ ورايان على المقعد.

"دعاني أحمّن. هل أنت وهذا الشاب تقومان ببحثٍ عن طرق حياة المشاهير والأغنياء في الولايات الجنوبية؟"

"لا، أنا يا سيدتي...".

"إنني أمزح معك يا حلوتي. لندخل في صلب الموضوع. لماذا تسألين أنت

وهذا الرجل الوسيم عن مصريين متوفين؟"

"أنا أتحدث عن قطة".

تضيقت العينان المتغضتان، ثم اتسعنا.

"هل تتحدثين عن كليو التي امتلكتها؟"

"نعم يا سيدتي".

"هل وجدتم قطبي الشاردة؟"

انحنيت إلى الأمام، ووضعت يدي على ركة تلك المرأة العجوز، وأخذت نفساً عميقاً: "أنا آسفة لأنني مضطرة إلى إخبارك عن الأمر، لأن كليو ماتت. استطعنا تحديد عنوانك من خلال رقاقة تعريف زُرعت تحت جلد القطة مباشرة. وُجدت جثة كليو مع جثة امرأة. إننا نشك بأن تكون المرأة المتوفاة هي صاحبة القطة".

ومض برقيق في العينين المستتين المتغضبتين. حضرت نفسي لمشهد تساقط الدموع.

سألت المرأة: "إيزابيلا هالسي؟"

"نعم".

توقعت حدوث نوبة من الأسى، أو الغضب، أو عدم التصديق. ولم أشاهد أية واحدة منها.

عادت المرأة للاستغراق بالضحك.

تبادلت ورايان النظرات.

"أعتقدان أن هذه الفتاة المسنة قد قضت نحبها".

استرخيت في مقعدي وشعرت بالارتباك: "أنت محقة، ومخطئة في نفس الوقت يا حلوتي. يُحتمل أن تكون كليو المسكينة قد ماتت مع سيدتها، لكنني متأكدة، بحق الله، أن تلك المسكينة ليست أنا".

يحدث هذا مرة أخرى. حدث أولاً في جزيرة وادمالو مع تشستر بينكني.

هل حدث هذا مرتين في أسبوع واحد؟ شعرت بالاحمرار في ركبتي.

قلت مخمئة: "هل أنت إيزابيلا كامرون هالسي؟"

سحبت هالسي قطعة قماش من ياقة فستانها، وبللت وجنتيها: "أنا هنا حية ومليئة بالحياة، أو على الأقل أقوم بالحياكة، وأنا صامدة في يوم شديد القيظ مثل هذا".

"هل كانت كليو بترًا قطنتك؟"

"بالطبع كانت كذلك".

"هل أنت التي طلبت زرع الرقاقة؟"

نَدَّت آهةٌ مسرحيةٌ من شَفَتَيِ المرأة: "بالطبع أنا طلبت ذلك، لكن كليو أحببت امرأةً أخرى مع الأسف".

"ماذا تقصدين؟"

نظرت هالسي بجحجح نحو رايان: "بذلت مجهوداً كبيراً لاستمالة تلك القطة، لكن يظهر أنها لم تكن راضية عن رفقتي أبداً. ويبدو أن كتلة الفراء البائسة هذه اعتادت على التحوال. أعتذر عن لغتي الفرنسية المتواضعة يا سيدي".

تفوّقت لهجة رايان على الباريسيين أنفسهم عندما قال: "لا مشكلة، يا

سيدي".

رفرفت رموش هالسي، لكن رايان واجهها بابتسامة.

سألته: "ماذا حدث لكليوبترا؟"

"سئمت الحب غير المتبادل، فأقدمت في أحد الأيام على فتح الباب، وتركتها ترحل".

"هل تعلمين ماذا حدث لها؟"

"التحقت بامرأة أخرى".

"هل تعرفين من هي؟"

"أعرف بالطبع. اعتدت على رؤيتهما معاً في المتنزه".

قدّم لنا الاسم أول انطلاقة كبيرة لنا.

23

"لا يصادف المرء في حياته أعداداً كبيرة من اللواتي يحملن اسم أونيفغ. يبقى هذا الاسم في الذاكرة لفترة طويلة".

اجتاحني موجة من الإثارة. احتوى ملفان من ملفات كروكسنيك على كتابات مشفرة فقط. حمل أحد هذين الملفين اسم أونيفغ، لكن الكلمة اللاحقة كانت غير مفهومة.

سألتُ بنيرة محايدة: "ما هو اسم عائلة أونيفغ؟"
تصلب العمود الفقري لهالسي قليلاً: "لم تكن تلك السيدة من ضمن قائمة المدعوين لحفلات عيد الميلاد عندي. كانت كليو صديقة أونيفغ. أفترض أن رابطة قوية قامت بينهما، والاثنتان كانتا تحبان الشوارع، وأشياء أخرى."
"ماذا تستطيعين أن تخبريني عنها؟"

"سأقول، بصراحتي التي اعتدت عليها، إن دماغ تلك القطة الصغيرة كان مركزاً على نواحيها الجنوبية، إذا ما فهمت ما أقصده."
"كنت أقصد أونيفغ".

"قصدت أونيفغ بالطبع. لنقل إن وجهتي نظرنا قد اختلفنا، أو أن تجاربنا في الحياة هي التي اختلفت."
"حقاً؟"

خفضت هالسي صوتها، ولاحظت أن السيدة المحترمة، والغنية تجرّح بامرأة

ليست من طبقتها: "اعتادت المسكينة على وضع كل ممتلكاتها في عربة تسوق والتحول بها، فليباركها الله".

وجدت نفسي أسمع تعبيراً جنوبياً آخر. وإذا قمت بربط عبارة فليباركها الله مع جذورها، فستحول الإساءة إلى كلمة مهذبة.

سألت: "أقصد أن أونيف كانت مشردة؟"

ابتسمت هالسي بوجه رايان: "يُحتمل ذلك، وأنا لم أتطفل أبداً. هل أنتما مصرآن على رفض شرب الشاي المخلّى؟ أو ربّما تفضلان تناول بعض السناّبل؟" بادئا رايان نفس الابتسامة.

قلتُ: "لا، شكراً لك. متى كانت آخر مرة رأيت فيها أونيف؟"

نقرت هالسي ذقنها مستخدمة إصبعاً واحداً. لاحظت أن مفاصل أصابعها مليئة بالعقد، وأن لون جلدها أصفر بلون النيكوتين: "مضى وقت طويل قبل أن أنتبه. يغيّر هؤلاء الناس مناطق سكنهم مثلما يغيّر الآخرون جوارهم".

لم أردّ على كلامها هذا.

"أربعة أشهر، ولربما ستة؟ لم يعد باستطاعتي تقدير مرور الزمن كما كنت في الماضي".

"هل تبادلت الأحاديث مع أونيف؟"

"تحدّثنا ذات مرة تحت ضوء القمر. حدث ذلك عندما أعطيت تلك المسكينة بعض الطعام".

"كيف عرفت اسم أونيف؟"

"سألت أحد الجيران الذي لاحظ أنها تمسك بقطني. قال لي إنه التقاها مراراً أمام الكاتدرائية الكاثوليكية".

"كم كانت أونيف تبلغ من العمر؟"

"كانت كبيرة بما يكفي كي تقصّ شعرها. لا يتناسب الشعر الطويل مع النساء في أعمار معينة. ها أنا مرة أخرى أصدر أحكامي على الآخرين".

تحوّلت هالسي نحو رايان: "لكن، أتعرف ماذا؟ أبلغ الثمانين من العمر، وأنا ماهرة في هذا العمل".

أوما رايان مبدياً تفهمه.

سألت: "ماذا تقصدين بأعمار معينة؟"

"يصعب عليّ تحديد ذلك بشكلٍ أكيد. افتقدت تلك الفتاة للترتيب والنظافة، لكنها لم تكن مستفيدة من جمعيات مساعدة الشباب. أعرف هذا على وجه التأكيد".

سألت: "هل تتذكرين أشياء أخرى؟"

"افتقدت للأسنان، لياركها الله".

تحول قلبي إلى أكبر درجة ممكنة من الحذر أثناء متابعة هالسي لحديثها.

انخفض كنتفا هالسي قليلاً: "سأكون صريحةً معك، لربما كرهتُ أونيفغ قليلاً بسبب تعلق كليو بها، وأشياء أخرى. لا يستطيع المرء التحكم بقلوب المهرة. امتلكت كليو الفرصة لتشاركني معيشتي هنا براحة تامة. لم يكن أي شيء غير لائق في هذا، لكنها ابتعدت على الفور".

"امتلك حيوانات أليفة، وأعرف سبب حزنك".

"أغدقت أونيفغ الكثير من الحب على كليو، وألبستها قطعةً مماثل تلك التي تلبسها الأمهات الشابات لأطفالهن".

حوّلت بصري نحو البوابة عندما تطلع رايان نحوي. أوما رايان.

"أشكرك كثيراً على تخصيص وقتك لنا، سيده هالسي".

"قولي آنسة. لم أتزوج أبداً".

قلت: "آسفة".

أساءت هالسي فهم قصدي: "لا تأسفي. لا تستطيعين تصوّر مدى عدم

اكترائي بفكرة الزواج".

نفضتُ ورايان. وتحركت هالسي ورافقتنا عبر الباحة.

انفجرت أسارير وجهها المتغضن عن ابتساماة: "أنا آسفة فعلاً إذا كانت هذه المرأة المتوفاة هي أونيفغ، صاحبة قطتي كليو. لا تحمل إيزابيلا هالسي حقداً على أحد من الناس، فيما عدا تلك المهرة الناكرة للجميل".

كرّرت شكري للمرأة، وخرجت من البوابة. تبعني رايان. تابعت هالسي

الحديث بعد أن أفقلت البوابة بإحكام.

"العفو هو العطر الذي تنثره النفسجة على عقب القدم الذي سحقها.
أليست هذه أروع فكرة؟"

قلت: "إنها كذلك".

"أتعرفين من كتب تلك الكلمات؟"

هزرت رأسي بالنفي.

تدخل رايان: "إنه مارك توين".

ابتسمت هالسي بوجه رايان: "لا بد أنك من الجنوب".

قلت: "إنه كندي".

تحولت ابتسامة هالسي إلى حيرة. تركنا المرأة وحيدة لتتساءل عن عجائب
الثقافة الآتية من وراء الحدود.

سألني رايان ما إن عدنا إلى سيارة الجيب: "ماذا تظنين؟"

"تتحول الامتيازات أحياناً إلى أنانية جامحة".

"لكنها تبقى نبيلة ولطيفة، وعلى الأخص في هذا المكان".

"نفتخر، نحن الجنويون، بآدابنا".

"أعتقدين أن المرأة التي وجدتها في البرميل هي نفسها أونيج، المرأة التائهة في
الشوارع؟"

"وجدنا كليو معها. وعرفنا أن المرأة المجهولة تفتقد للأسنان، ونعرف أن
أونيج تفتقد للأسنان أيضاً، وهناك المزيد".

أخبرت رايان عن الملفين اللذين أعدهما كروكشنك، واللذين لم يحتويوا على
شيء ما عدا مذكرات.

"ما هو الاسم الأخير لأونيج؟"

"لا أذكر".

"ما هو الاسم المدون في الملف الآخر؟"

هزرت رأسي، وأسرعت بطلب رقم في هاتفي الخليوي.

"هل تتصلين" بماشو كازباتشو؟"

أغمضت عيني وفتحتهما. ردّ بيتي بعد الرنة الثالثة.

"نعم يا حلو...".

"هل ما زلتَ في منزلِ آنا؟"

"أنا بخير، وشكراً لاهتمامك بي. إن تماريني رائعة. يرسل بويد سلامه لك".

"أريدك أن تجد لي شيئاً في ملفات كروكشك".

"هل تسمحين بأن تقولي لي السبب؟"

لخصت له المعلومات التي أعطينا إيها إيزابيلا هالسي، وفصلت له ملفات كروكشك التي عليه أن يبحث فيها. أبلغني بيتي أنه سيبحث في الملفات، وأنه سيتصل بي لاحقاً. مرّت دقائق قليلة قبل أن يرنّ هاتفني الخلوي.

"أونيف مونتاغيو، وويلي هيلمز".

"شكراً لك يا بيتي".

قطعت الاتصال، وأعطيت الاسمين إلى رايان.

سأل: "أعتقدين أنه من المهم لنا أن نزور الكاتدرائية؟"

"إنها هناك في شارع بروود (العريض)".

تركنا الجيب ماركوناً في لاغايير، ومشيت برفقة رايان إلى الكنيسة. تسلقنا الدرج، وأشار رايان إلى نافذتين من الزجاج الملون ترتفعان فوق المدخل الأمامي.

"انظري إلى المعطف الباهوي".

أشرت إلى النافذة الأخرى: "انظري إلى شعار ولاية كارولينا الجنوبية العظيمة".

شدّد رايان على أحرف العلة: "إنه من القطن عالي الجودة".

"أخذت هذه العبارة لتوك من هالسي".

"إنها عبارة جيدة".

"إذا لا تسرف في استخدامها".

بدا أن كاتدرائية يوحنا المعمدان تلتزم بالأصالة. انتشرت فيها المقاعد المنحوتة الطويلة المصنوعة من السنديان، ومذبح مصنوع من الرخام الأبيض. انتشرت فيها أيضاً النوافذ التي تصوّر مراحل حياة السيد المسيح. رأيت فيها الأرغن الذي يماثل باتساعه مساحة محطة فضائية.

امتلاً الهواء برائحة الأزهار والبخور.

عدت إلى الماضي. تذكّرت قداديس أيام الآحاد. شاهدت جدتي وأمي
تعتمران حجابين من الكنيسة. تذكّرتُ كيف كنت، أنا وهاري نلمس أغلفة كتب
قداديس العشاء الرباني.

"فلنجرب هذا الأب الصالح الواقف هناك".

أيقظني صوت رايان وأعادني إلى عالم الواقع. فتبعته إلى المذبح.
بدأ الكاهن صغير البنية، ورأيت عظام خده العالية، وعينيه اللوزيتين،
ولاحظت حديثه الهادئ النيرة والذي خلا من الاختصارات. عرف الرجل عن
نفسه على أنه الأب رايكر، لكنني شككت بوجود رابط آسيوي بينه وبين أحد
أفراد شجرة عائلته.

سألته عن أونيفغ مونتاغيو، وذلك بعد فراغنا من عملية التعارف.

سأل رايكر عن سبب اهتمامي بها.

أخبرته أننا اكتشفنا جثة امرأة، وأنها تشك بأنها أونيفغ مونتاغيو.

رسم رايكر إشارة الصليب على صدره: "آخ، يا الله. أنا آسف. إنني مجرد
كاهن بسيط هنا في كنيسة القديس يوحنا المعمدان. إن معرفتي الشخصية بأبناء
السرعية تبقى، مع الأسف، محدودة، لكنني كنت أتحدث مع الأنسة مونتاغيو بين
حين وآخر".

"ولماذا كنتم تبادلان الأحاديث؟"

رسم الكاهن ابتسامة خجولة على شفثيه: "امتلكت الأنسة مونتاغيو قطة.
أنا بدوري أحب القطط، لكن لعل لقاءنا القصيرة كانت جزءاً من خطة إلهية
أكبر".

يبدو أن الارتباك ظهر على وجهي ووجه رايان.

"لعل الإله الرحيم وجهني للقاء الأنسة مونتاغيو حتى أستطيع أن أقدم
مساعدي بالنسبة لرفاتها الفانية".

"هل تستطيع أن تصف لنا الأنسة مونتاغيو؟"

توافقت الأوصاف التي أعطها رايكر مع الأوصاف التي بحوزتي.

سألته: "متى رأيتها لآخر مرة؟"
"مضى بعض الوقت على لقائي الأخير بها. أعتقد أنه جرى في الشتاء الماضي".

"هل تعرف بوجود أقارب للآنسة مونتاغيو في تشارلستون؟"
تنقلت عينا رايكور ما بيني وبين رايان، ثم عادتا إلي: "أعتقد أن لديها شقيقاً. أنا آسف. تحدثنا في مرات متباعدة فقط، وحدث ذلك عندما كنت أسير على الطريق، وصدف أنها تحتاج للماء من أجل قطنها".
بدا رايكور ودياً بما يكفي، لكنه بقي حذراً، وحرص على أن ينتظر عدة لحظات قبل أن يجيب.

سألته: "هل تحتفظ الكنيسة بسجلات؟ أو عنوان؟ أو على علم بوجود قريب لها؟"

هز رايكور رأسه: "لم تكن الآنسة مونتاغيو منتمية رسمياً لهذه الرعية. أنا آسف".

تناولت بطاقة من محفظتي، وكتبت عليها رقم هاتفني الخليوي، وناولته إيها:
"شكراً أبتي. لا تتردد بالاتصال إذا تذكّرت شيئاً".
"نعم سأفعل بالطبع. يا للحادث المحزن. أنا آسف جداً. أنا آسف جداً. سأصلي لراحة نفسها".

سأل رايان أثناء توجهنا إلى شارع برود: "أعتقد أن رايكور آسف فعلاً؟"
"كرّر أسفه خمس مرات، ولربما تأسف عدة مرات قبل أن أبدأ بالعد".

"ماذا قصد بعبارة كاهن بسيط؟"

"يقصد أنه خوري محلي".

"تعين أنه الكاهن رايكور".

فتح رايان باب سيارة الجيب. صعدت إلى مقعدي وشبكت حزام الأمان. بلغت درجة الحرارة في الداخل رقماً قياسيًّا لعله وصل إلى سبعة آلاف درجة مئوية.

انزلق رايان ليأخذ مكانه وراء عجلة القيادة: "ما هي الخطوة التالية".

"إنها تشغيل مكيف الهواء".

أدار رايسان مقبض تكيف الهواء: "نعم يا سيدتي. إنها لسعادة كبيرة أن أقود السيارة للسيدة تمب".

"ما رأيك بهذه الفكرة؟ نشترى طعاماً ونأخذهُ معنا لتناول غداء مبكر مع إيما. سأقوم بنقل اسمي أونيفغ مونتاغيو وويلي هيلمز إلى غوليت. وسأقوم أنا وأنت بالقاء نظرة على ملفات كروكشكك بينما يقوم الشريف بالعمل على تلك الناحية".

"يبدو أنها خطة".

لكن الأمور لم تسر هكذا.

لم نجد غوليت في مكتبه. تركت له رسالة في مركز الاتصالات في مكتبه. ولم تردّ إيما على خط هاتفها المنزلي. استطعت تحديد مكان وجودها في مكتب المحقق الجنائي. بدأت على الفور محاضرتي المعتادة حول الإجهاد والراحة. "اهدئي. حدّدت لنفسي أعمالاً مكتبية لا تهدّد حياتي والتزمت بها. أخبرتني لي آن معلومات عن مواجهتك مع رامون، ذلك الحيوان الزاحف".

"هل ذكرت لك شيئاً عن كليوبرا القطة؟"

"فعلت ذلك. هل حققتم تقدماً بالنتيجة؟"

أخبرت إيما عن المسار الذي قادنا من الدكتور دين إلى إيزابيلا هالسي، إلى أن وصلنا إلى تلك المرأة المشرّدة التي اسمها أونيفغ، ثم وصفت لها ملفات الأشخاص المفقودين الذين تابع كروكشكك قضاياهم من دون تكليف من أحد.

"وهكذا لم تتضمّن ملفات هيلمز ومونتاغيو قصاصات الصحف على الأقل".

"إنها لم تتضمّن شيئاً سوى ملاحظات مكتوبة بخط اليد".

"ما هو السبب الذي دفع كروكشكك للتحقيق في قضيتي هيلمز ومونتاغيو، ومن غير وجود تقارير صحفية حول اختفائهما، ومن دون أن يكلفه أحد بالقيام بهذا العمل؟"

"إنه سؤال مثير للاهتمام".

"دعيني أستوضح شيئاً. هل تظنين أن السيدة التي وجدت في الرميل هي أونيفغ التي تحدّثت عنها هالسي، وأن تلك الأونيفغ هي نفسها أونيفغ مونتاغيو التي تحدّثت عنها كروكشنيك".

"إنه سؤال من جزأين أيتها السيدة المحققة الجنائية. إن جوابي بالنسبة للجزء الأول، ما هي الاحتمالات بالنسبة للقطعة؟ أما بالنسبة للجزء الثاني فأعتقد أن اسم أونيفغ ليس بالاسم الشائع".

قالت إيما: "تستحق هذه القضية أن نتابعها".

"سبق لي وبدأت بمتابعتها. وجدت كاهناً في كنيسة القديس يوحنا المعمدان، والذي يعتقد أن أونيفغ التي تحدّثت عنها هالسي لديها شقيق يعيش في مكان ما في منطقة تشارلستون. سأعطي هذه المعلومات إلى غوليت. هل يستطيع، في هذا الوقت، أحد رجالك أن يحدّد مكان وجود سجلات الأسنان العائدة لويلي هيلمز؟"

"ولماذا؟"

"عمد كروكشنيك إلى التحقيق في اختفاء شخصين من دون توكيل من أحد، حتى أنه لم يحتفظ بقصاصات الصحف التي تحدّثت عن اختفائهما. كانت مونتاغيو إحدى هذين الشخصين، بينما الشخص الثاني كان هيلمز. أعتقد أن هيلمز هو شخص دي ويز المجهول".

"إن ذلك هو لغز حقاً، لكن سأحمل لي آن على العمل لحله. إيما رائعة في ما يتعلّق بإقناع أطباء الأسنان".

"كان بإمكانك الحصول على سرطان رانغون والروبيان لوماين".

"اخترت "فطيرة مون (القمر)، وزجاجة بيبسي".

"لربما يفسر هذا شعورك بالمرض".

"لنستمتع بوجبة لذيذة".

تمتعنا بهذه الوجبة في باحة بوغان بورش. اخترت أنا الروبيان وطبقاً من الشوفان، أما رايان فاختر طبقاً من لحم دجاج تشارلستون. رنّ هاتفني الخلوي أثناء مغادرتنا للمطعم.

"دكتورة برينان؟"

"نعم".

"أنا الأب رايكر. أكلمك من كنيسة القديس يوحنا المعمدان".

"نعم أبي".

"جزيرة سوليفان".

"أنا آسفة؟"

يا الله، يبدو أن الأمر نجح.

"يعيش شقيق الأنسة مونتاغيو في جزيرة سوليفان. جربت طيلة النهار أن أتذكر الكلمات التي قالتها في ذلك اليوم. تذكرت أن شيئاً ما في حديثنا جعلني أفكر في فترة طفولتي. صليت بحرارة، فاستجاب لي الله. كان سوليفان الاسم الذي أعطيته لأول قطة امتلكتها. وهكذا تذكرت جزيرة سوليفان".

"شكراً لك يا أبي. ستساعدني معلوماتك كثيراً جداً".

"يعمل الرب بطرق غامضة".

"نعم".

حاول رايان الاتصال بابنته ليلي، بينما جرّبت أنا الاتصال بغوليت. لم يخالف رايان الحظ، بعكس ما جرى معي. تواجد الشريف في مكتبه هذه المرة. أبلغته بالمعلومات التي أعطاني إياها رايكر. بدا غوليت غير متحمس لما سمعه، لكنه أبلغني أنه سيجعل أحد المحققين يدقق مع أفراد عائلة مونتاغيو الذين يسكنون في جزيرة سوليفان.

سألني رايان عندما انتهى الاتصال: "هل قلت لي إن كروكشك قام بمراقبة أحد المراكز العلاجية؟"

"إنها عيادة تديرها كنيسة رحمة الله. عملت هيلين فلين هناك حتى وقت اختفائها".

"هل كتب كروكشك اسم مونتاغيو في ملفه".

"لقد فعل ذلك".

"إذاً كان كروكشك يراقب عيادةً مجانيةً".

"لا أدري إذا كانت كلمة "يراقب" هي الكلمة المناسبة، لكن نعم، فعل ذلك".

أدركت مقصد رايان.

"تقدّم العيادة العناية الطبية للفقراء والمشردين، وأونيج مونتاغيو كانت فقيرة ومشردة".

شعرت بالحماس، والتفت نحو رايان: "لعلّ كروكشنيك قد اهتم بوجود هذا الرابط".
"ربّما".

لم أستطع التخلص من الشعور بأن لديه المزيد ليقوله بهذا الخصوص.
"يوحي لي شيء في أعماقي أن الشخصين المجهولين يرتبطان ببعضهما بعضاً، وبكروكشنيك، وأكثر من ذلك لعلّ الثلاثة لديهم ما يجمعهم مع هيلين فلين".
"أفهم وجود رابط ما بين كروكشنيك وفلين، والعيادة، وربّما يرتبط هؤلاء مع مونتاغيو، لكن كيف يمكنك إقحام رجل مونتاغيو في هذه الصورة؟"
"أنا لست متأكدة".

"ما هو الأساس الذي تبين عليه نظرية الرابط المشترك؟"

"هل هو الحدس؟"

رمقي رايان بنظرة مفادها: "أعطيني فترة استراحة".

رفعت يدي: "ألا يحدّد ذلك الشعور الآتي من الأعماق؟"

وضعت ذراعيّ بشكل متصلب على صدري، واسترخيت في مقعدي.
شعرت أن رايان على حق، فما من شيء يربط القضايا الأربع ببعضها. يشترك كروكشنيك ورجل دي ويز بوجود كسور غريبة في الرقبة. هذا هو الرابط بينهما. يُحتمل أن يكون هذا رابطاً حقيقياً، ويُحتمل أن يكون الأمر مجرد مصادفة.

يتميّز الهيكل العظمي الذي وُجد في دي ويز بوجود تشققات (حزوز) فيه، لكننا لم نعثر على شيء مشابه في هيكل كروكشنيك. سأحرص جيداً على تفحص أضلاع وفقرات الهيكل العظمي للمرأة التي وجدناها في البرميل يوم الاثنين.

يُحتمل أن تكون المرأة التي وُجدت في البرميل هي "أونيغ مونتاغيو". وأعرف أن كروكشنيك كتب اسم مونتاغيو في ملفاته، كما كتب اسم هيلين فلين في هذه الملفات. أعتقد أن هذا هو الرابط الذي يجمع ما بين فلين ومونتاغيو وكروكشنيك. كتب كروكشنيك اسم ويلي هيلمز في ملفاته. هل يُحتمل أن يكون رجل دي ويز هو نفسه ويلي هيلمز؟ وإذا كان الأمر كذلك فسيعني ذلك أن هيلمز يرتبط مع فلين ومونتاغيو عن طريق كروكشنيك.

رحت أتساءل عما إذا كان رجل دي ويز يرتبط مع كروكشنيك بوجود هذه الكسور العنقية الغريبة. وإذا كان الأمر كذلك، هل يرتبط مع الآخرين منطقياً عن طريق كروكشنيك؟ وهل كان التشابه ما بين الكسور مجرد صدفة؟ حالت برأسي أعداد لا حصر لها من العبارات التي تبدأ مع "إذا"، لكن من دون أن تقتربن بأية كلمة "إذا".

لا أؤمن بالمصادفات. ما هو الشيء الذي أؤمن به إذا؟

أؤمن بالدليل القوي، وبالحقائق المرهنة.

ما هي المشكلة إذا؟ إننا لا نمتلك أي دليل، أو إننا لا نملك روابط مرهنة. بل نمتلك مجرد شقوق في العظام، وكسور في الرقبة. نمتلك أيضاً رمشاً وجدناه داخل صدفة حلزون، بالإضافة إلى ملاحظات مكتوبة بخط اليد. نمتلك أيضاً قرصاً رقمياً مدمجاً.

قلت: "توجد صور لأشخاص يدخلون إلى العيادة ويخرجون منها. احتفظ كروكشنيك بهذه الصور على أسطوانة مدمجة".

"هل تظهر هيلين فلين في إحدى هذه الصور؟"

قلت: "لا، لكن يُحتمل ظهور أونيغ فيها".

"أين القرص المدمج؟"

"إنه في مكتب غوليت".

شعرت على الفور بحماسة شديدة لرؤية الصور الموجودة في ذلك القرص

الدمج.

24

أظهرت الصورة الرقمية التي تحمل رقم ثلاثة وثلاثين، صورة امرأة تغادر المبنى المشيّد بالآجر. تميّزت المرأة بشفتين متجعدتين بشكل غريب، وبشعرٍ متشابك بشكل فوضوي حول وجهها.

ظهرت حمالة أطفال مثبتة على صدرها.

لم أصدّق أنني نسيت أمر هذه الصورة.

وصلنا إلى مكتب الشريف. قدّمت رايان للشريف، وشرحت أنه رجل شرطة، وأثّبت على حكمته وتعقله. بدا غوليت ودوداً وبارداً في الوقت نفسه، أو لعله لم يكن يصغي إليّ. لا أعتقد أن قراءة أفكار هذا الرجل هي عمل سهل.

استخدمنا هذه المرة جهاز حاسوبي المحمول لمشاهدة القرص المدمج. وقف غوليت يتطلّع من فوق كتفي. وجلس رايان في مكان بعيد عني في الغرفة.

أشار غوليت إلى ظل يتقوّس من الطرف الأسفل لحمالة الأطفال، وقال: "ما

هذا؟"

قمت بتكبير الصورة إلى أن احتلت كامل الشاشة، وحركت مؤشر فأرة الكمبيوتر. أظهر الجزء الذي قمت بتكبيره مجموعة من أشكال المستطيلات والمربعات الصغيرة، واستطعت أن أستنتج أن شيئاً صلباً قد تلوّى من حمالة الأطفال.

قلت: "إنه ديل كليوبترا".

قال غوليت من ورائي برتابة: "هل أنت متأكدة؟"
"انظر إلى الحزيم المتواترة من الضوء والظلمة. أعرف كل شيء يتعلّق بالتقطط.
إنها حلقات دائرية لذيل قطة".
"سيزوغ نظري".

نظرت من فوق شاشة الحاسوب باتجاه رايان. ارتفع حاجباه قليلاً. خفضت
حاجبي قليلاً. لا تفعلها.

سأل غوليت أثناء تفحصه تلك الكتلة الظاهرة في شاشة الحاسوب: "ما هي
قصة المرأة التي تدعى مونتاغيو هذه".

بدأت بالنقر لأستطيع مشاهدة بقية الصور: "أنت تعرف ما نعرفه. هل
حالفك الحظ في تحديد مكان سكن شقيق المرأة؟"

"وجدنا سبعة عشر شخصاً من عائلة مونتاغيو في منطقة المترو، لكننا لم نجد
أحداً في سوليفان. إننا نتحقق من القائمة. لنفترض أننا وجدنا ذلك الرجل، هل
ستتمكن من أخذ عينة من الحمض النووي العائد للأنسة روسو من اليرميل؟"
"نعم".

لم يقل غوليت شيئاً. هل أصبح عاجزاً عن الكلام؟
سأل رايان: "ما هي المؤسسة التي تدير العيادة التي تظهر في الصور التي
نشاهدتها؟"

قلت: "كنيسة رحمة الله".
"قصدت أن أقول من يدير أعمالها اليومية؟ ومن يظهر على الأرض؟"
شعرت خلفي بغوليت وهو يلتفت نحو رايان: "أعتذر منك يا سيدي، لكن
هلاً كررت أمامي انتساباتك؟"

قال رايان: "أنا الملازم أول في التحري، من الجرائم الرئيسية، شرطة مقاطعة
كيبك".

صمت غوليت للحظة، وكأنه يفكر في المعلومات التي سمعها. قال بعدها:
"آه، كندا".

"إننا نحرصكم".

تدخلت لشرح الوضع.

"أعمل مع التحري رايان في مونتريال. إنه يقوم بزيارة إلى تشارلستون هذا الأسبوع. فكّرت أنني بإمكانى استشارته في بعض الأمور أثناء وجوده هنا. أعني استشارته إن فاتتني ملاحظة شيء ما".

سأل غوليت رايان: "هل تعمل في دائرة كشف الجرائم؟"

"نعم. بدلنا التسميات فقط".

"هل لي أن أسألك ما هي الأمور التي استدعتك إلى تشارلستون؟"

"أنا في عطلة. فكّرت أن أعرج إلى هنا، وأن أساعدكم على تحسين دائرتكم".

تضيقت عينا غوليت بمقدار شعرة ربما، لكن عيني تضيقتا بمقدار أكبر.

"هل مضى وقت طويل على عملك مع فرقة مكافحة الجرائم؟"

"نعم".

"هل اخترت بنفسك العمل في هذا المجال؟"

"نعم".

"هل تدري لماذا؟"

"نعم".

قلت: "يعتبر الملازم أول أحد أفضل رجال التحري في كيبك. أعتقد أن

معلوماته تساعدنا على النظر إلى الأمور من زاوية مختلفة".

استنتجت من لغة جسد غوليت أنه لم يقتنع بهذا الكلام. فقررت تقديم

تفاصيل أكثر.

"شاهدت التحري رايان يلك أغاز قضايا ظلت عالقة لأشهر. وتمتع بقدرة لا

تبارى على تفسير مشاهد الجرائم، بالإضافة إلى قراءة أفكار الآخرين".

"هل تعرف الأنسة روسو. مساهمته معنا؟"

"نعم إنها تعرف".

"يا الله، سيتواجد ضيوف عندنا أكثر من العاملين النظاميين من دون أن

نعرف".

حَيِّم الصمت على الغرفة. أوشكت على خرق هذا الصمت، لكن غوليت سبقني، ووجه الحديث إليّ.

"إذا خربَ أمراً، فسأضع الملامة عليك، وعلى المحققة الجنائية."
"أنا أتق به".

"أنا لا أدفع معاشك يا سيدي. سأعتبر أن معلوماتك هي معلومات غير رسمية بالمرّة".

قال رايبان: "وستكون موثوقة بالكامل. أنا أهتم بكل جرائم القتل أيها الشريف، ولا مانع عندي من المساعدة إذا كان ذلك لا يتعارض مع عملك".

لم يُفصح غوليت عمّا يعمل في داخله من مشاعر: "أفعل ذلك طالما نفهم بعضنا بعضاً. تستطيع أن تقترب الآن، أيها التحري، لتلقي نظرة".

هض رايبان وانضمّ إلينا. وضعت حاسوبي في وضع عرض الصور. تكلم غوليت أثناء انشغال رايبان بمشاهدة الصور.

"تقع العيادة في ناسو. تمتلك كنيسة رحمة الله المبنى والأجهزة، وتقدّم موازنة تشغيلية، كما أنّها توظّف وتصرف الموظفين، لكنها غير مسؤولة عن الأشياء الأخرى. تفتح العيادة من يوم الثلاثاء وحتى السبت. إنّما تعالج غالباً الرشح، بالإضافة إلى الجروح البسيطة، ويتمّ تحويل الحالات الأخطر إلى قسم الطوارئ في مستشفى آخر. نعرف أن عدد الموظفين قليل جداً، هناك ممرضة تعمل بدوام كامل، وطبيب يعرّج مرة في الأسبوع على العيادة، بالإضافة إلى وجود بعض موظفي التنظيف والكتابة".

سألته: "ومن يكون هؤلاء؟"

مشى غوليت نحو مكتبه. تناول ظرفاً بيّ اللون.

"يدعى الطبيب مارشال، واسم الممرض (أو الممرضة) هو دنيالز، أما المرأة التي تُدعى بييري، فهي تهتم بالأعمال المكتبية والتجهيزات. أما الرجل الذي اسمه تاوري فيهتم بالتنظيف".

أوشكت على طرح سؤال على غوليت عندما ظهرت امرأة عند المدخل.

"قلتَ أيها الشريف إنك تريد معالجة كل الشكاوى الآتية من هايبرلز،
تقول امرأة تدعى مارلين شغلت خط النجدة 911، إن جون آرثر عاد يضرهما
مجدداً".

سأل غوليت: "هل هي بخير؟"

"لدينا جون آرثر على خط آخر. يقول الرجل إن مارلين ضربته بملعقة خشبية
على إحدى عينيه فأعطبتها".

"هل يشربان الكحول؟"

"وهل يقوم كليي تايسون بحكّ براغيثه؟"

تطلع غوليت إلى ساعته: "وما هي أهمية ذلك؟ أخبري مارلين وجون آرثر
أنني قادم بنفسني إلى هناك. أبلغيهما أنه من الأفضل أن لا أجد مشروب التاكويلا
على الطاولة".

انسحبت المرأة.

قال غوليت غامزاً من قناة رايان وفناتي: "إننا نخدم ونحمي. إننا نفعل ذلك
بالنسبة للجميع".

سألته مشيرة إلى جهاز حاسوبي المحمول: "هل أستطيع نقل هذه الصور إلى
جهازتي؟"

أوما غوليت.

أنشأت ملفاً في جهاز الحاسوب ثم قمت بتحميل صور كروكشك إلى
القرص الصلب للحاسوب. غيّرت الحديث بعد أن أنهيت العمل على الحاسوب.

"هل وجدت شيئاً بالنسبة إلى ويلي هيلمز؟"

"طلبت من أحد الضباط أن يسأل عنه في الملاحي. هل لك أن تذكرني قليلاً
بسبب اهتمامنا بهذا الرجل؟"

"انشغل كروكشانك بتجميع المعلومات عن ويلي هيلمز، وأونيغ مونتاغيو،
وعدد آخر من الأشخاص المفقودين الآخرين أثناء متابعته التحقيق بقضية هيلين
فلين. أعتقد أنه كان يحقق بقضايا تمهته شخصياً".

جاء الرد الساخر: "آه، ها".

قلت: "تبحث إيما عن طبيب الأسنان الذي تعتقد أنه عاج هيلمز. وجدنا الكثير من حشوات الأسنان عند الرجل الذي وجدناه في دي ويز".
"إنه لغز كبير".

سمعت الكثير من الأشخاص الذين قالوا ذلك.

"هل قلتِ إنني واحد من أفضل رجال التحري في كيبك؟"
"لا تصدق أي شيء قلته هناك في الداخل. إنها مجرد دعاية".
"وهل زاغ نظرك؟"
"تعرفين ماذا قصد الرجل".

دخل رايان في حط سبر السيارات. لاحظت بعض الهدوء بالنسبة لما اعتدناه في فترة ما بعد الظهر في أيام السبت: "وهل هذا شيء سيء؟ أعني الإفراط في الشرب؟"

"هذا صحيح ضمن ظروف معينة".

قرصت ذراع رايان. "إنه اعتداء، قبض علي".

سأل رايان: "والآن ماذا؟"

"يرتبط كروكشنك، وفلين، ومونتاغيو، جميعاً بتلك العيادة، لكن غوليت لا يريد من رعاة البقر المزهوين أن يضايقوا موظفيه".

"لكنني رجل عاطل عن العمل في الوقت الحاضر".

"قصد بيبي بكلامه".

"ذلك المتأنق هو رجل فظ بعض الشيء".

وصلنا بعد عشرين دقيقة إلى شبه الجزيرة (البينسولا)، ووجدنا أنفسنا في جزء مهممل يقع ما بين المنطقة التاريخية وجسر نهر كوبر. سبق لصحيفة كوارتييه أن نشرت صورة لمنازل حجرية قليلة الارتفاع، وأروقة مسقوفة متداعية تكدست فيها أجهزة وأدوات صدئة، بينما ظهرت هنا وهناك نوافذ وأبواب مقفلة بألواح من الخشب الرقائقي.

لاحظ رايان في البداية مبنىً حجرياً. اقترب نحو الرصيف وأوقف محرك السيارة.

بدت العيادة مقصورة بسيطة مزودة بأجهزة تكييف هواء صدئة بارزة من نوافذها ونوافذ الأبنية المجاورة على الجانبين. لم نلاحظ وجود مصاريع نوافذ، ولا لافتات، ولا حتى أية زخرفات معمارية من أي نوع كان.

فُتح الباب أثناء وقوفنا، وومضت أشعة شمس المساء بعد انعكاسها على ألواح الزجاج الملون. خرجت امرأة مسنة وبدأت تشق طريقها عبر الرصيف. وضعت يدي أمام عيني لحمايتهما، وبدأت أتفحص ناسو صعوداً ونزولاً، وتتبع خطوط النظر انطلاقاً من باب العيادة. لاحظت وجود مظلة لموقف الباصات إلى الشمال وعلى مسافة قريبة. لاحظت على نفس البعد مقصورة (كشكاً) للهاتف. استطعت أن أرى عبر الزجاج القدر سماعة الهاتف تتدلى بسلكها.

"لعل الصور قد التقطت من مقصورة الهاتف، وموقف الباصات."

وافقني رايان. خرجنا وعبرنا الشارع.

بدا المبنى مهملاً عند رؤيته عن قرب أكثر مما يبدو عند مشاهدة صورته على القرص المدمج. لاحظت وجود تشقق في إحدى النوافذ، والذي أخفي بشريط عريض لاصق رمادي اللون. لاحظت أيضاً أن الشريط متجدد عند أطرافه، وهو الأمر الذي يوحي بوجود هذا الشريط منذ بعض الوقت.

أمسك رايان الباب فدخلنا معاً. لاحظنا أن الهواء داخل العيادة كان حاراً ومشبهاً برائحة الكحول (السبيرتو) والعرق.

شاهدت صفتين من كراسي الفينيل ماركة كاي مارت، ولاحظت أن كرسيين منهما مشغولان. رأيت امرأة مصابة بكدمة حول عينها. وجلس على الكرسي الآخر فتى نبت لحية غير متناسقة حول ذقنه. راح الاثنان يسعلان ويتنشقان. لم يكثر أي منهما للنظر باتجاهنا.

لكن موظفة الاستقبال اكرثت بنا. بدت المرأة طويلة ونامية العضلات، وفي مثل سني، أما جلدها فيماثل لون الخشب الماهوغاني (البي الضارب إلى الحمرة). رأيت شعرها المرفوع والمجدد بلونه الأسود عند جذوره، والبرونزي عند أطرافه. افترضت أن هذه المرأة هي بييري، وهي المسؤولة التنفيذية عن التجهيزات والأعمال المكتبية.

تذكّرت الصور التي التقطتها كروكشك، واستطعت أن أحدّد صورتها في ذهني، وأن أتذكّر أن بيرمي تحمل الرقم 7 JPEG. إنها المرأة الطويلة السوداء ذات الشعر الأشقر.

انصبت بيرمي في جلستها، وحركت فكّها عندما رأتنا. افترضت أنها أهدت مكالمتها الأخيرة، ولعل ظهورنا أوحى لها أننا لم نأت لرؤية بيتو.

مشيتُ مع رايان إلى طاولة الاستقبال. ابتسمت بوجه بيرمي. بقي وجهها متصلب الملامح مثلما هو شعار ملائكة الجحيم. لم تضع تلك المفصلات النحاسية في يديها، لكنها كانت في وضع قريب من أن تفعل ذلك.

قدّمت نفسي: "أنا الدكتورة برينان، وهذا هو التحري رايان. إننا نعمل مع مكتب المحققة الجنائية في تشارلستون، ونحن نحقق في قضية وفاة امرأة قد تكون أونيف مونتاغيو".

"من؟"

كرّرت الاسم.

لاحظتُ عينيها السوداءوين اللتين بدا البياض فيهما بلون أصفر يشبه لون الجعّة الراكدة منذ زمن. راقبت هاتين العينين تنفحصان جسدي نزولاً قبل أن تعودا صعوداً. تسبّبت هذه الحركة بإثارة أعصابي قليلاً.

قلتُ: "لدينا أسباب تدفعنا لنعتقد أن الأنسة مونتاغيو كانت مريضة تتردّد على هذه العيادة".

"هل تعتقدان ذلك فعلاً؟"

حاولت أن أبعد الغضب عن صوتي، لكنني فشلت: "هل كانت كذلك؟"

"هل كانت ماذا؟"

التفتُ صوب رايان: "هل كانت أونيف مونتاغيو مريضة تتردّد على هذه

العيادة؟"

"أنا لا أقول إنها كانت كذلك، ولا أقول إنها لم تكن".

التفتُ نحو رايان مجدداً: "لعل طريقي كانت غير مناسبة، فلعل الأنسة بيرمي

لا تحبّ طريقي في طرح الأسئلة".

قال رايان: "حرّبي أن تكوني أكثر تهدياً؟"

"أعني أن أكون أكثر ودية؟"

هزّ رايان كتفيه.

تحوّلت مجدداً إلى بيروي، وابتسمت بطريقة ودية جداً: "أتمنّين بإخبارنا عن

كل ما تعرفينه عن الأنسة مونتاغيو لو سمحت؟"

ركّزت عينا بيروي على عينيّ. لم أحب، بالتأكيد، ما رأيته فيهما. كرهت

أيضاً حقيقة أنّها على حقّ. لا تمتلك أنا ورايان صلاحية رسمية، وليس لدى بيروي

أي سبب يدفعها للتعاون معنا. استطعت مع ذلك المحافظة على موقعي.

تطلّعت نحو بيروي وأطلقت فحوا ابتسامة عريضة أخرى: "أعرفين ما هو

المسلي فعلاً؟ إنه التردد على مراكز الشرطة. يقدم ضباط الشرطة مشروبات غازية

مجانية، وبعض الكعك الحلى، هذا إذا كنت محظوظة. وسيقدمون لك أيضاً غرفة

صغيرة هادئة خاصة بك".

وضعت بيروي قلمها على سجل المواعيد. أطلقت تنهيدة مثيرة: "لماذا تريدان

معلومات عن هذه الأنسة مونتاغيو؟"

"برز اسمها أثناء تحقيق الشرطة باكتشاف جثة".

"ولماذا اسمها بالذات؟"

"لا أعتقد أن هذا مهم الآن". تحوّلت نحو رايان: "هل تعتقد أن هذا الأمر

مهم أيها التحري؟"

"لا أعتقد ذلك".

استرخت بيروي في مقعدها، ووضعت ذراعيها الضخمتين بشكل متصالب

على صدرها المنتفخ بشكل حرفي D: "هل تعملين مع المحققة الجنائية؟"

"نعم".

"من الأفضل أن تحضري كيساً لوضع الجثث".

"ولماذا أفعل ذلك؟"

نظرت بيروي نحو رايان: "قد أموت فوق مقعدي هنا لأنكما مضحكان جداً".

قلت: "إنها نكتة قديمة".

"سأوظف كتاباً جُدداً".

"دعينا نبدأ. ألا يُحتمل أن تكون أونيفغ مونتاغيو قد حضرت إلى هنا وهي تحمل قطعة تضمّتها إلى صدرها".

"يعاني الكثير من مرضانا من مشاكل مع طفيلياتهم".

اتضح لي أنني لم أفصح بطريقيّ هذه. هل أذكر اسم هيلين فلين؟ أو نوبل كروكشنيك؟ ستكون تلك فكرة سيئة، فإذا كان هناك من رابط بين هؤلاء الأشخاص، فيحتمل أن تثير مثل هذه الأسئلة الحذر الذي يريد غوليت أن يتجنّبه.

قلت: "أرغب بالتحدث مع الدكتور مارشال".

"إننا لا نتحدث عن المرضى".

أحسّت بريي بغلظتها فحاولت تصحيحها: "هذا إذا كانت الأنسة مونتاغيو هذه مريضة، لكنني لا أقول إنها كذلك".

"كانت مريضة".

التفتنا نحن الثلاثة نحو المرأة التي تعاني من الكدمة.

25

انشغلت المرأة بمراقبتنا بعينين نصف مغمضتين، وإحداهما متورمة مع تغيّر في لونها. لاحظت شحوباً في جلدها، أما شعرها الأسود فكان مرفوعاً على شكل خصلٍ متجمعة.

سألت المرأة: "هل تعرفين أونيج مونتاغيو؟"

رفعت المرأة راحتي يديها. لاحظت أن أظافرها قد تعرضت للقضم، وأن ندوباً وتريّة ظهرت على مرفقيها: "قلت إنهما اعتادت على الجيء إلى هنا، ولم أقل شيئاً آخر".

"وكيف عرفت ذلك؟"

حملقت المرأة بيروي: "أمضيت نصف حياتي وأنا أنتظر في هذا المستوعب، لكن ذلك ليس مهماً إذا كان المرء محتضراً".

جاءت لهجة بيروي باردة من دون أن تترافق مع المشاعر: "أنت لا تحتضرين يا روني".

"أنا مصابة بالأنفلونزا".

"لست سوى مدمنة".

تدخلت هنا: "هل تحدثت مع أونيج مونتاغيو هنا في هذه العيادة؟"

"لن أضيّع وقتي بالحديث عن التافهين. سمعت هذه المرأة التافهة وهي تتحدّث إلى قطنها الكبيرة البنية اللون. أسمت نفسها أونيج".

"هل أنت متأكدة؟"

"سمعتك تسألين، فأعطيت جوابي."

"متى كانت هنا؟"

تحركت كتف المرأة.

"هل تعرفين أين تعيش؟"

"أبلغت تلك التافهة قطتها أنهما ذاهبتان إلى مأوى معين."

"أي مأوى؟"

"وهل أبدو لك عاملة اجتماعية مغفلة؟"

قالت بيوي موبخة: "انتبهي لألفاظك".

زمت روني فمها ليصبح خطاً رفيعاً ومشدوداً. ركلت بقدميها، وشبكت

أصابعها فوق بطنها، وحفظت بصرها.

تكلم ذو الذقن المدبب من دون أن يرفع رأسه عن الحدار: "هل سيفحصني

أحد، أم أنه يجب أن أذهب إلى المنزل، وأرسل لكم جميعاً عينة من إفرازات

الأنفية في ظرف بريدي صغير؟"

أوشكت بيوي على إعطاء جوابها عندما فُتح الباب. سمعنا صوت خطوات

قبل أن يدخل رجل من الرواق الموجود إلى يمين طاولتها. حمل الرجل رسمين بيانيين

في يديه.

"روزاريو. كايس."

سمع ذو الذقن المدبب اسمه فقال: "هل أنت الطبيب؟"

"لا".

ظهرت ابتسامة ساحرة على وجه الفني: "هل أنت الممرضة نانسي؟"

"اسمي دنيالز، كوري دنيالز. هل لديك مشكلة مع المرضين المذكور؟"

فتح ذو الذقن المدبب عينيه، فنلاشت الابتسامة الساحرة. امتلك سبباً قوياً

ليفعل هذا.

إذا اعتبرنا أن بيوي هي من المحم الكبير، فإن دنيالز يبدو أكبر. أنا لا

أتحدث عن اتحاد كرة السلة الأميركي، وعن تحول القامة. بدأ الرجل مثل رجل تلج

يرتدي زياً رسمياً. ربط الرجل شعره من الخلف بشكل عقدة السومو، كما امتدَّ
خط من الوشم من عضلات أعلى ذراعه وحتى رسغه.
لم يرغب ذو الذقن المدبب بأن تلتقي أعينهما: "آسف يا رجل. أشعر وكأنني
فتى لا قيمة له".

تحول دنيالز باهتمامه نحو روبي: "آه، آه. هل نجوت من جرعة ثانية، يا دوائر
الشمس؟"

"أصبت بحمي".

"آه، ها. اتبعاني أتما".

نفضت روبي، وذو الذقن المدبب، فقلتُ عندها: "يا سيد دنيالز".

فوجئ الرجل، وكأنه رأيَ أنا ورايان لأول مرة: "آه".

بدا صوت بيرى أعلى قليلاً مما ينبغي حين قالت: "إنهما يسألان عن امرأة ما
تدعى أونيفغ مونتاغيو".

"ومن يكونان؟"

"المحققة الجنائية، ورجل شرطة".

وجه دنيالز سؤالاً إلى رايان: "ألديك بطاقة تعريف؟"

حسناً. بدا المرض دقيقاً في عمله أكثر من السكرتيرة، وربما لم يكن الأمر
كذلك. أبرزت بطاقتي الجامعية الخاصة التي كنت أحملها عندما كنت أدرّس في
جامعة شمال كارولينا، بينما أبرز رايان شارته، لكن دنيالز بالكاد نظر إلى أيّ
منهما.

"انتظرا هنا حتى أنتهي من هذين المريضين".

استغرق الانتهاء من هذين المريضين، بغضّ النظر عمّا تعنيه كلمة انتهاء،
عشرين دقيقة.

وجه دنيالز كلامه إلى رايان وحده عندما عاد: "يريدك الدكتور مارشال أن
تعود بعد ساعة حتى يستطيع التحدث معك شخصياً".

قال رايان: "سننتظر".

أبقى دنيالز نظرتَه مركّزة على رايان: "يُحتمل أن تطول المدة أكثر".

"إننا أناسٌ صبورون".

هزّ رايان كتفيه بما معناه كما تشاء. وأسرعت، عندما انصرف، إلى إقامة هدنة مع بييري.

"أيمكنني أن أسألك منذ متى وأنتِ تعملين في هذه العيادة يا أنسة بييري؟"
نلت نظرة توبيخٍ منها.

"كم عدد المرضى الذين تعالجونهم كل أسبوع؟"

"أنا لا أسعى إلى نيل وظيفة، إذا كانت هذه مقابلة للحصول عليها".

"أنا متأثرة جداً بالالتزام الذي تظهره كنيسة رحمة الله الفقراء".

رفعت بييري إصبعاً إلى شفيتها وأسكتني. حركت إشارتها هذه مفتاحاً في دماغي يسيطر على العواطف.

"لا بد أنك مخلصّة جداً لغايات هذه المنظمة لكي تقبلي القيام بهذا النوع من العمل".

"أعرف أنني قديسة".

رحت أتساءل عن حالة قداستها فيما لو استقر حذائي على مؤخرتها.

"هل عملت في عيادات أخرى لكنيسة رحمة الله؟"

نظرت بييري نحوي ببرودة، وأشارت نحو الكراسي من ماركة كاي مارت.

استطعت السيطرة على أعصابي، ولكن بصعوبة: "ماذا؟ هل عدت للتكلم بطريقة فجحة مجدداً؟"

صوّبت بييري نحوي النظرة التي تأمرني بالجلوس.

"كيف حدث هذا؟ هل حصلت على وظيفة العمل على طاولة الاستقبال فور

اختفاء هيلين المسكينة؟"

التفتت بييري بعيداً.

وضع رايان يداً مطمئنة على كتفي، وذلك أثناء تفكيري بالقيام بخطوة أكثر غباءً. أدركت أنني أقدمت على ذلك النوع من التصرفات التي حذرتني منها غوليت، أي أنني قدّمت معلومات بحماية من دون الحصول على أي شيء بالمقابل. شعرت بنوع من الكدر، فجلست على كرسي مجاور لرايان.

نهضت بيروي وأقفلت الباب الرئيسي، ثم عادت إلى مكتبها، وشغلت نفسها بتقليب الأوراق.

مرّت عشر دقائق ببطء.

ظهر الفتي ذو الذقن المدبب متمسكاً بكيسٍ صغيرٍ أبيض اللون ففتحت له بيروي الباب. وخرجت رويي بعد وقت قصير.

اختلست نظرةً بعد نظرةٍ نحو بيروي التي ظلّت تراقبنا، وكانت تستعجل بالنظر بعيداً حينما يلتقي بصرها ببصري، وتعهد إلى تحريك أوراقها. بدا لي أن هذه المرأة لديها الكثير من الأوراق.

أشارت عقارب الساعة إلى الساعة السابعة، فنهضت، ومشيت قليلاً، ثم عدت إلى مقعدي.

سألت رايان همساً: "أعتقد أن مارشال تسلّل من بابٍ خلفي؟"

هرّ رايان رأسه: "هناك من يحرس المدخل الأمامي."

"وهل قمتُ أنا بهذا؟"

نظر رايان نحوي نظرةً مستغربة.

"أي بالتسلل إلى الخارج، والمغادرة. يتصرّف دنيايزو وكأنني لست موجودة هنا."

"يكفي أن الحارسة لاحظت وجودك."

حملتُ برايان عاتبةً.

"حسناً، يفتقد الموظفون هنا لبعض المهارات."

"ينبغي عليّ كنيسة رحمة الله أن توظف شخصين، وأن تعطي فريقها الذي يستقبل الناس تدريباً على مراعاة حساسية الناس."

قال رايان بشيء من التوبيخ: "ظننت أنك لن تسألني عن فلين."

"لم أسأل، لكن بيروي استفزتني، وخطر في ذهني أنه إذا عملت بيروي مع فلين، فلعلهما كانتا تفضيان بدخائل نفسيهما الواحدة للأخرى."

أبدى رايان بعض الشك.

قلت بفضفاضة لم أتعهد أن تكون لهذا الحدّ: "ربما كانتا صديقتين."

استرخيت ثانية في مقعدي، ورحت أقضم ظفري. أعرف أن رايان مُحق، وأنه من المستبعد أن تمتلك المرأتان أي شيء مشترك بينهما. لم أفكر، وفي الواقع، لم أذهب بأفكاري إلى هذا الحد. كان سؤالاً عفويًا ناتجاً عن الغضب، وربما أعطيت فكرة، من دون مبرر، عن دورنا في هذه القضية.

سألت: "هل ترغب بتوقيف مارشال؟"

قَلد رايان تشدق غوليت الرتيب: "إنني أعمل في هذه القضية بصفة غير رسمية".

"أنت تعتقد أن هذه القضية هدر للوقت، أليس كذلك؟"

"ربما كان الأمر كذلك، لكنني أستمع عندما أراك عصبية."

"أنا متأكدة من أن المرأة التي وجدناها في البرميل هي مونتاغيو نفسها، لكنني أردت إلقاء نظرة على موظفي العيادة".

"أعتذر لأنني جعلتكما تنتظران طويلاً".

نظرتُ ورايان إلى الأعلى، ورأينا رجلاً ذا شعر داكن يقف في مدخل الرواق. بدا الرجل مفتول العضلات، بالرغم من أنه كان متوسط الطول. ارتدى الرجل معطف مختبر أبيض اللون، وبنطالاً رمادياً، واتعل حذاءً إيطالياً ربما كان أغلى من سيارتي.

"أنا الدكتور لستر مارشال. إنني آسفٌ حقاً، لكنّ مرضي لم يأخذ اسمي كما".

وقفتُ ورايان. تبرعت بإجراء التعريفات، لكن من دون ذكر المؤسسات التي تنتسب إليها. لم يطلب مارشال هذه المعلومات مني، لكنني أعتقد أن دنيا لزر قد أخفى هذه الناحية عن الطبيب.

"يقول مساعدتي الممرض أنكما تستقصيان عن أونيغ مونتاغيو. هل لي أن

أسأل لماذا؟"

توقفت حركة تقليب الأوراق من خلفنا.

"نظنّ أنها ماتت".

"لنناقش هذه القضية فيما بيننا فقط". تحوّل إلى بيري ليقول: "غادر كوري،

وأنت يا آديل، بإمكانك الذهاب أيضاً. انتهينا من العمل لهذا اليوم".

يوحي تصميم الطابق الأول أن هذه العيادة كانت بيتاً خاصاً ذات يوم. لاحظت، عندما تبعت مارشال أثناء عبوره الرواق، وجود غرفتين للفحص، ومطبخاً، وخزانة كبيرة للأدوات المكتبية، وحماماً.

يتواجد مكتب مارشال في الجهة الخلفية من الطابق الثاني، وربما كان هذا المكتب غرفة نوم ذات يوم. لاحظنا أن أربعة أبواب أخرى تطل على ممر يؤدي إلى الطابق الأعلى. لاحظنا أيضاً أن جميع الأبواب مقفلة بإحكام.

بدت لنا المساحة المخصصة للطبيب صغيرة، ولاحظنا وجود مفروشات متواضعة. رأينا طاولة خشبية في حالة غير جيدة، وكذلك حال الكرسي الخشبية، وخزانة حفظ الملفات، وجهاز تكييف الهواء المركب في النافذة، لكنه بالكاد يستطيع التخفيف من حرارة الجو.

جلس مارشال أمام طاولة مكتبه، ورأينا ملفاً وحيداً عليها. لم يضع الرجل صورة زوجته أو أولاده على الطاولة، ولا لوحة تبين اسمه، أو إطاراً يضم رسماً محفوراً، أو مثقلة للأوراق، ولا حتى كوباً تذكاريًا من مؤتمر طبي.

تفحصت الجدران. لم أجد صوراً مؤطرة، ولا حتى شهادة، أو دبلوماً. لم ألاحظ حتى إجازة لممارسة المهنة من الولاية. اعتقد أنه يُطلب من الأطباء تعليق مثل هذه الشهادات، لكن لعل مارشال يعلقها في غرفة الفحص.

أشار مارشال إلى رايان ولي براحة يده نحو المقاعد. نظرت إلى شعره المسرَّج الذي يحتاج إلى قص، والذي ينحسر بسرعة عن جبهته. قدّرت أن عمره يتراوح ما بين الأربعين والستين.

قال مارشال مبرزاً أسنانياً منتظمة وبيضاء: "تعرفون، بالطبع، أن السرية الطبية تمنع الأطباء من إعطاء المعلومات عن المرضى".

سألت: "هل كانت الأنسة مونتاغيو مريضة تتردد على هذه العيادة؟"

رأيت المزيد من الأسنان المنتظمة. إنها شديدة الانتظام.

أشرت نحو الملف: "هل هذا هو ملف الأنسة مونتاغيو؟"

أصلح مارشال من وضعية الملف ليتوازي مع حافة الطاولة. لاحظت أن أصابعه ثخينة لكن أظافره مقلمة جيداً، وأن ساعديه يوحيان أنه أمضى وقتاً طويلاً يتمرّن في نادٍ رياضي.

قلتُ: "لا أطلب الحصول على الملف الطبي للمرأة، بل أسأل، ببساطة، إن كانت قد تلقت العلاج هنا".

"ألا تشكل هذه الواقعة جزءاً من التاريخ الطبي؟"
"لدينا احتمال أن تكون الآنسة مونتاغيو قد توفيت".
"أخبريني تفاصيل أكثر".

أعطيته الحقائق الأساسية، وأهمها أنها وُجدت في مياه النهر، وأن جثتها كانت متحللة ومتصينة. قلت له إن هذه المعلومات ليست سرية، وإذا اعتقد أن الحادث هو غرق عرضي فذلك ليس من مسؤوليتي.

لم يفتح مارشال الملف. استطعت أن أشم رائحة عطره في هذه الغرفة الصغيرة والحارة. بدا لي أنه عطرٌ غالٍ، لكن الرجل كان مزعجاً جداً، مثل ممرضه وموظفة الاستقبال لديه.

"لعلك تفضّل أن نبرز لك مذكرة تفويض يا دكتور مارشال. ونستطيع تنبيه وسائل الإعلام، وأن نحصل على ساعات بث عن كنيسة رحمة الله، ولربما حصلت على تغطية تشمل البلاد بأكملها".

اتخذ مارشال قراراً، أو لعله اتخذ قراره في وقت سابق، لكنه كان يراوغ لكسب الوقت من أجل تقييم الوضع.

"حضرت أونيج مونتاغيو فعلاً إلى هنا لتلقي العلاج".
"أيمكنك أن تصفها لنا من فضلك".

توافقت الأوصاف التي تحدّث عنها مارشال مع وثيقة وفاة المرأة التي أحضرت في برميل، والتي أعدّها المستشفى.

"متى كانت آخر زيارة للآنسة مونتاغيو؟"

"لم تكن زيارتها منتظمة".

"متى كانت آخر زيارة لها؟"

فتح مارشال الملف، وسوى بعناية غلاف الملف براحة يده.

"جاءت زيارتها في شهر آب (أغسطس) من الصيف الماضي. أعطيت المريضة أدوية، وطلب منها مراجعتي في غضون أسبوعين. لم تتابع الآنسة مونتاغيو برنامج

العلاج كما طلب منها. لا أستطيع بالطبع...".

"أعرف أين كانت تعيش؟"

تفحص مارشال ملفه بعناية، وأخذ يقلّب الصفحات، ويضعها بمساواة أطراف الصفحات الأخرى: "أعطت عنواناً في شارع ميتنغ. إنه عنوان لمؤسسة عامة، مع الأسف، وهي تعنى بالمساعدات الإنسانية".

"أتعني أنها كانت تعيش في مأوى؟"

أوما مارشال.

"هل أعطت اسم قريب لها؟"

أغلق مارشال الملف، واستخدم راحة يده ذاتها لتسوية غلاف الملف: "ترك ذلك السطر خالياً، وهو أمر ليس بالمستغرب مع زبائننا. لا أملك الوقت الكافي مع الأسف، لأتعرف على مرضاي. إنه الشيء المؤسف الوحيد الذي يترافق مع المهنة التي اخترتها".

"منذ متى وأنت تعمل في هذه العيادة؟"

ابتسم مارشال، لكن من دون أن يُظهر أسنانه هذه المرة: "انتهينا من الحديث عن الآنسة هونتاجيو، وماذا بعد؟"

"هل لديك أمتياء أخرى تخبرنا إياها؟"

"أحببت تلك المرأة قَطَّتْها كثيراً".

أصلح مارشال وضعية ربطة عنقه المصنوعة من الحرير، والتي ربما تحمل اسم مصمم لا أعرفه.

"أتواجد عادةً في هذه العيادة لبعض الوقت أيام الثلاثاء، والخميس، والسبت وفي الأيام الأخرى أفحص المرضى في مكان آخر".

وقف مارشال، وهذا يعني أنه صرفنا: "لا تتردداً بالاتصال بي إذا احتجتا إلى مساعدتي".

شغل رايان محرك الجيب: "لا أعتقد أنه أحبنا".

سألته: "لماذا؟"

"يكثر هذا الرجل من غسل يديه".

"إنه طيب".

"أقصد حسب هوارد هوغز. أراهن أنه يعيد تفحص الأقفال، ويقوم بعدّ
مشابك الورق، ويرتب جواربه حسب ألوانها".

"أنا أرتب جواربي حسب ألوانها".

"أنت امرأة".

"أوافقك على أمر. يُفرض مارشال بالترتيب، لكن هل تعتقد أن ذلك الرجل
اللغز يعرف أكثر مما يقول؟"

"إنه يعترف بأنه يعرف أكثر مما يقول. إنه طيب".

"ماذا بشأن الشخصين الآخرين؟"

"إنهما مغروران".

"هل هذا كل ما في الأمر؟"

"إنهما مغروران ويتميزان بالفظاظة".

مددت يدي وشغلت مكيف الهواء.

"أمضى دنبالز عقوبة في السجن".

"لماذا تقولين هذا؟"

"رأيت وشم السجون على ذراعه".

"هل أنت متأكدة؟"

"نق بي، أنا متأكدة".

شعرت بالضيق، وربما بسبب الحرارة الشديدة، أو نتيجة خيبة أمني حيال
عجزي عن الحصول على نتائج، حتى أن رايان نفسه يضايقيني.

هل أنا متضايقية من نفسي لأنني فقدت هدوء أعصابي؟ لماذا سألت عن هيلين
فلين؟ وهل كان الإتيان على ذكرها خطوة جيدة، أم غلطة من جانبي؟ هل
ستعرف كنيسة رحمة الله بالأمر؟ وهل سيعرف غوليت أيضاً؟

يُحتمل أن تحرك زيارتي هذه بعض الأمور، ولعلها تُجبر هيرون على القيام
بتحرك ما، أو تدفع كنيسة رحمة الله للتعاون في التحقيقات الجارية عن اختفاء فلين.

ويُحتمل، بالمقابل، أن تثير زيارتي الخاطفة بعض المشاكل لإيما، وقد تُغيظ الشريف وتدفعه لإبعادي عن حلقة التحقيق.

أعرف على الأقل أنني لم أتحدث عن تفاصيل موت أونيفغ مونتاغيو.
لا هدوء، ولا نتائج.

استرخيت في مقعد السيارة لأتأمل. كنت مستغرقة بالتفكير عندما رنّ هاتفني الحلوي.

لا نتائج؟ آه يا الله، هل سنحصل على النتائج عندما نريدها؟

26

بدأت **إيما** أكثر حيوية مما كانت عليه قبل أيام عدّة، لكن عندما سألتها عن حالتها عادت امرأة شرسة.

"أحرينا أربعة وثلاثين اتصالاً هاتفياً. وأحرزنا تقدماً. اتصلت لي آن بطبيب أسنان يحتفظ بسجل طبي لويلي هيلمز، ويدعى الدكتور تشارلز كوشارسكي. قمت بزيارة ذلك الرجل المسن الغريب الأطوار".

"هل هذه هي طريقتك في الاختصار على الأعمال المكتبية؟"

تجاهلت **إيما** سؤاله هذا: "أظهر كوشارسكي سروره العظيم بزيارتي، حتى كدت أظن أنه سيوثقني إلى جدار مستوعبٍ محلي الصنع".

"وماذا يعني ذلك؟"

"أشك في أن تكون قائمة المرضى الذين يترددون عليه طويلة".

بدأ وكأنني أتكلم بصوت مثل صوت دنيالز: "آه - ها".

"يتذكّر كوشارسكي هيلمز على أنه رجل طويل شاحب اللون، ويقول إن عمره يتراوح ما بين منتصف، أو أواخر الثلاثينات، وأن عضلات وجهه تنقبض بشكل غير - إرادي. أضاف أن آخر زيارة قام بها هيلمز لعيادته كانت في شهر نيسان (أبريل) من عام 1996".

"ما هو نوع انقباضاته العضلية؟"

"إنها حركات عصبية في الرقبة واليدين. اضطرّ كوشارسكي إلى تقييد رأس

هيلمز ورسغيه بالكروسي، كي يستطيع العمل في نخر أسنانه وملثها. اعتقد كوشارسكي أن الرجل ربما يعاني من "متلازمة توريت" (اضطرابات عصبية)".
"هل أعطى هيلمز معلومات عن طريقة الاتصال به؟ مثل عنوانه؟ أو صاحب عمله؟"

"يقوم والد هيلمز، ويدعى رالف هيلمز بدفع الفواتير. دوّن ويلي رقمه في سجله. اكتشفت لي آن عندما اتصلت به أن هاتفه لم يعد في الخدمة. تبين أن والد هيلمز قد مات في خريف عام ستة وتسعين".
"إذاً هذا هو سبب انقطاع الفحوصات الدورية".

"قال هيلمز إنه يعمل في شركة جويي لقطع السيارات، الواقعة على الطريق السريع رقم 52. يدعى الرجل صاحب الشركة جون هاردستون، ويعمل في بيع وشراء الخردة، وعلى الأخص في شراء القطع المعدنية. يقول إنه وظّف هيلمز بسبب صداقته مع رالف، وسمح له أن يعيش في مقطورة قديمة مكونة في باحة منزله الخلفية. اعتنى هيلمز بالكلاب، وعمل على أساس أنه حارس أمّني. عمل الرجل لصالح هاردستون لمدة عشر سنوات، لكنه غادر ذات يوم بصورة مفاجئة".
"ومتى حدث ذلك؟"

"حدث ذلك في خريف العام 2001. ويقول هاردستون أن هيلمز دأب على القول إنه سيتوجّه إلى أتلانتا، وهكذا لم يُعر الأمر اهتماماً كبيراً، واعتقد أنه حزم أمتعته وغادر بكل بساطة. ويضيف هاردستون أنه تبين له أن هيلمز هو مثال الموظف المناسب، وأنه أسف لفقدانه".

"لكنه لم يحاول إيجاده".

"لا".

"إن كان هيلمز قد مات في العام 2001، فإن ذلك يتناسب مع تقديراتي للجنة المجهولة".

"يعطي صاحبنا، عالم الحشرات، تقديراً أقصى هو خمس سنوات. هذه هي أخباري الأخرى. هل تريدون أن أقرأ لك تقريره الأولي؟"
"أريد ملخصاً فقط".

مرّت فترات صمت، استوعبت فيها إيما عبارات من النص: "قشور يرقانات فارغة. كائنات متنوعة من قاطنات التراب. جلود خفافس، وخفافس كبيرة ميتة".

سمعت حفيف أوراق عند الجهة المقابلة من الخط.
تُظهر صور أسنان هيلمز قبل وفاته وجود الكثير من الأسنان الصناعية المعدنية في فمه، وهكذا عملت إلى أخذ هذه الصور، بالإضافة إلى صور الأشعة السينية التي أخذت بعد الوفاة، وأودعتها في مكتب بيروني غرايمز. سيتصل بي الرجل حالما يجد الوقت لإجراء المقارنات بين المجموعتين".
توقّفت إيما لتستكشف تأثير هذه المعلومات عليّ.
"أمتلك المزيد من المعلومات. وجدت بين كُوم الأوراق في مكنتي ورقة فاكس مرسلة من مختبر الطب الشرعي في الولاية".

"هل استطاعوا انتزاع الحمض النووي من الرمش؟"
"مهلاً هنا، لقد استلموا الرمش يوم الخميس. لكن عالم الرخويات تمكّن من فحص الصدفة".

وجدت العبارة جديدة على مسامعي: "أقولين عالم الرخويات؟"
استنتجت من ترددها أنها تقرأ من ورقة الفاكس: "إنه الأخصائي بالحار، وبلح البحر (نوع من الرخويات)، والحلزونات. يسمى ذلك الشيء... فيفاباروس أنترتيكستوس... يتواجد الفيفاباروس أنترتيكستوس بأعداد قليلة في المستنقعات الموجودة في المناطق المنخفضة الموجودة في ولاية كارولينا الجنوبية، لكنه لا يتواجد أبداً على الشاطئ، أو في مصبات الأنهر، أو في أي مكان قرب المياه المالحة".

قلتُ: "إذاً، من المستغرب أن يتواجد ذلك الحلزون في ذلك القبر".
"يعيش هذا النوع من الرخويات في المياه العذبة فقط".
راح عقلي يستعرض كل الاحتمالات الممكنة: "حسناً، قُتلت الضحية في مكان آخر، ثم نُقلت الجثة إلى دي ويز".
"أو يُحتمل أن تكون الجثة قد دُفنت في مكان آخر، ثم نُقلت إلى دي ويز".

"أو يُحتمل أن يكون ذلك الخبز قد سقط من ثياب الرجل الذي حفر القبر، أو من رفشه".

"كلها تفسيرات معقولة".

استغرقنا في استعراض قائمة الاحتمالات، لكنّ أياً منا لم تستطع تقديم احتمال مرجح.

انتقلت إيّما إلى موضوع آخر: "ماذا يحدث بالنسبة للسيدة التي وُجدت في برميل؟"

قدّمت لها وصفاً لزيارتنا إلى عيادة كنيسة رحمة الله.

"لن يسرّ غوليت بما سيسمعه عن هذه الزيارة".

قلت موافقةً: "لا".

قالت إيّما: "سأهتم بهذا الموضوع، وسأحثّه على الاهتمام بموضوع هيلمز، مع أنني أشك أن يحدث شيء مهم في عطلة نهاية الأسبوع الطويلة هذه".

"هل فعلاً تشعرين بتحسّن؟"

"نعم".

قلت لها: "جربي أن تنامي قليلاً".

قطعت الاتصال، ثمّ لخصت المحادثة لرايان.

"يبدو أنكما ستنتجحان بالتعرف على هويات ثلاث قضايا من أصل ثلاث.

أعني كروكشك، وهيلمز، ومونتاغيو. أتعرفين ماذا يستدعي هذا النجاح؟"

هزرت رأسي.

"سرطانات رانغون البحرية".

"هل يتضمّن هذا وجبة روبيان سا - شا؟"

"طبعاً. هل سنعرض إ طعام كلود كلودرسوكس؟"

حركت عيني: "إن اسم بيتي الحقيقي هو جانيس".

تطلّع رايان نحوي.

"إنه من لاتفيا. هل أنت متأكد من عدم وجود مانع لديك؟"

"لن أسمح للرياضي جانيس بتناول أطعمة مقلية غير صحية".

اتصلت ببيتي. وجدته في المنزل، وقال إنه جائع.

بدأت فكرة التوجه إلى مطعم حديقة شينغ الآسيوية الواقعة في جبل بلازانت مغرية بالنسبة لي. أصّر رايان على الدفع بالرغم من اعتراضني، وتأكدت لي مجدداً صحة المثل الذي يقول إنه كتب على النساء الانجذاب الأبدي لنفس النوع من الرجال. إن عشيقتي الحالي، وزوجي السابق، هما نسختان متشابهتان، وعلى الأخص بالنسبة لدفع الفواتير، فهما لا يسمحان لي بالدفع، والاثنان سخيان في كل شيء.

وصلنا إلى منزل البحر على امتداد أميال، فتولّى بيتي تحضير المائدة، بما في ذلك عيدان الطعام وكل الأشياء الأخرى. تمركز بويد تحت الطاولة تماماً، أما بيردي فاكنفي بالمراقبة من مكانه العالي فوق سطح الثلاثة.

بدأ بيتي مرتاحاً، ولاحظت أن وجهه قد اسمر نتيجة تمضية ساعات في ملعب الغولف، بينما ظهرت ورايان بمظهر من أمضى يوماً طويلاً وحاراً بكامله في سيارة جيب.

أوما بيتي متظاهراً أنه يستحسن ارتداء رايان لبنتال من الغيردين: "لا يعرف المرء متى يتحوّل الطقس إلى بارد جداً".

نظرت نحوه شزراً محذرة كعادتي، لكنني أدركت أن ارتداء ثياب صوفية ليس في مكانه.

نظر رايان نحو بنتال بيتي القصير: "كانت جولتنا جنوباً وليدة اللحظة. أسرعنا لهذا السبب. يبدو بنطالك القصير أنيقاً".
"شكراً لك".

قال رايان: "كان عندي ذات يوم بنطال مثله".

بدأ بيتي بالابتسام.

"لكنني توقفت عن ارتدائه منذ أيام مراهقتي".

تلاشت الابتسامة.

تابعنا تناول وجبتنا بهذه الطريقة.

اغتذمت فرصة تناولنا الروبيان، والرائفون، وديزينة من المأكولات المتنوعة الأخرى، وأخبرت بيتي بأخر المستجدات المتعلقة بقضية مونتاغيو، وهيلمز،

والعبادة. أخبرنا بدوره أنه أجرى ترتيبات كي يوظف محاسباً ليساعده في تفحص دفاتر حسابات كنيسة رحمة الله.

أمضينا ما تبقى من العشاء من دون أن تغيب الملاحظات الساحرة. شعرت عند انتهائنا من تناول العشاء وكأنني كنت مع علي وفرايزر في الخلية. شرحت لبيتي أنني أعترم تفحص أمتعة كروكشك مجدداً، فأسرع لعرض مساعدته. رن هاتفي الخليوي بينما كنت منهمكة برفع الأطباق عن الطاولة. جاء الاتصال من إيما.

"جاءت النتيجة إيجابية. إن رجل دي ويز المجهول هو ويلي هيلمز."
"حمداً لله!"

التفت بيبي ورايان نحوي، وبدت في أيديهما علب صغيرة من الكرتون. "إذاً، أصبحت المسألة الآن هي ما الذي حدث لويلي هيلمز، ومتى، ولماذا دفن في تلك الجزيرة؟"

قالت إيما: "تقع هذه المسائل من ضمن اختصاص غوليت".
أقفلت هاتفي الخليوي، ثم أخبرت بيبي ورايان عن هيلمز. أعرب الاثنان عن ارتياحهما.

اتصل الشريف بذاته بعد مضي عشر دقائق.
تجاوز الشريف المقدمات التقليدية كعادته: "أعتقد أنني أبلغتكم بعدم إثارة أي شيء في تلك العبادة".

"حصرت تبيهااتك برعاة البقر المتسرعين فقط."
"وعلى الأخص في ما يتعلق بتلك الفتاة التي هربت."
"اختفت هيلين فلين. ولا يعني هذا أنها هربت."
مرّت فترة سكون قبل أن يتابع: "إن هيلين فلين متقلبة المزاج."
"ماذا؟"

"سأناقش هذه المسألة معك ذات يوم، وسنسأها بعد ذلك، لأن اختفاء تلك الفتاة لم يحدث في منطقة صلاحياتي... عندما اختفت تلك الشابة حصر والدها هو الوحيد بالاتصال بمكثتي، وطلب إجراء تحقيق على الفور. تحدّثت مع أوبوي

هيرون شخصياً في ذلك الوقت. عمدت هيلين فلين إلى مضايقة مارشال وهيرون قبل اختفائها. اضطرت كنيسة رحمة الله في النهاية إلى أن تطلب منها ترك عملها".

"هذه أول مرة أسمع فيها هذه المعلومات".

"لا يحب هيرون انتقاد أتباعه السابقين".

"وكيف كانت هيلين تضايقه؟"

"اقتنعت أن مارشال يتلاعب بالأموال المالية. يقول هيرون إنه بحث في المسألة، لكنه لم يجد أي نقص. ويبدو أن تلك الشابة كانت تتوقع الكثير من عمل تلك المؤسسة. أطلب منك أن تنسى أمر تلك العيادة، لأنه لا وقت لدي لاسترضاء الأطباء الخائفين".

"هل اتصل مارشال بك؟"

"بالطبع اتصل بي. بدا الرجل مهتاجاً، وقال إنك أرعبت موظفيه".

"لم تشتمل زيارتنا على تخويف...".

"وأنا ليس لدي وقت أضيعه لمراقبتك أنت وعشاقك".

مهلاً يا برينان. تجاهلي الأمر، فليس ذلك الشريف بالرجل المناسب

للجدال.

"يقي أن أتعرف على هويتي الرجلين المفقودين. ويُحتمل أن تكون المرأة التي وُجِدت ميتة في البرميل هي ذاتها المرأة التي تجوب الشوارع، أونيفغ مونتاغيو. تتطابق المواصفات التي حصلت عليها من المالكة السابقة للقطعة الميتة، وتلك التي حصلت عليها من الكاهن المقيم في كنيسة يوحنا المعمدان، مع الملف الذي استنتجت معلوماته من العظام".

"اتصلت بي الآنسة روسو للتو لتزودني بهذه المعلومات".

سمعت بعض الخشخشة. انتظرت حتى انتهت: "كانت أونيفغ مونتاغيو مريضة"

تردد على عيادة كنيسة رحمة الله".

"هذا ما يفعله الكثيرون من الناس".

"امتلكت فلين ومونتاغيو ارتباطات مع تلك العيادة، وهذا هو السبب الذي

دفع كروكشك لمراقبة العيادة".

"راقب العيادة بالطبع، لأنه كان يبحث عن فلين. لا يشكل دخول امرأة مع حقيرة إلى العيادة سبباً كافياً لإصدار تفويض من المحكمة، فحضور الناس إلى العيادة هو الغاية منها. كلميني عن المجهول الآخر الذي تحدّثت عنه الآنسة روسو".

"إن الرجل الذي دُفن في دي ويز، ويلي ويليامز، هو رهاننا الصعب. وجدت لي آن ميلر طبيب الأسنان، وقام بيرني غرايمز بإجراء المقارنات".

أبلغت الشريف عن والد هيلمز، وعن صاحب عمله: "آخر مرة رأيت فيها هاردستون هيلمز كانت في خريف عام 2001".

جهّزت نفسي لسماع تشدق رتيب آخر. فاجأني غوليت.

"التقى أحد المساعدين الذين يعملون عندي أحد المتشردين الذي يعتقد أنه تبادل الشراب مع ويلي هيلمز".

"هل قدّم ذلك المتشرد وصفاً للرجل؟"

"يعاني الرجل من وجود بعض الثغرات في ذاكرته، لكنّ مساعدي تمكن من حمله على القول إن هيلمز كان رجلاً طويلاً ومضطرباً وأشقر الشعر، ومحباً للمشروب الرديء النوع".

"تناسب هذه المواصفات مع ما يتذكّره طبيب الأسنان عنه. متى جرى اللقاء الأخير بين ذلك الرجل، وهيلمز؟"

"تبدو رواية الرجل متماسكة في هذه النقطة. يقول إن اللقاء جرى عندما انهار المبنى".

فكرت للحظة: "أتعني اليرجين التوأمين؟"

تنحّج غوليت: "حدث ذلك يوم الحادي عشر من أيلول (سبتمبر). ويقول إنه راقب مع هيلمز التغطية التلفزيونية للحدث في إحدى الحانات الموجودة قرب الميناء. يدّعي الرجل أنه لم ير هيلمز بعد ذلك... أصغني إليّ جيداً. قمت بعمل رائع فيما خصّ مونتاغيو وهيلمز، لكنني سأطلب منك الآن أن لا تتدخل في موضوع العيادة. لا أريد إثارة الكلاب إلا إذا كانت لدينا قضية".

"عن أية قضية تتحدّث؟"

مرّت فترة صمت طويلة.

"قضية المريضين".

"لا تقل لي...".

"إنني لا أضع أية أدلة بين يديك. انسحي الآن يا دكتورة، لأن العيادة لا تقع ضمن منطقة صلاحياتي. يتعين عليّ تقديم دليل لشرطة المدينة إذا كنت أعترم التدخل".

"تبين أن كروكشنك، وهيلمز، ومونتاغيو، ماتوا جميعاً في منطقة صلاحياتك".

لم يقل غوليت شيئاً. إنه بالطبع يعرف هذا، لكنني أردت مع ذلك أن أبرز وجهة نظري: "هل تقول لي إن دائرتك ستمكن من التحقيق مع مارشال، وموظفيه، إذا وجدت علاقة ما بين شخصٍ مفقودٍ آخر، وبين العيادة؟ أم هل ستجعل شرطة المدينة تقوم بهذا؟"

"تمتلكين، لحدّ الآن، موظفةً غاضبةً قد تكون هربت، ورجل التحري الذي استأجره والدها ليجدها. إن ذلك لا يكفي، لكن إذا اكتشفت فقدان مريضٍ آخر، فستحصلين على انتباهي الكامل. سأقول لك شيئاً آخر، امتلكت جهاز الحاسوب الممول لذلك التحري مدة كافية. أريد استرجاع ذلك الجهاز في صباح يوم الثلاثاء".

سمعت نغمة الخط الهاتفي.

استمع بيّتي ورايان إلى الجزء الذي تكلمته أنا من المحادثة، وأبلغتهم بما قاله غوليت.

سأل بيّتي: "لماذا يهتمّ الشريف بموضوع هذه العيادة؟"

قال رايان: "يدهشني غوليت لأنه ينتمي إلى أولئك الذين يطبقون القانون بشكل حربي. إنه لا يسمح بدخول منزل ما من دون تفويض حكومي. وإذا لم يجد دليل إدانة، فلا يعطي تفويضاً على الإطلاق".

قلتُ: "أو إنه على علاقة حميمة مع هيرون".

قال بيّتي: "لربما كانت كنيسة رحمة الله هي المساهمة الرئيسية في حملة غوليت الانتخابية".

فكرت أنه ربما يكون هذا صحيحاً، وقد يكون أحد المواطنين النافذين يمارس ضغطاً على الشريف.

أحضرت الصندوق الذي يحتوي على ملفات كروكشنيك ووضعت على الطاولة بعد إزالة الأطباق عنها. أسرع بيّتي بأخذ ملف هيلين، واسترخى على الأريكة. أطلعت رايان على الملف الذي حضرته في حاسوبي المحمول، بينما راح بويد يتقلّب ما بين المطبخ، والمكان المخصص له. وفضل بيردي أن يبقى مطلاً من مكانه من فوق الثلاجة حيث الحرارة تقلّ عن الصفر.

أضفت أونيفغ مونتاغيو وويلي هيلمز إلى الملف، ثم تناولت قضايا كروكشنيك التي عمل بها من دون تكليف من أحد.

قلتُ: "لا يحتوي ملفاً هيلمز ومونتاغيو إلاّ على ملاحظات فقط".

ألقي رايان نظرة على الملفين.

"وتحتوي ملفات أخرى على قصاصات صحف وملاحظات".

فتحت ملف لوي آيكمان، ثم تفحصت مع رايان مقالة وينورن.

تأمل رايان لبرهة: "يعتقد كوشارسكي باحتمال أن يكون هيلمز مصاباً بمتلازمة توريت".

"تتوافق العوارض مع أوصافه".

"ويرجح هذا إمكانية خضوعه لعلاج طبي".

"قد يكون الأمر كذلك".

لاحظ رايان: "كان آيكمان مصاباً بانفصام في الشخصية، ويخضع للعلاج".

"هكذا تقول المقالة".

"تناول أدوية بناءً على وصفة طبيب".

فهمت ما قصده رايان: "أعتقد باحتمال أن يكون هيلمز أو آيكمان قد

تلقيوا العلاج في العيادة التي تشرف عليها كنيسة رحمة الله؟"

"إنه أمر يستدعي المزيد من التفكير، لأننا اعتقدنا أن ويلي هيلمز كان يتردد

على العيادة، لكننا استبعدنا الأمر لاحقاً".

لم أكن أصغي في الواقع، بل رححت أتذكر. إنه شخص مفقود آخر، ومقالة أخرى. إنها جثة أخرى انتشلها غطاس وسط عاصفة. ما هو اسمه يا ترى؟

تناولت الأوراق التي أخذت منها معلومات الملف الذي أعدته، ورححت أقلب الصفحات. رفر ف مستطيل صغير على سطح الطاولة، حمل هذا المستطيل قصاصة من عدد بوست وكورييه، الصادر نهار الجمعة، في التاسع عشر من شهر أيار (مايو).

قرأت بصوت عال، مكنيةً بإسماع رايان النقاط البارزة.

قلت: "يلغ جيمي راي تيل السابعة والأربعين من عمره، وهو رجل اختفى في الثامن من أيار (مايو). شوهد آخر مرة مغادراً شقة شقيقه الكائنة في شارع جاكسون، وقيل إنه توجه حينها لموعد طبي".

ابتعدت عن الطاولة، وتناولت دليل هاتف، ورححت أقلب الصفحات التي تحتوي على أسماء الذين تبدأ أسماء عائلاتهم بحرف "التاء". وجدت اسم نيلسون تيل في جاكسون. طلبت الرقم الذي وجدته. سمعت عشر رنات على الطرف الآخر. طلبت الرقم مرة أخرى، وحصلت على النتيجة نفسها.

تبادلتُ ورايان النظرات.

قال رايان: "تعيش والدة آيكمان في جبل بلازانت".

عدت إلى دليل الهاتف مجدداً.

"لا يوجد اسم آيكمان في جبل بلازانت، لكنني وجدت اسم شخص يعيش في جزيرة النخيل. وهناك شخص آخر يعيش في مونكس كورنر، وشخصان آخران في تشارلستون".

تولّى رايان الاتصال بالأشخاص الذين يسكنون في الضواحي، بينما تولّيت الاتصال بالساكين في مدينة تشارلستون نفسها. ذهشت عندما تلقيت ردوداً من الجميع، لكنني أسفت لأن أحداً منهم لم يعرف، أو يسمع بلووي أو والدته.

قلت: "سبق لي أن التقيت بالصحافي".

"هل لديك رقمه؟"

تنقلت بين أرقام هواتف المكالمات التي تلقيتها. ووجدت أن رقم وينبورن ما زال محفوظاً عندي. بدا لي أن الاتصال به هو فكرة ضرورية لا بد منها، لكن ذلك المغفل لم يدون أي شيء عن كروكشنك.

نظرت إلى ساعتي التي أشارت عقاربها إلى العاشرة وسبع دقائق. أخذت نفساً عميقاً وطلبت الرقم.
"وينبورن".

جاء الصوت متقطعاً، وكأن الكلمة خرجت من بين قطع كاراميل نصف ممضوغة.

"أنا الدكتورة برينان".

"انتظري قليلاً".

سمعت خشخشة، ثم سمعت صوت البلع.

"حسناً. هاتي ما عندك".

كررت اسمي.

سمعت صوت قرقعة، ثم المزيد من صوت المضغ: "هل أنت السيدة التي أشرفت على موقع التنقيب في دي ويز؟"
"نعم".

بدا بلانكتون مزعجاً على الهاتف مثلما هو مزعج بشخصه: "هل حصلت على أكثر ما راهنت عليه، يا دكتورة؟"

"كتبت، يا سيد وينبورن، مقالة في عدد آذار (مارس) الماضي في صحيفة أخبار مولشري. وتحدثت هذه المقالة عن اختفاء رجل يدعى لوني آيكمان في عام 2004".

"أستغرب هذا الأمر. هل من المعقول أن تقرأ الحساء مقالتي؟"

عندها قاومت الحساء دافعاً لقطع الاتصال.

"هل لي أن أسأل لماذا كتبت مقالة عن اختفاء آيكمان بعد مرور وقت طويل على اختفائه؟"

"هل تتصلين بي لتخبريني أن ذلك الهيكل العظمي يخصّ لوني المسكين؟"

"لا. لا أتصل لهذا السبب".

"لكن الهيكل هو هيكله، أليس كذلك؟"

"لا".

"يا لهذه التفاهة".

انتظرت قليلاً.

"هل ما تزالين على الخط؟"

"نعم، ما زلتُ على الخط".

"أليست الجثة في دي ويز هي جثة آيكمان؟"

"لا تخصّ تلك البقايا لوني آيكمان".

"لكنك تعرفين هوية صاحبها".

"لست مخولة للإفصاح عن هذه المعلومة يا سيد وينبورن، لكنني أريد أن

أعرف سبب اهتمامك بلوني آيكمان".

خرجت الكلمات من فمه وكأنها ممضوغة: "أعتقد أنك تعرفين التقليد المتبع.

تعطيني معلومة من عندك، وأعطيك معلومة من عندي. أشعر، فجأة، برغبة شديدة

للحصول على معلومات".

ترددت قليلاً وأنا أفكّر بالمعلومات التي يجدر بي أن أعطيها لذلك المخلوق

الذي ينتمي للزواحف.

"تمكّنا من تحديد هوية الرجل الذي اكتشفناه في دي ويز بصورة قاطعة،

وذلك عن طريق سجلات الأسنان. لا أملك صلاحية الإفصاح عن اسمه، لكنني

أعدك أن أفنح المحققة الجنائية بإعطائك هذا الاسم بعد أن يجري إعلام أقربائه".

"هل هذا كل شيء؟"

"أعدك أيضاً أنه إذا تبين أن ذلك الهيكل في دي ويز يصلح أن يكون من

ضمن الأخبار العاجلة...".

"هل قلت، فعلاً، الأخبار العاجلة على شاشات التلفزة؟ مثل شبكة سي. أن.

أن؟ وهل أستطيع أن أظهر قليلاً في برنامج أندرسون كوبر؟ أتعتقدين أن وولف

سيدعوني إلى برنامج سيتيوايشن روم؟"

"سيد وينبورن، أنا...".

"الأخبار العاجلة! أعتقد أنني سأطير فرحاً".

جعلتني ثرثرة وينبورن أشعر بالعصبية.

"أرغب، بكل بساطة، أن أعرف ما جمعتَه عن لوني آيكمان من معلومات".

"لماذا؟"

قلت بصوت حائق: "قد تفيدنا هذه المعلومات في التحقيق بقضية وفاة".

"وفاة من؟"

"لا أستطيع أن أخبرك".

"وما هو دور كروكشك هنا؟"

"ماذا؟"

"وجد ذلك المحقق الخاص معلقاً في متنزه فرانسيس ماريون. ما هو دوره؟"

"جاء في تقريرك أن والدة آيكمان تعيش في جبل بلازانت، ومع ذلك لم أجد

اسمها في الدليل".

"وماذا بشأن كروكشك؟"

لم أستطع الوصول إلى شيء مع هذا الجدل، لذلك شعرت أن الوقت قد

حان لأعطيه شيئاً.

"يُنظر إلى وفاة كروكشك باعتبارها انتحاراً محتملاً".

"محتمل؟"

"ما يزال التحقيق الذي تجريه المحققة الجنائية مستمراً".

"وما هي الأشياء التي كان كروكشك يبحث عنها؟"

"تخصَّص كروكشك بالبحث عن الأشخاص المفقودين".

"أتعنين أشخاصاً مثل لوني آيكمان؟"

"لا أملك سبباً يجعلني أشك بأن وفاة كروكشك ترتبط باختفاء لوني

آيكمان. جاء دوري، يا سيد وينبورن، للحصول على شيء منك".

"نعم، هذا حقك. تزوجت سوزي آيكمان مرة ثانية. تجدين رقم هاتفها

تحت اسم عائلة زوجها الجديد".

"أيمكنك أن تعطيني رقمها؟"

"كيف تطلبين مني هذه المعلومة يا دكتورة؟ إذا أعطيتك إياها، فمعنى هذا أنني أخون الثقة، وسأعرض المخير لأشياء لا يعلمها إلا الله".

أطبقت فكيّ بتوتر: "هل تستطيع الاتصال بالسيدة آيكمان وتطلب منها الاتصال بي؟"

"بالتأكيد يا دكتورة. إننا نسير حسب الاتفاق، ألا تعتقدين ذلك؟"

اتصل بي مجدداً بعد مرور عشرين دقيقة.

"انُشلت سيارة من قاع نهر صغير بمحاذاة الطريق السريع رقم 176، إلى الشمال الغربي من "غووز كريك". اكتشفت الشرطة أن سيدةً كانت تقود السيارة".

بدا وينورن مرتجفاً.

"ماتت سوزي روث آيكمان".

27

"لم يجد رجال الشرطة في مكان الحادث دلائل على أية تلاعبات مشبوهة، وافترضوا أن سوزي روث قد غفت، أو شردت، فالتحرفت خارج الطريق."
"كم كان عمرها؟"

فقد صوت وينبورن كل بجمته السابقة: "كانت في الثانية والسبعين من عمرها".

"هل كانت مريضة؟ هل عانت من أزمات قلبية؟ أو من خيلٍ ما؟"
بدأ عقلي بالتساؤل. إن حادث سير غامضاً، يذهب ضحيته شخص ما، لا بد أن يستدعي اهتمام المحققة الجنائية. وجدت جثة سوزي روث آيكمان نهار الخميس، وأنا تواجدتُ مع إيما طيلة ذلك النهار. لماذا لم تذكر لي شيئاً عن وفاة تلك المرأة العجوز؟ هل كانت مريضةً جداً؟ هل نسيت؟ أو هل اعتبرت الأمر غير ذي صلة؟

تردد وينبورن قليلاً، وكأنه كان يفكر في مقدار المعلومات التي سيعطيني إياها، وتلك التي سيحجبها عني: "اسمعي، لم أندخل هكذا لأفسد عملك في تلك الحفرة، لأن تدخلتي كان الفكرة اللامعة لمحرر صحفي، إلى أن وجدت تلك العظام... كنت أبحث عن شيء ما خلال الشهرين الماضيين وحتى الآن".
انتظرت فترة طويلة أخرى.

"لا أريد التحدث عن هذه المسألة عبر الهاتف. التقيني غداً".

"أخبرني متى وأين".

"سئلتني أمام الكنيسة الموحدة (التي تقول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح) عند زاوية كليفورد وآركدايل. اتبعي الممر المرصوف بالأحجار القرميدية حتى تصلي إلى ممر يوصل إلى كينغ. سأكون هناك عند الساعة التاسعة، وسأنتظرك عشر دقائق فقط".

"هل آتي لوحدي وأرتدي ثياباً سوداء؟"

"أجل. تعالي وحدك، ويمكنك ارتداء ما تشائين من ملابس".

سمعت نعمة خط الهاتف مجدداً. اعتدت مؤخراً على سماع تلك النعمة.

أخبرت رايان أثناء استعدادي للنوم بموعدي المرتقب مع وينبورن.

"هل تريدان أن أعلق علماً على الشرفة؟"

قلت موافقةً: "أوه، نعم. افعل ذلك يا صاحب الدهاء".

تناول رايان قطعة من ثيابي، ورماها على الأرض.

مررت عند التاسعة من صباح اليوم التالي أمام بوابات الكنيسة الموحدة، بينما انتظرني رايان في كنيسة القديس يوحنا اللوثرية. تناهت إلى سماعي أصوات أجراس الكاندرائية المعمدانية، وكنائس عمانوئيل آي. أم. إي، والميثودية المتحدة المقدسة، والأسقفية، وكنيسة الأسكتلنديين الأوائل المشيخية. أعتقد في الواقع أنه ليس من العجيب أن يُطلق لقب المدينة المقدسة على تشارلستون.

بدأت باحة الكنيسة الموحدة مثل دفيئة قاتلة. امتدّت صفوف من الأشجار المورقة والخضراء اللون على جانبي الممر، وتمايلت نباتات الآس العطرية، والجنبة الاستوائية، وزنابق النهار في الأرض المخصصة للمدافن.

تواجد وينبورن في المكان الذي وصفه تماماً. لاحظت أن الظلال التي تشكلت عند الساعة الخامسة جعلت وجهه يشبه منفضة سجائر غير نظيفة. ما هو تخميني؟ يبدو بلانكتون غير حليق الذقن حتى بعد أن ينتهي من الحلقة.

راقبني وينبورن أثناء اقترابي منه، ولاحظت أن ابتسامته حذرة قد ارتسمت على شفثيه.

"صباح الخير".

فكّرت في أنه من الأفضل لي أن أطلع بنتيجة من هذا اللقاء، وأجبتُ بكل حذر: "صباح الخير".

"اسمعي، لقد افترضنا وجود الشخص الخطأ...".

"سأكون شاكرة لك إذا لم تتحدّث عن قصة كروكشنيك".

"أخفى محرر الصحيفة هذه المقالة".

كان عليّ أن أعرف: "ماذا عندك لتخبرني به".

"إنني أتحقّق من شيء ما".

"قلت لي هذا الليلة الفائتة".

نظر وينبورن من فوق كتفه: "هناك شيء قدّر يجري في هذه المدينة".

هل فعلاً قال ذلك المغفل الصغير: شيء قدّر يجري في هذه المدينة؟

"بماذا كنت تحقّق يا سيد وينبورن؟"

"إنني أحقّق بشأن كروكشنيك. سبق لي وأبلغتكَ ذلك، لكن ما لم أقله لك هو أن المقالة التي ظهرت في شهر آذار (مارس) حول لوني آيكمان، لم تكن المقالة الأولى عنه. كتبت مقالة أخرى في بداية اختفاء ذلك الرجل، أي في العام 2004. اكتشف كروكشنيك القصة، ولاحقني".

أردت أن أسأله كيف عرف هوية كروكشنيك، لكنني أجلت طرح هذا السؤال حتى وقت لاحق: "هل التقيت كروكشنيك؟ ومتى؟"

"التقيت كروكشنيك في آذار (مارس) الفائت عندما جاء يسأل عن لوني آيكمان. تعرفيني جيداً، أريد أن أعرف السبب أولاً، لكن كروكشنيك لم يتراجع، وهكذا اضطررت إلى استخدام قوى الإقناع التي أتمتّع بها".

"إنه مبدأ أخذ مني وأعطيني".

طرق وينبورن إصبعاً على إحدى جهتي أنفه: "إنه عنوان اللعبة. أمتلك أنفاً فاعلاً. أستطيع أن أميّز وجود المحقّق الخاص عندما يلاحق قضية ما. اعتقدت أن هناك قصة ما، فبدأت بالبحث في ذات الثغرة التي يبحث كروكشنيك فيها".

مرّ رجل مسنّ بتناقل بالقرب منا، وهمهم بتحيةٍ أثناء مروره. أو مانا كلانا. راقب وينبورن الرجل في طريق عودته، وبدا مثل رجلٍ نباتي (حسب الأظعمة التي يتناولها) في فناء واسع.

"أبلغني كروكشك أنك يبحث عن امرأة لها علاقة بالكنيسة، أو ربما تكون موظفة في عيادة طبية، أو عن شخص فقد منذ الخريف الماضي. أضاف أنه يعتقد أنها تعرف آيكمان. أخبرته، في المقابل، عن لوني، لكنني كنت متشككاً. أتعرفين لماذا؟ اختفى لوني في عام 2004، فكيف يمكن لهذه الحسنة أن تعرفه؟ لاحقته لهذا السبب، لكنني كنت متأكداً من أن كروكشك لا يقصد الأماكن التي تقصدها راهبة".

"وماذا يعني ذلك؟"

"ظهر في إحدى الليالي في حانة تقع في شارع كينغ. إنها إحدى الحانات الرخيصة. رأيت في الليلة التالية يطوف ببعض الحانات الأخرى، ولاحظت أنه يداعب الفتيات العاملات فيها، هذا إذا فهمت ما أقصده".

لم يكن ما سمعته منطقياً. أعرف أن وظيفة كروكشك كانت إيجاد هيلين فلين. فهل كان يعمل على إيجادها بالفعل؟ أم أنه كان يلهو فحسب؟

سألته: "كيف عرفت أن كروكشك كان يقوم بمهمة؟"

هزّ وينبورن كتفيه.

"هل واجهته؟"

خفض وينبورن بصره نحو الأسفل، ثم رجع به إلى نقطة ما فوق كتفي: "رأيت في الليلة الثالثة".

استطعت أن أتخيّل المشهد. تحلّت وينبورن حاملاً آلة تصويره النيكون، وكروكشك يهدّد بسحفه.

"حافظت على برودة أعصابي حينها، وأبلغته أنني أعتقد أنه يخدعني، وقلت له إنني سأبقى في إثره حتى يُخبرني الحقيقة".

حاولت شرح الأمر: "طلب منك كروكشك الانصراف قبل استخدام القوة معك".

"حسناً. تراجع. وماذا في ذلك؟ هل التقيت بذلك المتفاحر؟"
اضطرت للاعتراف أنه سبق لي أن رأيت صورة كروكشك. بدا الرجل
نحياً ودينياً، مع أنه لا يوحى بأنه قوي جداً. أعتقد أنه كان سيرعيني أنا الأخرى.
"ومتى حدث ذلك؟"

"جرى هذا في التاسع عشر من شهر آذار (مارس)."
سألته: "ماذا أخبرت كروكشك عن لوني آيكمان؟"
"أبلغته ما أخبرتني إياه أمه. قلت له إن الرجل غريب بعض الشيء، وهو
يعتقد أن عملاء حكوميين قد زرعوا جهازاً ما في دماغه. اعتاد الرجل أن يرسل
بريداً إلكترونياً لمجموعة واسعة من الناس، بدءاً من الذين يلتقطون الكلاب الشاردة
ووصولاً إلى جورج دبليو. يبلغ الرجل الرابعة والثلاثين من العمر، وهو عاطل عن
العمل، ويعيش مع والدته، وهي بالمناسبة امرأة لطيفة."
"وصفت آيكمان في مقالتك على أنه يعاني من انفصام في الشخصية. هل
كان يتناول أدوية؟"

"كان يتناول الأدوية بين الحين والآخر. تعرفين كيف تجري هذه الأمور."

"هل تعرف أين كان يتعالج؟"

"لم نتحدث عن هذا الموضوع مطلقاً."

"ألم تسأل؟"

وضع وينبورن ذراعيه المكسوتين بالشعر بشكل متقاطع على صدره العريض:
"لم أعتبر أن هذه المسألة مهمة. عملت سوزي روث طيلة حياتها في معمل خياطة،
وأعتقد أن لديها بوليصة تأمين تستطيع معها الإنفاق عليه بسبب إعاقته."

"هل كانت ما تزال موظفة حينما اختفى لوني؟"

بحث وينبورن في جيبه الخلفي، وتناول منه نسخة عن مقاله التي كتبها في
عام 2004 وناولني إياها: "تقاعدت منذ سنوات عديدة... هذا هو ابن الوالدة
آيكمان الصغير."

لم تشتمل المقالة على أي شيء غير الذي ظهر في مقاله التالية، لكن الصورة
هي التي استرعت انتباهي.

سألته: "كم مضى من الوقت على التقاط هذه الصورة؟"
"وقع الرجل في وهم أن عملاء وكالة المخابرات المركزية يراقبون دماغه. لم
يسمح لأحد بالتقاط صورة له، وذهب إلى حدّ التخلص من كل صورة قديمة له
يجدها في المنزل. نسخت هذه عن صورة مدرسية أخذتها سوزي روث جيداً".
شك وينبورن أصابع يديه: "والآن أعطيني ما عندك. ما هي قصة
كروكشنك؟"

انتقيت كلماتي بعناية: "يظهر من ملفات كروكشنك أنه كان يبحث عن
أشخاص مفقودين في منطقة تشارلستون. كان بعض هؤلاء من المدمنين، أو
يعملون في البغاء، لكن آخرين لم يكونوا كذلك".
بدا وينبورن مثل مالكة كليبترا السابقة: "يختفي البغاء ومدمنو المخدرات
بشكل دائم. أعطيني اسماً معروفاً".

تناولت ورقة من حقيبي، وقرأت الأسماء التي نقلتها عن ملفي في جهاز
الحاسوب، لكنني أغفلت ذكر أونيف مونتاغيو وويلي هيلمز: "روز ماري مون.
روي آن واتلي. هارمون بون. باركر إثيريدج. دانيال سنايب. جيمي راي تيل.
ماثيو سمرفيلد".

"وماذا بشأن السيدة التي كانت تردّد على الكنيسة. هل تقولين لي اسمها
بجدداً؟"

"هيلين فلين".

"أعتقد أنّها كانت إحدى الفدائيات التي تحاول إنقاذ كل شخص في هذا
العالم من الذهاب إلى جهنم، صحيح؟"
"كانت تعمل في كنيسة رحمة الله".

"أعتقد أن المسيحيين يتعذبون كثيراً في زحفهم هذا، إن كان يهملك سماع
رأيي. حصل جيمي راي تيل، وابن عضو المجلس البلدي، ماثيو سمرفيلد، على
كثير من التغطية الإعلامية مؤخراً، ولهذا السبب أعرف أسماءهم. أما
الباقيون...".

هزّ وينبورن كتفيه، وزمّ شفّتيه.

قدّمت له الورقة التي كتبت عليها الأسماء: "هل تتذكّر تفاصيل أخرى عن آيكمان؟"

"لم أكن متأكداً عندها أنها ستصبح قصة العام".

اندفعتُ بالسؤال: "هل سبق لك وسمعت عن رجل يدعى تشستر بينكني؟"
هز وينبورن رأسه: "لماذا؟"

لم أخبره أن محفظة بينكني وُجدت في سترّة كروكشك: "هناك احتمال أن يكون كروكشك قد عرفه".

رحتُ أسأله لماذا استدعت هذه المحادثة هذا الاجتماع الغريب: "اتصل بي إذا تذكّرت أشياء أخرى".

سرت خطوتين في الطريق قبل أن يوقفني صوت وينبورن.
"أغفل كروكشك شيئاً".

استدرت.

"قال لي إنه عثر على أمرٍ يتعلّق عاملة مفقودة من الكنيسة".
"ماذا تعني؟"

"لا أعرف شيئاً بالتحديد، لكن أليس من الغريب أن يُعثر على كروكشك متديلاً من شجرة؟"

تطلع وينبورن من وراء كتفه مجدداً: "والآن وُجدت سوزي روث ميتة في سيارتها".

أسرعت بتشغيل جهاز الحاسوب المحمول فور وصولي إلى المنزل برفقة رايان. فتحت الملف الذي احتفظت فيه بصور القرص المدمج الذي أعدّه كروكشك. انضمّ إلينا بيتي أثناء استعراضنا للصور الرقمية. شعرت بوجودهما على جانبي، وكأنيهما وعلان مشاكسان على طريق جبلي ضيق.

حملت صوراً قليلةً فقط شبيهاً غير واضح مع لوي آيكمان، وفشلت في العثور على شبيه واضح له من بين الداخلين، أو الخارجين من العيادة. التقت الصور التي قدّمتها سوزي روث قبل خمس عشرة سنة، ولاحظتُ ضياع الكثير من

التفاصيل في نسخة وينورن المصورة. لاحظت أيضاً أن الكثيرين من الأشخاص الذين يظهرون في صور كروكشنيك ينظرون بعيداً عن الكاميرا، لكن هذه الصور تصبح غير واضحة عند تكبيرها.

تبادل بيتي ورايان عبارات التهكم أثناء استعراضني للصور، لكنهما لم يتخليا عن نبرة الاحترام في صوتيهما. شعرت بالتعب من مبارزتهما بعد مرور ساعة من الزمن، فغادرت إلى غرفتي كي أحاول الاتصال برقم نيلسون تيل مجدداً. وفشلت محاولتي هذه.

حضر بيتي بعض الشطائر (السندويشات) أثناء غيابي، بينما اتصل رايان بابنته ليلي. استمر هاتف ابنته بتجاهل مكالمته، لكن اتصاله مع لوتشيتا أكد له أن ليلي بخير، لكنها ما تزال ترفض الاتصال بوالدها.

اجتمعنا عند الظهيرة في المطبخ، فبدأ الكر والفر الذهنيان عند الرجلين من جديد. سممت أثناء تناولنا للغداء من هذا الوضع.

"تصرفان وكأنكما رجلان هاريان من إصلاحية للأحداث".

تحول الوجهان إلى قمة البراءة.

تعبت أعصابي من جو التشاحن المستمر بينهما، ولم أصدق نفسي حينما قلت لهما: "ما رأيكما لو نأخذ إجازة. إنها عطلة نهاية الأسبوع، وأعتقد أن تمضية بعض الوقت في الهواء الطلق ستعطينا بعض الانتعاش".

"تستطيع أن تلعب الغولف يا بيتي لبعض الوقت، أما أنت يا رايان فتعال معي لتوجه إلى المدينة كي نحتجز إيما لتمضي معنا يوماً على الشاطئ".

لم يعترض أي من الرجلين.

استغرقت عملية إقناع إيما عشرين دقيقة من الجدل، لكنها استسلمت أخيراً.

تألفت الشمس بحرارة لاهبة، وبدت السماء بلون الخزف الأزرق، لكن لم نلاحظ أية غيمة على صفحتها. وجدنا أن عشاق الشمس الذين يمضون عطلتهم على الشاطئ قد بدأوا نشاطهم، واستسلموا لحروق الشمس وهم مستلقون فوق مناشفهم، أو على مقاعد البحر، ولم يهتموا للأذى الذي يصيب بشراتهم.

تبادلْتُ وإيما الاستلقاء على مفارش هوائية، والمشي على الشاطئ، واستمتعتنا بالموج الذي يداعب كواحلنا. وانصرفت أسراب البجع فوقنا بتشكيل مساراتها. راقبنا أحد أفراد السرب وهو يضمّ جناحيه، ويقوم بعملية هبوط باتجاه البحر. استطاعت بعض الطيور المحظوظة العوم مع سمكة في مناقيرها، ورأينا المياه تنحدر عن جانبي مناقير غير المحظوظين منها.

أخبرت إيما أثناء المشي معها عن تفاصيل محادثتي مع غوليت ووينبورن، وسألته إن كنت أستطيع العمل في المشرحة في الصباح. أكدت لي إيما أنها سترتب مسألة الإذن مجدداً. شعرت بدافع في داخلي كي أسألها عن سوزي روث آيكمان، لكنني لم أفعل ذلك. لم أستوضحها كذلك عن ضحية تلك الرحلة البحرية التي قرأت عنها في المقالة التي كتبها وينبورن عن آيكمان.

أمضى رايان الوقت وهو يقرأ رواية للكاتبة بات كونروي أثناء استلقائه في ظل مظلة ضخمة استطعنا أخذها من منزل آن. قام رايان بين الحين والآخر بالسباحة على طريقة الزحف، وأحياناً أخرى على الطريقة الفرنسية - الكندية، والتي تتميز بالتجذيف إلى الوراء، ليعود بعد ذلك إلى تخفيف نفسه ووضع بعض الزيت على جسمه قبل أن يعود للاسترخاء في مقعده.

عدنا إلى منزل البحر على امتداد أميال، ولاحظت أن لون إيما عاد إلى طبيعته، أما لون رايان فتغير من الأبيض إلى الزهري.

استحممت، وتوجهنا نحن الثلاثة إلى مطعم ملفين للحصول على بعض الشواء. اصطحبت إيما إلى منزلها برفقة رايان. قضينا جميعاً مساءً مريحاً وهدأً ومرحاً.

جاءت هذه النزهة في وقتها المناسب، لأنني اضطررت بعد ذلك لمواجهة تأنيب غوليت الذي لم يابه بكون اليوم هو يوم عطلة نهاية الأسبوع.

اتجهتُ ورايان إلى مستشفى MUSC عند الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي. بدا رايان مرتاحاً للمرة الأولى منذ وصوله إلى تشارلستون، ولربما يعود ذلك إلى محادثة هاتفية أخرى أجراها مع والدته ليلي. وافقت ليلي على التحدث مع أخصائي آخر بالرغم من أنها ما تزال غاضبة منه، وتتصرف معه بعدائية. وعلم رايان أن لوتشيتا ترتب سلسلة من المواعيد مع الأخصائي الجديد.

هل تعود حالته هذه إلى سفعة الشمس، أم للوقت الحميم الذي قضيناه بعد تناول المشاوي. بدا رايان أقل توتراً بغض النظر عن الأسباب.

التقتنا لي آن ميلر عند باب المشرحة. سمعت منها نفس التعليقات، التي سبق لرايان أن وجهها لي في الصباح، بخصوص الكدمة المتعددة الألوان الموجودة على ذراعسي. انصرفت بعدها لتحضر السيدة التي كانت في البرميل من البراد. حاولت الاتصال مجدداً في غيابها مع نيلسون تيل. وجدت الخط مشغولاً هذه المرة.

اعتبرت ذلك تقدماً محتملاً. إن إشارة الخط المشغول تدلّ على أن أحداً ما يتواجد في المنزل، إلا إذا كانت مكالمة آتية أخرى هي التي تشغل الخط.

انصرفت ميلر إلى أعمالها المكتبية بعد أن أحضرت بقايا المرأة إلى غرفة التشريح. استرخى رايان على مقعد، وانصرف لمتابعة قراءة كتاب كونروي.

وضعت قفازين في يديّ، ثم أخرجت الهيكل العظمي. شعرت بدافع كي أبدأ مباشرةً بالفقرات العنقية، وذلك بفضل تجربتي السابقة مع كروكشك وهيلمز.

فضّلت أخيراً أن أتبع البروتوكول الذي يفرض البدء من الرأس باتجاه القدمين،
وفحص كل عظمة تحت العدسة المكبرة.

لم ألاحظ علامات تدلّ على العنف في الجمجمة، وكذلك بقي الفك سليماً.
لم أجد شيئاً على اليدين، وأيضاً على عظام الذراعين والكتفين. وبقيت عظام
القفس الصدري (الصدر)، والفقرات العنقية العليا سليمة.
بعدها تعيّر كل شيء.

شعرت برعب بارد في داخلي. قلت لرايان: "انظر إلى هذه".
نظر رايان في عدسة المجهر.

"إنك تتطلع على التواء المستعرض الأيسر للفقرة C-6. لاحظ أن الكسور
تشبه تلك التي وجدتها عند هيلمز وكروكشنيك. تتواجد هذه الكسور في نفس
الفقرة، ونفس الجهة".

"هل توجد كسور في العظمة اللامية؟"

أشار رايان إلى إحدى عظام الرقبة التي تأخذ شكل الحرف U، والتي عادة ما
تنكسر أثناء الخنق اليدوي.
"لا".

انتصب رايان في وقفته: "هل الكسور ناتجة عن عملية شنق؟"
"تنحصر الكسور في جهة واحدة".

تابع رايان تفحص نفس قائمة الاحتمالات التي اتبعتها: "هل هي ناتجة عن
شدّ مفاجئ؟"

أشرت إلى كسر مفصلي عمودي ظهر على الصفيحة الأمامية للنتوء
المستعرض: "ربما. تنطلق من هنا العضلة العنقية الأمامية".

حركت طرف قلبي نحو التواء العظمي الموجود إلى جانب الكسر: "يدعى
هذا التواء" الدرينة السباتية"، لأنها نقطة الضغط للشريان السباتي. ويتسبب الشد
المفاجئ بانضغاط الغمد السباتي. وإذا كان الانضغاط قوياً بما يكفي فيمكنه منع
سريان الدم من وإلى الدماغ، ويُحتمل أن يتسبب هذا الوضع بالموت".

"هل حدث ذلك بسبب وضعية نيلسون؟"

أشار رايان إلى وضعية حركة في المصارعة، حيث يقوم أحد المتصارعين بإدخال ذراعه تحت إبط خصمه من الخلف، ويضغط بها على منطقة خلف الرقبة.

رفعت راحتي يديّ نتيجة الإحباط. فكّرت بهذا منذ رؤيتي للكسور للمرة الأولى على فقرة ويلي هيلمز العنقية، لكنني لم أتوصّل إلى نتيجة.

"أتفهم فيزيولوجية الإصابة، لكن الآلية هي التي تحيّرنني. يوحى الكسر المفصلي باستخدام الكثير من القوة. إن الشدّ القوي بما يكفي على الظهر، والشد بالاتجاه العرضي للرأس، على عضلات العنق المتقلصة، عادة ما يؤديان إلى تمزّق، أو تخلخل الدرنات الأمامية لل فقرات الرابعة والخامسة والسادسة. كيف يمكن لهذه القوة الكبيرة أن تُستخدم، وتنكسر مع ذلك عظمة واحدة فقط؟"

أرسل رايان باتجاهي إشارة معناها است أدري، ثم عاد لقراءة روايته. عدت باهتمامي إلى العظام.

مضت دقائق قليلة قبل أن أكتشف الشق الأول في العظمة L-3 المجاورة لمنطقة البطن. لاحظت أن هذه الحالة تشبه تلك الموجودة عند هيلمز. امتدّ الرعب الآن إلى صدري، لكنني تابعت فحصي.

استغرق الأمر أقل من ساعة. لحّصت النتيجة لرايان عندما انتهيت، وأشرت بقلمي على كل منطقة من مناطق الإصابة.

"لدينا هنا كسر مفصلي في التواء المستعرض الأيسر من الفقرة العنقية رقم C-6. ويوجد ما مجموعه ثمانية شقوق (أو حزوز) على أسطح فقرات الخاصرة الثانية، والثالثة والرابعة. هذا هو كل شيء. لم ألاحظ أذى غير هذا في الهيكل."

سأل رايان: "أعتقد أنهما طعنّت في البطن؟"

"لو كان في الأمر طعنة، لكان العمود الفقري قد تحرك، وكان النصل اخترق بطنها كله كي يجرح جوانبها الأمامية."

"ألديك فكرة عن نوع الأداة المستخدمة؟"

"لاحظت أن الشقوق رفيعة جداً، وتأخذ شكل الحرف V في مقطعها العرضي، وتتميز بجواف نظيفة من دون وجود علامات أخرى. أستطيع أن أقول إنها نتيجة استخدام نصل حاد جداً غير مستن".

"هل من جروح نتيجة الدفاع عن النفس؟"

هزرت رأسي: "إن عظام اليدين وأسفل اليدين غير مصابة".

"وهكذا تميز كروكشنك بوجود الفقرات العنقية المكسورة، من دون وجود حروز أخرى، لكن هيلمز ومونتاغيو لديهما الكسور والحروز معاً".

تمكنت من أن أحمّن أن رايان كان يفكر بصوت عال.

"نعم. قد يكونا قتلاً بواسطة قاتل واحد، لكن ظروف القتل مختلفة".

لم نستطيع، أنا ورايان، الإتيان بتفسير مناسب، لكن تعليق رايان الذي ذكره قبل قليل أيقظ بعض الذكريات عندي. أبلغ زميل لي قبل سنوات بوجود كسور فريدة من نوعها في منطقة وسط الرقبة. من هو هذا الزميل؟ وأين؟ وهل كان يتحدث في عرض أثناء اجتماع لأصحاب الاختصاص؟ هل جاء ذلك في مقالة منشورة؟ وفي أية صحيفة؟

شعرت أنه من الضروري أن أجري اتصالاً.

عدنا بالسيارة إلى جزيرة النخيل، وأجريت اتصالاً جديداً مع نيلسون تيل. أجابتي امرأة هذه المرة. عرفتها بنفسني، وشرحت لها سبب اتصالي. قالت المرأة إن اسمها هو ميني تيل.

"هل تكلميني بشأن جيمي راي، أعني قريبة زوجي نيللي. هل وجدته؟"

"لا سيدتي، أنا آسفة".

خطر على ذهني ذلك الجزء المفقود من سجل راي الطي. دلّني لهجة ميني أن آل تيل ينتمون إلى أصول أميركية أفريقية.

"حسناً، إذ أنت لا تتصلين لتقولي لي إنه مات، شكراً لله على ذلك".

"هل يعيش جيمي راي معك؟"

"يا الله، لا. يحب جيمي راي أن يجول في أرصفة الميناء. إن عقله ليس سليماً جداً".

شعرت بالاضطراب: "إذا كان جيمي راى يعيش في الشوارع، فكيف علمت أنه مفقود؟"

"إنني أحضّر لذلك المسكين لحم حمل مشوي كل يوم اثنين، وأنا أعتبر ذلك جزءاً من واجباتي تجاه الله. جاء جيمي راى باكراً يوم الاثنين قبل الفائت، وقال إنه يريد أن يأخذ حماماً لأن لديه موعداً مع الطبيب. إنه يفعل ذلك بين الحين والآخر، وهو ينظّف نفسه في منزلنا.

"بدأ جيمي راى يخبرني عن بعض الطفح الذي يعاني منه. يا الله، لم أرغب بسماعه يتحدّث عن ذلك الموضوع. لم يكده يصل إلى المنزل حتى غادره ولم يعد أبداً، لكن ذلك ليس من عادة جيمي راى مطلقاً. يمتلك ذلك الرجل عاداته الخاصة به، ولا يُقدم على شيء يخالف روتينه المعتاد. عرفت أن هناك شيئاً ما في الأفق عندما مرّ يومان من أيام الاثنين من دون أن يظهر جيمي راى. يجبّ الرجل بالتأكيد لحم الدجاج الذي أعدّه له".

"هل تعرفين المكان الذي قصده جيمي راى لرؤية الطبيب؟"

"لم يكن عنده موعد، لأن جيمي راى لا يستطيع دفع نقود لطبيب خاص".
مرّت فترة هدوء: "حقاً؟"

"إنه يقصد العيادة المجانية الموجودة في ناسو، مثلما تفعل نيللي، وأنا أيضاً".

مرّت فترة صمت أخرى: "أتقصدين العيادة التي تديرها كنيسة رحمة الله؟"

"إنها هي. لا مواعيد في تلك العيادة، بل يكفي المرء بالجلوس، ومنتظر أن يأتي دوره".

أشرت بإهامسي لرايان دلالة على توصلنا لنتيجة ما. رفع يده عن عجلة القيادة، وأشار لي بالمقابل، وليقول إنه علم أنني استطعت إيجاد رابط ما بين تيل والعيادة.

"شكراً لك سيدة تيل".

"أبلغوا جيمي راى عندما تجدونه أن لحم الدجاج بانتظاره".

أنهيت الاتصال ورفعت راحة يدي، فأسرع رايان لشبك راحة يده بيدي المرفوعة.

طلبت رقم غوليت، وقلت: "وهكذا أصبحوا ثلاثة".

توقف ابتهاجي فجأة عندما قالت عاملة الهاتف عند غوليت إن رئيسها سيغيب عن المكتب حتى يوم الثلاثاء. أكدت لها مدى أهمية اتصالي به. قالت إن الشريف ذهب في رحلة لصيد السمك، ولا يمكن الاتصال به. هل أتصل بصديقتي إيما؟ قرّرت أن أنتظر حتى أستطيع فهم مغزى وجود الكسور على عظام الرقبة.

اكتشفت عندما وصلت إلى منزل البحر على امتداد أميال برفقة رايان أن بيتي ليس موجوداً فيه. اعتبرت أن غياب بيتي نعمة، لأن سلوكه مع رايان هذه الأيام بات لا يطاق.

توجّهت مباشرة إلى حاسوبي المحمول، ودخلت إلى شبكة الإنترنت. افترض رايان أنني سأنشغل لبعض الوقت، فتوجّه لينتقي لنفسه بعض الملابس التي تناسب مع الطقس.

بدأت بتقليب صفحات صحيفة العلم الجنائي. لم أجد شيئاً. انتقلت إلى تصفّح عدة منشورات قمتّ بالعلم الجنائي. مرّت ساعتان قبل أن أستنفذ كل الأفكار. لم أجد شيئاً يتماشى مع النموذج الذي أبحث عنه، مع أنني أصبحت على معرفة بالجرحي الذين سقطوا نتيجة حوادث السير، ولعبة الهوكي، والغطس، وأولئك الذين جرحوا أثناء تصديهم لرمح كرة القدم. حاولت جاهدة أن أتذكر أين قرأت التقرير الذي أبحث عنه، لكنني لم أفجح.

حدّقت بشاشة الحاسوب، وشعرت بالإحباط، وتساءلت للمرة المليار إن كان أي شيء يربط هذه القضايا فعلاً. أظهر كروكشك، وهيلمز، ومونتاغيو كسوراً فريدة في الرقبة، وفي الفقرة العنقية السادسة بالتحديد. وظهرت كسور في منطقة عظام الظهر السفلى عند هيلمز ومونتاغيو. تردّدت مونتاغيو على عيادة كنيسة رحمة الله للمعالجة. تردّد جيمي راي تيل أيضاً على تلك العيادة لتلقي العلاج. وعملت هيلين فلين هناك.

تأكدت وفاة كل من مونتاغيو، وهيلمز، وكروكشك، أما تيل وفلين فهما في عداد المفقودين.

اختفى لوني آيكمان، أما سوزي روث آيكمان فماتت. هل كانت الوالدة وابنها من ضمن المرضى الذين تردّدوا على عيادة كنيسة رحمة الله؟ وما هو دور آل آيكمان في كل ذلك؟ وأين أصبح الرجال المفقودون الذين بحث عنهم كروكشك؟

يبدو أن العيادة هي الرابط بين هؤلاء جميعاً.

اشتكت هيلين فلين من العيادة إلى والدها قبل قطع اتصالها معه، وكذلك اشتكت لهيرون. أعلم أيضاً أن كروكشك كان يراقب المكان.

أم هل كان كروكشك يراقب الأشخاص، وليس المكان؟

لا أدري ما الذي دفعني لأنقر اسم ليستر مارشال على لوحة المفاتيح. سبق أن وصلتني أخبار عن مربي حيول عربية، ورجل آخر يعلم علاج طاقة الجي كونغ، أو مهما كان اسمها.

أضفت كلمة دكتور للاسم، فوجدت نفسي أتطلع في صفحة دراسات يعدّها طبيب. يعدّ هذا الموقع بإيراد كل شيء ما عدا وصفة جدة الطبيب المفضلة، لكن مقابل دفع مبلغ \$7.95.

لَمْ لَا؟

أعطتني الدولارات الثمانية التي دفعتها المعلومات التالية.

عنوان ليستر مارشال ورقم هاتفه في العيادة الكائنة في شارع ناسو. اعتبرت ذلك نجاحاً هائلاً.

حصل مارشال على إجازة في الطب من معهد سان جورج الطبي في غرينادا.

ينحصر مجال علاج مارشال في حقل طب العائلة، مع أنه لا يحمل أية رخصة رسمية في اختصاص طبي.

لم ينفذ مارشال فترات الطبيب المقيم في أي مستشفى، ولا ينتسب إلى أية جمعية طبية.

عمل مارشال من ضمن الفريق الطبي في مستشفى "تولسا"، أو كلاهوما، من عام 1982 وحتى عام 1989. وظّفته كنيسة رحمة الله في عام 1995.

لم يتعرض مارشال لأية عقوبات تأديبية من سلطات الولاية، أو الحكومة الاتحادية.

سمعت صوت الباب الرئيسي يُفتح بينما كنت منهمكة بطبع هذه النتائج. استنتجت من أصوات الخفيف والخشخشة، أن عملية التسوق كانت ناجحة. قَبَل رايان أعلى جبهتي: "هل نُجحت بإيجاد المقالة التي تبحثين عنها؟" ناولت رايان التقرير الذي طبعته لُتوي: "لا، لكنني أجريت بحثاً عن ليستر مارشال".

"غرينادا؟ هل هذا معهد طبي حقيقي؟"
"أعتقد ذلك، مع أنه لا يصل إلى مستوى جونز هوبكنز".
قال رايان: "يملك الرجل سجل توظيف متنوعاً".
"بالضبط، لكن أين كان مارشال في الفترة ما بين تسعة وثمانين وخمسة وتسعين؟"
"إنني أتساءل لماذا ترك أو كلاهوما".

"لن يعرض الموقع الإلكتروني أية معلومات فيما لو كان مارشال قد تعرّض لمتاعب في العام تسعة وثمانين. إنهم لا يجمعون معطيات عن ممارسات غير قانونية، أو الدعاوى القضائية، وكذلك فهم لا يُبلغون عن عقوبات تأديبية اتخذت قبل أكثر من خمس سنين".

"ألم تحاولي البحث عن بيت بول، وديالز؟"
هززت رأسي بالنفي.

نقل رايان مشترياته إلى غرفة النوم، بينما حاولت الحصول على معلومات عن كورري دنيالز، وأديل بيري. لم أحصل منهما على شيء له قيمته، لكنني عندما جرّبت تصفح صفحات تشارلستون البيضاء في دليل الهاتف، وجدت اسم كورري. آر. دنيالز في جزيرة سي بروك.

هل يعيش الممرض في سي بروك؟ بدا لي أن هذا هو أمر غريب. أعرف أن جزيرتي "سي بروك" و"كياوا" هما من بين الأعلى بالنسبة للعقارات والإيجارات في منطقة تشارلستون. لا يوجد في الجزيرتين شقق رخيصة.

فكرت في هذه المسألة ثم ظهر رايان مجدداً. اعتمر رايان قبعة سوداء على رأسه ووجهه حافظها نحو الخلف، وانتعل صندلاً من "التيفا" الأسود، كما ارتدى بنطالاً قصيراً أسود اللون، بالإضافة إلى بلوزة سوداء. وظهرت تحت الصورة الكلمات التالية: **لثاتي الكهرياء من الإلكترونيات، وثاتي الأخلاقيات من المغفلين.**

فكرت بيني وبين نفسي بهذا اللون الأسود، لكنني قلت: "رائع".
"وجدت مغزى كبيراً لهذه الرسالة".

أما أنا فوجدت الرسالة غير مفهومة، لكنني لم أقل له ذلك.
قال رايان: "لم أرد أن أكون متأنقاً جداً".

قلت: "إنها ثياب سوداء على جلدٍ زهري اللون. أمل أن تستطيع الفتيات مقاومة هذا الإغراء".

"يحتمل أن أواجه مشكلة في هذه الحالة".

"هل تريد أن تلقي نظرة على جهاز حاسوب كروكشك؟"

"لست خبيراً جداً في مجال الحاسوب، لكنني أستطيع أن أقدم دعمي المعنوي، أو الأخلاقي".

أشرت إلى كلمات الرسالة المدونة على قميص رايان: "اترك الأخلاقيات للمغفلين".

سمعت عبارة استهجان في ذهني.

ماذا؟ كهرياء؟ ومصباح يعمل على بطارية؟ وملاك؟

يا الله. تذكرني هذه الرموز مجدداً بقبعة فريق الهورنيت الذي يشجعه بيتي عندما لعب مع فريق تيل. استرجع عقلي هذا الاسم من أعماق ذاكرتي.

"لاري أنجل!"

أخذ رايان يقلد فريق الكاربنترز الغنائي مستخدماً يده لتكون المايكروفون الوهمي: "كم أحبه، وكم أرتعش عندما يمرّ بقربي".

"لم أقصد جوي أنجل، لكن لاري أنجل، وهو الذي عمل بصفته أنثروبولوجياً فيزيائياً لدى سميثونيان لسنوات طويلة. لم يرد اسمه في مقالة وردت في صحيفة، لكنه ورد ضمن فصلٍ في كتاب".

تبعني رايان إلى غرفة المطالعة، وراقبني أثناء تناولي لكتاب من رزمة الكتب التي أستخدمها كمكتبة إعارة صغيرة يستخدمها طلابي الذين يشاركون في الصف الميداني (خارج نطاق الجامعة).

وجدتها هناك، صورة باللونين الأبيض والأسود للفقرة العنقية السادسة، والتي يظهر فيها كسر مفصلي عبر الصفيحة الأمامية، بالإضافة إلى شق رفيع جداً عبر الصفيحة الخلفية للتوء المستعرض.

قال رايان: "او".

أجبت بتعبير مماثل.

تصفحت النص بالاشتراك مع رايان.

شعرت بقشعريرة تحتاج كامل جسدي.

عرفت، الآن، كيف مات كل من مونتاغيو، وهيلمز، وكروكشك.

29

"أجهزت على قاتل مأجور اعتاد على خنق ضحاياه باستخدام آلة لشدّ الأسلاك". استخدم رايان هنا تعبيراً عاماً لسلاح ورد وصفه في "فصل الملائكة". تحدّث هذا الفصل عن المدرسة القديمة، والبنادق المكروهة.

"تحدّث هنا عن وضع أنشودة مصنوعة من سلك حول رأس الضحية، وشدّ جهة واحدة حول شيء صلب، مثل جزء صغير من أنبوب، أو مفكّ. وإذا أديرت الأنشطة الجانبية، فإنها تشتتد. إنها وسيلة بسيطة لكنها فعالة للخنق". تنطبق هذه الطريقة على الوصف الذي جاء في فصل الملائكة.

شعرت بصدمة كادت تمنعني من الكلام.

"يفسّر لنا هذا كيف أن فقرة واحدة فقط تتعرّض للكسر، ومن جانب واحد فقط. يبدو أن الأنشطة كانت من جهة اليسار".

تصوّرت الأنشطة وهي تحيط برقبة أونيج مونتاغيو، وكذلك العلامات التي نتجت عن محاولاتها اليائسة للحصول على هواء تنفسه.

قلت: "يقدم لنا هذا التفسير سبب الوفاة. لاحظت الخناء في الفقرتين C-6 وC-7 بمقدار يتراوح ما بين خمس وعشر درجات، ويعني ذلك أن الضغط الذي تعرّضت له "الدرة السباتية" كان من الجهة الأمامية، وتمّ توجيهه إلى الأسفل والخلف... تجري في هذه الحالة إعاقة الدورة الدموية إلى الدماغ، ومنع وصول الهواء إلى الرئتين".

"هل أنت متأكدة من أنهما نفس نوع الإصابة في هذه الحالات الثلاث؟"
أومات.

سدّد رايان باتجاهي نظرة من عينيه الزرقاوين الباردتين: "إذا عرفنا أخيراً أن محققك الخاص السكير لم يقتل نفسه".

"عرفنا أن كروكشك، وهيلمز، ومونتاغيو ماتوا جميعاً بطريقة الخنق".
"لكن لماذا؟"

"لا أعرف".

"نعرف أيضاً أن هيلمز ومونتاغيو قد طُعنا، أو وُجِزا، أو نُقِبا بطريقة ما، لكن كروكشك لم يتعرض لهذه الأمور الثلاثة. لماذا؟"
"لا أعرف".

"دُفِن هيلمز في قبر ضحل، ووُضعت مونتاغيو في برميل ورُميت في البحر، أما كروكشك فعُلِق على شجرة".
"لا تقل هذا".

لم يطرح رايان تساؤله الثالث.

نُحِضت واقفة، وتناولت هاتفني الخليوي. راقبني رايان وأنا أنقر الأرقام: "إنها تلك العيادة. يعيدنا كل شيء لتلك العيادة. أراد غوليت تواجد ثلاث ضحايا، وأنا وجدتم، لكن أين هو؟ هل خرج ليستنشق هواء البحر مع أصحابه".

أعدادت موظفة الهاتف عند غوليت ذات الرسالة على مسامعي. لا يمكننا التحدث مع الشريف. كرّرت القول إن اتصالي معه مهم جداً. فقالت لي إنها لا تستطيع الاتصال به أبداً، وعندما سألتها عن رقم هاتف منزله، أو رقم هاتفه الخليوي قطعت الاتصال.

"أيتها اللعي...".

بدا رايان منطقياً جداً: "اهدئي. اتصلي بإيما".

أجريت الاتصال بإيما. أبدت تأثرها بالأشياء التي توصلت إليها، لكنها قالت إن شيئاً لن يتغيّر بين ليلة وضحاها.

"رائع. إن اهتمامك بمائل اهتمام ذلك الشريف الغبي. يختفي بعض

الأشخاص، ويتبين أنهم ماتوا، لكن ما الفائدة. إنه توقيت سيئ لسوء الحظ! إنه يوم تكريم شهداء الواجب!"

وضع رايان ذراعيه بوضع متقاطع على صدره، وحفض ذقنه.
حاولت إيما أن تعرف سبب سخطي: "قمب...".

"ضعي المزيد من اللحم للشواء، واجرعي المزيد من شراب الشعير! اتركي جيمي رايمي تيل يتعفن في مكان ما مع الأنشطة الملتفة حول رقبته، وربما هيلين فلين أيضاً. من يدري؟ هل تنتظرين أن تلقى بعض المومسات، وبعض الذين يعانون من انفصام في الشخصية، نفس المصير؟ اللعنة، إنه يوم عطلة!"
"قمب...".

"جرى خنق كروكشنك، ومونتاغيو، وهيلمز يا إيما. أقدم أحد المهوسين الذين يقتلون بدم بارد على وضع سلك حول رقابهم، وأنهى حياتهم. يعلم الله ماذا جرى لهيلمز ومونتاغيو."
"قمب".

رحت أصرخ، وظهرت غير منطقية حتى بالنسبة إليّ أنا: "هل أنا الشخص الوحيد الذي يكثر بمصير هؤلاء الأشخاص؟"

رحت أتساءل عما إذا كان تيل وفلين ميتين في مكان ما، فهل يؤدي أي شيء عاجل إلى إعادة الحياة لهما؟
"أريدك أن تتصلي بشقيقي".

ذهلت كلياً لكلامها هذا: "ماذا تقولين؟"

"هل ستفعلين هذا لأجلي؟"

يا الله، ماذا حدث: "سأفعل هذا بالطبع، لكن لماذا؟"

"استمرّ خصامنا فترةً طويلة جداً".

بلعت ريقتي بصعوبة: "هل تحدثت مع الدكتورة رسل اليوم؟"

"سأتحدث معها غداً؟"

"ولماذا تغير موقفك تجاه شقيقتك؟"

"تحدثت مع سارة. قولي لها إنني أود أن تزورني".

"هل أستطيع...".

"نعم. أخبريها أنني مريضة".

"أعطيني رقم هاتفها".

مرّت فترة تردّد وارتباك: "لا أعرفه".

استفدت من مهاراتي الجديدة في التفتيش عن أرقام الأطباء في شبكة الإنترنت، واستطعت إيجاد رقم مارك بيرفيس، وهو طبيب قلب يعمل في مستشفين. اختلف بيرفيس عن مارشال في حصوله على كل الإجازات المطلوبة لممارسة المهنة.

تصفّحت مواقع قليلة أخرى أفادتني أن مارك بيرفيس كان متزوجاً من سارة روسو، التي تخرّجت في عام 1981 من مدرسة فلورنس الجنوبية الثانية، في ولاية كارولاينا الجنوبية. لاحظت أن عدداً من رفاق صف سارة يريدون الاتصال بها. تحيّلوا هذا.

حصلت أيضاً على رقم هاتف عائلة بيرفيس المنزلي، وعنوانها، وخريطة منزل العائلة. ليبارك الله عصر الإلكترونيات.

أعلمتني مدبرة منزل آل بيرفيس أن الدكتور وزوجته ما زالوا في إيطاليا، ولن يعودوا قبل الأسبوع الأول من حزيران (يونيو).

كدت أرمي الهاتف أرضاً. هل أعجز عن الاتصال بأي شخص في العالم؟ لاحظ رايان اضطرابي فاقترح أن نقوم بنزهة على الشاطئ. أيد بويد هذه الفكرة. اتفقنا سوياً، أثناء قيامنا بهذه النزهة، على أن أفضل شيء يمكننا تحقيق تقدم فيه ذلك اليوم، هو أن نشغل أنفسنا بصناديق كروكشك وحاسوبه المحمول. تناولنا مشروباً عند رجوعنا إلى منزل البحر على امتداد أميال، ثم توجّهنا مباشرة إلى غرفة المطالعة. تشاركت الأريكة مع رايان، بينما اكتفى بويد بالجلوس عند مستوى أقدامنا. انضمّ يوردي إلينا، لكنه فضّل أن يراقبنا من فوق المدفأة.

سألته: "أترغب أن تجرب فكّ شيفرة كروكشك؟"

خاطب رايان بويد باللقب الذي أطلقه عليه عندما التقاه للمرة الأولى: "ما رأيك يا هووتش؟" رفع بويد رأسه، وحرك حاجبيه، ثم وضع ذقنه بين مخالبه.

"يقول هووتش إن لا مشكلة في هذا".
"سأنتهي من تفحص هذا الصندوق الأخير".
لم أذكر سبب بقاء بعض الملفات من دون تفحص. فما السبب الذي يدفعني
لإثارة ذكريات ليلة الأربعاء الماضي حين جمعتي التعاطف والعناق مع بيتي.
ظهرت أمامي ذكريات ما حدث في الطريق ليلة الأربعاء.
سمعت صوت بيتي وهو ينادي من الرواق: "ما وراءك يا حلوة؟"
برزت عضلات فك رايان.
انطلق بويد من الغرفة. سمعت صوت همهمة، تبعه صوت خشخشة مضرّبي
غولف. ظهر بيتي بعد ثوان قليلة، بينما تبختر بويد من حوله.
أوما رايان محيياً بيتي: "حضرة المستشار".
"تعب".
أوما بيتي نحوي. تمنّيت أن يحافظ هذان الشخصان الناضجان على تهدييهما.
ارتسمت ملامح ابتسامة على شفّتي بيتي.
"أيتها الحلوة".
عبست في وجهه، محذرة إياه من البدء مجدداً.
سأل بيتي بكل براءة: "ما هي آخر الأخبار؟"
أوجزت له آخر التطورات.
"إنني أتفحص هذه الملفات التي بقيت، بينما يعتزم رايان إلقاء نظرة على
المذكرات".
تميّز صوت بيتي بالحدة، ونظر باتجاهي قبل أن يتحوّل باتجاه رايان: "لعل
التحري سينجح حيث فشل ذلك المحامي المسكين... هل تأمل بالعثور على دليل
يوصلك إلى القاتل يا أندي؟"
"لا. هل من معلومات عن تحركات قواتنا في العراق يا بيتي".
وجّه بيتي إصبعاً باتجاه رايان: "انس الأمر. يا لك من رجلٍ مرحٍ يا أندي".
"لربما تحصد بعض الضحكات بالربط بين هذه الأمور".

أطلق بيبي طلقة وهمية من مسدسه الإصبع: "أنصحكما أن تنجوا بحياتكما يا عزيزي. سأذهب لأستحم".

تبع بويد بيبي إلى الباب.

"بيبي؟"

التفت نحوي: "نعم يا حلوتي؟"

"هل استطعت جمع بعض الأدلة من كنيسة رحمة الله، والتي تتعلق بأسباب موت كروكشك؟"

أجابني قبل أن يتحوّل باتجاه رايان: "أبدأ على الإطلاق، وبالمناسبة خيارك ممتاز في انتقاء الملابس. يتمشى اللون الأسود مع كل شيء، كما أنه لا يحتاج للغسيل أبداً".

راقبت بيبي وهو يغادر الغرفة. احترت بتفسير مشاعري نحوه، هل هي الانزعاج؟ أم التعاطف؟ لا. أعتقد أنني أشعر بالأسى نتيجة خسارته. وضعت الكأس جانباً، وبعض الأشياء العائدة لكروكشك عندما كان في الشرطة، والصور. تناولت الكتاب والظرفين. بقي هذان الظرفان من دون فتح.

حمل الكتاب عنوان سجل الجريمة، وجاء على الغلاف أنه يحتوي على تفاصيل "أكثر المجرمين شهرة في العصور الحديثة، مع سرد لجرائمهم البشعة". إنها لائحة طويلة. فتحت الكتاب على جدول المحتويات. أورد الكتاب أسماء المشبوهين المعتادين من أمثال: ليزي بوردن، تيد بوندي، الدكتور كريين، جيفري دامر، ألبرت فيش، شارلي مانسون، جاك السفاح، وبيتر ساتكليف. شعرت بوخزة في صدري. لماذا كان كروكشك يحاول جمع المعلومات عن القتلة التسلسليين؟ هل كان ذلك مجرد اهتمام شخصي؟ أم أنه كان يبحث عن دليل يوصله للأشخاص المفقودين في تشارلستون؟

وضعت الكتاب على الطاولة الصغيرة، ثم فتحت ظرف كروكشك الأول. اشتملت محتويات الظرف على صورة واحدة وعدة صفحات طبعت من الإنترنت. بدت هذه الصفحات مألوفة بالنسبة لي، بل ومألوفة جداً.

قلتُ: "كان كروكشنيك يبحث عن ليستر مارشال، لأنه تفحص صفحات إثبات الأهلية على المواقع ذاتها التي تصفحتها أنا".

"يبدو الأمر منطقياً بالنسبة لي، لأنه كان يدقق في المكان الذي يمارس فيه مارشال مهنة الطب. هل حصل كروكشنيك على معلومات أكثر من تلك التي حصلت عليها؟"

"في الحقيقة، لا. لكن بعض البحث الذي قام به تعلق بطبيب آخر. تخرج دومينيك رودريغز من معهد القديس يوسف في نفس السنة التي تخرج فيها مارشال، أي في العام 1981. وعمل كجراح مقيم في جامعة كاليفورنيا - سان دييغو، ثم مارس الطب هناك حتى عام 1990. لا يورد الموقع شيئاً غير هذا".

أمسكت بالأوراق المنسوخة.

"يبدو أن كروكشنيك حصل على قائمة بأسماء الأطباء المتخرجين من معهد القديس يوسف، وهم الأطباء الذين عملوا كأطباء مقيمين، في الفترة الممتدة من عام ثمانين وحتى خمسة وثمانين. ولا يبدو لي أنه حصل عليها من شبكة الإنترنت".

استمررت بالكلام أثناء قراءتي لهذه الأوراق.

"أرى الكثير من الأسماء الأجنبية، وهناك عدد من المراكز المهمة: مركز طبيب في الجهاز العصبي - جامعة شيكاغو، والطب الداخلي - جورج تاون، واختصاص الطوارئ - ديوك. لا يرد اسم ليستر مارشال هنا، لكن أحيط اسم دومينيك رودريغز بدائرة. هل تعتقد أن كروكشنيك كان يبحث عن هذا الرجل، لأنه كان مع مارشال في صف التخرج؟ لكن لماذا رودريغز؟ إنه طبيب جراح، بينما تخصص مارشال في طب العائلة".

فكرت رايان قليلاً بما قلته له.

"اختفى مارشال تماماً في تولسا في عام تسعة وثمانين، ثم ظهر مجدداً في تشارلستون في عام خمسة وتسعين. هل تقولين إن رودريغز قد اختفى عن الأنظار في سان دييغو عام تسعين. إن هذا أمر غريب".

أعدت الظرف الأول إلى مكانه عندما لاحظت وجود منشور في داخل الصندوق. أمسكته على الفور. اكتشفت أنه كتيب يعدُّ فوائِدَ ينابيع المياه المعدنية الموجودة في بورتو فالارتا الموجودة في المكسيك.
رفعت ورقة الإعلان بيدي: "ربما كان رودريغز رجلاً مكسيكياً شعر بحنين للرجوع إلى موطنه".

قصدت أن أقول إن هذا أمر مستبعد، لكنني قلت: "صحيح".
"يحدث هذا دائماً. يشعر الجراحون بالإرهاق أحياناً، وربما ذهب رودريغز إلى بورتو فالارتا في عام تسعين، ليمارس مهنة الطب في بيئة أقل إرهاقاً له".
"أعتقد أنه اختار نبعاً معدنياً؟"

"يعد نص الإعلان بوجود موظفين مدربين طبيًا، يستطيعون تقديم خيارات لا توجد إلا في القليل من العيادات في كل أنحاء العالم".
"ما هي هذه العيادات؟"

"يتعين عليك الاتصال برقم معين لتعرفها".
"ألا يُحتمل أن يكون كروكشنيك قد احتفظ بهذا الإعلان، لأنه كان يبحث عن برنامج إزالة السموم في مكان ما إلى خارج الحدود الجنوبية للبلاد؟"

"ولماذا يفعل ذلك؟"

"كان الرجل سكيراً".

"ولماذا يختار المكسيك؟"

"ربما بسبب أطعمتها اللذيذة".

أغمضت عيني: "هل نجحت باختراق مفتاح الدخول إلى الحاسوب؟"

"نعم".

"حقاً؟"

"نعم".

"ماذا؟"

"تحلّي بقليل من الصبر أيتها الفتاة الحسنة".

وضعت المنشور في الصندوق، ثم فتحت الظرف الآخر.

اشتملت المحتويات، مجدداً، على نسخ مصورة وأوراق مطبوعة. وجدت ما مجموعه ست، أو سبع أوراق، ولاحظت أن بعضها كان أوراقاً مفردة، بينما تألفت أوراق أخرى من عدة صفحات.

بدأت بالقراءة. شعرت بالتشوش في البداية. ثم شعرت أن الغرفة تميل بي كلما استوعبت أكثر، وسيطر شعور كئيب على أعماقي.

أنهيت قراءة المقالات، ثم عدت كي أتصفح جدول محتويات كتاب الجريمة. وجدت ما أبحث عنه هناك. شعرت ببرودة غريبة في أصابعي نتيجة الرهبة، ثم تحوّلت لقراءة ذلك الفصل. دُهِشت عندما لاحظت وجود لصيقة صفراء على الصفحة، وهو الأمر الذي يدلّ على أن تلك القضية بالذات، كانت في صميم اهتمامات كروكشنيك.

صنخت كل خلية عصبية في ذهني بكلمة لا! بدا الشرح بشعاً جداً، لكن كل شيء كان متناسقاً جداً، وفي مكانه تماماً: العيادة، اختفاء الأشخاص، والحزوز التي وجدت عند هيلمز ومونتاغيو.

هل قُتلت هيلين فلين لأنها عرفت كل هذه الأمور؟ وهل اكتشفت هذه الحقيقة بطريقة غير مقصودة أثناء بحثها عن دليل يُثبت التلاعب بالأموال؟ وهل اكتشف كروكشنيك هذا التلاعب أيضاً؟

فتحت شفّتي كي أعلم رايان بهذه الفكرة الرهيبة. ولم أستطع التكلم مطلقاً. تفجّر كل شيء في الثواني القليلة التالية بسرعة هائلة، بحيث فقدت الأحداث تسلسلها في ذاكرتي. لم تفلح محاولاتي اللاحقة من أجل إعادة تشكيل الأحداث التي جرت إلا بتشكيل صور غير منتظمة.

استطعت تذكّر بيبي وهو يتحرك نحو المطبخ، وبويد عندما انطلق من غرفة المطالعة كالسهم. بدأ بويد بالنباح. لمحت سهاماً من الضوء منطلة من المطبخ نحو جدار الرواق. دوت طلقة رصاص. انبطحت على الأرض، بينما دفع رايان رأسي نحو السجادة. شعرت بثقل رايان على ظهري. انحنيت، وزحفت مرعوبة نحو المطبخ. زادت وتيرة النباح كثيراً.

تجمّد الدم في عروقي. رأيت بيبي منبطحاً على بطنه مواجهاً الأرض، وقد غمرته الدماء النابغة من جرح غير مرئي.

30

وصلت سيارة إسعاف. أمسكني رايان بذراعيه بينما انشغل مساعدان طبيان بمعالجة بيتي. راح بويد يئن، ويخدش بمخالبه باب غرفة المؤونة الصغيرة. شاركته خوفه، بينما بدا المطبخ مغموراً بالدماء. هل يستطيع أي شخص النجاة مع فقدان هذه الكمية من الدماء؟

تجاهلني الجميع تكراراً، بالرغم من أنني طرحت السؤال بعد السؤال. استطاع المساعدان، بعد عملهما على تأمين الأنايب وضمادات الجروح، تثبيت بيتي على لوحة خلفية، وربطه على حمالة، ثم انطلقا به بعيداً.

وصل موظفان رسميان يعملان في جزيرة النخيل، وطرحا أسئلة كثيرة. عرفت من بطاقتيهما أن اسميهما كابر، وجونسون. سألتني كابر بعد قليل عن الكدمة في ذراعي. وصفت له حادث إلقاء الزجاجاة عليّ يوم الخميس الماضي. دوّن كابر ما قلته في دفتره.

أبلغ رايان رجلّي الشرطة أنه يعمل بمهمة رسمية، وأبرز شارته، ثم حاول أن يتهرّب من التحقيق. قال له كابر وجونسون إنهما يتفهمان الوضع، لكنهما بحاجة لوضع تقرير عن الحادث.

أوجزت للرجلين طبيعة عمل بيتي في تشارلستون. أراد كابر معرفة الرجل الذي أظن أنه أطلق النار عليه. اقترحت عليه أن يحقّق مع هيرون، وموظفي كنيسة رحمة الله. فهتمت من التعابير التي ارتسمت على وجهه أنه من المستبعد أن يحدث هذا الأمر.

قال جونسون: "ربما كان ذلك مجرد دعابة على الشاطئ. أفترض أن هؤلاء الأولاد الملاحين أقدموا على سرقة مسدس والدهم، وأفرطوا في الشرب، ثم بدأوا بإطلاق الرصاص في الهواء. تحدث مثل هذه الأمور في كل عطلة نهاية أسبوع طويلة".

سأل رايمان: "هل يصاب شخص بالرصاص في كل عطلة نهاية أسبوع طويلة؟"

أدركت أنا أيضاً أن هذا التفسير هو تفسير أحق، لكنني لم أكن في مزاج لأتناقش مع أحد، لأنني حرصت على اللحاق بسيارة الإسعاف.

وجدتُ نفسي أنا ورايمان بعد ساعة من حادثة إطلاق الرصاص في قاعة الانتظار التابعة لغرفة الطوارئ، في مستشفى MUSC. دخلنا هذه المرة من جهة شارع آشلي، أي من الجهة التي يقصدها ويخرج منها أشخاص أحياء. صليت كي يستطيع بيقي أن يخرج من نفس الباب.

مرّت ساعة ببطء شديد، بينما بقي بيقي في غرفة العمليات. لم يقولوا لي شيئاً غير هذا. إن بيقي موجود في غرفة العمليات.

لاحظت أن غرفة العمليات هي في حالة فوضى. بذل الموظفون أقصى جهودهم نتيجة الحوادث الكثيرة التي حصلت في عطلة نهاية أسبوع أميركية: أصيبت عائلة بحروق نتيجة انفجار حدث في شوآية، وانتشل طفل من بركة موجودة في الفناء الخلفي لمنزل. علمت أيضاً أن حصاناً داس على رجل سكير، وأن امرأة تعرّضت للضرب على يد زوجها، وأن رجلاً أصيب بالرصاص صديقه. أخبروني أيضاً عن حالات إفراط بتناول المخدرات، وعن حالات تخفاف (فقدان الماء من الجسم)، وعن حالات أخرى من حروق الشمس، وحالات أخرى من التسمم بالأطعمة. شعرت بالارتياح لأنني انتقلت إلى المنطقة المخصصة للانتظار التابعة لغرفة العمليات الجراحية، والموجودة في الطابق العلوي.

اقترب منا طبيب بعد أن مضى على وجودنا هناك أكثر من ساعتين. بدأ وجهه متعباً، ورأينا الدم الذي يلوّث رداء عمله الرسمي. شعرت أن قلبي توقّف عن النبض. حاولت، لكن من دون نتيجة، أن أفهم التعابير التي ارتسمت على وجه الطبيب.

أمسك رايان بيدي. ووقفنا معاً.

"دكتورة برينان؟"

أومات، لأنني خشيت أن يخونني صوتي إذا تكلمت.

"خرج السيد بيترسونز من غرفة العمليات."

"وكيف حاله؟"

"انتزعت الرصاصة والشظايا من جسده. تأذت رئته اليمنى قليلاً."

"لا تكذب عليّ."

"فقدَ الكثير من الدم. ستكون الساعات الأربع والعشرون القادمة حرجة جداً

بالنسبة له."

"هل أستطيع أن أراه؟"

"إنهم ينقلونه الآن إلى غرفة العناية الفائقة. سترافقك ممرضة إلى هناك."

بدت غرفة العناية الفائقة على النقيض من الفوضى السائدة في الطابق

السفلي. لاحظت أن الأضواء خافتة، والأصوات الوحيدة المسموعة ناتجة من عقب

حذاء بين وقت وآخر، وهمسات مكتومة آتية من مسافة بعيدة.

تبعدنا مرافقتنا بعد أن خرجنا من المصعد، ووصلنا إلى قاعة مقسمة بالواجهات

الزجاجية إلى أربع وحدات. رأيت ممرضة جالسة في وسط هذه الوحدات

ومنهمكة بمراقبة كل شاغلي الأسرة.

احتوت هذه الغرفة الرباعية الأقسام على ثلاثة مرضى. أعرف أن ييتي هو

واحد منهم.

أستطيع القول إن منظر إيما قد صعقني في السابق، لكنه بدا شاحباً بالمقارنة مع

الصدمة التي أصابتني عند رؤيتي لييتي بعد الانتهاء من العملية الجراحية. فبالرغم من

طوله البالغ ستة أقدام، وكتفيه القويتين، وطاقته اللامحدودة، إلا أن ذلك المثقف

الآتي من لاتفيا بدا منكشماً في سريره وبدا رمادي اللون، وبكلمات أخرى بدا

الرجل ضعيفاً.

برزت الأنابيب من أنف ييتي وفمه. وبرز أنبوب آخر من صدره، وظهر

أنبوب رابع من ذراعه. لاحظت وجود حامل معدنية تتدلى منها عدة أكياس،

وأنا بيب وريديّة، فوق واجهة سريره. أحاطت أجهزة عديدة به، بعضها يضح مصدرأً طنيناً، وبعضها يقوم بالسحب. شاهدت شاشة تعرض سلسلة متموجة من الذرى والمنخفضات مصدرّة إيقاعاً منتظماً.

أعتقد أن رايان سمع تنفساً مفاجئاً، لأنه أمسك بيدي مجدداً.

شعرت أن ركبتيّ بدأتا بالتهايوي، فأسرع رايان ليحيط خصري بذراعه.

ضغطت براحة يدي على الزجاج.

اتصلت بماتف كاتي الخلوي متجاهلة تعليمات المستشفى. سمعت صوتاً مسجلاً. سألتني الصوت المسجل عن الرسالة التي أريد تركها. قلت: "كاتي، أنا والدتك. اتصلي بي من فضلك في أسرع وقت ممكن. الأمر مهم جداً".

هل أذهب أم أبقى في المستشفى؟ أكّدت لي المرضضة أن يبيتي لن يسمعي، ولن يراني، خلال الليل، وقالت: "اذهي واستريحي. سأتصل بك إذا حدث شيء". عملت بنصيحتها.

استلقيت في سريري تلك الليلة، وسمعت رايان يطرح ذات الأسئلة التي طرحتها على نفسي.

"هل تعتقد أن بيتي كان هو الهدف؟"

"لا أعرف".

"كان يُمكن للرصاص أن تستهدفك أنت".

لم أقل شيئاً، لكنني أدركت أن مطلق النار كان قريباً بما يكفي ليستطيع التمييز ما بين الرجل والمرأة، لكن ربما صوّب على الظل.

تابع رايان شرح وجهة نظره: "لم يعبر أحد عن سروره لوجودنا في تلك العيادة. أعتقد أن موظفي العيادة سيضطربون إذا أوْشكت على الإطباق على شيء ما يجري في عيادتهم".

"لم يتأثر رجلاً شرطة جزيرة النخيل. إنما أميركا، وهذا هو يوم شهداء الواجب، وليس من المستغرب أن يطلق الناس النار في الهواء".

"ما هو اسم صاحب مشاريع البناء؟"

أعتقد أن رايان كان يفكر بموازاة الخطوط التي بدأت بأخذها بعين الاعتبار: "يدعى ديكسي دوبري، هل من قبيل الصدفة أن تظهر سيارة غريبة في باحة منزلك، ويقوم أحدهم برمي زجاجة شراب شعير عليك، وأن يجري كل ذلك في وقت يتزامن مع الحفر في موقع يمتلكه دوبري؟" "قد تكون الزجاجة غير متعلقة كلياً بإطلاق الرصاص." "سبق لدوبري أن هدّدك".

"يستطيع دوبري أن يرمي بالزجاجات، لكنه لا يطلق الرصاص، ولا يستخدم أشخاصاً يطلقون الرصاص. إن ذلك هو عمل خطير جداً بالنسبة إليه، عدا عن أن التقرير الذي أعدته لسلطات الولاية قد سلّمته قبل مدة. ماذا يكسب إذا دفع بأحدهم ليطلق رصاصةً عليّ؟ حدثت كل هذه الأشياء بعد أن وجدنا عظام ويلي هيلمز في دي ويز. أعتقد أن هيلمز هو العنصر المفجّر هنا." "ويُحتمل أن تكون مونتاغيو هي هذا العنصر".

جلست بصلافة على السرير وقلت: "ويُحتمل أن تكون تلك العيادة. يا الله، كنت قلقةً جداً على بيتي، لقد نسيت". نزعنا أغطية السرير عني، وانطلقت إلى الطابق السفلي، وانطلق بويد في أعقابي.

بقيت محتويات ظرف ملفات كروكشنيك الثاني مبعثرة في غرفة المطالعة. جمعت الأوراق وكتاب الجريمة، ثم ركضت عائداً إلى الطابق الأعلى، وافتقى بويد خطواتي.

سألتُ بعد أن أعدت وضع الأغطية فوقي مجدداً: "هل سبق لك أن سمعت عن ويليام بيرك، وويليام هاير؟" هزّ رايان رأسه.

"بُتت مسؤولية هذين الرجلين عن ست عشرة جريمة في فترة تغل عن سنة واحدة".

"متى، وأين؟"

"حدث ذلك في أدنبرا ما بين عامي 1827 و1928. لم يسمح القانون البريطاني بتشريح الجثث في ذلك الوقت، ما عدا تلك العائدة للمجرمين الذين

أعدموا. فاق الطلب على الجثث التي توفي أصحابها حديثاً، الكمية المعروضة اللازمة لتعليم التشريح والجراحة، ولهذا انتشرت عمليات سرقات القبور".
"لا يسعني إلا أن أعجب هؤلاء الاسكتلنديين. إنهم خلاقون، حتى في مجال الجريمة".

"نتظرك هنا أخبار سيئة يا رايان، لأن بيرك وهابير كان إيرلنديين هاجرا إلى اسكتلندا للعمل في قناة الاتحاد. انتهى الرجلان بالعيش في منازل مفروشة تمتلكها ماجي لايرد. سكنت هيلين ماك دوجال هناك أيضاً فأصبح الأربعة شركاء في احتساء الشراب".

"مرض أحد ساكني منازل لايرد ذات يوم، وما لبث أن فارق الحياة مديناً بقيمة الإيجار. أقدم بيرك وهابير على سرقة التابوت بعد الانتهاء من الجنازة، ثم باعا جثة الرجل إلى روبرت نوكس، وهو أستاذ مادة التشريح في معهد أدنبرا الطبي".
"وبكم باعاهما؟"

"باع الرجلان الجثة مقابل عشرة جنيهات وسبعة شلنات. كان المبلغ كبيراً في ذلك الوقت. لاحظ هذا الثنائي الديناميكي أن بإمكانهما جني المال بطريقة سهلة، وهكذا امتهنا بيع الجثث. وقع مستأجر آخر فريسة المرض، فأقدم بيرك وهابير على خنقه عن طريق قرص أنفه، وسدّ فمه. تحوّل عملهما هذا إلى علامة طيبة لهما، ومن هنا جاءت العبارة الحديثة الدالة على عملهما.

جاءت بعد ذلك قرية هيلين إلى المبنى، ومغنية متجولة في الشوارع، ومجموعة من المومسات. تكاسل بيرك وهابير في نهاية الأمر، أو أنهما أصبحا قنوعين، فبدأ الرجلان بأخذ الضحايا إلى مكان قريب من المنزل. بدأ الجيران يلاحظون اختفاء ساكني المحلة، وأخذ طلاب الدكتور نوكس يتعرفون على وجوه أصحاب الجثث الملقاة على طاولاتهم. حدثت نقطة التحول مع جريمة قتل مومس تدعى ماري كوكتري.

ألقى القبض على عصابة الأربعة، وبدأ كل واحد بإلقاء اللوم على الآخر. وجه الاتهام إلى بيرك وهيلين ماك دوجال، بينما اعتُبر هابير وماجي لايرد شاهدي ملك. نالت هيلين حكماً لعدم كفاية الدليل، بينما وُجد بيرك مذنباً وحُكم عليه بالإعدام. اعترف بيرك قبل شنقه بارتكاب ما مجموعه ست عشرة جريمة".

"لماذا خاطر الرجل بارتكابه الجرائم؟ ألم يكن باستطاعته قراءة صفحات الوفيات، وشراء رفش متين الصنع؟"

"كان الرجلان من النوع الكسول، كما أن حفر القبور هو أمر متعب جداً."

"وهل عمل كروكشنك على جمع معلومات عن بيرك وهابير؟"

رفعت الأوراق بيدي: "جمع الكثير من هذه المعلومات عنهما."

تأمل رايان هذه الأوراق عدة لحظات.

"أعتقد أن أحداً ما في عيادة كنيسة رحمة الله كان يقتل المرضى للحصول

على جثثهم؟"

"أعتقد أن كروكشنك كان يفكر في هذا الاحتمال."

"حسناً، لنفترض أن هذا هو ما حصل فعلاً. لماذا حصل ذلك؟ وما هي

الفائدة من ذلك؟"

"لست متأكدة بعد. انتظر لحظة، لعلهم كانوا يجمعون أجزاء من الهياكل

العظمية للموتى ليبيعوها بعد ذلك لأغراض طبية. هل تذكر تلك القضية المتعلقة

بمؤسسة دفن الموتى، وعدد من شركات جمع الأنسجة البشرية؟"

هز رايان رأسه.

"عملت مؤسسة دفن الموتى على إزالة العظام من الجثث من دون الحصول

على ترخيص، وكانت تستبدل هذه العظام بأنايب البوليبروبيلين. قيل يوماً إن

أليستر كوك كان من عداد هؤلاء الضحايا."

"إنك تمزحين."

"تصدرت هذه الحوادث أخبار وسائل الإعلام. يبعث العظام المسروقة إلى

الشركات التي تزود المستشفيات بالأنسجة. تُستخدم العظام المستخرجة من الجثث

في زرع الأنسجة البشرية جراحياً بشكل روتيني في هذه الأيام."

"لكن، لا دخل للعظام في هذه الحالة، لأن هيلمز كان مدفوناً، وموتاغيو

رميت في المحيط. بقيت جثتا الضحيتين سليمتين."

"لعله تبين أن عظامهما ليست مناسبة لسبب من الأسباب."

"مثل ماذا؟"

"لا أدري. حسناً، لعل المسألة ليست في العظام. يُحتمل أن يكون المجرمون قد خافوا من أمر ما، أو اكتُشف أمر إلقاء اليرميل في البحر، أو أن جهاز التنظيف قد تعطل. هناك ألف احتمال لحصول مشكلة في هذا المجال".

"وماذا بشأن علامات الخروز؟"

وماذا بشأن علامات الخروز؟ إنها في المنطقة السفلى من الظهر، وفي منطقة الحوض والظهر.

ركّزي تفكيرك على خارج الصندوق يا برينان، وخارج العظام.

بدأ عقلي يستعرض احتمالاً رهيباً.

قال رايان: "لكنك محقة في شيء واحد. عاش هيلمز في مقطورة موجودة في باحة خردة، وكانت مونتاغيو مشردة، أما أيكمان فكان مريضاً عقلياً. وعاش تيل المضطرب في الشوارع. إعطيني اسم شخص مفقود آخر. إنهم مومسات، ومدمنون على المخدرات، وأولئك الذين يعيشون على الهامش، والذين لا يلاحظ أحد غيابهم. يشكل أولئك الناس نفس فئة الناس الذين سقطوا ضحايا بيرك وهاير".

إنه أمر لا يصدق، والفكرة أفضح من أن تصدّق.

تكلّم رايان، لكنني بالكاد استوعبت ما قاله: "لكنك لا تمتلكين دليلاً على موتهم باستثناء هيلمز ومونتاغيو. وأين وصلنا بعد كل هذا؟ تأكدنا أن كروكشنيك كان يحاول التوصل إلى معلومات عن بيرك وهاير. راهن كروكشنيك على عيادة كنيسة رحمة الله. عملت هيلين فلين هناك، أما مونتاغيو وتيل فكانا مريضين في تلك العيادة. إننا لا نعرف ما إذا كان تيل ميتاً".

قلت: "لكننا متأكدان من موت كروكشنيك لأنه كشف أمراً تسبّب بموته.

رايان...".

"صه".

"لا. أصغي إلي".

أطفأ رايان النور، وجذبتني نحوه. تمسّك بي بشدة عندما حاولت أن أعترض. توقفت عن الكلام، وقبعنا سوية في الظلمة. قفز بيردي إلى السرير بعد وقت قليل، وشعرت به يدور قبل أن يتكورّ على نفسه بجاني.

لم أستطع الاستسلام لسلطان النوم بالرغم من الإهمالك الشديد الذي شعرت به. استمرّ عقلي بعرض ذلك الاحتمال المرعب، وظلّ يكرّر نفس الاستجابة المخيفة لا يمكن.

رفضت التفكير في نظريتي المروعة. بدأت أدعو بصمت. سأرتاح هذه الليلة، وسأتابع البحث في الغد.

لم أنجح لأن أفكارى تقافزت من موضوع إلى آخر. تراءت لي باستمرار الأجهزة والأنابيب والمضخات، التي تحاول إبقاء بيتي على قيد الحياة. عشت ثانية الفترة التي زحفت فيها على أرضية مطبخ آن، وتذكرت دموعي التي امتزجت مع دمائه. شعرت بقشعريرة لاحتمال اضطراري إبلاغ كاتي أن والدها قد مات. بالمناسبة أين هي كاتي؟

تذكرت آخر اتصال لي مع إيما، وخشيت من مغبة حديثي المرعب معها بعد عودة أختها من إيطاليا.

فكرت بغوليت. هل يجاهني بالرفض، أم بعدم الاكتراث؟ فكرت أيضاً بدوبري وتهديداته. وهل كانت تهديدات حقاً؟ وماذا يستطيع أن يقوم به بالفعل؟ أعتقد أن جميع أصحاب مشاريع البناء يشتكون لأصدقائهم في الحكومة من تدخل علماء الآثار بعملهم في تطوير الأحياء السكنية.

استمرت الوجوه في مرورها السريع في ذهني: بيتي، إيما، غوليت، دوبري، ليستر مارشال، كوري دنيالز، أديل بيري، ولوي آيكمان. مرّت أيضاً جمجمة ويلي هيلمز، وبيتي مجدداً.

توهجت أرقام ساعة السرير باللون البرتقالي. وتناهدت إلى مسامعي الأصوات الهامسة لأمواج المحيط المتقلبة في الخارج. مرّت دقائق. مرّت ساعة. لم أشعر أن جسد رايان الراقد بقربي قد ارتاح، ولم يستقر تنفسه بعد على إيقاع النوم.

هل أشاطر رايان شكوكي؟

لا. انتظري بعد. فكّري أكثر. كوني متأكدة.

همست بنعومة: "هل استيقظت؟"

"همم".

"هل تفكر بابتك ليلي؟"

جاء صوت رايان خافتاً: "من بين أشياء أخرى".

"مثل ماذا؟"

"أفكر في شيفرة حاسوب كروكشك".

"هل استطعت فكها؟"

"نجحت في ذلك ما عدا ملف هيلمز. أعتقد أنه غالباً ما تُستخدم الأحرف الأولى، وتواريخ الميلاد، والأوقات".

"إن وجود حرف C يعني أن الملف قد أُغلق".

"أخذنا علماً بهذا الاختراق المدهش".

وكزت رايان بمرفقي.

"اكتشفنا أن CD تعني كوري دنيلز، وAB تعني آديل بيري، وLM تعني ليستر مارشال. لست متأكداً بشأن الرموز الأخرى. أعتقد أن التواريخ واضحة، وأن الأرقام الموجودة أمام كل مجموعة من الأحرف الأولى للأسماء، تدلّ على الأوقات التي دخل فيها ذلك الشخص إلى العيادة، أو خرج منها".

"أيعقل أن تكون بمثل هذه السهولة؟"

"هناك أشياء أخرى، لكنني أعتقد أساساً أن كروكشك حرص على تتبع الأشخاص الذين يدخلون ويخرجون من العيادة".

"أتعني الموظفين فقط؟"

"أعتقد أن بعض هؤلاء كان من المرضى. شكّل هيلمز قصة أخرى. تتعلّق هذه المذكرات بالبحث الذي يجريه، أكثر مما تتعلّق بالمراقبة منذ اختفاء هيلمز، لأن هيلمز اختفى قبل توظيف كروكشك للبحث عن هيلين".

"إذا كان نظام كروكشك سهلاً، فلماذا لم يستطع بيتي فك شيفرته؟"

لم يكن رايان ليفوّت عليه فرصة السخرية من بيتي فيما مضى. لم يفعل ذلك هذه الليلة: "عندما عمل بيتي على فك الشيفرة لم يكن يعرف أسماء موظفي

العيادة، أو ويلي ويليماز. كم الساعة الآن؟"

تطلّعت إلى الساعة: "الثالثة وعشر دقائق".

"لا يهم. لا أعتقد أن المذكرات ستفيدنا بالشيء الكثير". جذبني رايان نحوه وسألني: "أتشعرين بالرغبة في النوم؟"
"لست في ذلك المزاج يا رايان."
"كنت أفكر في حاسوب كروكشك المحمول."
"يريدنا غوليت أن نعيده إليه غداً."
"أتريدين أن نجري محاولةً أخيرة للوصول إلى مفتاح الدخول؟"
"نعم".

أردت التحقق من شيء آخر أيضاً. أيمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟
سأل رايان: "هل وجدت رقم بطاقة توظيف كروكشك في الشرطة؟"
"وجدت شارة، لكن دائرة شرطة شارلوت لا ترقم هذه الشارات."
"هل احتفظ كروكشك بأية أشياء تابعة للشرطة؟ هل احتفظ بمسدس؟ أو بأصفاذ؟ أو حتى بمفتاح لهذه الأصفاذ؟"
"نعم. لماذا؟"

"نحن الرجال المولجون بتطبيق القانون لسنا معقدين بعكس ما يعتقد البعض. سأعطيك حيلة يلجأ إليها رجل الشرطة القديم: استخدم رقم بطاقتك كمفتاح دخول. سأعطيك الآن حيلة يلجأ إليها رجال الشرطة الأكبر سناً: احفر رقم بطاقتك على جميع ممتلكاتك الشخصية".

ضربتُ وبويد رقماً قياسياً في سرعة النزول على الدرج. تبعنا رايان بخطوات أكثر رشاقة. انضمَّ رايان إلينا بعد أن توصلت إلى ما كنت أبحث عنه.
"حفر كروكشك الأرقام قرب فتحة المفتاح".

رمى الأصفاذ في وجه رايان، وانطلقت نحو الطاولة، ثم فتحت الحاسوب الذي يحمل علامة دل وشغلته: "اقرأ الأرقام".

فعل رايان ذلك. نقرت الأرقام على اللوحة. ظهرت نقاط سوداء على الشاشة الصغيرة البيضاء، ثم ظهرت ألوان شاشة "ويندوز".
"نجحنا!"

سأل رايان: "هل تتحقق من البريد أولاً؟"

أمضيت عشر دقائق بالبحث عن البريد.

"الحاسوب مجهز للاتصالات اللاسلكية، لكنني لم أجد بربداً إلكترونياً. أشك في أن يكون مبنى ماغنوليا مانور مجهزاً لهذا النوع من الاتصالات. أعتقد أن كروكشك ربّما استخدم المقاهي، أو المكتبات للوصول إلى الشبكة. وجدت مئات من الرسائل المحملة. تستطيع العودة إلى السرير إذا أردت".

"هل أنت متأكدة؟"

"سيستغرق هذا وقتاً طويلاً".

طبع رايمان قبلة على رأسي. سمعت وقع خطواته على السجادة، ثم عندما صعد الدرج بعد ذلك. بقي بويده ملازماً قدمي.

تلاشى كل شيء من ذاكرتي عدا شاشة حاسوب هذا الرجل الميت الخافتة الضوء. لاحظت نافذة آن، وهي قطعة مستطيلة من الزجاج الأسود الملتصع وراء وهج شاشة الحاسوب. شعرت بتوتر شديد في أعماقي أثناء قراءتي للملف بعد ملف. تحوّل ضوء النافذة إلى اللون الرمادي، عندما انتهيت واسترخيت في مقعدي، وتراءى لي منظر المحيط الأطلسي الواسع الذي يتراءى وسط الضباب الصباحي الباكر.

انتهى الآن بحثي عن التفسيرات.

ثبت لي أن ظني كان في محله. عرفت ذلك، لكن الحقيقة جاءت كأقسي ما يتخيّله المرء. أستطيع تأجيل التفكير في هذا الأمر في الوقت الراهن.

بقي عندي واقعي الخاص الذي يتعيّن عليّ مواجهته. اتصلت بوحدة العناية المركزة في المستشفى. قالوا لي إنه لم تطرأ أية تطورات، وأن حالة بيتي لم تشهد تحسناً واضحاً، لكنها مستقرة.

هل أتصل بكائي مجدداً؟ لا فائدة من ذلك. ستتسلم رسالتي عندما تشغل هاتفها الخليوي. وإذا لم تفعل ذلك، فلا بد أن اتصالاً آخر مني سيضطرنني إلى ترك رسالة أخرى. أما إذا لم يصلني اتصال منها في غضون الساعات القليلة القادمة، فسأعمد إلى الاتصال بالجامعة لكي أطلب منها المساعدة على تحديد مكانها.

استرخيت على الأريكة بعد كل هذا العناء.

31

عمستُ: "هل أنت مستيقظ؟"
"أنا مستيقظ الآن".

"يقتل الناس من أجل الحصول على أعضائهم".
"آه - ها".

مدّ رايان يده. أمسكتُ بها.

"توصل كروكشنك إلى هذه النتيجة".

استند رايان على مرفقه ورفع نفسه. تأملت شعره الأشعث، وعينيه الزرقاوين
الجميلتين المثقلتين بالنعاس.

"خطرت الفكرة على ذهني، لكنني استبعدتها إلى درجة أنني لم أذكرها
أمامك".

"إنها صحيحة".

تعدت نبرة رايان حدود التهكم: "يستيقظ مسافر مخدّر ليجد نفسه في حوض
استحمام مليء بالثلج. ويضطر طالب جامعي لتحمل قطب جراحية في أنحاء من
جسمه بعد حفلة ماجنة. تصدّرت أخبار سرقة الأعضاء البشرية الأخبار منذ
سنوات طويلة".

"إن ما اكتشفه كروكشنك هو أسوأ بكثير من أية أسطورة حضرية.
ويتعرّض الناس للخنق حتى الموت، يا رايان، ثم تُنتزع أعضاؤهم من أجسادهم".

"لا نستطيع تحقيق اختراق وسط هذا الجحيم".

بدأت بتعداد النقاط على يدي: "أشخاص مفقودون بطريقة غامضة. هياكل عظمية تحمل علامات على إحداث حروز فيها".

بدأ رايان بالتكلم، لكنني قاطعته على الفور: "إنها حروز تتوافق مع الشقوق التي يحدثها مبضع جراح. ولدنا شبه طبيب يعيش في الولايات المتحدة يبحث عن زميل ضائع له تخرّج معه من معهد الطب. ولدنا أيضاً منتج مياه معدنية في المكسيك".

تحرك رايان، ووضع سادة خلف رأسه: "دعيني أرى".

زحفت تحت الأغطية، وجلست على الطريقة الهندية، ثم فتحت حاسوب كروكشك المحمول، ووضعت بين كاحلي المتصالبين.

"أمضى كروكشك قسماً كبيراً من وقته وهو يبحث موضوع زرع الأعضاء، أي السوق السوداء من هذه التجارة، وبحث أيضاً عن موضوع الأشخاص المفقودين في تشارلستون، ثم راقب مكاناً يدعى أبريغو آيلادو دو لوس سانتوس الموجود بالقرب من بويرتو فالارتا".

"هل هو المنتج المكسيكي المذكور في الكتيب السياحي؟"

قلت بصوت خافت: "نعم. إنه المنتج الأخير".

قضمت جزءاً صغيراً من ظفري، وفكرت بالطريقة التي يجدر لي اتباعها كي أطلع رايان عن هذه المعلومات، لأنني بدأت أفهمها لتوي.

"أصبحت مسألة زرع الأعضاء شائعة منذ بداية الخمسينيات تقريباً. ولم يعد من المستحيل أن يتبرع أحد الأحياء بكلية، أو بجزء من كبده، وحتى بوحدة من رئتيه، مع أن هذا الأمر الأخير يُعتبر أمراً نادراً. أما بالنسبة لأعضاء مثل القلب، وقرنية العين، والرئتين، أو البنكرياس، فيتعيّن أن تأتي من متبرعين أموات.

تبقى المشكلة في عدم وجود أعضاء كافية في التداول. يخدمك الحظ إذا استطعت الاستفادة من متبرع حي، ولربما حظي المرء بوجود متبرع مناسب من أقاربه، أو من صديق، أو من محسن، ولو كان هؤلاء من القلائل ولا يتوفرون في كل وقت. وإذا أردت متبرعاً من الأموات، فعليك الانتظار لشهور، أو حتى لسنوات".

"ويمكن أن يموت المرء وهو ينتظر".

"يدخل الذين يحتاجون إلى متبرعين أموات في OPTN، أي شبكة جمع وزرع الأعضاء، وهي شبكة تديرها منظمة مستقلة لا تبغي الربح تدعى UNOS، الشبكة المتحدة لتقاسم الأعضاء. أنشأت UNOS قاعدة بيانات عن الأشخاص المؤهلين للحصول على أعضاء للزرع، بالإضافة إلى إيراداتها لمعلومات عن كل مراكز زرع الأعضاء المنتشرة في أنحاء البلاد. تضع UNOS أيضاً السياسة الواجب اتباعها لتحديد الأولويات، وأسماء الأشخاص الذين سيحصلون على الأعضاء المناسبة لهم".

"وكيف يستطيع المريض الدخول إلى الشبكة؟"

"يتعيّن عليه أن يجد فريق زرع تعترف به UNOS. يقرّر ذلك الفريق ما إذا كان هذا الشخص مرشحاً مناسباً من الناحية الجسدية، والعقلية".

"وماذا يعني هذا؟"

"الأمر في غاية التعقيد هنا، لكن عادة ما يُستبعد مدمنو المخدرات، وشاربو الكحول، والمدخنون، على سبيل المثال. وتقوم UNOS أيضاً بتحديد المستلمين المحتملين بحسب وضعهم الصحي، والحاجة الملحة لعملية الزرع، والأهلية، وطول مدة انتظارهم على القائمة. إنهم يريدون الحصول على الأعضاء المتوفرة، واستخدامها حيث تقدم أكبر فائدة".

وصل رايان إلى لبّ الموضوع هنا: "وهكذا يخرج المرفوضون، والذين تعبوا من الانتظار، من النظام".

"يقوم الوسطاء، أو السماسرة، بترتيب عمليات بيع الأعضاء البشرية إلى المرضى الذين يستطيعون الدفع. ويُلاحظ أن البائعين عادةً ما يكونون متبرعين بإرادتهم، وأن الكلى هي التجارة الأكثر شيوعاً. يلاحظ أيضاً أن الفقراء، الذين يعيشون في البلدان النامية، هم الذين يقومون ببيع أعضائهم إلى الأغنياء في معظم الحالات. تتجاوز كلفة هذه العملية أحياناً ألف دولار، لكن جزءاً يسيراً فقط من هذا المبلغ يذهب إلى المتبرع".

"وهل يشيع هذا الأمر كثيراً؟"

"تمتلك كروكشك أعداداً هائلة من الأبحاث في حاسوبه. تصف بعض مصادره هذه تجارة الكلى باعتبارها ظاهرة عالمية. وجاء في هذه المصادر أن نانسي - هوغز، وهي عالمة أنثروبولوجيا (علم الإنسان) تعمل في جامعة بيركلي، أسست منظمة غير حكومية تدعى مرصد الأعضاء البشرية، والتي تدعي أنها وثقت عملية جمع الأعضاء في الأرجنتين، والبرازيل، وكوبا، وتركيا، وجنوب أفريقيا، والهند، والولايات المتحدة، والمملكة المتحدة. وجد كروكشك أيضاً معلومات عن إيران والصين".

نقرت عدة مفاتيح، وبدأت مع رايان بتصفح تقرير من الصين يتحدث عن استخدام المجرمين الذين ينفذ فيهم حكم الإعدام هناك، باعتبارهم متبرعين. بدأت بفتح سلسلة من الملفات، وبدأنا نقرأ معاً بصمت: "باستطاعة المرء الاستفادة من عروض كميات بالجملة".

"تقدم مؤسسة صهيونية بمعظمها، رحلات زرع أعضاء إلى تركيا ورومانيا مقابل مبلغ 180,000 دولار أميركي. لقد اشترت امرأة من نيويورك كلية من متبرع برازيلي، ثم سافرت إلى جنوب أفريقيا لإجراء الجراحة في عيادة خاصة، وبكلفة إجمالية تبلغ 65,000 دولار أميركي. وتوجه مواطن كندي إلى باكستان لشراء كلية بقيمة 12,500 دولار كندي".

"دعينا نتفحص هذا الموقع على الشبكة".

نقرت مفتاحاً لأجل ملفاً آخر. وجدت مستشفى في باكستان، يصف نفسه على أنه مؤسسة خاصة تضمّ خمسين سريراً، وتعمل منذ العام 1992. يقدم الموقع صفقة تتضمن قضاء ثلاثة أسابيع، مع تقديم ثلاث وجبات يومياً، وثلاث جلسات لعمليات غسل الكلى تسبق العملية الجراحية، ونفقات المتبرع، والعملية الجراحية، وعلاج ما بعد العملية لمدة يومين، وكل ذلك مقابل مبلغ 14,000 دولار أميركي.

بدا رايان مذهولاً، مثلي أنا: "هل هذا معقول!"

"تحرم معظم البلدان مثل هذه الأعمال، ولكن ليس كلها. تشرع إيران، على سبيل المثال، هذه النشاطات لكنها تضعها تحت رقابة الدولة".

فتحت ملفاً آخر: "بحرّم القانون القومي الأميركي لزراعة الأعضاء الذي صدر عام 1984 تقديم الأموال النقدية للذين يقدمون أعضاء بشرية للزرع. ويسمح قانون وهب الأعضاء الموحد للأفراد بوهب بعض أعضاء أجسادهم، أو كلها، بعد وفاتهم، لكن التعديل الذي صدر عام 1987 منع استيفاء مبالغ مالية مقابل الأعضاء التي يتبرعون بها".

"أفهم دفع المال مقابل الحصول على كلية، لكن ما لا أفهمه هو ارتكاب الجرائم؟"

فتحت عدة ملفات أخرى بعد ذلك.

جنوب أفريقيا. حزيران 1995. أدين موسى موعبيتي، ووجد مذبذباً، بقتل ستة أطفال من أجل الاستيلاء عن أعضائهم.

كيوداد خواريز، شيهواهوا، المكسيك. أيار (مايو) 2003. قتلت مئات النساء منذ عام 1993، واستمرت الجثث بالظهور في الصحراء. ويدّعي محققون اتحاديون أنهم يمتلكون دلائل تفيد أن النساء سقطن ضحايا شبكة دولية لتهرب الأعضاء البشرية.

بخاري، أوزبكستان. لا تاريخ. ألقى القبض على عائلة كورايف. وُجد في منزل هذه العائلة ستين جواز سفر لأشخاصٍ مفقودين، ومبالغ كبيرة من المال، بالإضافة إلى أكياس تحتوي على أعضاء بشرية. ادّعت شركة كورا التي تملكها العائلة أنها تقدم تأشيرات دخول، وفرص عملٍ خارج البلاد. أقدمت هذه العائلة، وبدلاً من تقديم التأشيرات، على قتل زبائنهما، ونقل أعضائهم إلى روسيا وتركيا بمساعدة طبيب.

"يا الله".

قلت: "لكن سرقة أعضاء الذين ماتوا لتوهم هي أكثر انتشاراً في العالم، وليس فقط في بلدان العالم الثالث. قدّمت منظمة مرصد الأعضاء البشرية بالإضافة إلى ذلك تقارير عن حالات حدثت في الولايات المتحدة تسلّمت فيها عائلات المرضى، الذين ماتت أدمغتهم، عروضاً بدفع مبلغ مليون دولار مقابل السماح للجماعي الأعضاء البشرية بالحصول على جثث المرضى، ولكن بعد حصول الوفاة مباشرة".

امتلات الغرفة بالأنوار. نهضت، وفتحت الباب الزجاجي. أعادتني رائحة المحيط المتسللة عبره إلى أيام الرقص على الشاطئ مع شقيقتي الصغرى هاري، وإلى أيام الثرثرة على الشاطئ مع أصدقائنا الحميمين من المدرسة الثانوية، وإلى بناء القلاع الرملية على الشاطئ مع كاتي وبيتي.

بيتي. أحسست مرة أخرى بألم شديد في صدري.

أردت أن أعود إلى أحد أيام العطلة الصيفية الطويلة تلك، وأردت أن أنسى الأجساد المتعفنة، ومباضع الجراحين، والأنشوبات المعدنية.

أعادتني صوت رايان إلى عالم الواقع مجدداً: "إذا أنت تعتقدين أن شخصاً ما في عبادة كنيسة رحمة الله يبحث عن المتسكعين في الشوارع ليجمع أعضائهم، وأن كروكشنك كان على وشك فضح هذا الشخص".

"أعتقد أن كروكشنك قد قُتل ليبقى صامتاً. وأتساءل أيضاً عن هيلين فلين".

"هل لديك أشخاص مشتبه بهم؟"

"لست متأكدة بعد. تشمل قائمة المشتبه بهم عدة أشخاص، لكن المشتبه به الرئيسي هي العبادة. لا يستطيع الشخص العادي الذي يسير في الشارع أن ينتزع كلية، هكذا وبساطة".

عدتُ إلى السرير، وفتحت ملفاً ثانياً.

"إن انتزاع عضو بشري ليس بتلك العملية المعقدة. لنأخذ القلب مثلاً. يجري شد الأوعية الدموية بإحكام أولاً، ثم يضح محلول حافظ وبارد فيه. تُقطع الأوعية بعد ذلك، ثم يوضع القلب في كيس مليء بمادة حافظة. يوضع الكيس بعدها وسط مكعبات الثلج في براد عادي، ويُنقل جواً، أو برأ، إلى مقصده النهائي".

"وما هي حدود مدة صلاحية الأعضاء في هذه الحالة؟"

"تتراوح المدة ما بين أربع ساعات للقلب، وثمان ساعات للكبد، وثلاثة أيام للكلى".

"ألاحظ أن المدة قصيرة جداً بالنسبة للقلب، لكن هناك مدة كافية بالنسبة للمستفيدين من الكلى".

نقرتُ بعض المفاتيح الأخرى: "ينتظر هؤلاء المستفيدون إجراء جراحاتهم في مؤسسة معقدة تحتضنها التلال البعيدة. بحث كروكشك في موقع أبريغو آيلادو دي لوس سانتوس. أتعرف ماذا تعني هذه العبارة؟"
هزّ رايان رأسه.

"إنها تعني مركز صحي منعزل. اقرأ ما هو مكتوب في موقعهم على الشبكة."
زاد العبوس في وجه رايان كلما تعمق بالقراءة: "يقولون هنا إنهم يقدمون أنظمة علاجية فريدة للزبائن المؤهلين. ماذا يعنون بذلك بحق الجحيم؟ هل يريدون أن يكون الزبون ذا نسب كي يستطيع العناية بالأقدام وأظافرهما؟"
"إنهم يقصدون: اتصل بنا. قدّم لنا المعطيات، وإذا وجدنا أن حالتك ومواصفاتك تتطابقان مع شروطنا، فيمكننا تزويدك بكلية."
"أعتقد أن زرع الأعضاء ليس بمثل سهولة انتزاعها."
نظرت إلى عيني رايان مباشرة: "تتطلب عملية الزرع جراحاً يعمل في مؤسسة متطورة نوعاً ما".

استنتجت من تعابير وجه رايان أنه يفكر في نفس المسارات الاستدلالية التي تحول في خاطري، وأنه أخذ يسرع بالوصول إلى نفس النهاية المرعبة التي وصلت إليها. تكلم رايان بعد مرور دقيقة كاملة.

"لديك هنا عيادة كنيسة رحمة الله، التي تقدّم خدماتها للمدمنين، والمجانين، والمشردين. يجتفي بعض المرضى بين الحين والآخر، ولا يلاحظهم أحد. لا يحتاج المرء إلا لطائرة صغيرة، وبراد، وطيّار لا يجب طرح الكثير من الأسئلة. ولعل المرء يستطيع استخدام بغل ضمن الحلقة، بالإضافة إلى استخدام طبيب جراح يتمتع بخبرة، ويعمل في مؤسسة تقع في مكان منعزل تهم بالأشخاص الذين يحتاجون لأعضاء بشرية شرط أن يكونوا مستعدين لدفع مبلغ محترم".

قلت: "التحق ليستر مارشال، ودومينيك رودريغز في نفس المعهد الطبي، واحتفيا عن الأنظار في نفس الوقت تقريباً. إن رودريغز طبيب جراح".

أكمل رايان من حيث انتهيت: "يجتمع زميلاً تخرج معاً، ويضعان تصميماً لمؤسسة تقدّم أعضاء بشرية مقابل المال. ينضمّ مارشال إليهما، ثم يذهب رودريغز

إلى بويرتو فالارتا، ويؤسس عيادة تحت قناع حمامات مياه معدنية".
قلت: "أو لعل رودريغز ترك سان دييغو ليمارس الطب في مكسيكو، وربما
تعرض مارشال لمتاعب من نوع معين، وأتجه جنوباً، وهناك اجتماعاً ثانية".
"يقوم مارشال بانتزاع الأعضاء، أما رودريغز فيزرعها. لا يشكو المترعون
هنا، إما لأنهم يقبضون المال، وإما لأنهم ميتون. ولا يتذمر المستفيدون أبداً، لأن ما
يقومون به هو غير قانوني بالمرّة. وتستطيع المئة ألف التي يقبضونها شراء الكثير من
وجبات المارغريتا".

قلت: "تصل كميات كبيرة من المخدرات غير المشروعة من مكسيكو إلى
الولايات المتحدة جواً، وعلى الدوام. فلماذا لا تتجه الأعضاء البشرية في الاتجاه
المعاكس؟ إنها صغيرة الحجم، وسهلة النقل، والمكافأة جزيلة. يفسر هذا وجود
الجزوز، والخنق، والجثث المخبأة".

"إنها قصة بيرك وهابر ذاتها، لكن على مستوى مختلف".
حطّ طائر نورس على سياج الشرفة. أتجه بويده نحو الشبكة وهو يهزّ ذيله.
حلّق الطائر مجدداً. استدار الكلب ونظر نحونا. نظرت ورايان نحو الكلب، وفكرنا
بالفكرة ذاتها. وتبرّع رايان بالنطق بما.

"إن كل ما لدينا هو مجرد تخمينات. يتعيّن علينا الحصول على معلومات عن
خلفية رودريغز، وأن نجد ذلك الرجل في المكسيك. ويتعيّن علينا أيضاً أن نعرف أين
أمضى مارشال السنوات الست المجهولة من تاريخه، ولماذا. نحتاج كذلك إلى الحصول
على معلومات عن الطيارين والطائرات في منطقة تشارلستون، وكذلك عن الزوارق".
بدا رايان مشوشاً.

"أعتقد أن جثة ويلي هيلمز قد نقلت بحراً إلى جزيرة دي ويز. ونعلم أيضاً
أن أونيفغ مونتاغيو قد رميت في المحيط. أشك أن القاتل قد استعمل عبارة في هاتين
الرحلتين".

"ألا يمتلك كل شخص وجده قارباً في هذه المدينة؟"
فكّرت للحظة: "دعنا نراجع مذكرات كروكشك مرة أخرى. أنت تعتقد
أن بعض الأحرف التي استخدمها تمثّل الأحرف الأولى لبعض الكلمات. لعلك محق

في ذلك. ما رأيك لو نقابل بعض تشكيلات هذه الأحرف، مع أشخاص مفقودين آخرين في منطقة تشارلستون؟"

تابعت التفكير بصوت عالٍ: "إذا استطعنا اكتشاف التوافق هنا، فلربما نجد رابطاً ما بين الشخص المفقود، وبين عيادة كنيسة رحمة الله".

"استنتجت من التواريخ الموجودة في المذكرات، أن كروكشك راقب المكان خلال شهري شباط (فبراير)، وآذار (مارس) هذه السنة".

زاد عقلي من وتيرة عمله: "حسناً. أعطيتني إيما سجلات الأشخاص المفقودين. أعتقد أن هذه السجلات تغطي الفترة التي كان كروكشك يجري فيها تحقيقاته. سأفحص آخر تاريخ شوهد فيه كل شخص مفقود، وسأكون لائحة على الحاسوب. أعتقد أننا نستطيع مقابلة هذه اللائحة مع خطط الطيران التي يسجلها طيارو الطائرات الصغيرة".

"يُعتبر ذلك عملاً مهماً من أعمال تطبيق القانون، وخصوصاً إذا اشتمل على أكثر من مطار واحد في منطقة تشارلستون. أعتقد أيضاً أن المهرين لا يسجلون خطط طيرانهم".

"حسناً، قد تتزامن كل حوادث الاختفاء هذه مع وقت إقلاع طائرة ما من المطار".

"لنفترض أنهم لا يضعون الطائرة في حظيرة ما. لا يستطيع هؤلاء استخدام المطار للهبوط والإقلاع إذا لم يُثبتوا خطط طيرانهم".

خطرت في ذهني فكرة مفاجئة: "وماذا بشأن كنيسة رحمة الله؟ تمتلك الكنيسة طائرة خاصة بما. هل يُعقل أن يتخطى هذا الأمر مارشال؟ ونعلم أن هيرون وموظفيه رفضوا الاستجابة لشكاوى هيلين. واختفت هيلين بعد ذلك".

"اعتقدت أن هيلين كانت متشككة بشأن إساءة استخدام الأموال".

"إنها رواية هيرون، لكنه رفض، مع موظفيه، مساعدة كروكشك في محاولته إيجادها، ثم مات كروكشك بعد ذلك. ورفض هؤلاء التعاون مع بيتي في هذه القضية، ثم أطلقوا النار عليه. هل يُعقل أن يكون أحد المسؤولين الكبار في كنيسة

رحمة الله متورطاً في كل ذلك؟ أوه، يا الله، تذكرت الآن أن كنيسة رحمة الله تدير عيادات في المنطقة الجنوبية الشرقية!"

"دعينا لا نحرف كثيراً. متى سيعود غوليت؟"

"يريد أولاً، وقبل كل شيء استعادة حاسوب كروكشيك هذا الصباح."

نزع رايان الأغطية عنه. أمسكت بيده: "لم يفعل غوليت شيئاً ليساعدني."

أعتقد أنه يحاول أن يحمي هيرون؟"

رفع رايان يدي إلى مستوى شفتيه، ثم طبع قبلة على ظاهرها: "أعتقد أن"

غوليت رجل عنيد."

"لعلك على حق. لكن هل لدينا ما يكفي لإقناعه؟"

"اتصلي بإيما، واشرحي لها ما نفكر به، وأبلغها بشكاوى هيلين لوالدها"

وهيرون، ثم حدثيها عن اختفائها المفاجئ. فسرتي لها علاقة كروكشيك مع

هيلين، والملفات التي أعدها كروكشيك عن بيرك وهابر، وحدثيها عن الشبكة

المتحدة لتقاسم الأعضاء (UNOS)، وعن تجارة الأعضاء البشرية، وعن رودريغز،

بالإضافة إلى عيادة بويرتو فالارتا. أخبرتها أيضاً عن الدليل الذي وجدته عن خنق

كروكشيك، وهيلمز، ومونتاغيو. أخبرتها أيضاً عن الحزوز التي تركها المبعث

على فقرات، وأضلاع، وهيلمز ومونتاغيو. وحاوي أن تعرفي متى تتوقع إيما

الحصول على تقرير تحليل الحمض النووي المتعلق بالرمش الذي وجدته مع عظام

هيلمز."

"هل تخطط لحظف لبانة لفظها صاحبها؟"

قال رايان: "رأيت ذلك في مجلة تلفزيونية، لكنني الرجل الذي يفضل علبه

صودا مستعملة."

"أنت صدفة الحلزون التي احتوت على الرمش من كائنات تعيش في المياه

العذبة، لكنها وجدت مع جثة هيلمز المدفونة على شاطئ في المياه المالحة. يتعين

علينا اكتشاف ما إذا كان مارشال يعيش قرب مستنقع من المياه العذبة، أو قرب

بحري مياه أو نهر."

"إنك مذهشة يا دكتورة برينان."

"فكّر في دي ويز أيضاً. يقلّ عدد سكان الجزيرة عن سكان ماي بيري. لا يوجد في الجزيرة جسر، أو أي شيء آخر، يصلها بالبر، كما أن العبارة مخصصة للسكان وضيوفهم فقط".

شعرت بالتوتر، لكنني تابعت: "أين يتخلص المحرم عادة من جثة؟ إنه يضعها داخل منطقة يعرفها جيداً".

"يا لأفكارك اللامعة!"

"شكراً لك أيها التحري رايان".

"إليك خطتي. اتصلني بالمستشفى، واستعلمي عن حالة بيتي. أحضري حاسوبك، ثم حضّري قائمة بآخر التواريخ التي شوهد فيها الأشخاص المفقودون. سأجري بعض الاتصالات الهاتفية في غضون ذلك. سنجري، عندما أفرغ من المكالمات، بعض الأبحاث معاً عن مارشال، وذلك الشخص النبيل في دي ويز".

تناول رايان بنطاله البحري القصير.

"لن يعرف المساعد دواغ غوليت ماذا سيصيه".

أخبرتني المريضة المسؤولة أن بيتي مستيقظ ويستطيع الكلام، وأن مؤشراته الحيوية مستقرة. أضفت أن الطبيب سيراه هذا الصباح، وسيقرّر عندها المدة التي يحتاجها للبقاء في المستشفى. شكرتها، ثم طلبت منها أن تحرص على إبلاغ بيتي أنني اتصلت لأطمئن عليه.

اخترت بعناية كلمات رسالتي الإلكترونية التي سأرسلها إلى كاتي. "سيبقى والدك في المستشفى لعدة أيام. أطلق أحد الدخلاء رصاصة عليه في منزل آن في جزيرة النخيل. لا تجرعي. إنه يتعافى جيداً. إنه الآن في مستشفى الجامعة الطبية لكارولاينا الجنوبية في تشارلستون. سيخرج والدك من المستشفى قبل أن تتمكني من الحضور إلى هنا، وسيُخبرك عمّا حصل عندما يراك ثانية. أقبلي حبي. والدتك".

عدت إلى لائحة الأشخاص المفقودين التي أعدتها. لاحظت أن أوقات اختفائهم تعود إلى ما قبل خمس السنوات. دخل رايان إلى المطبخ عندما كدت أنتهي. سكب القهوة، وانضم إليّ جالساً بقربي إلى الطاولة. فهمت من حاجبه المقوس أنني لا أبدو على أفضل صورة.

"لا تقلها يا رايان".

"تدينين لرجل يدعى جيرى بالكثير من الشراب الاسكتلندي".

"ومن يكون جيرى هذا؟"

"إنه شاب يعيش في كوانتيكو، أطلق التصفح الذي قمت فيه في قاعدة بيانات المركز الوطني للمعلومات عن الجرائم عملية بحث عن دومينيك رودريغز. وجده جيري لكن بوسيلة أخرى". أضاف بعد أن رسم ابتسامة على شفثيه: "إن جيري هو رجل مخادع".

أمسكت شعري وجمعت كتلة واحدة: "لا تلعب معي يا رايان".

"يشبه شعرك شعر غلينليغيت".

"علم".

مرّت فترة صمت بينما ارتشف رايان فهوته: "إن رودريغز مواطن مكسيكي ولد في وادي الحجارة. إنه يعمل الآن بصفته رئيس العلاجات الصحية في أبريغو أيلادو دي لوس سانتوس، الكائنة في بويرتو فالارت في المكسيك".

"أوضح أكثر! لماذا ترك رودريغز سان دييغو؟"

"يتابع جيري عمله، حتى بينما نتكلم. لتتحدث الآن عن ليستر مارشال".

انتظرت رايان لينهي ارتشاف المزيد من القهوة.

"برز اسمه على الشاشة".

بدأ قلبي بالتحرك في صدري: "أنت تمزح. ماذا فعل مارشال؟"

"أخذ ذلك الطبيب الطيب حريته بالنسبة للأدوية".

"هل كان يصف أدوية على هواه؟"

"أفرط الرجل بوصف الأدوية. استطاع ذلك الطبيب أن يعيش حياة محترمة بإعطاء وصفات لمواد تقع تحت المراقبة. أقدم أحد زملائه على الوشاية به، فعلقت رخصة مارشال على أثر ذلك، وعلى ما يبدو لم يتب الرجل. أبطلت رخصة مارشال بعد وصول شكوى ثانية عنه، وإجراء تحقيق معه. لم يسر المحققون في تولسا، وهياؤا التهم الجرمية. أمضى مارشال ثمانية عشر شهراً في السجن، ثم اختفى".

"أين كان مارشال في الفترة الممتدة بين وجوده في تولسا وتشارلستون؟"

"بحقّ جيري في هذا الموضوع. هل أنهيت ترتيب تواريخ الاختفاء؟"

أبرزت لائحتي لرايان. فأسرع بإجراء بعض الحسابات الذهنية.

"افتتحت آبريغو آيلادو دي لوس سانتوس منتجعها للينابيع المعدنية في عام اثنين وتسعين. وتوقّف مارشال عن ممارسة مهنة الطب في أو كلاهما عام تسعة وثمانين. ترك الولاية عام واحد وتسعين بعد الفضيحة التي طالته، ثم ظهر هنا مجدداً عام خمسة وتسعين".

نقر رايان على القائمة وأضاف: "إذا تبين أن ما قاله ذلك الرجل المخمور الذي استجوبه مساعد غوليت صحيح، فسيعني ذلك أن هيلمز اختفى بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، من عام 2001، أما الباقون فاختفوا بعد هذا التاريخ. بدلاً ذلك على أن مارشال ورودرiguez قد استغرفا وقتاً طويلاً ليتعاوننا، أو أننا بحاجة لفتح عدد من القضايا الباردة (العالقة). هل سمعت شيئاً جديداً من غوليت؟"

هزرت رأسي، وتحرّرت كتلة الشعر من فوق رأسي.

أمسك رايان بعض خصلات شعري ووضعتها وراء أذني: "أتساءل ما إذا كانت أسماكك قد بدأت بالعض".

تناولت هاتفي الخلوي. وصلتني عاملة الهاتف عند غوليت به هذه المرة. لم أضيّع وقتاً على التحيات.

"يقوم مارشال بقتل الناس ليسرق أعضائهم".

أجاب بنبرة باردة: "إنه اتهم خطير جداً. سمعت عن حادث إطلاق النار. هل لي أن أعرف كيف هي حالة المحامي؟"

"إنه يتعافى بشكل جيد، شكراً لاهتمامك".

"وهل حضرت شرطة جزيرة النخيل إلى مسرح الحادث؟"

"نعم".

"وكيف يفسرون ما حدث؟"

"إنهم يميلون إلى اعتباره عرضياً".

"هممم".

لم أفهم ماذا يقصد، لكنني لم أكن في مزاج يسمح لي بمتابعة الحديث.

"إن العلامات التي ظهرت في عظام هيلمز ومونتاغيو تتوافق مع شفرة مبضع

جراحي".

حصلت على "هممم" أخرى، ثم أخبرته ما اكتشفته في حاسوب كروكشك. توقفت عن الكلام، وسمعت غوليت يُصدر صوتاً فسرتته على أنه يجثني على متابعة حديثي. لحضت له الأشياء التي اكتشفناها حول مارشال ورودرiguez.

قال برتابة: "هل ما زلت تتحدثين عن هيلمز ومونتاغيو؟"

"نعم، حتى الآن. تبين أن شخصاً مفقوداً يدعى جيمي راي كان مريضاً يتردد على عيادة كنيسة رحمة الله. ومن يدري كم يوجد غيره من الأشخاص؟ أعتقد أن أحدهم قتل كروكشك لئسكته، قبل أن يتوجه لئبلغ السلطات. ويُحتمل أيضاً أن يكون هذا ما حصل مع هيلين فلين أيضاً".

"آه - ها".

"اختفى شخص يعاني من انفصام في شخصيته، ويدعى لوي آيكمان في العام 2004. أعاد أحد الصحفيين نشر قصته في آذار (مارس) الفائت. وُجدت والدة آيكمان ميتة في سيارتها يوم الثلاثاء الفائت. ويُحتمل أن يكون أحد الأشخاص قد قتلها لإخفاء علاقة جيمي راي بكنيسة رحمة الله".

"نعرف أن أحد الضحايا قد دُفن، وأن ضحية أخرى جرى رميها في المحيط، وأحدهم سُثق على شجرة، وامرأة وُجدت مقتولة في سيارتها، لكننا لا نمتلك دليلاً واضحاً على أن شخصاً واحداً قد اقترف كل هذه الجرائم".

"يتمتع الشخص الذي دبر هذه الجرائم بالذكاء، مهما كانت هويته. ويُحتمل أنه نوع في طريقة الجرائم حتى لا يُكتشف الرابط فيما بينها، وذلك في حالة اكتشاف الجثث. لكننا متأكدون من أمر واحد، لدينا ثلاث ضحايا ماتت خنقاً".

"أين تقع تلك العيادة المكسيكية؟"

"إنها تدعى آبريغو آيلادو دي لوس سانتوس، وتقع في بويرتو فالارتا".

سمعت صوت استدارة كرسي غوليت. قال بعدها: "ماذا تريدني أن أفعل؟"

"أحتاج لأية معلومات تستطيع جمعها عن ملكية، أو تاجر، الطائرات الخاصة في هذه المنطقة، وعلى الأخص الطائرات التي تستخدمها كنيسة رحمة الله أو مارشال. أريد الحصول كذلك على لائحة بالطائرات الخاصة المسجلة محلياً، إذا كان ذلك ممكناً".

"سأعین مساعداً ليهتم بهذه المسألة".

"أريد أيضاً رأيك بالشخص الذي يجد سهولة كبيرة باستخدام دي وير
كمكان لرمي الجثث".

"حضرت لائحة بأصحاب المنازل في وقت اكتشاف جثة هيلمز. وجدت أن
القليلين جداً يمكثون في الجزيرة بصورة دائمة. ولاحظت أن معظم المنازل تُعتبر
منزلاً ثانياً بالنسبة للملكيها، وأن هناك قسماً كبيراً يُجرّ كبيوت سياحية. سأخذ
وقتي لأتفحص سجلات التأجير ابتداء من سنة 2001. أعتقد أن مالكي البيوت
الذين يُجرّون بيوتهم بأنفسهم لا يحتفظون بمثل هذه السجلات".

"نعم، افعل هذا. أين يعيش مارشال؟"

"انتظري لحظة من فضلك".

رَنّ هاتف رايان الخليوي أثناء فترة انتظاري هذه. ردّ رايان على المكالمة.
سمعت الكثير من كلمات "نعم"، و"آه - ها" أثناء تسجيله لبعض الملاحظات.
عاد غوليت إلى الخط: "يمتلك مارشال منزلاً يقع في فاندرهورست في
جزيرة كياواه".

"إنه مكان بعيد بالنسبة لمروّج أدوية يعمل بدوام جزئي في عيادة مجانية. هل
يمتلك زورقاً؟"

بدأ غوليت بالتأنيب الذي توقعته: "سأتحرّى عن الأمر، لكن أريدك أن لا
تقومي أنت، ورجلك الذي ما زال ناشطاً، بمضايقة مارشال مجدداً. إذا كنت محقّة
بشأنه فليس من المنطقي أن تدفعيه لخطوة متسرعة".

بقيت مستيقظة طوال الليل، وها هي كياستي الجنوبية تتلاشى، وهي التي لم
تكن يوماً إحدى حسناتي: "هل تقول إذا؟ إن مارشال هو رجل فاسد. اختفى
مريضان كانا يترددان على العيادة التي يعمل فيها، بالإضافة إلى موظفة سابقة. والله
وحده يعلم أين تقبع جثة فلين!"

"تقولين لي إن رودريغز لا يمتلك سجلاً إجرامياً. إنه مكسيكي غادر
كاليفورنيا ليمارس الطب في المكسيك. لم يرهن لي أحد عن وجود رابط بينه وبين
كارولاينا الجنوبية. لا أمتلك سنداً قوياً لأطلب من السلطات المكسيكية إجراء

تحقيقات بشأنه. تعرفين جيداً، مثلما أعرف أنا، أن إجراء تحقيق عن رجل استناداً إلى أصله يُعتبر من المضايقات التي لا مبرر لها، أو نوعاً من التمييز العرقي".
"يُحتمل وجود مئة سبب يدفعنا للشك أن رودريغز...".
حرك رايان يده ليحذب انتباهي، ثم ناولني ورقته. قرأت ما كتب فيها من ملاحظات.

"لم يظهر اسم رودريغز في قاعدة بيانات المركز الوطني لمعلومات الجرائم لأنه لم يرتكب جريمة في الولايات المتحدة. حسر رودريغز رخصته في كاليفورنيا بسبب ممارسته الجنس مع المرضى".
رمت رايان بنظرة متسائلة. فأوماً ليؤكد ما جاء في الورقة.
"وما أهمية ذلك بالنسبة لجريمة وقعت في ولاية كارولينا الجنوبية؟"
لا أستطيع أن أصدق أن هذا الرجل العنيد بقي غير مقتنع: "هل تريدني أن أفرغ أمامك وعاء بسعة خمسة غالونات من الكلى على طاولتك لتصدق؟"
نطق رايان: "إنها نقطة جيدة".

بدالي أن لهجة غوليت بدأت تشي ببعض المشاعر، الكراهية على وجه التحديد: "وجدت، أيتها الأنسة، من خلال عملي في تطبيق القانون أن التخمينات الجاهحة ليست إلا بديلاً فاشلاً لوجود الدليل. أريدك أن تبذلي المزيد من التفكير في هذه النقطة. سآتي لآخذ الكمبيوتر. الزمي الهدوء قليلاً".
عدت للحديث عن ورقة رايان: "دعني أؤمن. يقول جيرى المتعدد المواهب".
"إن جيرى هو في قلب القضية الآن".

"إن غوليت هو في طريقه إلينا. إنه يصغي، لكنه لم يقتنع حتى الآن، وهو يعتقد أنني هستيرية".

"وماذا يتطلّب الأمر ليقتنع؟"
"يريد مستفيداً من زرع الأعضاء شعر بالذنب، ويضع نفسه بتصرف جيرى سبرينغر".

حصلنا بعد مرور ساعتين على شيء أفضل، وذلك بفضل جيرى الغامض، لكن المثابر. واجهت غوليت بمعلوماتي الجديدة عندما دخل من الباب.

"جيمس غارتلاند، من إنديانابوليس، في ولاية إنديانا. كان في المرحلة الأخيرة من مرض الفشل الكلوي. أجرى عمليات غسل كلّي لمدة ثلاث سنوات. سافر إلى بويرتو فالارتا في عام 2002. دفع الرجل مبلغ مئة وعشرين ألف دولار مقابل الحصول على كلى، وإقامة مؤقتة في أبريغو آيلادو دي لوس سانتوس. فيفيان فوس، من فلوريدا. وصلت إلى المرحلة الأخيرة من الفشل الكلوي. أجرت غسل كلّي لمدة سنة ونصف. سافرت إلى بويرتو فالارتا في عام 2004. بلغت كلفة عطلّة "فيفيان" لذلك المنتج مئة وخمسين ألف دولار".

واجهت غوليت بالمعلومات التي زوّدنا بها جيري: "لا أعتقد أن المستفيدين المحظوظين سيكونون على درجة من الجنون كي يدلّوا بشهادتهم، لكن فليبارك الله مذكرات الإحضار".

أخذ غوليت وقتاً طويلاً لقراءة الورقة التي كتبها رايان خلال محادثته الثالثة مع جيري.

"هل يعمل رجلكم هذا في مكتب التحقيقات الاتحادي؟"

قال رايان: "نعم".

"وهل تكلم شخصياً مع غارتلاند وفوس؟"

"نعم".

"وكيف حصل على الأسماء؟"

"استطاع إقناع عميل رائع يتكلم الإسبانية في كواتيكيكو ليتحدث مع سيدة مكسيكية رائعة تعيش في آريغو".

"وهل لعب المال دوره؟"

"نعم".

"ولماذا تعاوننا معه؟"

قال رايان: "يتمتع جيري بشخصية جذابة".

استمرّ غوليت بالتحديق بالورقة. أعتقد أنه انهمك بتنظيم الحقائق في رأسه. لاحظت أن وجهه كان جامداً كالصخر عندما رفع رأسه.

"هل يفكر مكتب التحقيقات الاتحادي بالتدخل في هذه القضية؟"
"يسدي لي جيري خدمة في الوقت الحاضر. إن هذا يتماشى مع الطريقة التي
تفكر بها، وأنا متأكد من أن المكتب الاتحادي سوف يتدخل".
"إن ما قاله غارتلاند وفوس لا يشكل جريمة مع ذلك".
رفعت يديّ في الهواء.

استنشقتُ غوليت الهواء، ثم زفره من خلال أنفه، ثم ربطت حزامه: "ومع ذلك
أقول لكم إن مارشال يحتفظ بزورق باي لاينر (عابر الخليج) يبلغ طوله ثلاثة
وعشرين قدماً في بوهيكيت مارينا. يقول مدير المرفأ إن الزورق أبحر نهار السبت،
ولم يعد حتى الآن".

قلت: "تحدثتُ ورايان مع مارشال نهار السبت".
لوّح غوليت بورقة رايان: "هل تحدثتما معه عن الأشياء التي وردت في هذه
الورقة؟"

هزرت رأسي بالنفي: "لكنني سألته عن أونيج مونتاغيو وهيلين فلين".
نظر غوليت إلى ساعته. ونظرت ورايان إلى ساعتينا. أشارت العقارب إلى
التاسعة وسبع وأربعين دقيقة.
"دعونا نحاول إيجاد مكان ذلك السيد لتحدث معه، فربما كانت العيادة
خارج نطاق صلاحياتي، لكن الأمر يختلف مع الجثتين".

لحقتُ بغوليت إلى العيادة برفقة رايان. لم نتحدث كثيراً في الطريق. شعرت
بالتوتر قليلاً، لكنني شعرت أكثر بالإثارة نتيجة إمضائي الليلة من دون نوم.
استطعت فقط تخمين الأفكار التي تدور في ذهن رايان.

التقاني مساعدان خارج العيادة في ناسو. وصلت الوحدة الجنائية في الوقت
الذي كان فيه غوليت يعطي توجيهاته لفريق المساندة. علمت أنه تمّ استصدار
تفويض بتفتيش العيادة. ستمكن وحدة مسرح الجريمة من قلب العيادة رأساً على
عقب فور الحصول على هذه المذكرة. فكّر غوليت ملياً بموقفه في الطريق من
جزيرة النخيل، واتصل بالسلطات في المكسيك. تمّيت أن يحصل شيئاً مشابهاً في
منتجع المياه المعدنية في بويرتو فالارتا.

بدأ قلبي يذب بعنف داخل صدري. ماذا لو أنني مخنطة؟ لا. لا يمكن أن أكون مخنطة. إنه مارشال بالتأكيد. أعتقد أن هذا الرجل شرير، ويشعر باليأس لتجميع ثروة.

حام رجل أمن حول المنطقة لتغطية المدخل الخلفي للعيادة. تبعت غوليت برفقة رايمان ورجل الأمن الآخر، ودخلنا من الباب الأمامي. رأيت بيرى جالسة أمام طاولتها. بقي رجل الأمن في المدخل، بينما تمركزت ورايمان في طرفي الغرفة. لاحظت وجود ثلاثة مرضى يجلسون على الكراسي البلاستيكية بانتظار مواعيدهم. شاهدت امرأة مسنة سوداء، وشاب مستهتر يرتدي كنزة صوفية، أما الثالث فبدا مثل مدرّب فريق مدرسي لكرة المضرب. راقبتنا المرأة المسنة من خلال نظارة مربعة وكبيرة. توجّه الشاب المستهتر مع المدرب نحو المدخل، فتراجع مساعد غوليت ليفسح لهما الطريق.

سأل غوليت بيرى بكل جدية: "أين الدكتور مارشال؟"

أجابت بلهجة عدائية: "إنه يعاين مريضاً".

تحرك غوليت باتجاه الرواق الذي قادنا مارشال من خلاله قبل ثلاثة أيام. هضمت بيرى من مكافأها، ومدّت ذراعيها على عرض الرواق، وكأنها تريد أن تحمي منزلها.

حافظت تلك الشابة على عدائيتها، لكنني لاحظت شيئاً من الخوف في صوتها: "لا تستطيع أن تذهب إلى هناك".

استمرّ غوليت في تحركه، وتبعناه جميعاً.

تراجعت بيرى في خطواتها، وأبقت على ذراعيها ممدودتين على طريقة النسور، واستمرت في محاولتها إعاقه تقدمنا: "إنها عيادة يتواجد فيها مرضى". أظهر صوت غوليت الصلابة الجنوبية المعروفة: "ابتعدي عن طريقنا يا آنسة، من فضلك".

شعرت بالانزعاج إلى درجة كدت معها أدفع بيرى بنفسي لأحملها على التنحي عن طريقنا. أردت أن يمثل مارشال أمام الشريف بسرعة، أي قبل أن يستطيع الاتصال بشريكه في المكسيك.

ظهر الدكتور في تلك اللحظة خارجاً من عيادته، ورأيناه حاملاً لسجل بياني في يده: "ما هذه الجلبة، آنسة بيرري؟"
خفّضت بيرري ذراعها، لكنّ حملقتها بنا استمرّت. همّت بالكلام، لكنّ مارشال قاطعها بإشارة من يده.

بدا مارشال محتفظاً بهدوئه الكامل، وكان يرتدي معطف محتبرات أبيض اللون، ولاحظت شعره المُسرح جيداً. فكّرت كيف يستطيع ماركوس ويلبي أن يهدئ من روع مريض صعب الانقياد: الشريف غوليت.
أوماً بتجاهي وتابع: "دكتورة برينان. أعتقد أن اسمك برينان، أليس كذلك؟"

بدأ قلبي بالقفز في مكانه. أردت تمزيق أوصال هذا الشرير، وأن أتأكد من أنه يدفع ثمن ما فعله.

جاء صوت غوليت جامداً كالصخر: "لدي يا دكتور مارشال مذكرة بحث في هذا المكان. نرغب بالحصول على معلومات تتعلق بمرضى اختفوا تحت ظروف مشبوهة".

انفجرت شفتا مارشال عن ابتسامة تختصّ بها الزواحف وحدها.
"وما هي علاقتي باختفاء هؤلاء الأشخاص، أيها الشريف؟"
لم أستطع كبح جماح الكلمات التي نطقت بها: "أنت تعلم بوجود أشياء هنا قد تسمح لنا بمعرفة سبب وكيفية موتهم".
تكلم مارشال مع غوليت: "هل هذا نوع من المزاح. إذا كان الأمر كذلك، أوكد لك أنني لا أستمتع به".

بقيت ملامح غوليت خالية من أية تعابير: "سأطلب منك، يا سيدي، أن تتنحى جانباً أثناء قيامنا بالبحث. أفضل بطبيعة الحال أن أجعل من هذه العملية سهلة قدر الإمكان لكلينا".

سألت بيرري بصوت مرتجف: "ماذا يتعيّن عليّ أن أفعل؟"
تجاهل مارشال سؤالها، ولاحظت أن هدوءه الفولاذي يتناقض مع القلق المتزايد الذي أظهرته موظفة الاستقبال عنده، لكنه تحدّث إلى غوليت: "ما هذا

الجنون الذي يجري هنا أيها الشريف؟ أنا طبيب. إنني أساعد الفقراء والمرضى. أنا لا أقتلهم. إنك ترتكب خطأ هنا".

لم يتحوّل غوليت ببصره عن مارشال: "سيدي".

ناول مارشال السجل البياني لغوليت: "سوف تندم على هذا أيها الشريف".

صاحت بيري: "قل لي ماذا أفعل!"

"اهتمّي من فضلك بالمريض الذي يجلس في غرفة الفحص الثانية يا آنسة

بيري".

انتظرت بيري لحظة، ونقلت بصرها ما بين غوليت، ومارشال، وبينى. ثم

نهضت بتناقل بعد ذلك لتحتفي من خلال أحد الأبواب.

أشار غوليت إلى مارشال ليتّجه إلى غرفة الانتظار: "سنقف بهدوء إلى أن

يصل التفويض بالتفتيش".

ركّز مارشال عينيه على عينيّ. رأيت فيهما حقداً يصعب إخفاؤه.

مشى مارشال خلف المساعد الذي قاده ليجلس على أحد كراسي الفينيل،

واستطعت تشق رائحة عطره لما بعد الحلاقة، ولاحظت الحرير ذا اللون الأبيض

المائل إلى الصفرة، والوهج الخفيف لشراريب الجلد. تحوّلت أصابع يديّ إلى قبضتين

من الغضب. شعرت بالصدمة نتيجة غطرسة ذلك السافل، واستهتاره الممتزج

بالغرور.

لاحظت شيئاً غريباً في صدغ مارشال الأيمن. نبض وريد هناك مثل أفعى تمّ

ابتلاعها.

33

انتظرنا في الخارج، وارتشفنا القهوة من أكواب بلاستيكية. تجمّع حشدٌ صغير من الناس على الرصيف. لاحظ المتحمهرون سيارات الكروزر، وعربة كشف مسرح الجريمة. وصل المدعي العام المحلي حاملاً الإذن بالتفتيش، فتحرّكت عربة كشف مسرح الجريمة. وطلب غوليت من رايان، ومني، أن يجلس بهدوء أثناء قيام الفريق بتفتيش العيادة، وكذلك أثناء الهماكة مع مساعده باستجواب الموظفين.

مرّت ساعة. تفرّق المحتشدون ببطء بعد أن خاب أملهم بظهور أي شخص في الخارج. عبر غوليت شارع ناسو إلى حيث جلستُ مع رايان مستنذنين على الجيب.

سألته: "هل وجدتم شيئاً يؤدي إلى توجيه اتهامات؟"
"حصلت على عدة أشياء أريدك أن تريها".

لحقت بغوليت مع رايان إلى العيادة. رأيت بيري جالسةً إلى طاولتها، وتخضع للاستجواب. جلس دنيالز على أحد كراسي الفينيل. بدا الاثنان منزعجين مما يجري. لاحظت أن مارشال خرج ليبتظر في سيارته.

سألت غوليت: "ماذا لو استخدم هاتفه الخلوي؟"
"في الواقع، لا أستطيع منعه لكنني أستطيع تتبع أية مكالمات يجريها".

قاندنا غوليت إلى غرفة معاينة تقع في الطبقة الثانية. بدا المكان نموذجياً. ولاحظنا وجود كرسي، وطاولة للعمل، ومصباح طاولة متحرك، بالإضافة إلى طاولة فحص مغطاة بالأوراق.

تفحصت الخزائن والجدران أثناء سيرنا فوق الأرضية المشمعة. رأيت الأكواب البلاستيكية، وقضبان فحص الضم، والأوراق البيانية لفحص العين، وميزاناً لوزن الأطفال.

سأل رايان من خلفي: "ألم يجدوا مبعضاً لعيناً في هذا المكان؟"
"أتعني هذا؟"

استدرت نحو مصدر الصوت. ورأيت غوليت يحمل كيساً من النايلون الشفاف من ذلك النوع الذي يُستخدم لجمع الأدلة. رأيت في داخل الكيس أنشودة هي عبارة عن سلك معدني بسماكة ربع إنش.

تصوّرت أونيفغ مونتاغيو أثناء صعودها إلى طاولة الفحص، وحيدة ومريضة، وقد وضعت ثقتها في ذلك الطبيب الطيب كي يحسّن صحتها. تصوّرت أونيفغ أيضاً في ذلك الريميل الصدئ، وهي تتحلّل ببطء في المياه المالحة. تخيلت أيضاً الكائنات البحرية أثناء محاولتها الدخول إلى الريميل لتحصل على شيء من حثتها المتعفنة. شعرت أن غضبي بدأ يتصاعد.

سأل رايان: "أين كانت هذه؟"

"كانت مخبأة في خزانة تحت طاولة العمل."

رأيت آثاراً لمسحوق البودرة على السلك، فسألت: "هل عثرتم على بصمات؟"

هزّ غوليت رأسه.

لم أستطع إخفاء الكراهية التي ظهرت في صوتي: "لعله استخدم قفازين طبيين، ومن المؤكد أنه لم يستخدمهما لحماية مرضاه."

قال غوليت: "اتبعيني."

لاحظت أن البابين الآخرين في الطابق العلوي يؤديان إلى غرفة كبيرة واحدة. حَسَّنت أن جدراناً كانت تؤلف غرفة نوم صغيرة وحماماً، قد أزيلت لتشكّل هذه

الغرفة. جُهِّزت هذه الغرفة ببراد، وحوض مزدوج من الفولاذ الذي لا يصدأ، وطاولات عمل، وخزائن مماثلة لتلك الموجودة في غرفة الفحص. رأيت عموداً للحقن الوريدية في إحدى الزوايا. ووضعت طاولة للعمليات الجراحية في وسط الغرفة.

رأيت أربعة برادات صغيرة مثل تلك التي تُشتري من محلات وال مارت، والتي تُستخدم لنقل الأطعمة أثناء النزاهات على الشواطئ. وُضعت أوراق تعريف دليل لاصقة، بألوان حمراء وصفراء.

قال رايان: "إنها غرفة لإجراء عمليات جراحية خاصة".

أشار غوليت بيده إلى الغرفة: "الغرفة مجهزة بستائر للتعتيم، وأضواء خاصة بغرفة العمليات من أحدث طراز".

انتشرت أكياس جمع الدلائل على الطاولة. اقتربت منها كي أتفحصها. رأيت مشابك جراحية، وعشرين مقصاً على الأقل من مختلف الأنواع. ولاحظت أدوات إيقاف النزيف، وقماش جراحي، ومباضع جراحية. لاحظت أيضاً وجود مقابض لمباضع جراحية، وعلب لوضع الشفرات التي سبق استخدامها. شاهدت كذلك قسائم شحن خُتمت بكلمات عيّنات بيولوجية من مركز التوريد. لفت انتباهي أيضاً وجود أكياس معقمة، وصوانٍ مكدسة تُستخدم لجمع العينات.

بدأ صدري بالغليان.

وجدت أنه يصعب عليّ إبقاء الحيادية في صوتي عندما طرحت سؤالي: "وماذا بشأن ملفات المرضى؟"

قال غوليت: "تحضّر بيري كل السجلات المكتيبة، كما أننا صادرنا الكمبيوتر".

"هل تصل المعلومات عن مرضى هذه العيادة إلى مسؤولي كنيسة رحمة الله".
هزّ غوليت رأسه: "إن العيادة هي مؤسسة مستقلة، وكل السجلات تبقى هنا في مكائهم، لكنها تُتلف بعد ست سنوات".

سأل رايان: "ما هي رواية بيري؟"

"قالت إنها لم تلاحظ أي شيء غير اعتيادي، أما الدكتور مارشال فهو فوق مستوى الشبهات بالنسبة لها".

"وماذا بشأن دنياالز؟"

"يقول إنه لم يلاحظ أي شيء غير اعتيادي، أما الدكتور مارشال فهو فوق مستوى الشبهات بالنسبة إليه".

"وماذا بشأن الرجل الذي يتولى التنظيف في العيادة؟"

"يدعى أوديل تاوري. إنه يأتي في الليالي، وهو متخلف عقلياً بعض الشيء. سيتحدث مساعدتي مع تاوري في الغد. أشك في أن ذلك سيوصلنا إلى أي شيء".

سألت: "وماذا يحدث في المكسيك؟"

"ما إن أعرف شيئاً حتى أبلغكما به".

"وماذا بشأن مكتب مارشال؟"

أدخل غوليت يديه الاثنتين في جيبي بنطاله، لكنهما خرجتا فارغتين، ثم ربت على جيب قميصه: "اكتشفت وحدة كشف مسرح الجريمة شيئاً سيءجيك. انتظري قليلاً".

مشى غوليت بخطوات متثاقلة، ثم عاد إلى القاعة. عاد، ودخل إلى غرفة العمليات الجراحية، وخرج حاملاً معه كيساً صغيراً لجمع الأدلة: "وجدنا هذا تحت رف الأقلام، وفي ثغرة بخوفة، داخل أحد أدراج مكتبه. استطاعت وحدة كشف مسرح الجريمة أن تسحبه بمساعدة آلة شفط".

شعرت بابتهاجٍ حلّ مكان الشعور بالاشمزاز الذي شعرت به أولاً.

احتوى الكيس على صدفة صغيرة بيّنة اللون. لاحظت أنها تشبه الصدفة الصغيرة التي وجدتها في قبر ويلي هيلمز.

قال غوليت: أستأذنكم للحظة. يتعيّن عليّ إبلاغ هذا الطبيب الطيب أنه تحت الاعتقال، وذلك للاشتباه بارتكابه جريمة قتل أونيج مونتاغيو، وسأرتّب أمر اعتقاله ونقله".

تناولنا غداءً سريعاً، توقفت بعده مع رايان في المستشفى. سمعنا أخباراً طيبة أخرى. بدأ بيتي بالتحدث بصورة طبيعية، واستعاد القليل من لونه. وقال الجراح إن ذلك المفكر الذي جاء من لاتفيا عانى من تمزق في عضلاته، ومن بعض النزيف في الشرايين، وأنه سيشفى، وأن كل شيء سيعود إلى حالته الطبيعية من دون ترك أثر دائم.

دُهِشتُ للشعور بالاختناق الذي أحسسته في حنجرتي. أدركت أنني سأشعر بالارتياح والامتنان لتحسن حالته، لكنني صُغقت بمدى عمق العاطفة التي اجتاحتني حيال هذا الأمر. شعرت أن الدموع ستتهمر من عيني عندما نظرت إلى الأنابيب، والأشرطة اللاصقة، والآلات التي تحيط به. أدركت أن الرضاصة كانت ستقتله لو وصلت إلى مسافة أبعد بيوصات قليلة باتجاه وسطه. مسحت دموعي عن خدي متظاهرةً بأنني أقوم بجمع شعري. أمسك رايان بيدي وضغط عليها. نظرت نحو الأعلى. وعرفت من التشوش الذي بان على وجهه بأنه لاحظ دموعي.

أبلغتنا إيما بأخبار جيدة هي الأخرى. لم يرتفع تعداد خلايا دمها، لكنها لم تنزل أيضاً. عدلت لها الدكتورة رسل نظامها الغذائي، وجرعات أدويتها. أبلغتني أنها لم تعد تستبعد كل الكعك المحلى.

طلبنا من إيما الاتصال بعالم الرخويات، وأن تسأله إن كان يستطيع فحص العينة في ذات اليوم، إذا توجهتُ ورايان إلى كولومبيا؟ قال إنه سيقوم بالفحص. يبدو أننا نُحرز نجاحاً!

استغرقت الرحلة أقل من تسعين دقيقة. استقبلنا رجل يدعى ليبينسكي في رواق بناية مختبر الولاية. لاحظت أن ليبينسكي رجل طويل، ومفتول العضلات، ويتميز برأس أصلع ولامع، وأنه يضع حلقة في إحدى أذنيه. بدا أنه أكثر نظافة من السيد نظيف الذي هو نموذج أستاذ مادة علم الحياة.

قلتُ له: "شكراً لمجيئك".

هزّ ليبينسكي إحدى كتفيه المكتنزتين: "ليس لدي صفوف تعليمية اليوم، كما أن حرم الجامعة قريب من هنا".

اصطحبنا ليينسكي إلى مختبر صغير تتواجد فيه خزائن تحتوي على عشرات الأدرج العنوبيلة والضيقة. رأيت طاوولات طويلة طليت سطوحها بلون أسود، ووضعت فوقها صوان للفحص. رأيت أيضاً العلب التي تحتوي على القفازات الطبية، وشرائح زجاجية، ومجاهر.

مدّ ليينسكي يداً بحجم الأيدي التي تستخدمها المشجعات في المباريات الرياضية.

أخرجت كيس جمع الأدلة.

أخرج ليينسكي الصدفة، ووضعها تحت المهر. جلس ثم عدّل تركيز المهر. مرّت الثواني. مرّت دقيقة بأكملها. ومرّت خمس دقائق أخرى.

تبادلتُ ورايان النظرات من فوق ظهر ليينسكي المنحني. رفع رايان حاجبيه وراحني يديه. لماذا هذا التأخر الكثير. هزرت كتفيّ.

قلّب ليينسكي الصدفة.

انتشرت رائحة المواد المطهرة واللاصقة في الهواء الحار والرطب. حرّك رايان، الواقف إلى جانبي قدميه، ونظر إلى ساعته.

نظرت نحوه بالطريقة نفسها التي نظرت بها والدتي إليّ عندما بدأت أتململ في الكنيسة.

تنحى رايان، واستدار، ثم تفحص الخزائن.

قلّب ليينسكي الصدفة، وغيّر مقدار التكبير.

وضع رايان ذراعيه بشكل متصالب. عرفت أنه سيدلي بتعليق. سأل رايان:

"هل تحتوي هذه الخزائن على مجموعات نموذجية؟"

قال ليينسكي: "هم".

"هل هي كمية كبيرة من الرخويات؟"

لم يقمّ ليينسكي جواباً.

"لا بد أنه تعب كثيراً لينقلها إلى هنا".

أغمضت عينيّ وفتحتهما.

بدا ليينسكي جامداً مثل غوليت. تسبب الضوء الصادر عن المجهر يجعل شعرات صدره الملتفة تبدو مثل أسلاك بيضاء: "بلح البحر والرخويات ليسا الشيء ذاته".
"وماذا أيها الفتیان تعتقدان أن سانتا كلوز سيقدم لكما؟"
قلت: "انتظر أن يقدم لنا حلزونا يعيش في المياه العذبة، ويدعى فيفاباروس إنتركتوس".
"أرى أنكما فتى وفتاة طيبان".

قال رايان عندما وصلنا إلى I-26: "إذا لا ينتمي بلح البحر والرخويات إلى نفس العائلة. لتتصور ذلك".
أشارت عقارب الساعة إلى ما بعد السادسة عندما بدأنا بسلوك طريق العودة إلى تشارلستون. توقفنا قليلاً عند متنزه بيغي موريس. تُعتبر آراء موريس بيسينجر السياسية هجومية، لكنه يحضّر صلصة مشاوي من الدرجة الأولى.
شعرت بالتعب نتيجة سهري في الليلة السابقة. التهمت شيئاً من اللحم، والمقالي، والشاي المحلى. أردت أن أهالك على وسادتي، وأستسلم للنوم. ولكنني اتصلت، بدلاً من ذلك، كي أخبر غوليت بشأن تحديد نوع الحلزون الذي قدمه ليينسكي لنا.

"تنتمي الحلزونات إلى نفس النوع الذي يعيش في المياه العذبة، مثل تلك التي وجدناها مدفونة مع هيلمز".
"ستحيين ما سأقوله لك".

هل فعلاً سمعت نغمة ما في صوت غوليت؟ هل تدلّ هذه النغمة على السعادة، أم على الارتياح؟

"أصدر مكتب المدعي العام مذكرة تفتيش ثانية بعد الانتهاء من تفتيش العيادة. قلبت وحدة كشف مسرح الجريمة منزل مارشال رأساً على عقب. يبدو أن الطبيب هو رجل ذو ذوقٍ رفيع. وجدوا أن المكان يشبه الدير، وهو نظيف إلى درجة التعقيم. ووجدوا أيضاً القليل من الممتلكات الخاصة، لكنني أستطيع أن أقول إن مارشال هو هاوٍ لجمع المقتنيات".

لم يكن هناك من شك بشأن النعمة التي تميّز صوتي. جاءت كلماتي بمثابة الانتشاء: "الأصداف!"

"وجدنا مئات منها، وكلها مرقمة ومصفوفة في علب صغيرة وأنيقة".
سمعت صوتاً في مكان ما.

وضعني غوليت في وضعية الانتظار: "انتظري قليلاً".

أبلغت رايان بشأن هوية مارشال في هذا الوقت.

"أتمنى أن لا يضع الرخويات وبلح البحر في الصينية ذاتها".

حمل إليّ غوليت، عندما استأنف حديثه، أخباراً جديدة.

"يتواجد زورق مارشال المسمى باي لاينر في كي لارجو، فلوريدا".

"يبدو أننا حصلنا على نتائج سريعة".

"أرسلت إلى جميع المراكز بطلب الحصول على معلومات عن مكان وصناعة هذا الزورق، ورقم تسجيله. شاهد رجال شرطة كي لارجو هذا الزورق منذ عشرين دقيقة مضت. قالوا إن اسم الزورق هو **فلايت أوف فليمسي**".

"كانت **فلايت** (رحلة طيران) حقاً، لكنها ليست **فليمسي** (بسيطة)، لكن

كيف وصل الزورق إلى "كي"؟"

"يدّعي سيّد يدعى ساندي مان أنه اشترى هذا الزورق في تشارلستون، وقال إنه قام برحلة إلى الجنوب يوم الأحد. تأكّدنا من صحة تواريخ الرحلة. ويقول الشهود إن **فلايت أوف فليمسي** قد رسي في وقت ما يوم الاثنين".

"وماذا يقول مان؟"

"إنه في الطريق إلى هنا ليُخبرنا".

"ورودريغز؟"

"اقتحمت شرطة بويرتو فالارتا منتجع آبريغو في وقت يقارب وقت اقتحامنا عيادة مارشال. ووجدت الشرطة هناك نفس التجهيزات التي وجدناها هنا تقريباً، لكنهم قالوا إنهما تبدو أكثر تعقيداً هناك. يبدو أن هذا المنتجع هو مركز هام جداً".

"ورودريغز؟"

"لم يجده في المتجّع، ولا في منزله، ولا في النادي. قالوا إن إحدى السيارات مفقودة. وتقول صديقتة إنه ربما ذهب بها إلى أوكاسكا لزيارة أصدقائه".

"أعتقد أنه فرّ".

"يُحتمل هذا كثيراً".

"لا بد أن مارشال قد أنذره".

"ستمسك الشرطة المكسيكية به في النهاية، مع أنهم غير متأكدين من التهم التي سيوجهونها إليه".

"أقدم الرجل على بيع الأعضاء البشرية التي انتزعها من ضحاياه".

"أعتقد أن رواية محامي الدكتور رودريغز ستكون مختلفة. فإذا كانت لديه سجلات مزيفة عن مصادر الأعضاء التي زرعتها، فسيكون من الصعب جداً الادعاء عليه. يتعيّن علينا إذاً أن نثبت وجود عملية تسليم عضو انتزع من الضحايا، وأن نثبت علمه بها".

قلت باستهجان: "أتقول دكتور؟ هذا الرجل معاق عقلياً وهو يستحق أن يُسجن. لا يستحق أي شخص يرتكب جرائم القتل أن يُطلق عليه لقب دكتور. وينطبق الشيء نفسه على مارشال".

"لن يستطيع مارشال الذهاب إلى أي مكان، لأن قاضي التحقيق يحتجزه بتهمة ارتكاب جريمة من الدرجة الأولى".

"وماذا قال؟"

"قال إنه يريد تعيين محام".

"يعطيه القانون حق عرض قضيته أمام قاضي خلال ثمان وأربعين ساعة. سيُطلق سراح مارشال بسند إقامة نهار الجمعة".

"إذا كان الأمر كذلك فلن نتركه. يقوم مساعدي بتفحص سجلات العيادة في هذه الأثناء".

"هل حصلت على الملف الذي أعدده على الكمبيوتر؟"

"انتهيت من التدقيق بالمجموعة الأولى من الأسماء. لم أجد شيئاً. أعتقد أن مارشال قد ألغى كل المعطيات عن المرضى الذين قتلهم".

"يحتفظ الرجل بملف مونتاغيو".

"صحيح".

أبلغت رايان بآخر التطورات بعدما انتهينا من الاتصال الهاتفي. استرخيت بعد ذلك وأغمضت عيني. شعرت بمزاج جيد، في الواقع جيد جداً، مع أنني كنت مرهقة كثيراً.

يقبّع مارشال وراء القضبان، ويجري العمل على تجميع الدليل الذي سيدينه بجرمة القتل المتعمد، وهم عديدة أخرى لا تُحصى.

لقد أطبقنا على شبكة دولية لتهريب الأعضاء البشرية. وتكونت عندي قناعة بأنه سيُقبض على رودريغز ويُحاكم، بالرغم من أنه تمكّن من الإفلات من الاعتقال في الوقت الراهن.

شعرت بالارتياح لأنني وفيت بقسَمي لمساعدة إيما، ولهذا يستطيع الرجل الذي دُفن في دي ويز، والرجل الذي علّق على شجرة، والسيدة التي وُضعت في البرميل، أن يرقدوا الآن جميعاً بسلام.

يشغل غوليت بالعمل مع شرطة تشارلستون، وتكونت عندي قناعة راسخة بأنه سيتم الحصول على أمكنة تواجد كل الأشخاص المفقودين في النهاية، ومن بينهم آيكمسان، وتيل، وفلين. أعتقد أيضاً أن مكتب التحقيقات الاتحادي سيتدخل، من دون شك، إذا ما تمّ حرق القوانين الاتحادية.

نظرت إلى الساعة الموجودة على لوحة قيادة الجيب عند دخوله باحة منزل البحر على امتداد أميال. أشارت الساعة إلى أن الوقت 7:42. رنّ هاتفي الخليوي عندما صعدنا الدرج. ضغطت على زر استقبال المكالمات، وتميّت أن يكون غوليت هو المتصل ليحمل إليّ خبر اعتقال رودريغز.

انساب صوت رجل، لكنني لم أتمكن من تحديد صاحبه: "الدكتورة برينان".

"من المتصل من فضلك؟"

"أنا الدكتور ليستر مارشال. أحتاج إلى مقابلتك".

"ليس هناك أي شيء مطلقاً...".

"على العكس تماماً. أعتقد أنني أسأت التعبير". صمت مارشال قليلاً قبل أن يضيف: "أنت هو الشخص الذي يحتاج لمقابلتي".
"أشك في ذلك".
"إن الشك بما أقوله لك ليس بالأمر الحكيم، يا دكتورة برينان. تعالي غداً.
تعرفين أين تجديني".

احتُجز مارشال في مركز الاعتقال الذي يقع في جادة ليدز، شمال تشارلستون. توجهتُ ورايان لرؤيته في الصباح التالي. تناقشتُ مع رايان، قبل استسلامنا للنوم، بسلبيات وإيجابيات الذهاب. وقف رايان إلى جانب عدم الذهاب، بينما دافعتُ عن إيجابيات مقابلة الرجل. وقف غوليت والمدعي العام المحلي إلى جانبي، وقال إنه ليس هناك من شيء نخسره.

تملكني الفضول في الحقيقة. أعرف أن غرور ذلك الرجل يصل إلى السماء. لماذا إذاً تنازل واتصل بي؟ هل يريد عقد صفقة؟ لم أجد ذلك أمراً منطقياً، لأن المساومة على الاعتراف هي من شأن المدعي العام المحلي.

وضعت نصب عيني هدفاً آخر بالإضافة إلى عامل الفضول. سبق لي أن رأيت رايان وهو يستجوب مشبوهين. شعرت بوجود فرصة أن يدين ذلك التافه نفسه، إذا أخذنا غرور مارشال بعين الاعتبار.

مررتُ ورايان بالإجراءات الأمنية الموجودة في مركز الاعتقال. صعدت وإياه إلى غرفة الاستجواب التي تقع في الطابق الثاني. ووجدنا مارشال ومحاميه هناك جالسين إلى طاولة معدنية رمادية اللون. ظهر توتر مارشال بوضوح فور رؤيته رايان. ولم يقف الرجلان عندما دخلنا.

سأل المحامي: "من هذا؟"

قلتُ: "إنه حارسي الشخصي".

قال المحامي: "لا".

هزرت كنتفي دلالة على عدم الاكتراث، واستدرت لأنصرف.
رفع مارشال يده فالتفت المحامي إليه، ثم أوماً مارشال بشدو. أشار لنا المحامي
بوجوب أن نُجلس.

اخترتُ أن أجلس ورايان على الكرسيين المقابلين للرجلين. عرّف المحامي عن
نفسه بكونه والتر تاكرمان. إنه رجل قصير وأصلع، يتمتع بجفنين مثقلين بشرايين
دقيقة حمراء اللون.

تكلم تاكرمان أولاً، متطلعاً نحوي: "يريد الدكتور مارشال الإدلاء بتصريح.
يمكنك أنت، و**فقط** أنت، طرح الأسئلة المتعلقة بذلك التصريح. وإذا خرج أي
سؤال عن حدود ذلك التصريح فسأعمد إلى إيقاف الاجتماع فوراً. هل هذا
مفهوم آنسة برينان؟"

قلت بصوت بارد: "أنا دكتورة".

رسم تاكرمان ابتسامة متملقة على شفثيه: "دكتورة برينان".
من يكون هذا الرجل بحق الجحيم؟ إن مارشال بضيع وقتي. بقيت في مكاني
رغم دافع أغرائي بالمغادرة.

ربت تاكرمان على كتف موكله: "ابدأ يا ليستر".

وضع مارشال يديه على الطاولة. بدا أقل أناقةً بكثير بثياب السجن التي دل
لونها على غسلها مرات عديدة.

"وقعت في مصيدة".

"حقاً".

أبقى مارشال عينيه مركزتين عليّ: "ليس هناك من دليل متين يربطني بهذه
الجرائم".

"يملك المدعي العام المحلي رأياً معاكساً".

"إن ما لفق هو دليل ظرفي محض".

"تعرضت أونيج مونتاغيو، وويلي هيلمز، ونوبل كروكشيك للتحقيق بواسطة أنشطة سلكية. وجدت الشرطة أنشطة مثلها في عيادتكم، كما أنك تركت حوزاً ناجحة عن مبضع جراحي في عظامهم".
"يستطيع أي شخص أن يشتري مبضعاً جراحياً".
"إن عيادتكم مجهزة بكل تجهيزات غرفة العمليات الجراحية، وهذا أمر غير معتاد بالنسبة لمؤسسة توفر حبوب الأسيرين، وضمادات الجروح الصغيرة".
"لم تكن غرفة عمليات بالمعنى المهني المتعارف عليه، لأهم كانوا يطلبون مني أحياناً استئصال دملة، أو القيام بخياطة جراحية بسيطة. وطلبت تجهيز العيادة بإضاءة جيدة".

سبق أن تناقشت مع غوليت، والمدعي العام المحلي، بشأن صوابية زيارة مارشال. توصلنا إلى قرار يقضي بضرورة التحدث معه، وحددنا الطريقة التي سأنتهجها. اقترح المدعي العام المحلي أن أبدو صريحة، وأن أوجد الانطباع بأنني أعطيه بعض النصائح، بينما لا أكشف في الحقيقة أي شيء يجهله المتهم. وافق رايان على أن هذه الطريقة قد تكون مفيدة.

"اقتحمت شرطة بويرتو فالارتا منتجع شريكك".

رسمت بأصابعي علامة بين هلالين على هذه الكلمة الأخيرة: "نعرف أن رودريغز قد تدرّب ليصبح جراحاً، ونحن نمتلك إقرارات من مرضى استلموا كلي من مؤسسته. نعرف أنك ورودريغز التحقتما بمعهد طبي سوياً، وأنكما مُنعتما من مزاوله المهنة بسبب مخالفات وتجاوزات لترخيصكما الطبيين".

سبق للمدعي العام المحلي أن تحدّث عن هذه المعلومات مع مارشال.

"معلوماتك صحيحة جداً، لكن المشهد الذي اختلقته يُعتبر تخمينياً بالكامل".

لم نكن متأكدين من أن مارشال يعرف شيئاً عن الأصداف. سبق أن قررنا أن أثير الموضوع معه كي نعرف ردّ فعله: "هل تستمتع بعلم الرخويات يا دكتور مارشال".

تجاهل مارشال السؤال.

"هل تفتقد بمجموعتك لبعض العينات؟ ربما فيفا باروس إنترتيكستوس؟"

قال تاكرمان: "يصعب اعتبار السؤال متعلقاً بالموضوع".

"إنني أتحدث عن صدفة فيفا باروس إنترتيكستوس التي وُجدت مع ويلي هيلمز، والتي تماثل صدفةً وُجدت على طاولة مكتبك. دُفن ويلي هيلمز في رمال شاطئ دي ويز. إن فيفا باروس إنترتيكستوس من الأنواع التي تعيش في المياه العذبة".

"أسألي نفسك يا دكتورة برينان لماذا أحمل الأصداف معي أثناء التخلص من جثة؟ أنا متأكد من أنك ستعتبرين كل ذلك مجرد معلومات ملفقة".

"هل توحى أن شخصاً ما قد وضع الأصداف على جسد هيلمز، وعلى طاولتك من أجل أن يلقي بظلال الشك عليك؟"

"نعم. لم يفعل ذلك أصلاً كي يلقي بالشك عليّ أنا. أقدم ذلك الشخص على هذا من أجل تسليط الضوء على عنصر ملفق في القضية، بحيث يوحى بأن الجثة أتت من منطقة أخرى، وذلك في حال اكتشافها. قرّر القاتل توجيه أصابع الاتهام نحوي بعد زيارتك للعيادة، وذلك بوضعه تلك الصدفة في طاولتي. لم أتعوّد أخذ الأصداف معي إلى العيادة".

"ومن عساه يكون هذا القاتل؟"

"كوري دنيالز".

"ومن أين حصل دنيالز على هذه الأصداف؟"

ردّ مارشال مستهجنًا وساخرًا: "كان باستطاعته الحصول عليها من أي مستنقع. فكّري في هذا. إذا أردت توجيه ظلال الشك إلى جامع أصداف حقيقي، فلماذا تختارين نوعاً يتوافر في هذه المنطقة كالذباب العادي؟ يستطيع أي شخص يتمتع بنصف نسبة الذكاء أن يختار نوعاً أكثر فزادة. لا يُستغرب هذا الأمر مع دنيالز، فالرجل من النوع البليد".

"اكتشفت رمشاً داخل تلك الصدفة. إنه رمش أسود اللون، لكن ويلي هيلمز كان رجلاً أشقر الشعر. هل استمتعت بمسح الفم يا دكتور مارشال؟ سيعطينا ذلك الرمش معلومات هامة عن الحمض النووي".

أخرج مارشال نفساً طويلاً، وحدق بالسقف. بدا مثل أستاذ انزعج من تلميذه الكسول: "تذكّري، حتى ولو كان رمشي، بأني عملت مع دنيالز بشكل يومي. اعتاد الرجل على الدخول بسهولة إلى مكنتي، كما أن شعرات الجسم تتساقط باستمرار".

لم أرد على هذا.

عادت عينا مارشال لتتظرا باتجاهي: "دعيني أطرح عليك هذا السؤال. هل وُجد أي دليل مع الضحايا الآخرين؟"

أدركت أن المدعي العام المحلي لم يتحدث عن هذا الموضوع مع مارشال ومحاميه. ولم أرغب بتزويد محامي الدفاع بمعلومات عما لا نعرفه. أجبت: "لست مخوّلة للتحدّث بهذا الموضوع".

عكست نبرة مارشال نوعاً من الازدراء الخالص: "لأنك تعرفين أن الجواب هو لا، وإلا كنت سأقمن بارتكاب تلك الجرائم. فكّري بنقطة ضعف منطلقك. هل تعتقدين أنني متيقظ جداً بحيث لا أترك دليلاً واحداً مع الضحايا الآخرين، ومع ذلك أسمح لصدفة تحتوي على رمشٍ بالسقوط في قبر ويلي هيلمز؟ وتقولين إنني تركت صدفةً أخرى في طاولتي؟"

بدا السؤال نوعاً من الخطابة، ولهذا لم أرد عليه.

فرد مارشال أصابع يده: "هل أعمتك كراهيتك لي إلى الحدّ الذي منعك من التفكير بأني وقعت في فخٍ نُصب لي؟"

"أتعني كوري دنيالز؟"

"نعم".

هززت رأسي من الدهشة: "لا يمتلك ممرض المهارات اللازمة لاستئصال أعضاء حية. وأن يفعل ذلك بقربك ومن دون علمك!".

"إن الاستئصال ليس عملاً صعباً، وعلى الأخص إذا لم يكثر المرء بما يحدث للمتبرع. دقّقي مع دنيالز لأنه يمتلك السجلات".

"دعني أفهم ما تقوله جيداً. إنك تدعي أن كوري دنيالز اعتاد على قتل مرضاك أنت، وبيع أعضائهم لزميل صفك السابق؟"

بدأ وريد في جبهة مارشال بضخ كميات لا حصر لها من الدماء: "إن ما أدعيه هو أنني وقعت في مصيدة".

سأل رايان: "لماذا تخلصت من زورقك؟"

ارتفعت يد تاكرمان بسرعة الصاروخ. استطعت أن ألاحظ وجود آثار من النيكوتين على أصابعه.

قاطع مارشال تاكرمان قبل أن يتمكن من الاعتراض على مشاركة رايان في هذه المقابلة.

"استغرقت عملية البيع شهوراً عديدة. قدّم لي رجل صيد رياضي يدعى ألكسندر مان عرضاً لشرائه في الخريف الماضي، ثم فشل في الحصول على قرض. استعرقه الأمر لغاية الآن ليعيد ترتيب عملية التمويل".

لم يقل رايان شيئاً. سبق لي أن رأيت يتبع هذه الطريقة عدة مرات. يضطر معظم المتهمين لمعاودة الحديث عندما يواجهون بالصمت، وهذا هو فعله مارشال الآن.

"تستطيع التأكد من روايتي عندما تتحدث مع الرجل".

مررت مع رايان بفترة صمت أخرى.

وجه مارشال طلباً إلى تاكرمان: "أريد قلماً وورقة".

"ليستر...".

حرك مارشال يداً بصير نافذ.

تناول تاكرمان قلم حبر جاف ودفتر أوراق رسمية صفراء اللون من حقيبته.

بدأ مارشال يكتب بهدوء، ثم مزق ورقة، وناولني إياها.

"إنه مصرف مان. اتصلي بهم".

طويت الورقة من دون أن أقول شيئاً، ووضعتها في حقيبتي الصغيرة: "إن

الطيار الذي يعمل عندك سيروي لنا قصة مثيرة".

بدا مارشال مرتبكاً للحظة: "طيار؟"

أبقيت نظري مركزاً على مارشال.

"عن أي طيار تتحدثين؟"

"لم آت إلى هنا كي أوقعك بفتح، يا دكتور مارشال. أتيت كي أسمع قصتك".
لكنني أتيت خصيصاً لأوقعه بالفتح، ولهذا ذكرت الطيار أمامه. أعرف أن
غوليت لم ينته بعد من تتبع سجلات الطائرات، أو التحري عن الوسيلة المتبعة
لتهريب الأعضاء إلى المكسيك.

لحق مارشال شفتيه: "إن ما تقولينه هو سخافة بالكامل، لأنني لا أوظف طياراً".
أغمض مارشال عينيه، وعندما فتحتها لاحظت أن شيئاً بارداً وصلباً قد
أضيف إلى نظرتة حين ثبتت نظرتة عليّ.

"الوضع بسيط جداً. أوقعني دنيايز بالفتح بفضلك، وغوليت ومدعيه العام
المخلى البليد الذي صدق دليلاً ظرفياً بشكل سافر. إنني لا أستمتع بهذا. إن هذه
الالتهامات الملققة تسيء إلى سمعتي كطبيب".

"هل هذا هو أهم شيء يا دكتور؟ الاسم واللقب؟ أم العصي والأحجار؟"
"إنني لا أكسر العظام، بل أشفيها".

هزرت رأسي لأنني شعرت باشمزازٍ منعني من الإجابة.
شبك مارشال أصابع يديه مجدداً.

"أعلم أنك تكرهيني لأسباب عديدة. حثت بقسم أبقراط الطبي. وتعاطيت
المخدرات منذ سنوات عديدة. لكن كل ذلك تغير الآن".

شبك مارشال أصابع يديه بقوة أكبر حتى أبيض الجلد الذي يكسوها.
"قبلت وظيفتي الحالية مع كنيسة رحمة الله كي أعوض عن الهدر الذي أوقعته
في مهاراتي وحياتي. لا أشك في أنك اكتشفت أنني أمضيت بعض الوقت في
السجن. التقيت خلال سنوات السجن هذه بأشخاص لم أتخيل يوماً أنهم يعيشون
على هذه الأرض. شاهدت العنف بأم عيني، ورأيت اليأس. أقسمت عند خروجي
من السجن أن أضع مهاراتي الطبية في خدمة المعدمين".

سمعت حركة في الكرسي الموجود إلى جانبي. لم يقتنع رايان بما سمعه.
"أعلم أنني أبدو مذنباً. إنني مذنب فعلاً بأشياء عديدة، لكن ليس بهذه
القضية. سأبقى مثلما كنت طبيباً شافياً بالرغم من أخطائي السابقة. أنا لم أقتل
هؤلاء الناس".

رفع مارشال قبضتيه نحو ذقنه وتنفس بعمق: "لعلني أسأت الحكم على الشخص الذي أساء إلي".

أخرج مارشال الهواء من رئتيه.

"إن لم يكن دنيا لزر هو الذي أوقع بي، فلعله شخص آخر".

قال لي رايان بعدما غادرنا مركز الاعتقال: "أحسنت بالنسبة لموضوع الطيار".

"توقعت أن يُقدم مارشال على زلة لسان".

"إنه مراوغ كالثعلب".

"إذا كان فعلاً هكذا، فلماذا أراد التحدث إلي؟"

"إنك أذكى من غوليت، ولربما طلب المدعي العام المحلي الاعتراف بكل

شيء".

"أعتقد هذا فعلاً؟"

"نعم أعتقد ذلك. وأعتقد أن السراويل القصيرة هي أفضل ما توصلت إليه

الموضة".

قلت: "أمتلك سروالاً قصيراً".

رفع رايان حاجبه على طريقة غروشو: "لو أنني رأيت ذلك السروال فربما

كنت غيرت رأيي بسنوات السبعينيات".

"إذا كان مارشال بهذا المستوى ستصبحين محقة بشأن تمضية دنيا لزر فترة في

السجن".

"ماذا تعرف بهذا الشأن".

لم تستغرق رحلتنا بالسيارة إلى مركز الشريف وقتاً طويلاً. خرجت من

سيارة الجيب، وسرعان ما لاحظت آديل بيرى تصرخ في الرواق الأمامي. رأيت

كلب غوليت ينام تحت صف من الأشجار المحيطة بالمبنى.

تلاشت قوة صراخ بيرى، والتمع جلدها الأسود، ولاحظت أن بلوزتها

الحمراء المصنوعة من البوليستر قد تبعت من العرق. بقي الكلب في مكانه مع أنها

كانت قريبة جداً منه.

توقفت بيّري قليلاً. ظننت لأول وهلة أنها ستجنّب المرور بقربنا، لكنها انطلقت، بدلاً من ذلك، كالسهم نحونا مثلما يفعل سباح ماهر في بداية غطسه. بدا وجهها المنتفخ بالعضلات ككرة من الغضب: "لماذا تفعلون هذا؟ لماذا تحاولون تدمير هذا الرجل الطيب؟"

قلت لها: "أقدم الدكتور مارشال على قتل عدة أشخاص".

"إنه حديث لا معنى له".

"تملك الأدلة الدامغة على صحة كلامنا".

مرّرت بيّري راحة يدها على جبهتها، ثم مسحها بتنورتها: "أتمتع بضغط دم عال يكفي لإطلاق صاروخ. ضاعت وظيفتي، لكن الفواتير ستستمر بالظهور. إذا قُتلت، فأنت والشر - طة مسؤولان عن موتي".

"منذ متى وأنت تعملين في عبادة كنيسة رحمة الله؟"

وضعت بيّري راحة يدها الكبيرة على ردفها: "لا تمتلكين حقاً بتوجيه أي سؤال لي".

"لا. هذا صحيح، لكنني أجد أنه من المستغرب أنك لا تريدين التحدث عن أي شيء يساعد التحقيق".

مسحت بيّري عرقها مجدداً: "أعمل فيها منذ خمسة أشهر. لماذا تضايقونني؟ ولماذا تضايقون دنيا لزر. إنهم يحشرونه وكأنه شطيرة جبن".

"يحتمل أن يكون دنيا لزر قد رأى أو سمع شيئاً".

"إنهم لا يحصلون على أية معلومات منه".

"وماذا يعني هذا الكلام".

"يعني أنه ما من شيء يُقال".

حملقت بنا بيّري للمرة الأخيرة قبل أن تسرع نحو موقف السيارات.

أمسك رايان بالباب الزجاجي العريض، وقال: "ما زلت أعتقد أنها تكرهنا".

علمنا أن دنيا لزر ما زال ينتظر في غرفة الاستجواب، وشاهدنا غوليت وهو يراقبه من خلال واجهة شفافة.

وصفت لغوليت تفاصيل لقائي مع مارشال. أصغى غوليت مبقياً يديه في جيبيه. وانشغل رايان بتفحص دنيايز.

سألته: "أعتقد أن رواية مارشال عن إيقاعه بالمصيدة فيها شيء من الصحة؟" التفت غوليت نحو الواجهة الزجاجية مرة أخرى: "هذا الرجل لم يوقع به. يبدو غيباً".

"وماذا يقول؟"

"يقول إنه ولد في عام اثنين وسبعين، ولا يمتلك سجلات مهمة. التحق بكلية تشارلستون عام تسعين. أنهى مقررًا دراسياً. يقال إن دنيايز وقع على مصدر مال مهم عندما تعرّف على امرأة عادية، لكن الأوزة الذهبية قطعت المال عنه، وهكذا هرب إلى تكساس. التحق بمعهد لتعليم التمريض في إل باسو، بينما عملت صديقتة لتدفع فواتيره المستحقة".

"لكن لماذا اختار تكساس بالذات؟"

"إنها موطن صديقتة. حصل الرجل على إجازة لممارسة التمريض في عام أربع وتسعين، وبدأ بالعمل في نفس المستشفى الذي تدرّب فيه".

"وأين يقع هذا المستشفى؟"

"إنه فرع من جامعة تكساس. أستطيع التأكد من ذلك".

"وكيف انتهى بالعمل هنا؟"

"ساءت العلاقات لأنه استقبل الكثير من جيرانه. وبّخته صديقتة في النهاية، ثم حصلت على أمرٍ يمنعه من استقبال الآخرين في المنزل. خالف الرجل القرار، وانتهت العلاقة بالشجار حيث انتهت هي أسفل الدرج بعظمة ترقوة مكسورة. حُكّم على دنيايز بالطرد لمدة ست سنوات، ونفذ ثلاث منها. اختفى الرجل عن الأنظار لفترة من الزمن كسر يده فيها، ثم عاد إلى تشارلستون في عام 2000. بدأ العمل في العيادة في عام 2001. لا يمكننا الوثوق بقواه العقلية".

قال رايان: "أو لعله على قدر عالٍ من المهارة".

جاءت نيرة غوليت مليئة بالسخرية: "يا سيدي".

"لا تقدم مطلقاً على استبعاد الأشياء غير المحتملة".

"ثق بكلامي. ما من وجود هنا لمفتاح فاي بيتا كاب في جعبة هذا الرجل".
قلت: "حصل دنيالز على إجازة لممارسة التمرّض. لا يمكن للرجل أن يكون
غيباً لهذه الدرجة".
أخرج غوليت أنفاسه من أنفه: "فليناقذي الله من نظريات المؤامرة. إن
مارشال هو رجل قدر، ويحاول البحث عن كبش فداء".
"ماذا يقول دنيالز عن مارشال؟"
"لنقل أنه غير متحمس للتحدث عن رئيسه".
سأل رايان: "إذا لماذا تستمرّ باحتجازه؟"
"أحتجزه لسلوكه المريب، ولأعطيه فترة هدوء كي يتعلم احترام القانون".
شاهدنا دنيالز وهو يتفحص ضرساً بظفر إبهامه. فوجئت عندما طلب رايان
إذنّاً لاستجوابه.
جاءت نيرة غوليت متحمسة بعض الشيء: "والآن ما الذي يدفعني لأسمع
لك بذلك يا رجل التحري؟"
قال رايان: "أعتقد أنني اكتشفت أساساً نوعاً من التنسيق بين الرجلين".
هزّ غوليت كتفيه، وأبقى يديه في جيبه: "استخدم آلة التسجيل إذاً".

35

راقبت رايان مع غوليت أثناء دخوله غرفة الاستجواب. نظر دنيالز إلى الأعلى، ثم مدّ رجلية، واسترخى في جلسته، واضعاً إحدى ذراعيه على الطاولة، بينما وضع الأخرى خلف الكرسي.

سأله رايان: "أتذكرني يا كوري؟"

"أعرف أنك رجل التحري المستقيم".

"اقتربت كثيراً من الحقيقة".

"أحتاج لتدخين سيجارة".

قال رايان: "أعتقد أن الأمر صعب عليك".

بدا دنيالز مندهشاً للحظة قصيرة، ثم عاد لوضعية الملل.

رحت أفكر، أي نوع من التنسيق يقوم بين الرجلين؟

سأل رايان: "هل تمانع بتسجيل هذه المقابلة؟"

"وهل أستطيع أن أعترض؟"

"إن تسجيل المقابلة هو لمصلحتك، ومصلحتي أيضاً".

شغّل رايان آلة التسجيل، واختبر عملية التسجيل، ثم أعلن عن اسمه، واسم

الشاهد، والوقت، والتاريخ.

بدأ رايان بالكلام: "وقع رئيسك بالكثير من المشاكل".

"وما دخلي أنا بهذا؟"

"ماذا كانت مسؤولياتك في عبادة كنيسة رحمة الله؟"
"أنا ممرضٌ".

"قل لي ماذا تفعل بالضبط؟"

"إنني أقوم بمهمة تمريض الناس".

"إنها مهمة يسهل اكتشافها".

"تستطيع القيام بما شئت".

"بدأ يتكوّن لدي انطباع أنك غير متحمس لهذه المحادثة يا كوري".

"ماذا؟ أتريدني أن أقرب من النار؟"

"ربما سيصيبك شيء من ألسنتها".

"لن تستطيع اتقامي بأني تخلّصت من هؤلاء الأشخاص".

"ومن قال لك إننا نريد أن نفعل ذلك؟"

"ألا يحاول مارشال إلقاء المسؤولية عليّ؟"

"إنه يحاول ذلك في الحقيقة".

مرّر دنيالز يده في شعره: "تعرضت للمضايقة من قبل. أستطيع أن أتفاوض،

لكنني أحتاج إلى سيجارة بالفعل".

"لماذا اخترت التمريض؟"

"ماذا؟"

"انظر إلى نفسك! هل يبلغ طولك ستة أقدام وخمس بوصات؟ إنك رجل

صلب. لماذا اخترت التمريض؟"

"إنها تعطي مدخولاً جيداً، كما أن الطلب كثير عليها".

"وهل حدّدت معاشك؟"

"نعم".

أشار رايان إلى وشم دنيالز.

"أين أمضيت عقوبتك؟"

"أمضيتها في هتس فيل".

"وما هذا الندبة؟"

أجاب دنيالز مستهجنًا: "ادّعت تلك العاهرة أنني صفتها، وصدق القاضي كل تفاهاتها".

رسم دنيالز شكل مسدس بأصابع يده اليمنى، وتظاهر أنه يطلق الرصاص على رايان: "لا يستطيع المرء العبث مع التكتاسيين".

نظرت بدوري إلى وشم دنيالز. شاهدت أشكال جماجم، وقلباً مخترقاً بسهم، وعناكب متربصة في شباكها، وأفاعي ملتفة، على ساعده. إنه وشم رائع. بدأت أتساءل متى سيخيم الهدوء ثانية عندما وجّه رايان يده باتجاه حزام دنيالز.

"أرى أنك مثل رجل هارلي".

"إذًا".

"امتلكت ذات مرة دراجة إلكترو رائعة، موديل خمسة وتسعون. أحببت تلك الدراجة أكثر من والدتي".

تطلّع دنيالز مباشرة نحو رايان للمرة الأولى: "هل تسخر مني؟"

"يكذب الرجل بعدة أمور. يكذب عن طوله، وقوته مثلاً، لكنه لا يكذب أبداً بشأن دراجته".

صفع دنيالز صدره بيده: "امتلكت دراجة موديل 2004، إيغل فات بوي قوية".

"يا لك من رجل قنوع".

قال دنيالز ساخرًا: "إن الانتقال بالدراجة هو شأن المخنثين".

"ليس هناك من شعور في العالم يعادل الارتحال، والريح تصفع وجهك".

"لعلك محق".

سأل رايان وهو يتسم: "هل كنت تتصيد ذات مرة، واكتشفت فجأة أن

الإسمنت مملأً فمك؟"

"لا أبداً".

ابتسم دنيالز ابتسامة عريضة، ووضع ذراعيه على الطاولة، وحرص على وضع راحتي يديه إلى الأعلى. لاحظت أن أحد معصميه محاط بندبة على شكل هلال: "هل فعلت الراهبة هذا".

هزّ دنيالز رأسه دلالة على إنكاره: "صدمتني راهبة بسيارة هيونداي. وجدت نفسي بعد ذلك في قسم الطوارئ في المستشفى، ووجدتها تصلي لأجلي. كان المشهد في المستشفى أفضع من الحادث نفسه."

"لم يتوقف الألم منذ الحادث."

"لم تكف هذه الراهبة عن متابعة حالتي، وهي تشعر بذنب كبير. أبلغتها أن تنسى الأمر. هذا هو ثمن ركوب الدراجة يا صديقي، إنه ثمن ركوب الدراجة."

"هل حصل ضرر دائم لك؟"

"تركت المرأة هذه العلامة، لكن من يهتم؟ ما تزال يدي اليمنى قوية."

هزّ الرجل رأسه مرة أخرى: "إنها الراهبة."

أوما رايان دلالة على تفهمه، لأن راكي الدراجات الزملاء يجارون بأخطاء أقدارهم. بادر دنيالز إلى الكلام أولاً.

"اسمع يا رجل. أنا أسف لموت هؤلاء الأشخاص، لكن لا علاقة لي بذلك."

"إننا لا نحاول إصاق التهمة بك يا كوري. إنها مجرد عملية لجمع المعلومات، وكل ما نريد معرفته هو ما إذا كنت لاحظت مارشال يفعل، أو يقول، شيئاً غريباً."

"سأكرّر لك ما قلته لذلك الشريف النازي. حرص مارشال حتى الموت على شيتين: إبقاء المكان نظيفاً، والغياب عن مكتبه."

"ما هي الغاية من وجود غرفة كبيرة في الطابق العلوي؟"

هزّ دنيالز كتفيه: "لا أعرف. لم أرَ أي شخص يدخلها غير الرجل المولج بتنظيفها."

"ألم تجد في ذلك أية غرابة؟"

"اسمع. إنني أحضر إلى العمل، وأقوم بوظيفتي، ثم أعاد المكان."

"هل لاحظت أي شيء غريب يقوم به مارشال؟"

"تكلمت عن هذا الموضوع مرة بعد مرة. لا أريد أن أفصح الرجل، لكن

مارشال كان رئيساً مناسباً. هل يرضيك هذا؟"

"وماذا بشأن هيلين فلين؟"

استرخى دنيالز في جلسته مجدداً: "اللعنة. لا أدري. كانت أشبه بالراهبة التي
كلمتكَ عنها. كانت متأنقة، ولطيفة جداً مع المرضى. حاولت التقرب منها،
وكتبت إليها بعض الأسطر، لكن تلك الحسنة صدتني ببرودة. لا أريد التوسل من
أجل هذا الشيء. أتعرف ماذا أقصد؟"

"هل توافقته هيلين مع مارشال؟"

انشغل دنيالز بالنقر بإصبعه على الطاولة، محدثاً صوتاً مزعجاً.

"كوري؟"

هزّ دنيالز كتفيه: "لا أعرف. توافقا في البداية، لكنها أصبحت عصبية فيما
بعد، وخصوصاً عند حضور الطبيب. أعتقد أنه كان يتقرب منها هو الآخر."

"هل تعرف لماذا تركت عملها؟"

"قال مارشال إنها استقالت، ثم وظّف بيرى مكانها."

استمرّ دنيالز بالنقر على الطاولة: "أتعلم أن شعاري هو: لا تطرح أسئلة، ولا
تخير أحداً بشيء."

"هل اعتاد مارشال العمل حتى وقت متأخر؟"

"كان يسمح لي، ولبيرى بالمغادرة باكراً."

مرّت لحظة. تجمّد إصبع دنيالز في مكانه.

أوماً دنيالز بشدة وهو يتكلم: "آه. فهمت ماذا تقصد. يوجد هنا شيء ليس
على ما يرام، فالرجل يعمل طبيباً، أما الاحتجاز فكان من مهمة بيرى."

غادرنا مركز الشريف، وقصدنا المستشفى. وجدنا بيتي في غرفة خاصة موجودة
في طابق الدرجة الأولى. انتظر رايان في الردهة بينما صعدت إلى ذلك الطابق.

وجدت ذلك المثقف القادم من لاتفيا مستيقظاً، وعلى شيء من الغرابة.
ارتدى ثوباً أخضر اللون، لكن ممرضته كانت صماء. لاحظت أن ثوبه ضيق جداً،
وبدا أن خديّه قد تأثراً بالبرد. ارتحت لتدمره مع أنه كان مزعجاً. شعرت بجبور في
قلبي، لأنه بدأ بالتعافي. أخيراً اتصلت كاتي، واستطعت أن أطمئنها بشأن شفاء
والدها الوشيك.

اتصلت ليلي برايان ذلك المساء. قالت إنها كانت بصحبة أصدقائها في مونتريال، وأنها ترغب برؤيته. وعدها رايان أن يكون هناك يوم الجمعة. أوشكت عطلته على الانتهاء، وتعيّن عليه أن يعود إلى العمل يوم الاثنين. إن مغادرته قبل يومين من انتهاء عطلته يعني أنه سيتمكن من قضاء عطلة نهاية الأسبوع مع ابنته. أخبرني بهذه التطورات وهو يتسّم. عانقته، واستمرينا بالعناق لفترة طويلة جداً، وتاهت أفكار كل واحد منا بالآخر. خرجت في النهاية بزوج غير متضرر، أما هو فأنتهى مع ابنة وجدها حديثاً.

قررت ورايان أن نقضي الليل سوية. انتهى عملي في تشارلستون، وتمّ التعرف على هويات الهياكل العظمية المجهولة لدى إيما، وبقيت أمام مارشال الكثير من الصعوبات، ولعلها صعوبات أسوأ بكثير. وارتحت لأن حالة بيتي تتحسن بسرعة، ولأن ليلي بدأت تتقرب من والدها. تناولنا عشاءً مؤلفاً من شرائح اللحم، وسرطانات البحر، في مطعم يقع في كوين 82.

تحدّث مع رايان بحذر بمواضيع عديدة أثناء تناولنا للعشاء، وركزنا على المواضيع المحايدة، والتزمنا بالتحدّث بصيغة الماضي والحاضر فقط. لم يسألني رايان عن المستقبل، وأنا لم أقدم ضمانات من جهتي. لم أستطع تقديم أية ضمانات، لأنني ما زلت مشوشة ومضطربة بشأن قوة استجابتي لتواجد بيتي بالقرب مني، بالإضافة إلى مواجهته مع الموت.

قدّمت الكثير من التهاني لنفسي، وضحكت كثيراً، وحتى أنني تبادلنا الأنخاب مع رايان. أردت في بعض الأوقات أن أضع يدي بيد رايان، لكنني لم أفعل. لم أتوقف عن التساؤل عن سبب ترددي منذ ذلك الوقت.

غادر رايان بعد تناوله الفطور صبيحة يوم الثلاثاء. تبادلنا إياه قبلات الوداع. لوّحت له حتى احتفت سيارة الجيب عن نظري، ثم عدت إلى منزل آن. وجدت المنزل فارغاً فيما عدا الكلب والهرة. صمّمت على البقاء في تشارلستون حتى يتمكن بيتي من العودة إلى شارلوت. لم أضع خططاً أخرى غير هذه.

أمضيت مساء يوم الثلاثاء في منزل إيما برفقة بويد. اندفع بويد عندما فتحت إيما الباب الأمامي، وكاد يسقطها أرضاً. شعرت فوراً وكأنني تلقيت ضربة

في صدري. تلاشى كل ذلك الوميض من وجه إيما، ولاحظت أن جلدها أصابه الشحوب، ومع أن اليوم كان حاراً إلا أنها ارتدت بذلة صوفية وجوارب. جهدت كثيراً للمحافظة على ابتسامتي في مكانها.

سبق لغوليت أن أبلغ إيما أنه تمّ إلقاء القبض على مارشال. جلسنا على كرسيين هزازين في الشرفة، وتحدثنا عن أحاديثي مع الطبيب والممرض الذي يعمل معه. جاء رد فعلها فوراً وقاطعاً.

"هل يدير دنيا لوز حلقة دولية لتجارة الأعضاء البشرية، ويقوم بالإيقاع برئيسه؟ أعطيني لحظة للتفكير في هذا. أنت رأيت الدليل. إن مارشال هو رجل بغيض، وهو مجرم بالتأكيد".

"نعم".

جاءت سخرية إيما مطابقة لسخرية غوليت: "ماذا؟ ألسنت مقتنعة؟"

"بالطبع أنا مقتنعة، لكن هناك أمران ما زالا يقلقاني".

"وهما؟"

"لم نجد في مكتب مارشال أي شيء خاص به، لكن كيف نفسّر، مع ذلك، وجود تلك الصدفة؟"

"يوجد مليون سبب لوجودها. أراد أن يأخذها لمنزله، لكنه نسي أمرها لاحقاً. ويُحتمل أن تكون قد سقطت من أحد الأوعية، وغابت عن عينيه داخل طاولة مكتبه، وهكذا لم يعرف بأمر وجودها من الأساس".

"قتل هيلمز في عام 2001. هل بقيت هذه الصدفة في دُرج مارشال طيلة هذا الوقت؟"

"إننا لا نتكلم عن صدقات القواقع يا قحب. إنها أشياء غاية في الصغر".

"هذا صحيح".

فَضَّ بويدي على قائمته لدى رؤيته سنجاباً. وضعت يدي على رأسه. حرك شعرات حاجبيه باتجاهي، لكنه بقي مكانه.

مضيت لأشرح وجهة نظري: "لكنّ مارشال رجل ذكي. لماذا يحمل أصدافاً معه أثناء انشغاله بدفن جثة؟"

"يُحتمل أن تكون الصدفة قد وضعت مع جثة هيلمز أثناء لفها بالقماش، ولم يلاحظ مارشال وجودها".

استنتجت من حركة رأس بويد أنه ما زال يتتبع السنجاب.
قلتُ: "قالها غوليت بنفسه. مارشال رجل دقيق جداً. لا يتناسب ما تقولينه مع شخصية الرجل".

"يقع جميع الناس بالأخطاء آخر الأمر".
"ربما".

لمست رأس بويد، وجعلته ينحني نحو الأسفل. استقرّ، بتردد، بين قدمي. أحضرت إيما الشاي المثلج، واكتفينا نحن الاثنتين بالتأرجح فوق مقعدينا بصمت.

رأينا، خارج السياج، رجلاً يسير، وامرأة تجرّ عربة، وصبيين يركبان دراجتيهما. سمعت أصوات الكلب عدة مرات دلالة على اهتمامه المستمر بروكي.
سألتهما: "كيف سيكون تعداد خلايا الدم برأيك؟"
"ومن يعرف؟"

تذكّرت بعض الأسماء التي أعددتها في ملفي في جهاز الحاسوب. تذكّرت باركر إثيريدج، وهارمون بو، ودانيال سنايب، وجيمي راي تيل، وماثيو سمرفيلد، ولوي آيكمان.

"هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً إيماً؟"
"بالتأكيد".

"لماذا لم تخبريني بشأن سوزي روث آيكمان؟"
بدت إيما في حيرة حقيقية: "من؟"

"أتحدّث عن والد لوي آيكمان التي وُجدت ميتة داخل سيارتها الأسبوع الماضي. ألا تعتبرين ذلك من ضمن الوفيات المشكوك بأمرها؟"
"وأين عُثر عليها؟"

"كانت في الطريق السريع رقم 176، إلى الشمال مباشرة من غوز كريك (جدول الأوز)".

"إنها في مقاطعة بيركلي. لا تقع المنطقة من ضمن صلاحياتي، لكنني أستطيع الحصول عن بعض المعلومات عنها".

أعرف بالطبع أن المنطقة لا تقع ضمن صلاحياتها. شعرت بالغباء لأنني شككت بصديقي. هل سأسألها أيضاً عن حادث السفينة السياحية، الذي تحدّث وينبورن عنه في مقاله عن آيكمان؟ لعله يتعين عليّ نسيان الأمر، لأنه ليس من شأني".

بدأت إيما بالشحوب عند الساعة الرابعة والنصف. دخلنا إلى المنزل، وتناولت بعض السباغيتي من تلاجتها، وحضرتها مع الصلصة. تجوّل بويد في أنحاء المطبخ معترضاً تنقلاتي.

تذكّرت حديثي الهاتفي مع شقيقة إيما، عندما رأيتها تعيد ترتيب بعض أغراضها، بدلاً من الانصراف لتناول طعامها. أخبرتها أن سارة ستعود من إيطاليا في غضون الأيام القليلة القادمة، ووعدها أن أحاول الاتصال بها ثانية. أصرت إيما كي أترك الأمر عند هذا الحدّ.

توجّهت برفقة بويد إلى المنزل عند الساعة السادسة. تجوّل الكلب في المقعد الخلفي عدة مرات، متنقلاً بين نافذة وأخرى، لكنه توقّف بين حينٍ وآخر ليلعق خدي الأيمن، وأذني اليمنى.

انعطفت بالسيارة لأدخل إلى طريق البحر على امتداد أميال، وكان بويد في منتصف دورته. توقّف الكلب فجأة، وصدرت زججرة خافتة من حنجرتة.

أسرعت للتطلع بعينيّ في مرآة السيارة الخلفية. فرأيت عربة رباعية الدفع تكاد تجتاح مؤخرة سيارتي.

36

ناولني غوليت، ومن دون أن يتفوه بكلمة واحدة، نسخة من صحيفة بوست آند كورييه. تفحصت صفحتها الأولى.

ضرب وينبورن ضربته مجدداً. لاحظت أن تقريره هذه المرة لم يُحشر من ضمن الأخبار المحلية. ظهرت في الصفحة الأولى أسماء كروكشنيك، وهيلمز، وأخبار الإطباق على العيادة، والقبض على مارشال. أرفقت المقالة مع صورة للقس أوبري هيرون، رافعاً قبضته نحو السماء، وهي طريقته المميزة للدعاء. تضمنت المقالة إشارات حول أدلة محتملة، والعدد النهائي للضحايا، والخطر الذي يحيق بالجمهور.

شعرت بالتشوش لفترة قصيرة، ثم تحولت مشاعري لتصبح غضباً خالصاً.
"يا للدودة الحقيمة!"

راقبني الشريف، وبدا وجهه متحجراً مثل تمثال باتري. أدركت ما يحدث بشكل مفاجئ.

"أعتقد أنك لا تظن، جدياً، أنني أبلغت وينبورن".

حملق غوليت بي: "أنت قلت لي إنك تعرفينه".

حملقت فيه بدوري: "وأنت قلت لي إنه غير مؤذ".

"لا أحب أن يصبح التحقيق الذي أقوم به مثل حلقة من حلقات تلفزيون الواقع الرخيصة. غضب هيرون، وأصبحت وسائل الإعلام أكثر حدة، كما أن هواتفنا لا تكف عن الرنين، مثل أجراس الكنائس في أيام الآحاد".

"لماذا لا تفتش في فئائك الخلفي".

"هل تقولين إن التسريب جاء من دائرتي؟"

قلت له وأنا أطوي الصحيفة وأدفعها باتجاهه: "لا أعرف ماذا أقول. تأكد من أن قصة التعرف على جثة كروكشك لم تأت مني، لأن وينبورن كان يتحرى عن اختفاء كروكشك قبل أشهر. لم أقل له إننا نملك جثة كروكشك".

"يملك هيرون أصدقاء نافذين".

"إنه يملك أصدقاء بالطبع، لأنه على علاقة جيدة مع...".

"يقدر ذلك الرجل على جعل الحياة لا تُحتمل بالنسبة لموظف رسمي منتخب محلياً، بما في ذلك شريف المقاطعة، سواء كان على علاقة جيدة مع... أم لا".

اخترق نباح بويد المكتوم أصواتنا المرتفعة. مشيت نحو سيارتي وفتحت بابها. انطلق بويد منها وراح يتنقل ما بين أحمة وأخرى، وركض مثيراً الغبار بمخالبه. رجع بعد ذلك ليدخل أنفه بين رجلي غوليت.

أردت أن أحبي ذلك الكلب.

صفع غوليت أذني الكلب.

بدأ الكلب بلعق يد غوليت.

فكرت في نفسي، أيها الخائن، وحوّلت حلقتي نحو الكلب.

قلت: "امتلك وينبورن معلومات عن الضحايا والاعتقالات، لكنه لا يعرف شيئاً عن الدوافع".

طوى غوليت الصحيفة ودفعها نحو راحة يده: "أوافق معك، فلو كان يعرف أي شيء عن رودريغز، أو سرقة الأعضاء البشرية، لكان أورد هذه المعلومات في مقاله".

"ما هي كمية المعلومات التي يُحتمل أن وينبورن قد حصل عليها على افتراض أنه تنصت على المكالمات اللاسلكية للشرطة؟"

تفحص غوليت وجهي لفترة وجيزة: "يُحتمل أنه حصل على بعض المعلومات، لكن ليس كل هذه. لن يقول له راديو حركة الشرطة بأننا حدّدنا هوية الرجل المعلق على الشجرة على أنه كروكشك. أعتقد أنه حصل على هذه المعلومة من مصدر آخر".

تبين لنا لاحقاً أن إفشاء وينبورن لقصة كروكشك حمل بعض الإيجابية.
تلقى محوّل المكالمات الهاتفية في مكتب الشريف مكالمة في وقت مبكر من
صباح يوم الجمعة. يمتلك باري لوناريتي حانة تقع في شارع كينغ تدعى ليتل لونا.
قرأ مالك الحانة، أي لوناريتي، اسم كروكشك الوارد في مقالة وينبورن، فتذكره
على الفور. تحركت ذاكرة الرجل بعد مرور ساعات. بحث الرجل في قسم
الأغراض المفقودة، والموجودة في حانته. وجد لوناريتي هناك سترة تحمل محفظة
تعود إلى نوبل كروكشك.

بدأت بشحد ذاكرتي بدوري عندما اتصل بي غوليت.

"هل دعيت حانة ليتل لونا ذات مرة باسم دبل آل؟"

"أعتقد أن هذا صحيح".

"إنها الحانة الوحيدة التي تذكرها بينكني. أعتقد أن كروكشك حمل معه
سترة بينكني، وترك سترته مكانها. أعتقد أيضاً أن بينكني كان محموراً تلك
الليلة، وأصيب بصداع نتيجة الإفراط بالشرب في الصباح التالي. نسي الرجل
كل شيء عن ثيابه، وركز على محفظته. هل يتذكر لوناريتي متى تركت السترة
في حانته؟"

"يقول إن ذلك حصل منذ عدة أشهر".

لم أعتبر أن هذه المعلومات مهمة بشكل خاص، فيما عدا إرضاء فضولي،
والتأكد من إحدى النقاط الغامضة. اعتقدنا جميعاً أن كروكشك كان حياً منذ
بضعة أشهر خلت.

حصل غوليت أيضاً على تقرير مفصل عن المكالمات الهاتفية الواردة إلى
منزل مارشال، وإلى عيادة كنيسة رحمة الله.

"تناولت المكالمات الواردة أموراً متنوعة تشمل أحاديث عن إصلاح سيارة،
وعن تسريحات للشعر، ومواعيد مع طبيب أسنان".

"يبدو أنه رجل يتمتع بشعبية".

"أعتقد مع ذلك أننا نعاني من مشكلة في تلك العيادة".

لم أقاطعه.

"يتطلب الأمر الكثير من الجهد لتفحص كل الأرقام، لكننا وجدنا نمطاً واضحاً فيها. تبين لنا أن أحداً لم يتصل بالعيادة، أو منها، خارج الدوام الرسمي لها. نُطفأ الأنوار في العيادة ما بين الرابعة والنصف، والخامسة". سمعت هنا أنفاس غوليت في سماعه الهاتف: "مع ذلك لاحظت مكالمات غريبة. أجريت مكالمات مع منزل نوبل كروكشيك في الرابع والعشرين من شهر آذار، وبالتحديد عند الساعة السابعة ودقيقتين من بعد الظهر".

"لا! هل مارشال هو الذي أجراها؟"

"أجريت المكالمات من مكتبه".

"إذاً ما هي المشكلة؟"

"تواجد مارشال في الرابع والعشرين من شهر آذار مع حملة تبرعات لمكافحة الضمور العضلي، في سمرفيل. أكد الشهود حضوره هناك من الساعة السادسة والنصف وحتى العاشرة".

إذاً من اتصل بكروكشيك يا ترى؟

هل اتصل قاتل ما ليرتب موعداً مع الضحية؟

انتظري قليلاً. فكّري. تتبعي السلسلة، وتساعلي إلى أين توصلك. إنها توصل

للمكالمة الهاتفية، ثم إلى موت كروكشيك.

قلت: "تدلّ كل المؤشرات على أن آخر آذار (مارس) هو تاريخ وفاة كروكشيك. لم يقبض الرجل الشيك الذي أرسله إليه فلين في آخر شهر شباط (فبراير). وانتهت حركة بطاقة الاعتماد المالية العائدة له في ذلك الوقت. إننا نعلم أن وينبورن رأى كروكشيك في التاسع عشر من شهر آذار (مارس). أعتقد أن كروكشيك مات قبل أن يكتشف أنه حمل سترّة غير سترته، وإلا لكان حاول استرجاع محفظته. ويُحتمل أنه قُتل في نفس الليلة التي تلاقى فيها مع بينكني في حانة ليتل لونا. نعرف أيضاً أن بينكني قدّم بلاغاً إلى الشرطة. هل تستطيع سحب هذا التقرير؟"

"سأحصل عليه قريباً".

اتصل بي غوليت مجدداً في غضون عشرين دقيقة.

"قدّم بينكني بلاغاً يقول فيه إن محفظته سُرقت في السادس والعشرين من شهر آذار (مارس). وأضاف أن محفظته سُرقت في الليلة السابقة".

"اتصل أحدهم بكروكشك من عيادة كنيسة رحمة الله يوم الرابع والعشرين من آذار (مارس). يُحتمل إذاً أن يكون كروكشك قد توفي في الخامس والعشرين. لا يمكن أن يكون كل ذلك مجرد مصادفة".

"إذاً من هو الشخص الذي أجرى المكالمة؟ هل هو مخبر؟ أم أنه الشخص الذي يقوم بالتنظيف؟"

"ماذا لو كان مارشال صادقاً؟ وماذا لو كان أحد الأشخاص يحاول الإيقاع به؟"
"أتعنين دنيالز؟"

بدا غوليت وكأني قلت له إن ميلوسوفيتش مرشح لنيل جائزة نوبل للسلام.
"أعلم أن ما أقوله يبدو بلا معنى. تشير بعض الدلائل نحو مارشال، ونحن تتبعناها، لكن هناك صحة في بعض ما يقوله. أعلم أننا أمام عيادة مجهزة لإجراء عمليات جراحية، ولدينا الأنشطة المعدنية، والضحايا الذين كانوا في عداد المرضى. أعتقد أن كل هذه دلائل ظرفية. ونعرف أن دنيالز يعمل في تلك العيادة أيضاً. ماذا نعرف عنه؟"

"إن وجود دنيالز لا يفسّر لنا روابط مارشال مع رودريغز، ولا يفسّر لنا لماذا تخلّص مارشال من زورقه. نعرف أيضاً أن مارشال هو من كان يقوم بجمع الأصداف، ونعرف أن صدفةً منها وُجدت مع جثة ويلي هيلمز. دعينا لا نضّيع وقتنا. أعتقد أن مارشال متورط، وأن ذلك الرمش سيثبت ذلك. أعتقد من الجيد أن نفكر ببلاغ بينكني هذا، لكن عليّ مواجهة جيشٍ من الصحافيين الذين يعسكرون خارج مكنتي".

"هل من أخبار جديدة حول رودريغز؟"

"لا".

"هل وجدت أي علاقة له مع طيار، أو طائرة ما".

"لا. إنها مسألة تخصّ المدعي العام المحلي، أما بالنسبة إليك فأعتقد أن مهمتك

قد انتهت".

تركي غوليت أنصت إلى فراغ.

مثل ليستر مارشال، ووالتر تاكرمان أمام القاضي. جادل تاكرمان أن موكله هو طبيب، وعضو محترم في المجتمع. جادل الادعاء بدوره في احتمال هروبه. أمر القاضي مارشال بتسليم جواز سفره، وبدفع كفالة مقدارها مليون دولار. بدأ تاكرمان بترتيب أمر الكفالة، وهكذا سيطلق سراح مارشال قبل حلول الليل.

اكتشفت أن غوليت على حق. انتهت مهمتي عند هذا الحد. لم يتبق لي سوى القليل من أعمال التحري، وتحضير عناصر المحاكمة. إن ما بقي من العمل هو من شأن مساعدتي الشريف، والمختبر الجنائي، والمدعي العام المحلي. تبقى أمور تقررها عوامل كثيرة من بينها سجلات المكالمات الهاتفية، وسجلات المرض، وأقراص الحاسوب الصلبة، والتسلسل الزمني للأحداث، ومخططات رحلات الطائرات، وإفادات الشهود، والأشرطة التلفزيونية التي تظهر تقدم التحقيق المثير الذي تجريه الشرطة، وكل المظاهر البراقة، وأجهزة التقنية العالية. لا أرى الأمر على هذا النحو، لأن القضايا القوية تُبنى نتيجة ساعات وساعات من التفكير العميق الذي يرهق الدماغ. ويتعين على المحقق أن يتبع كل زاوية من زوايا القضية، وأن يغربل أكوام المعطيات، وأن لا يُغفل شيئاً.

قدّمت مساهمتي الخاصة بي، ومع ذلك لا أستطيع أن أترك الأمور عند هذا الحد. بقيت نفس الفكرة تحول في ذهني: ماذا لو كان مارشال مستقيماً؟ وماذا لو أننا نمسك برجل بريء؟

كان الأجدد بي أن أكون سعيدة لتوقيف المجرمين، وأن أشعر باسترخاء أكبر مما شعرت به منذ أسابيع. وجدت نفسي، بدلاً من ذلك، متوترة مثلما يشعر مدمن بعد تناوله لكمية كبيرة من المخدر. عجزت عن القراءة، والنوم، أو حتى عن الجلوس ساكنة. واستمرت نفس الشكوك بالتوارد على ذهني مرةً بعد مرة. ماذا لو كان مارشال يقول الصدق؟ هل ما زال القاتل طليقاً، ويخطط لقضاء عطلة مفاجئة في المكسيك؟

أخذت بويدي في نزهة على الشاطئ، ثم استحمت. حضرت شطيرة، وتناولت طبقاً من شنكي مونكي. شاهدت الأخبار على جهاز التلفاز، وأصغيت إلى مذيع الأخبار وهو يذيع التقرير عن جلسة إطلاق سراح مارشال بكفالة. شعرت بالتوتر فأطفأت الجهاز، ورميت جهاز التحكم عن بعد على الأريكة. يا الله القدير! ماذا لو أنني ارتكبت خطأ ما؟

شعرت بالإحباط عند الساعة الواحدة. تناولت مفاتيحي، وخرجت من المنزل بعد أن تفحصت مجدداً عنوان دنيالز في الصفحات البيضاء. لم تتكوّن عندي فكرة عن المعلومات الجديدة التي يمكن أن أحصل عليها. أيمكنني أن أعلم شيئاً عن سلوكه، أو شيئاً عن تعبيره؟

لم أجد دنيالز على الشاطئ، أو بين الأمواج. تقع شقته في مجمع ملعب للغولف الذي يضمّ أشجاراً خضراء حسنة التشذيب، وملعب كرة المضرب، وبحيرة صغيرة، وبركة ماء. بدا أن كل شقة من هذه الشاطئ قد قُطع سقفها طويلاً، وبقي النصف الباقي يشير نحو السماء. بدا لي التصميم المبتكر رائعاً.

يعيش دنيالز في الشقة رقم 4-B. تركت سيارتي، ووضعت نظارتي الشمسية، وقبعة واقية من الشمس. هل بإمكانكم الآن تذكر حلقات مسلسل كولومبو؟ تقدمت لأقرأ أرقام عدة شقق، تبين لي بعدها أنه يجدر بي التوجه نحو مجموعة من الفيلات الموجودة إلى يساري. تلتوي الممرات حول مجموعات من أشجار الصنوبر، والتي زُرعت تحتها أجمات الآس والكرنب المحملية الألوان، وهي التي ستصبح أشجاراً ذات يوم. لاحظت أن رذاذ الماء ينطلق من صنابير (حنفيات) مخفية، فتعكس أضواء الشمس، وتعطي سحراً أكبر لرائحة الأزهار والتراب.

شاهدت أثناء مروري أنواعاً عديدة من سيارات البيمر، والبنز، وأنواعاً حديثة من السيارات رباعية الدفع، وجميعها مركونة أمام شقق أصحابها. رأيت الأجساد المسمرة المدهونة بالزيت، على مقاعد البحر المتناثرة على جانب بركة السباحة. ابتعد دنيالز إذاً عن الأماكن السكنية الرخيصة، واعتراضي نفس الشعور الذي أحسست به عندما وجدت عنوان دنيالز بروكس في دليل الهاتف. كيف يتمكن ممرض يعمل في عيادة للفقراء من السكن في هذه الشقة الفخمة؟

لم أضع خطة كي أتبعها، لكنني قرّرت أنه حالما أجد شقة دنيايز فسأتصرف حسب ما أراه مناسباً.

أحسست أنه من المناسب أن أطرق الباب، لأن ذلك يتماشى مع طريقة كولومبو.

ما من جواب.

حاولت ثانية، وكانت النتيجة ذاتها. نظرت من خلال النافذة العالية والضيقة التي تتوازي مع الباب.

يبدو أن دنيايز يحبّ اللون الأبيض، فالجدران بيضاء، وإطار الأغصان الذي يحيط بالمرآة أبيض اللون، والمقاعد الطويلة بيضاء اللون، وخزائن المطبخ وأسطح الطاولات كلها بيضاء اللون. رأيت درجاً أبيض اللون أيضاً يؤدي إلى الطابق الثاني. لم أستطع رؤية أشياء أكثر.

"أتبحثين عن كوري؟"

استدرت فور سماعتي لهذا الصوت.

نظرت لأرى جمالات حمراء اللون، وقبعة من قش، وسروالاً قصيراً (برمودا)، وقميصاً ذُور عليها شعار خدمة البريد الأميركية.

"لم أقصد إخافتك سيدي."

استعاد قلبي هدوءه، وقلت للرجل: "لا. أعني نعم. هل كوري موجود هنا؟" "إنه رجل من النوع الذي يسهل تخمين تحركاته، فعندما لا يعمل تربيته يخرج لصيد السمك". ابتسم رجل البريد في وجهي، ولاحظت أنه يضع إحدى يديه في جيبه، بينما يمسك بحملة بالأخرى.

"هل أنت صديقة لكوري؟"

ذهب ليصطاد السمك؟ إذا فالرجل يمتلك زورقاً؟ صممت على الصيد أنا الأخرى: "نعم. يحبّ كوري زورقه كثيراً".

"يتعيّن على الرجل أن يتعد في بعض الأحيان. إنه عالم شتير، أليس كذلك؟ تجدين رجلاً كبيراً مثله يعمل ممرضاً، بينما يرسلون الفتيات الصغيرات للقتال في العراق".

بدأ عقلي يعمل على هذه المعلومات الجديدة. إذاً يمتلك دنيالز زورقاً! أجبت
موافقةً: "إنه عالم محير فعلاً!"

صعد رجل البريد ثلاث درجات، ورأيته يمسك بالمجلة الملقوفة: "هل أضعها
في الصندوق؟"
"بالأكيد".

"طاب يومك سيدي".

انتظرت لبعض الوقت حتى ابتعد ساعي البريد، ثم عبرت السقيفة، وتوجّهت
نحو الصندوق، ورحت أفتش في بريد دنيالز. وجدت مجلة بوينينغ، وياور بوت.
احتوت باقي الموجودات على ظروف و منشورات، وجميعها مرسلة إلى كوري آر.
دنيالز. لاحظت أن ظرفاً واحداً فقط حمل عنوان المرسل إليه، كوري راينولدس
دنيالز.

أسقطت رزمة البريد في الصندوق، وعدت إلى سيارتي.

إن أقرب مكان من شقة دنيالز ترسو فيه الزوارق موجود في بوهيكيث
مارينا، أي بعد مدخل جزيرة سي بروك. يبدو هذا المكان مناسباً جداً للانطلاق.
وصلت إلى المكان بعد دقائق قليلة. تحدّثت مع امرأة جعلتها كثرة التعرض
للشمس شديدة السمرة، وترتدي بذلة سباحة ضيقة وشديدة الصغر، فأرشدتني إلى
زورق مخصّص لرياضة صيد السمك عند الرصيف رقم أربعة.

شاهدت الحبال المربوطة بصواري القارب أثناء سيرتي نحو رصيف الرسو. هل
أن ما أشاهده هي شراشف؟ ومن عساه يضع شراشف بوجه الريح؟ وقعت بحيرة
شديدة فعلية.

لا يعدّ قارب دنيالز من بين الأكبر، فلعل طوله لا يزيد عن خمسة وثلاثين
قدماً. يتميّز هذا القارب بمقدمة حادة وبسياج معدني يصل إلى منتصفه، أما لوحة
قيادته المركزية فمغطاة، وهو مزود بمنصة خارج مؤخرته. لاحظت أن القمرة ربما
تتسع لمنامة أربعة أشخاص. رحلت أتفحص كل التفاصيل في الزورق بعينين
مركبتين. شاهدت الكراسي الثابتة، والأذرع المعدنية الممتدة، وحاملات قضبان
الصيد، ومركز حفظ الطعوم. إنَّما الحياة المرفهة. تأكّدت من أن المركب مجهز

لصيد الأسماك، لكنه لم يكن كذلك في هذا اليوم بالذات. بدا كل شيء في مكانه، لكنني لم أشاهد أي أثرٍ لدنيا لزو.

قدّرت أن المنزل يساوي نصف مليون دولار، ولعل القارب يساوي ثلاثمئة ألف دولار أخرى. كيف استطاع الحصول على هذا المبلغ؟ لا بد أن الرجل يتعاطى أعمالاً قذرة.

يرى الإنسان أحياناً مشهداً معيناً، وأحياناً يشم رائحة معينة، ويسمع في أحيان أخرى كلمة منطوقة، وغالباً لا يكون هناك حافظ معين. يلتصع شيء ما في ذهنك فجأة، وتذكر أشياء لم تكن لتخطر على بالك.

وقعت عيناى على اسم القارب.

بورينغ!

37

هني تشايلد.

لا بد أن أحد الأغنياء يدفع الفاتورة.

يعيش ابن أخي هنا، وهو يمتلك قارباً رائعاً.

كوري راينولدس دنيالز.

أشيا هونيكت يونغ بلود. هني.

تزوجت هني من أحد أفراد عائلة راينولدس. عاد أحد أبناء شقيق زوجها إلى

تشارلستون. تركت هذه المرأة القارب لابن شقيقها.

تعيش هني في جزيرة دي ويز.

دُفن ويلي هيلمز في جزيرة دي ويز.

إن كوري دنيالز هو ابن شقيق زوج هني يونغ بلود. يعرف كوري هذا

جزيرة دي ويز جيداً.

هل مارشال محق؟ هل قبضنا على الرجل الخطأ؟ وهل يمتلك دنيالز القسوة

والذكاء ليكون الرجل الرئيسي وراء هذه القضية؟

هل أتصلت بغوليت؟

لا. أريد الحصول على المزيد من المعلومات.

أريد الذهاب إلى ميناء آخر. جلست وراء المقود، واتجهت إلى جزيرة

النخيل.

احتاجت آجي غوراي لعشر دقائق كي يهدر محركها. واستغرق العبور إلى جزيرة دي ويز عشرين دقيقة أخرى. بدا هذا الوقت دهنراً بالنسبة لي. وقف الحظ إلى جانبي هذه المرة. وجدت عربة غولف متروكة عند رصيف الرسو. أسرعت لركوبها، واتجهت نحو المركز الإداري للجزيرة.

وجدت آنسة هني في متحف الطبيعة، ورأيتها منشغلة بتنظيف حوض للمخلوقات البحرية في حوض الغسيل. لاحظت أنها تحمل صندوقاً فوق مرفقها يحتوي على أصداغ بحجم قبضة اليد.

"آنسة هني. أنا سعيدة لأنني حظيت بك."

"حظيت بي؟ وهل يمكنك إيجادي في أي مكان آخر من بلاد الله الواسعة؟"

"أنا...".

لاحظت بعض أيدي السرطانات هنا، وهناك تستكشف العالم الخارجي بحذر. أومأت هني نحو الصندوق: "إنني أنظف بيت هذه السرطانات الناسكة".

تباطأت حركة أيدي السرطانات المليئة بالعقد، لكنها استمرت بملامسة الصندوق. جاءت مقاطع كلمات المرأة الرباعية مشددة وهي تقول: "هل تعرض كوري لحادث جديد؟"

"إننا نبحث ببعض المسائل المتعلقة بالعناية بالمرضى الذين يترددون على عيادات كنيسة رحمة الله، وكيفية استخدام الموظفين، إلى ما هناك من أمور. إنني مهتمة بالتدريب الذي تلقاه كوري".

ترددت المرأة قليلاً: "إن كلمة ممرض لا تشمل الرجال إلا قليلاً، أليس كذلك؟".

"طبعاً، إن هذه التعابير الشائعة هي محيرة فعلاً".

انهمكت هني بالتنظيف بكل قوتها إلى درجة أن مفاصل يديها كانت ترتد مع حركتها.

"درس كوري كي يصبح طبيباً، لكنه اتبع هواه بدلاً من ذلك. أعتقد أن الفتيان يكبرون مع السنين. ماذا نستطيع أن نفعل؟"

"ألم يتدرّب كوري في تكساس؟"

"أجل، لقد تدرّب هناك".

"أين؟"

"تدرّب في جامعة تكساس. اعتاد أن يسميها **UTEP**. هل هذا اسم جامعة؟ يبدو اسماً يلائم نوعاً من رذاذ معالجة فطريات القدمين".

ملأت هني حوض الأسماك بالماء.

سألته: "لماذا عاد إلى تشارلستون؟"

"وقع في بعض المتاعب، وفقد وظيفته، تأذى قليلاً، ثم وقع في عجز مالي".
رفعت المرأة المسنة رأسها، وما لبثت عيناها الشاحبتان أن رسمتا عبوساً لا مثيل له.

"كنت أتوقع أن يصبح ابن شقيقي طبيباً بارعاً".

"أنا متأكدة من ذلك. ما هي اختصاصات التمريض التي تدرّب عليها؟"

"تدرّب في البداية على أعمال قسم الطوارئ، ثم على الجهاز العصبي بعد ذلك، وعمل قبل عودته في غرفة العمليات أيضاً. عمل في التمريض الجراحي لمدة سنتين. إنه عمل معقد بالنسبة لي، لكنك لا تستطيعين إقناعي أن عمل الذين يعملون بالتفصيل والخياطة أسهل. نعم. أبلي كوري حسناً بالنسبة للأموال التي أنفقتها عليه".

بالكاد أصغيت لما قالته، لأن حقيقتين متباينتين خطرتا على بالي.

تزايد قلقي من أن نكون قد أمسكنا بالرجل الخطأ. يقترب القاتل الآن من

أوصاف دنيالز.

ودنيالز حرّ طليق.

شعرت بموجة برد تحترقني.

يتعيّن عليّ الآن الاتصال بغوليت هاتفياً. لا. يتعيّن عليّ التحدث مع غوليت.

اقتربت الآن من تصديق رواية مارشال القائلة إن دنيالز يحاول الإيقاع به، وذلك عكس كل الدلائل. إن إقناع الشريف بالتبصر في هذه الفكرة يتطلّب حديثاً مضنياً وجهاً لوجه.

امتلأت الطرقات في مساء الجمعة هذا بسيارات الوافدين لقضاء عطلة نهاية

الأسبوع. استغرقتني القيادة باتجاه شمال تشارلستون حوالي ثلاثة أرباع الساعة.

وجدت غوليت في مكتبه. بدا متوتراً كالعادة.
تساولت كرسياً، وجلست قبالة مكتب الشريف مباشرة، وقلت له: "أريدك
أن أسمعك أمراً هاماً جداً".

نظر الشريف في ساعته، ثم زفر دلالة على امتعاضه. أتت رسالته واضحة: من
الأفضل أن يكون هذا الأمر مهماً، وأن يكون قصيراً.
"بدعي مارشال أن دنيا لزو أوقع به".

تفحصني غوليت: "أصبحت مستهدفاً من الجميع ابتداءً من الحاكم ونزولاً.
هل تقولين الآن إنني سحنت الإنسان الخطأ؟"

"إنني أقول إن هناك احتمالاً قوياً بذلك".

"يتعين علينا أن نشوي مارشال ثلاث مرات وأكثر".

"يقول مارشال إن دليلنا ضده دليل ظريفي".

بدأ غوليت بالاعتراض على كلامي، لكنني تابعت حديثي.

"إنه محق إلى حد ما، لأن الدليل الذي جمعناه إلى الآن يبرهن أن عدداً من
المرضى قد قُتلوا في تلك العيادة. يتمكن أي شخص من إخفاء أنشطة سلكية،
وهناك احتمال أن يقوم أي شخص بإخفاء الصدفة في طارئة مكتب مارشال.
تعرف أن هذا هو الذي سيستند عليه الدفاع".

"إن الأمور التي سيحادل فيها الدفاع، والأمور التي سيعتقدها المحلفون، هما
أمران مختلفان جداً".

مضيت بمجادلي: "قلت بنفسك إن هناك مشكلة في سجلات المكالمات
الهاتفية. اتصل أحدهم بنوبل كوكشنيك من مكتب مارشال في الليلة التي كان
مارشال غائبا فيها عن مكتبه".

"انشغل كوكشنيك بتحقيق خاص، وأي شخص يمكنه الاتصال به بطريقة
غير قانونية".

أيقنت أن غوليت لا يريد أن يقتنع. قبض غوليت على رجل، وعلى طبيب
بوجه خاص. يريد أن تكون قضيته محكمة، وأنا دفعته في ذلك الاتجاه بنفسي.
وافق المدعي العام المحلي، وها أنا أغير موقفني.

"إن اسم دنيايز الكامل هو كوري راينولدس دنيايز، لكنني أعتقد أنك تعرف ذلك سلفاً، لكن الذي لا تعرفه هو أن لدنيايز زوجة عمّ تعيش في جزيرة دي ويز. أعطته زوجة عمّه هذه قارباً".

"إن امتلاكه قارب صيد، ومعرفة بجزيرة دي ويز لا يجعلانه قاتلاً".

"شغل دنيايز وظيفة في مستشفى لمدة ثلاث سنوات بعد انتهائه من معهد التمريض. لم يعمل الرجل في عيادة عامة على الدوام".

صدر صوت من المقعد الجلدي عندما استرخى غوليت عليه: "لا يعد ذلك دليلاً كافياً".

"عمل الرجل كمرض جراحي، كما نظّف الكثير من الجروح، وراقب العمليات الجراحية، وامتلك الفرصة ليتعلّم طريقة إجراء العمليات".

"إن مناولة الأدوات الجراحية لا تجعل منه جراحاً".

"لا يستدعي هذا العمل بالذات جراحاً، كما أنه لا يتطلّب إبقاء المرضى على قيد الحياة. لا يتطلّب الأمر سوى معرفة كيفية انتزاع الأعضاء البشرية وحفظها جيداً".

فكّر بالتوقيت. عاد دنيايز إلى تشارلستون في عام 2000، وبدأ العمل في العيادة

في عام 2001. اختفى ويلي هيلمز في شهر أيلول (سبتمبر) من عام 2001".

رأيت أوّل ظلال الشك في عيني غوليت، فمضيت في آخر محاولة لي لترسيخ

فكرتي.

انشغل كروكشنك بتحميل المقالات التي تتحدّث عن قُرب الأعضاء

على حاسوبه. قرأت عدداً قليلاً من هذه المقالات عندما كنت أتفحص القرص

الصلب في الحاسوب، لكنني لم ألاحظ أهمية مقالٍ معيّنٍ منها إلا في هذه اللحظة.

قُتل عددٌ يقدرُ بأربعمئة امرأة وفتاة منذ عام 1993 في كويداد شواريز وشي

هوا هوا، الواقعتين في المكسيك. يُعرف أيضاً أن سبعين شخصاً آخرين قد تمّ

الإبلاغ عن اختفائهم. تتنوع مهن الأشخاص الذين اختفوا، فمنهم الطلاب،

وموظفون في المتاجر، وعاملون في مصانع التجميع، وبعض هؤلاء صغار في السن

ولا تتعدى أعمارهم عشر سنوات. وجدت بعض الجثث مدفونة في قبور ضحلة في الصحراء، وبعضها وُجد في مواقع بناء وباحات السكك الحديدية المنتشرة في أنحاء المدينة.

"تولّى مكتب المدعي العام المكسيكي في عام 2003 عدة قضايا منها. ويقول المحققون الاتحاديون إنهم يمتلكون دليلاً على أن بعض الضحايا لقوا حتفهم على يد عصابة دولية لتهريب الأعضاء البشرية. وتحدّثت مقالة أعدتها وكالة الأسوشيتد برس والتي اكتشفها كروكشك، عن شاهد عيان تعرّف على رجل أميركي عضو في هذه الشبكة".

وجّهت نظرة ضاغطة أخرى باتجاه غوليت.

"تدرّب دنيايز وعمل في إل باسو، تكساس. وتقع كويداد شواريز على مسافة قريبة جداً من إل باسو".

"أقولين إن دنيايز قد تورّط في أعمال هذه الشبكة؟"

"أقول فقط بوجود احتمال تورطه. تواجد الرجل في إل باسو، إذاً فحتى ولو لم يتورط، فلا بدّ أنه سمع عن قتل أشخاص في المنطقة. ويُحتمل أن يكون الرجل أجرى بعض الاتصالات مع بعض الأشخاص، أو ربما التقط الرجل الفكرة وجاء إلى هنا كي يقيم وكائنه الخاصة".

مرّر غوليت يداً من فوق فكّه.

"يعيش دنيايز في سي بروك، وهو يمتلك قارباً ثميناً جداً".

"أقولين إنه ينتمي إلى عائلة راينولدز؟"

"إنه أمر قد يحمل، أو لا يحمل، أهمية معينة. أعرف أنه إذا نظرنا إلى هذه الحقائق كلاً على حدة، فلن تبدو مريبة. أتكلّم عن حقائق مثل معرفة جزيرة دي ويز، وامتلاك قارب، وامتلاك إمكانية الوصول إلى عيادة كنيسة رحمة الله والمرضى الذين يتردّدون عليها، والتدرّب الجراحي، والتواجد في إل باسو، ومستوى الحياة المكلف، وكذلك ذلك الاتصال الغامض الذي جاء من هاتف مارشال. لكن، إذا جمعنا كل هذه الحقائق معاً...".

لم أعبر بالكلمات عن الاستدلال الذي أردت أن يفهمه غوليت.

تسمّرت عينا غوليت بعينيّ. لم ينبس أحدنا ببنت شفة.
كسر الهاتف نطاق الصمت برنينه. سمعت رنة، ثم ما لبثت أن أصبحت أربع
رئات، لكن غوليت تجاهلها.
ترك بعض اللحظات بصماتها الدائمة في الذاكرة. أدركت أن هذه اللحظة
هي منها.

تذكرت أنني رأيت مربعاً يموض باللون الأحمر على جهاز الهاتف. سمعت
صوت أحدهم في الممر ينادي شخصاً يدعى آل. تراقصت ذرات الغبار في
أضواء الشمس المتسللة عبر الستائر. لاحظت طرف عين غوليت اليميني يتحرك
فجأة.

مرّت ثوان. مرّت دقيقة. أدخلت امرأة رأسها من خلال الباب، وهي ذات
المرأة التي أرسلها غوليت لتهدئة أقربائه من أسرة هايرليس المتخاصمين.
"اعتقدت أنك تريد أن تعرف. أطلق سراح مارشال، وقد عقد مؤتمراً
صحفياً قبل قليل، لكنّ المحامي هو الذي تولّى الكلام. حرص مارشال على لعب
أفضل دور للمتهم البريء من دون أن ينطق بكلمة واحدة".
أوما غوليت إيماءة ذات مغزى.

"يعتقد تايبّي أنه أوشك على العثور على الطيار الذي نبحث عنه".
"أخبره أنني سأوافيه بعد قليل".

نظرت إلى ساعتي. يُحتمل أن يكون دنيالز على وشك مغادرة البلدة، ولربما
أصبح على بعد مئات الأميال من تشارلستون. احترقتني رعشة من الخوف
لاحتمال تمكّنه من الهرب.

سألت: "هل ستفكّر بإلقاء القبض على دنيالز؟"
"بأية تهمّة؟"

"لأنه ضرب كلبه، أو لأنه بصق على الرصيف، أو لأنه تبوّل من على مقدمة
قاربه. لا يهمني، طالما تحضره إلى وسط المدينة، وتصدر مذكرات تفتيش من
المحكمة. أريدك أيضاً أن تفتش منزله، وسيارته، وأن تراجع سجل مكالماته
الهاتفية، مثلما فعلت مع مارشال. يُحتمل أن تصل إلى شيء هام".

وضع غوليت إحدى يديه على الهاتف: "تلاحقني وسائل الإعلام مثلما يلاحق الذئب أشلاء الجيف، كما أن هيرون غاضب جداً من انتشار أخبار كنيسة رحمة الله في وسائل الإعلام. أمضيت صباحي بتلقي اللوم من رئيس البلدية ومن الحاكم. إن آخر شيء أحтаجه هو إلقاء قبضٍ آخر مشكوكٍ بأمره".

"استصدر إذاً مذكرات لتفتيش منزله وقاربه".
"وإلى ماذا ستستند هذه المذكرات؟ هل أقول إنني أصدرها لأنني أشك بوجود شيء لم تنتبه إليه؟ إذا فعلت ذلك، سأصبح حديث الصحافة".
"يمكنك القول إنه مساعد، ومحرضٌ محتمل للعصابة، أو أنه متآمر معها. يمكنك استخدام نفس التهم التي برّرت بها مذكرات التفتيش التي صدرت بحق مارشال. اسمع، أعرف أنه يصعب على المرء التفكير بمارشال سوى أنه ذلك الرجل النذل، والجشع، الذي قتل أشخاصاً مرضى وضعفاء لا حول لهم".
"دافعت جيداً عن هذه النقطة. هل تدافعين الآن عن هذا الرجل؟"

شعرت بجفاف في حنجرتي. بلعت ريقِي: "إن كل ما أقوله هو إنني غير متأكدة. أعتقد أنه من الواجب أن تقوم بالتحقق من احتمال كون دنيالز هو القاتل. يتعين عليك اعتقاله إذا توافر لديك أدنى شك في تورّطه بالجرائم".
"إنني غير معتاد على كل هذه الأمور القانونية الدقيقة التي تستخدمونها في مهنتك أيتها الدكتورة، لكنها ليست الطريقة التي تجري الأمور بها هنا. لا أستطيع إلقاء القبض على الناس بسبب الشكوك، كما أنني لا أملك مثل هذه الشكوك. أنت تمتلكين الشكوك بشأن دنيالز، لكنني أعتقد أن مارشال مذنب بالتأكيد".
كانت هذه أول مرة أسمع فيها غوليت يتحدث فيها بمثل هذه الحدة.
تكلّمت بحدة أكبر مما قصدت في البداية: "إذا ظلّ دنيالز طليقاً فيمكنه أن يقتل مرة أخرى".

انفتحت عضلات فكّي غوليت، ثم ما لبثت أن استرخت: "يقتل من؟ لن تجرى أية عمليات جراحية في تلك العيادة بعد الآن".
"كنت أفكّر بمارشال. إنه طليق، لكن إذا أقدم دنيالز على قتل مارشال فسينتهي التحقيق. سيفترض الناس أن صديق، الضحايا أو أحد أقربائهم هو الذي أقدم على قتله، ويبقى دنيالز طليقاً في هذه الحالة".

لم يجد غوليت ببصره عني، لكنه ضغط على زر في الهاتف. سمعت صوتاً إلكترونياً يتساب عبر سماعة الهاتف.

"زام زاو".

"هل غادر مارشال مبنى المحكمة؟"

"غادر منذ أربعين دقيقة".

"وماذا يفعل؟"

"رافقه رجل يرتدي بذلة. توقف أمام مكتب في شارع برود. بقي الرجل، لكن مارشال توجه جنوباً باتجاه الجادة السابعة عشرة".

"أعتقد أنه يتوجه نحو منزله".

"ابق في إثره".

"هل يتعين عليّ تتبعه في الخفاء؟"

"لا. دعه يعلم أنك تتبعه".

ضغط غوليت على الزر، وما لبثت خط الاتصال أن انقطع.

تابعت ضغطي على غوليت: "يتعين علينا بالفعل إلقاء القبض على دنيالز".

"أنت على حق بأمر واحد. إن معظم الدلائل ضد مارشال هي ظرفية، لكن الأشياء التي أعطيتني إياها بشأن دنيالز ليست أفضل بكثير". وقف غوليت هنا: "دعيني أرى بنفسي الأشياء التي توصل إليها تايبي".

وجدنا المساعد تايبي جالساً وراء جهازَي كمبيوتر في غرفة تقع في الطابق الثاني، ورأينا رزم الأوراق المطبوعة تنتشر حول لوحة مفاتيح الجهاز الذي يعمل عليه.

سأل غوليت ما إن دخلنا الغرفة: "ماذا لديك؟"

التفت تايبي نحونا، وبدا وجهه أكثر تركيزاً تحت أضواء الفلورسنت مما كان عليه في الخارج.

"وجدت أن تسجيلات المكالمات الهاتفية لمنزل مارشال لم تعطنا أية معلومات جديدة، لذلك فكرت بيني وبين نفسي من أين يجري هذا الرجل اتصالاته؟ هل يجريها من هاتف بالأجرة؟ ومن أي واحد من هذه الهواتف؟"

وضع تاييبي إصبعاً على جبهته: "استخرجت تسجيلات المكالمات في ناساو، وتفحصت المكالمات الصادرة القريبة زمنياً من تاريخ آخر مكالمة أجريت مع آخر شخص مفقود".

سألت: "أتعني جيمي راى تيل؟"

"أجل. أجرى تيل آخر مكالمة له في الثامن من شهر أيار. بدأت بالعمل على اللائحة، وتفحصت الأرقام مقابل الأسماء. اكتشفت، لحسن الحظ، أن كاشك ناساو ليس أكثر مراكز الاتصالات شعبية في المدينة. وجدت شيئاً عندما أنهيت تفحص نصف القائمة".

"اتصل أحدهم بهاتف خلوي يمتلكه جاسبر دونالد شورتر، وذلك في السادس من شهر أيار عند الساعة التاسعة والدقيقة السابعة والثلاثين صباحاً. استغرقت المكالمة أربع دقائق. أجريت مكالمة مع نفس رقم الهاتف في التاسع من شهر أيار، عند الساعة السادسة والأربع دقائق مساءً. استغرقت المكالمة سبعاً وثلاثين ثانية".

قال غوليت: "أجريت المكالمة الأولى قبل يومين من آخر اتصال أجراه تيل. وأجريت المكالمة الثانية بعد مضي يوم واحد على إجراء ذلك الاتصال. هل تفحصت مكالمات شورتر؟"

قلب تاييبي بعض أوراقه المطبوعة: "ستعجبك هذه الواقعة. يمتلك شورتر سجلاً عدلياً. أمضى الرجل ست سنوات من العمل مع سلاح الجو، لكنه طُرد من الخدمة بعد اكتشاف مخدرات داخل رزمة كان يُزمع إرسالها من داناغ (في فييتنام)، إلى الولايات المتحدة. أعرف أن إعفاء ضابط من الخدمة يعادل الطرد غير المشرف لرجل مجتهد. يجعل هذا الأمر من إيجاد وظيفة أخرى في المستقبل أمراً عسيراً جداً".

استخرج تاييبي ورقة من أوراقه المطبوعة.

تفحصت مع غوليت محتويات هذه الورقة. وجدنا أن هذه الوثيقة هي عبارة عن نسخة مصورة عن سجل شورتر العسكري. عمل جاسبر دونالد شورتر طياراً في فييتنام.

38

قال غوليت: "إذا كان شورتر طياراً".
تناول تايبي ورقة أخرى: "وما زال طياراً. إنه يمتلك طائرة سيسنا 207،
ورقم تسجيل ذيلها هو N3378Z".

قال غوليت: "إنها الطائرة المفضلة لدى مهربي المخدرات".
وافقه تايبي: "أجل سيدي. إنها طائرة بمحرك واحد، وتستطيع الطيران على
ارتفاع منخفض، كما أنها تستطيع الهبوط في أي حقل. إن طائرة 207 هي خيار
سيئ في ما يتعلق برحلات التهريب الطويلة. لا تستطيع هذه الطائرة الطيران من
هنا إلى بويرتو فالارتا من دون إعادة التزود بالوقود. وهناك مشكلة أخرى، لأن
كل طائرة تطير في الولايات المتحدة يجب أن تكون مسجلة رسمياً، وهكذا يصبح
رقم التسجيل مرتبطاً بصاحبها مباشرة. اعتاد مهربو المخدرات على سرقة
الطائرات، أو شرائها من مالكيها السابقين، ثم يعمدون إلى طلاء رقم تسجيلها
ليكتبوا رقماً مزيفاً فوقه".

"جد الطائرة، وإذا عرفت مكان شورتر، ابق معه واتصل بي".
"أجل سيدي".

استدار غوليت لينصرف، لكن تبقى عندي سؤال أخير لتايبي.
"أين يعيش شورتر".
"إنه يسكن في سي بروك".

شعرت بموجة من الدهشة: "أين يسكن بالتحديد في سي بروك؟"
نقر تايبي بعض المفاتيح على لوحة حاسوبه، فظهرت لائحة على شاشة
الحاسوب.

"إنه يسكن في فيلات بيليكان غروف".

تحوّلت الموجة إلى إعصار.

استدرت مندفة نحو غوليت.

"يسكن دنيالز في فيلات بيليكان غروف أيضاً".

توقّف غوليت لكنه استمرّ بالإمساك بمقبض الباب.

"أتقولين إن الرجلين يسكنان في نفس المجمع؟"

"نعم! نعم! لا يمكن لهذا أن يكون مجرد مصادفة. أعتقد أن مارشال يقول

الحقيقة، ولا بد أن يكون القاتل هو دنيالز نفسه!"

تغيّر شيء في ملامح غوليت. أوماً بطريقة موحية: "سأقبض عليه".

قلت له: "أريد أن أرافقك".

تفحصني غوليت بتعابير صارمة: "سأعلمك فور القبض عليه".

غادر الرجل بعد أن تفوّه بهذه الكلمات.

لم يتبقّ أمامي أي شيء أفعله فيما عدا الذهاب إلى المنزل، والانتظار.

أخذت بويد في نزهة، ثم تناولت وجبة غداء مثلجة، وانصرفت لمشاهدة

الأخبار. شاهدت مذيعة أخبار قلقة تذيع تقريراً عن حريق نشب في إحدى

المجمعات السكنية. تحوّل قلقها ليصبح نوعاً من الصدمة الهادئة، عندما بدأت بتغطية

أخبار مارشال. أظهرت الصور عيادة، ثم ظهر مارشال عندما كان أصغر سناً،

وظهر مقطع مصوّر يُظهر هيرون يترأس المصلين في ملعب فسيح. أظهر الشريط

كذلك مارشال وتاكرمان يغادران مبنى المحكمة.

لم أركّز كثيراً على هذه الأخبار، لأنني استمرّيت بالتفكير في كل واقعة

عرفتها، وداومت على التطلع إلى ساعتي. اكتشفت في كل مرة أنه لم تمضِ سوى

دقائق معدودة.

هل دنيالز هو القاتل فعلاً؟ لا بد أن يكون القاتل دنيالز؟ هل عثر غوليت عليه؟ ولماذا كل هذا التأخير؟

سقيت مجموعة الصبار التي تحتفظ بها آن، وجمعت كومة ثياب لغسلها، ثم أفرغت غسالة الأطباق.

تصادمت الأفكار في رأسي، لكن لم أجد أمامي أي شخص كي أناقش شكوكي معه، ولكي أجري معه مقابلة للاحتتمالات ما بين دنيالز ومارشال. احتجت للتحدث مع رايان لكي أحصل على وجهة نظره. فكّرت بالاتصال به، لكنني قرّرت تركه لكي يركّز على ابنته ليلي. انشغل بيردي بصفدة. بدا بويد مهتماً، لكنه كان محدثاً مريعاً.

اتصل بيّتي قرابة الساعة السادسة والنصف، وبدا أنه متعب ومتوتر. أخبرتني أنني سأحضر إلى المستشفى كي أوجز له أحداث الأربعة أيام الماضية.

وجدت بيّتي منهنكاً بقراءة عدد يوم الجمعة من صحيفة بوست آند كوررييه. أسرع إلى طي الصحيفة عندما رأني، واشتكى من الطعام، ومن الضمادات التي تثير الحكمة، ومن أولى جلسات الفحص التي يجربها.

قبّلت جبهة بيّتي، وقلت له: "ألستا ثقباً أسود من الاحتياجات؟"

"يدعى هذا التنفيس عن المضاعب، لكنك لم تصغي إليّ فعلاً."

اعترفتُ: "لا".

"أخبريني ماذا حدث".

أخبرته كل شيء. أخبرته عن غرفة العمليات الجراحية المؤقتة، وعن سرقة الأعضاء البشرية، والأنشطة السلوكية، والصدفتين، وأونيغ مونتاغيو، وويلي هيلمز، والأشخاص المفقودين، ورودريغز، ومنتجع آبريغو آيلادو دي لوس سانتوس الموجود في بويرتو فالارتا.

أخبرت بيّتي أن رودريغز ومارشال كانا زميلتين في المعهد الطبي، وأنهما قد أوقفا عن مزاوله مهنتيهما. أوقف مارشال بسبب المخدرات، أما رودريغز فأوقف بسبب اعتداءات جنسية أقدم عليها، وأن مارشال قد أمضى مدة قصيرة في الحبس الفعلي. أضفت قائلة إن مارشال قد باع قاربه، وذلك بعد أن انتهت ورايان من

استجوابه في العيادة، ثم أقيمت حديثي معه بإعطاء وصف لعملية اعتقال مارشال، وإطلاق سراحه بكفالة بعد ذلك بوقت قصير.
قال بيبي: "لا شك في أنك فخورة بنفسك".
بدأ أنني عدت للافتتاح بهذه الوقائع، لكن لا، لا بد أن يكون دنيالز هو
الفاعل.

"أعتقد أنني أقنعت غوليت بالقبض على الرجل الخطأ".
"لا تقتنعي بكل شيء تفكرين به".
صفت معصم بيبي الذي تلوى نتيجة ألم مبالغ فيه. نظرت إلى ساعتني.
قال بيبي: "لا يستطيع أحد إقناع غوليت بشيء".
"لعلك على حق، لكنني ضغطت عليه كثيراً، ويعاني غوليت كثيراً الآن نتيجة
لذلك".

"ومن يجعله يعاني؟"
رحت أحك إهامي الأيمن بأسفل إهامي الأيسر: "إنه يعاني من الصحافة،
ومن هيرون، ومن أصدقاء القس النافذين. ماذا لو كنا مخطئين؟ سيتعين على
غوليت تقديم الكثير من التفسيرات في الانتخابات القادمة".
"يبدو الدليل مقنعاً جداً بالنسبة لي".
"إنه دليل ظرفي بكاماه".
"لكن الدليل الظرفي الكافي يصبح مقنعاً بما فيه الكفاية بالنسبة للمحلفين إذا
صدقوه".

اقترب بيبي مني، وفصل ما بين يديّ المشابكتين. تطلعت إلى ساعتني. أين
غوليت بحق الجحيم؟

سأل بيبي: "إذا لم يكن مارشال مذنباً، فمن ترشحين غيره؟"
تلوت على مسامعه المعلومات التي جمعتها عن كوري دنيالز.
أخبرته عن القارب، وعن معرفته الوثيقة بجزيرة دي ويز، وعن عمله كمساعد
ممرض في العمليات الجراحية. أخبرته أيضاً عن تواجده في إل باسو خلال فترة
كثرت فيها الجرائم المريبة، والتي يرتبط بعضها بتهريب الأعضاء البشرية. أخبرته

كذلك عن المكالمات التي أجريت من مكتب مارشال أثناء غيابه عن العيادة، وعن سكنه في نفس مجمّع الفيلات الذي يسكنه طيار ذو سمعة ملطخة. قلت له إنه نفس الطيار الذي تلقى اتصالات قبل اختفاء جيمي راي تيل وبعد الاختفاء مباشرة، وقلت له إن هذه الاتصالات أجريت من هاتف عمومي يبعد ياردات قليلة عن العيادة.

قال بيبي بعد أن انتهيت: "ألا يُعقل أن يكون مارشال ودينالز يعملان معاً".
"إنه احتمال وارد، لكنني لا أنفك عن التفكير بحديثي مع مارشال. إنني أكره الرجل، لكن بعض النقاط التي يعرضها تبدو معقولة. إن ترك الأصداف مبعثرة في مكتبه لا يتناسب مع شخصيته. نعرف أيضاً أنه كان في الخارج عندما تلقى هاتف كروكشنيك المنزلي المكالمة من العيادة. يسهل علينا تفحص سجل عملية بيع القارب. وإذا كان الرجلان يعملان معاً، فلماذا توجه أصابع الاتهام إلى دينالز، إلا إذا كان مارشال يحاول أن يسبق شريكه بعقد صفقة اعترافه مع المدعي العام المحلي؟"

"هل كدّس مارشال أو دينالز الأموال؟"

"يقول غوليت إنه ما من دليل على هذا، مع أنه من السهل إخفاء الأموال التقديرة. ويعيش دينالز بمستوى يفوق كثيراً مستوى معيشة الممرض".
وصفت لبيبي ما رأيته في هوي تشايلد، وفيلا سي بروك، وشرحت له ارتباطات دينالز العائلية.

"تحدثين عن آل راينولدس الذين يعملون بتجارة الألومنيوم".

"بالضبط، لكن هذا لا يعني شيئاً".

نظرت بطرف عيني إلى ساعتي. مرّت خمس دقائق منذ أن نظرت فيها آخر مرة.

بدت منطقة أسفل إمامي بلون أحمر قان: "تطلب الأمر بعض الإقناع، لكن غوليت توجه أخيراً للقبض على دينالز، لكن الدلائل ضد دينالز ظرفية هي الأخرى. آمل أن تؤدي عمليات البحث، وبعض التسجيلات الهاتفية إلى شيء مهم".

"وماذا بشأن الرمش؟"

"يستغرق تحليل الحمض النووي بعض الوقت".

"وهل عاد ذلك النقيب المضحك (رايان) إلى منطقة التندرا؟"
"نعم".

"وهل تشاقين إليه؟"

"نعم".

استنشقت أثراً من عطر رايان في وسادتي ذلك الصباح، وشعرت حينها
بوحشة أعمق مما توقّعت. شعرت بفراغ. هل هذا إحساس بقرب انتهاء علاقتي
معه؟

أعاد بيبي فصل يديّ مجدداً، وظلّ ممسكاً بوحدة منها.
هزّزت رأسي.

رنّ هاتفني الخلوي بعد مضي عشر دقائق. ومض رقم هاتف غوليت على
الشاشة. شعرت بتسارع في نبضات قلبي. ضغطت على زر الاستقبال.
"لم نجد دنيايز في بوهيكيت، أو في منزله. وجدنا القارب في مكان رسوه
المعتاد، لكنني أرسلت نشرة لجميع المراكز بأوصاف سيارته".
"هل حدث تقدّم بالنسبة لشورتري؟"

"لم نجد له أثراً، لكن الطائرة مركونة في مدرج خاص قرب طريق كليمنت
فيرري. إن الطيران محدود جداً هناك، ولا يمتلكون برج مراقبة، لكنهم يبيعون
المحروقات. يقول الحارس إن شورتر ينقل مجموعة من رجال الأعمال بطائرته إلى
شارلوت صباح كل نهار أحد. أضاف أنه اعتاد في أمسيات أيام الجمعة على القيام
بأعمال صيانة دورية. سيكون تايبي بانتظاره عندما يظهر هناك".

"ماذا يفعل مارشال؟"

مرّت فترة سكون. استطعت أن أسمع على الطرف الآخر من الخط أصواتاً
صادرة عن جهاز الراديو الذي يستخدمه غوليت.
"أضاع زام زاو أثره".

لم أصدّق: "أضاع أثره؟ كيف أضاع أثره؟"

"انقلبت شاحنة ذات ثمانية عشر دولاباً في مكان لا يبعد كثيراً عن مركزه، فأمرته أن يذهب للمكان، لأن الشاحنة صدمت سيارتين".
"يا الله!"

"إنه تدبير مؤقت. علمت أن تاكرمان دعا لمؤتمر صحفي عند العاشرة من صباح الغد. سيتظاهر مارشال بالوداعة أمام الجمهور، وسنستأنف تبعه بعد عقد المؤتمر".

نظرت نحو المريض بعد انتهاء الاتصال. ووجدته نائماً لحسن الحظ. نظرت ثانية نحو هاتفني الخلوي، فلاحظت إشارة تدلّ على وجود رسالة صوتية في وضعية الانتظار. استمعت إلى الرسالة الصوتية.
أتت الرسالة من إيما، وجاء فيها: "اتصلي بي. أحمل أخباراً لك".
تذكّرت أنني نسيت أثناء حديثي مع تاييبي حقيبي الشخصية في مكتب غوليت. لا بد أن إيما هاتفني في ذلك الوقت.

نقرت زر E على لوحة الاتصالات السريعة. أجابني الآلة المحيية لإيما بعد أربع رنات.
"اللعة!"

أتى صوت إيما الحي مقاطعاً صوتها المسجل في اللحظة التي كنت أعتزم فيها قطع الاتصال.
"انتظري على الخط".

انتهت الرسالة، وسمعت صوت ييب طويل. سمعت صوت نقرة، ثم تعيّرت نوعية الصوت.

سألني إيما: "أين أنت الآن؟"

"إنني في المستشفى".

"إذا ضبلك الموظفون وأنت تتحدثين في هاتفك الخلوي، فسيسبون لك المتاعب. كيف حال بيتي".

أجبتها بصوت أعلى قليلاً من الهمس: "إنه نائم".

"أعرف أنك تعبت كثيراً أنت وغوليت".

"إيما، أخشى أن نكون قد ارتكبنا خطأ".

"حقاً؟"

نفضت، وأقفلت الباب، ثم أسمعت إيما نسخة موجزة عن الأمور التي أخبرتها لبيتي. أصغت إليّ من دون أن تقاطعني.

"لا أعرف ما إذا كانت أخباري ستحسم شيئاً. حصلت على نتائج فحوصات الحمض النووي اليوم. إنه رمش مارشال".

"أنت محقة. ستثبت النتيجة شيئاً في الحالتين، وهي ستضيّق مجال الاحتمالات. سيثبت لدينا إما أن يكون مارشال قد تخلّص من الجثة، أو أنه شارك في التخلص منها، أو أن أحداً قد أوقع به حتى في وقت دفن الجثة. لكن لماذا الإيقاع به في ذلك الوقت؟ يبدو لي أن ذلك النوع من التخطيط الطارئ، هو نوعٌ من الذهاب بعيداً في الافتراضات. وهل تحدث عملية الإيقاع عن طريق رمشٍ بحق الله؟ يشبه هذا الأمر حبكة فيلم تلفزيوني عندما يجد رجال الشرطة خلية جلد وسط مساحة واسعة من الأراضي. وما هي فرص إيجاد رمش في هذه الحالة؟"

"ومن ترشحين ليكون المجرم؟"

"أرشح دنيالز. إنه بطيء بما يكفي ليعتقد أن شيئاً من هذا النوع يمكن له أن ينجح".

"إنني أرشحه أيضاً. دعيني أعرف التطورات".

"سأفعل".

وضعت هاتفسي الخلوي في وضعية التذبذب. مرّت الدقائق ببطء. عدت للعبث بمنطقة أسفل إهمامي، وما لبث الجهاز أن تحرّك متذبذباً. إنه غوليت.

"استطاعت شرطة جزيرة النخيل تحديد موقع سيارة دنيالز في رصيف ميناء دي ويز".

"هل ذهب لرؤية زوجة عمه؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا ذهب؟ ولماذا لم يستخدم قاربه الخاص؟"

تجاهل غوليت أسئلتي. وجدت أنه على حق، لأن لا علاقة لها بالموضوع.

"إنني أحري اتصالي مع دي ويز لأعرف ما إذا كان دنيالز هناك. عيّنت مساعدين لي ليلازموا شقته، وآخرين ليكونوا في بوهيكيث. سنقبض عليه."
"اتصل بي من فضلك عندما تقبض عليه. يشعرني هذا الرجل بالتوتر."
لاحظت أن ييتي يشخر. حان الوقت كي أذهب.

حاولت أن لا أحدث ضجيجاً أثناء رفعي للصحيفة عن سرير ييتي، وفي نفس الوقت وقعت عيناى على صورة مرغلة بالأسود والأبيض، ويظهر فيها أوبري هيرون. أظهرت الصورة هيرون في وضع تضرّع، وبدا رأسه منحنيًا، أما عيناه فكانتا مغمضتين، ولاحظت أن إحدى ذراعيه قد ارتفعت فوق رأسه. إنها ذراعه اليسرى.

ضربتني فكرة مثل أمواج التسونامي (أمواج المحيط الزلزالية). إنها فكرة جاءت بطريقة عفوية، ولم أتوقعها، لكنها صدمتني.

شبت أصابعي يأساً، ورحت أحمس: "اللعنة. اللعنة. اللعنة".

بدأت الصحيفة تتهز في يدي، بينما راحت الرؤى تصرخ في عقلي.

تذكرت ثلاث ضحايا مع كسور في فقراتهم العنقية، وكلها من جهة اليسار.

تذكرت الأنشطة السلوكية ذات الحلقات التي تمكّن من استخدام قوة مميتة.

تصوّرت كوري دنيالز وراء زجاج يمكّن من الرؤية باتجاه واحد. تصوّرت يبدأ ترتفع من خلال شعر الرأس. وتصوّرت إصبعاً ينقر على لوحة مفاتيح حاسوب، وذراعاً تتسلل خلف ظهر كرسي، وتخلّت ندبة حول المعصم.

تصوّرت ليستر مارشال وهو يقبّل صفحات سجل مريض، ثم وهو يكتب كلمات على أوراق رسمية.

توضّحت عندي فجأة كل هذه التصورات المتنوعة.

تحدّث دنيالز عن ضرر دائم تعرّض له نتيجة حادث دراجة نارية. تنحصر قوة يديه في يده اليميني فقط.

تذكّرت الآن أن مارشال قلب صفحات ملف مونتاغيو بيده اليسرى، وأنه كتب بيده اليسرى أيضاً.

كان دنيالز أيمن، بينما كان مارشال أيسر.

تذكرت أن أداة لشد الأسلاك قد تدلت من رأس ضحية من جهة الخلف.
تذكرت أيضاً أن أحدهم قد استخدم القوة على الجهة اليسرى لرقاب كل
من مونتاغيو، هيلمز، وكروكشيك. شق الثلاثة من الجهة اليسرى للعنق.
أعلم أنني دفعت غوليت ليقبض على دنيالز.
أعلم أيضاً، الآن، أن القاتل لا يمكن أن يكون دنيالز.
أين هو مارشال الآن؟

39

تركت الصحيفة تسقط من يدي، ثم تناولت هاتفى الخليوي، وطلبت غوليت.

لا جواب.

اللعة!

اتصلت بمركز اتصالات دائرة الشريف. أخطرني الموظفة أنه من غير الممكن الاتصال بغوليت.

"يتعين عليّ أن أتصل به. الآن."

"هل تتصلين للإبلاغ عن حدوث جريمة؟"

"إن غوليت هو في طريقه للقبض على رجل يدعى كوري دنالز. اتصلي به، واطلبي منه أن يتصل ببرينان قبل المضي قُدماً بأي شيء."

تناهى إليّ صوتها المليء بالحذر: "هل أنت مراسلة صحفية؟"

"لا. أنا تمبرنس برينان. أعمل مع مكتب المحققة الجنائية. إنني أمتلك معلومات مهمة للشريف. إن الاتصال به هو أمرٌ شديد الأهمية."

مرّت لحظةٌ من التردد.

"ما هو رقم هاتفك؟"

أعطيتها إياه: "كيف لي أن أتصل بالمساعد تايبي؟"

"لا أستطيع أن أعطيك رقمه."

بذلت جهداً كبيراً لعدم الصراخ في أذني المرأة: "اتصلي بتايي من فضلك.
اطلبي منه أن يتصل بي على نفس الرقم، وأبلغيه نفس الرسالة".

أنهت المكالمة بعد أن شعرت بإحباط كبير.

نظرت إلى بيتي. لاحظت من حركة عينيه أنه لم يصل بعد إلى مرحلة النوم
العميق. فكّرت بالمغادرة، لكنني قرّرت الانتظار قليلاً. ماذا لو اتصل غوليت أو

تايي أثناء نزولي بالمصعد، حيث لا تستطيع الإشارات الهاتفية أن تصل؟

بدأت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وعدت لمعالجة أسفل إهامي بأسناني.

ليتصل أحدهما، اللعنة!

لم يُصدر الهاتف أية حركة.

ليتصل أحدهما!

كيف أمكنني أن أكون بهذا الغباء؟ وكيف وصلت إلى هذا المستوى من
السذاجة؟ راوغني مارشال مثلما تفعل السمكة، في وقت كان من الأجدر بي أن
أجمع قطع اللغز المتناثرة.

اهدني قليلاً يا برينان. لم يضع منا أي شيء، وما زال مارشال متهماً، وهو
سيخضع للمحاكمة. نستطيع إطلاق سراح دنيانز إذا كان بريئاً.

تجاهلت نصيحتي لنفسي مثلما تعودت أن أفعل دائماً. ملأني القلق والغضب
بسبب غبائي. بدت منطقة أسفل إهامي مثل قطعة لحم مسلوخة.

جرّب عقلي التفكير ببعض المنطق.

يملك غوليت أسباباً للقبض على دنيانز، لكنه يستطيع أن يطلق سراحه إذا
ظهرت حقائق جديدة. إذا حدث ذلك، فلن يموت أحد.

الموت؟

جمّدت في مكاني بعد أن سيطرت عليّ سلسلة متنوعة من التصورات التي
تؤدي بدورها إلى إدراك حقائق مرعبة.

إن مارشال هو القاتل، ومع ذلك فالدلائل المستخدمة ضده ظرفية. من

يستطيع إثبات جرمه؟

أعتقد أنه الطيار.

إذا كان شورتر هو فعلاً أداة النقل التي استخدمها مارشال، فإن مارشال الآن هو حر طليق. وإذا تحدّث المدعي العام المحلي مع شورتر، فربما سيعمد هذا الأخير إلى التفاوض. وإذا انقلب شورتر فإن شهادته قد تؤدي إلى إعدام مارشال ورودريغز.

يتميّز مارشال بالقسوة، وأعلم أن مارشال استطاع أن يتملّص من زام زاو، وهو الآن حرّ طليق. أعرف أيضاً أن مارشال سوف يتفهّم المخاطرة التي يمثّلها شورتر بالنسبة إليه. سيحاول الرجل التخلص من هذه المخاطرة، وإذا نجح في مسعاه هذا، فربما سيستطيع التملّص من الإدانة.

رحت أنقر لوحة مفاتيح هاتفني الخلوي، لكن مرضة فتحت الباب في هذه الأثناء. زمّت شفتيها، وأشارت إلى يدي وهزّت رأسها دلالة على معارضتها استخدام الهاتف.

وضعت الهاتف في جيبي، وخرجت مسرعة من الغرفة لأنزل إلى قاعات الانتظار. أشارت لوحة الأزرار الشاحبة على الجدار إلى أن المصعد يتّجه صعوداً.

هيا!

انفتح الباب. أسرعت بالدخول، وانطلقت بين الموجودين داخل المصعد قبل أن يستطيعوا التراجع. بدأ المصعد بالنزول. انصرفت أنظار الجميع للتطلع بشرود في أرقام الطوابق، والتي توالى على الوميض في اللوحة الداخلية للمصعد.

هيا!

لاحظت أن الردهة خالية من الناس. خرجت من المصعد، واتصلت بغوليت.

لا جواب.

اللجنة!

ماذا يحدث في ميناء الرسو؟ وماذا يحدث في جزيرة دي ويز؟ أو في منزل دنيالز؟ أو في بوهيكيت؟

وماذا كان يجري في المدرج القريب من طريق كليمنتس فيري؟

تركّز قلقي الأكبر على تايبي الذي لم تكن لديه أدنى فكرة عن الخطر المحدق بشورتر. وأعرف أن شورتر لن يتوقّع هجوماً من مارشال. وسيخسر ذلك

الطبيب القليل إذا ما تخلّص من الطيّار الذي استخدمه، لكنه سيربح الكثير. ولا يعلم مارشال أن دنيالز ملاحق، وهو ربما يخطّط لجعل جريمة قتل شورتر تبدو من عمل دنيالز. هل يستطيع مارشال إطلاق الرصاص؟ هل هو من أطلق النار على بيتي؟ أعلم أن دائرة شرطة جزيرة النخيل لم تستطع معرفة أي شيء بشأن حادثة إطلاق النار، وكذلك لم تسفر عملية تفتيش مكتب مارشال، ومنزله، عن اكتشاف وجود مسدس فيهما.

ركبت سيارتي بأنفاس متقطعة. أدت مفتاح التشغيل. تردّدت قليلاً. هل أتوجّه إلى جزيرة النخيل؟ أم هل يجدر بي أن أقصد غوليت؟ هل من الأفضل لي أن أتوجّه إلى طريق كليمنتس فيري؟ أم إلى حيث يقبع تايبي؟

أعرف أن تايبي الآن في خطرٍ شديد. كم عدد الأشخاص الذين قتلهم مارشال؟ وإذا أخطأ تايبي بإلقاء القبض على شورتر فلن يتردّد مارشال لحظة واحدة بقتله هو الآخر. أعرف أن تايبي هو الأكثر تعرضاً للوقوع ضحية المفاجأة، لأنه من السهل جداً اكتشاف سيارة الكروزر التي يستخدمها، ولن يكون تايبي مستعداً لردّ اعتداء عليه. اتصلت بدائرة الشريف بأصابع مرتعشة. ردّت عليّ نفس الموظفة كما في المرة الأولى. أعطيتها اسمي. بدأت الموظفة بالكلام. أوقفتها قبل أن تكمل عبارتها، وطلبت منها أن تخبر غوليت وتايبي أن اتصالهما بي هو أمر ضروري جداً. "لا نستطيع الاتصال بالشريف غوليت، وبالمساعد تايبي في الوقت الحاضر." "اتصلي به باللاسلكي، أو بالهاتف، أو عن طريق الحمام الزاجل. أريدك أن توصلي رسالتي إليهما بأية طريقة تشائين".

سمعت شهيقاً عميقاً.

"يحتمل أن يتعرض المساعد تايبي لخطرٍ شديد".

قطعت الاتصال.

ماذا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك؟ كان غوليت جازماً بشأن عدم تواجدي أثناء عملية اعتقال دنيالز، وحتى أنه لم يُعلمني عن مكان وجوده. أعرف أن تايبي

سيكون عند المدرج في هذا الوقت، لكنني لا أعرف مكان وجود هذا المدرج. لم يتبق أمامي سوى الانتظار في المنزل. أنا متأكدة من أن أحد الرجلين سيتصل بي قريباً.

نسيت ترك أحد المصابيح الكهربائية مضاءً في المنزل. وجدت أن الظلام يلفّ منزل البحر على امتداد أميال، بالرغم من أن قمراً غير مكتمل قد أضفى وهجاً خافتاً على الجدران الخارجية، وبدا وكأنه صادر عن مصباح باهت. نبح بويده ما إن أدرت المفتاح، ثم أخذ يثب في دوائر حولي. وضعت حقيبتني الشخصية على الأرض، وتوجّهت مباشرة نحو هاتف المنزل. لم ترد أية رسائل. بدا المكان مخيفاً. غاب عنه بيتي، ورايان. هناك الكثير من الغرف، والكثير من الهدوء الذي يخيم على شخص وحيد. شكرت الله على وجود الكلب والمهر. مسدت الحيوانات كل بدوره.

شعّلت التلفاز، وشاهدت برنامج الأخبار الرئيسية هيمه لايسر نيوز لفترة قصيرة، لكنني لم أستطع التركيز ذهنياً على هذا البرنامج. لماذا لم يتصل غوليت وتايبي؟ قلقت لوجود مارشال وديالز طليقين، وأيضاً لأن مساعدتي الشريف يجذّون في أثر الرجل الخاطيء. ويُحتمل أن يكون القاتل يجهّز نفسه ليضرب مجدداً، وهنا يكمن مدى الإلحاح في هذه المسألة.

هل هناك فعلاً إلحاح في الموضوع؟

وجّهت الاتهامات ضد مارشال، واستدعي للتحقيق، ثم أطلق بكفالة (أو بسند إقامة). أعرف أن ظهور دليل إضافي ضده لن يتسبب بتوقيفه مجدداً. يبقى الإلحاح بإلغاء عملية اعتقال دنيالز. تساءلت عما سيحصل إذا ما حاول الفرار، وجُرح في محاولته هذه؟ وما هي الفائدة التي سيحنيها محامي مارشال، في المؤتمر الصحفي، من عملية توقيف دنيالز؟

ليتصل أحدهما. اللعنة. ليتصل أحدهما الآن!

شعرت بقلق عميق، فتناولت هاتفي الخلوي، وزجاجة كوك للحمية، ثم مشيت صوب الشاطئ. عبّر بويده عن سخطه لأنني أقفلت الباب بوجهه، فانطلق يخذشه بغضب، لكنني لم أرغب بفقدان أثره في العتمة المخيمة.

وجدت المد مرتفعاً، وهذا ما ترك مساحةً قليلة ما بين الرمال وحافة مياه المحيط. لم أشاهد مشاةً يسيرون بتساقل فوق الزبد الأبيض للأمواج في هذا الوقت المتأخر من المساء. تناولت كرسي بحر من الغرفة القريبة من البحر، وحملته إلى حافة المياه.

استرخيت في جلستي، ووضعت أصابع قدمي في الرمال، وبدأت بارتشاف مشروبي، ثم قبعت أنتظر وصول الاتصال. شاهدت انعكاس ضوء القمر يتراقص فوق الأمواج مشكلاً أنماطاً متنوعة. أبعدت الرياح المياه عن حدودها. بدا الجو مسكناً ومهدناً. بدأت بالاسترخاء، أو كدت أسترخي.

تذكرت بيتي ورايان، ورايان وبيتي. لماذا هذا التناقض الذي يفرض نفسه بينهما؟ بدأت تطفو داخلي مشاعر خلّت أني نسيتهما، مسببة القلق في نفسي. إنه أمر غريب ومفاجئ، لكنه لم يستدع أي إجراء من جانبي. هل سيستمر القلق بالسيطرة عليّ؟ سأنتظر وأرى.

اقترب من جهة اليسار رجل يسير وحده. نظرت نحوه بطريقة عفوية. لاحظت أن الرجل يرتدي بلوزة ذات قبعة. إنه أمر غريب في هذه الليلة الباردة. لفتني جسده المفتول العضلات. انحرف الرجل كي يمر ما بين الكرسي الذي أجلس عليه، والرمال.

شعرت بالاختناق فجأة. تطاير من بين يدي جهاز الهاتف، وعلبة الكوك.

صدمت للسرعة التي تحرك الرجل بها، وبقوته الجسدية أيضاً.

أمسكت بعنقي. رحت ألث، وبالكاد استطعت الكلام.

جاءت كلمتي أقرب إلى الهمس: "توقّف!"

هسهس صوت سمعته من قبل: "تمتعي بالمنظر أيتها المغرورة، والعاهرة المتطفلة. إنه آخر مشهد سترينه في حياتك".

يائسة، رحت أخذش لحمي بيدي.

"حاول فلين وكروكشنك الإيقاع بي، فعالجت أمرهما، لكنك تطفلت على أمور لا تخصك، ودمرت عملي. إنني أقدم خدمة قيمة. إنني آخذ القليل من الأعضاء السليمة الموجودة عند أشخاص متشردين لا قيمة لهم، ثم أرسلها إلى حيث

يعرفون كيف يستخدمونها بطريقة أفضل. إنني آسف لأنني لا أستطيع انتزاع أعضائك".

تزايدت قوة ذلك الشيء الملتف حول عنقي. عجزت عن التنفس. عجزت عن الصراخ، وسيطرت غشاوة على بصري.

"تسببت لي بأذى كبير. حان وقت الانتقام يا دكتورة برينان. قولي وداعاً". دخلت كلماته بصعوبة في ذهني المعذب. شعرت أن رئتي تحترقان، وراحت كل خلية من خلايا جسمي تصرخ طلباً للهواء. بدأ العالم بالتلاشي بالنسبة لي.
كافحي!

اندفعت بكل ما تبقى لي من قوة إلى الأعلى والخلف. أصاب رأسي المندفع أسفل ذقنه، وتسببت حركتي هذه بدفعه إلى الورا. استرخت قبضته عن عنقي. اندفعت نحو المياه، وحاولت الغطس في الأمواج. أمسك الرجل بحصلة كثيفة من شعري فأرجعني إلى الخلف.

فقدت توازني وسقطت أرضاً، وامتدت رجلاي إلى الأمام. لم أتمكن من التقلب إلى أية جهة لأن اليد التي أمسكت شعري دفعتني إلى الأسفل بقوة، فضغطت ذقني على صدري. توجهت اليد الأخرى نحو رقبتي.

تركتني اليدان لسبب غامض. جهدت لأقف لكن ركبتي لم تحملاي. خفّ الضغط على رقبتي، ثم ما لبثت أن سمعت صوتاً ثانياً. سبق لي أن سمعت هذا الصوت أيضاً.

"أوقع بي بسبب هذه، أيها اللقيط المجنون".

عصفت الدماء في أذني، أم أنه صوت الموج يا ترى؟

رفعت رأسي بما يكفي لأشاهد كوري دنيالز، ولاحظت يده اليسرى الهائلة في التفافها حول عنق مارشال، وشاهدت ذراعه اليمنى تمسك بذراع مارشال بإحكام خلف ظهره. تلوى وجه مارشال من الألم. وشعرت بالسرور لهذا الوضع.

40

انكسرت الحرارة التي تميّزت بها ليلة السبت، وبدأ يوم آخر من صباحات أيام الآحاد الرائعة التي تميّز بها هذه المناطق المنخفضة. جلستُ وبيتي في الغرفة القريبة من البحر، وانصرفنا لتقليب صفحات الجرائد التي استطعت شراءها من متجر هذه الجزيرة الذي يدعى الأحمر والأبيض.

عبّر ظلّ بطيء الحركة صفحة الرياضة في جريدة شارلوت أوبرفر أثناء تركيزي عليها. تطلّعت نحو السماء فرأيت فوق رأسي مجموعة من طيور البجع تنساب في الهواء على شكل حرف V.

سكبت كوباً آخر من وعاء القهوة العازل للحرارة، ووضعت قدمي فوق السياج، ورحت أستطلع المنطقة المحيطة بي. شاهدت مياه الأمواج تتراجع أمام الرمال، فأفسحت المجال مع تراجع كل موجة لمساحات جديدة تضاف إلى الشاطئ. تراقصت طائرات ورقية صغيرة في سماء الجانب الجنوبي الغربي من أفق جزيرة سوليفان. وصدحت الطيور بأصوات تغريدها الصباحية، فوق الأشجار الكثيفة المحيطة بالطريق الواسعة.

أخبرني بيتي في مساء اليوم الفائت، أي عندما كنّا في طريق عودتنا من مستشفى MUSC، أن أحد شركائه في مكتب المحاماة سيأتي يوم الاثنين ليأخذه إلى شارلوت بسيارته. أضاف أن بوك فلين وأصدقائه قد وظّفوا محاسبين من أجل متابعة التدقيق في حسابات أوبري هيرون. وصل بيتي، قبل إصابته، إلى

شكوك في أن تكون كنيسة رحمة الله تهدر أموال المترعين.
لم أجادل بشأن خطة بيتي. سررت لأن ذلك المثقف القادم من لاتفيا يتعاقب
بسرعة. أعلم أنه متلهف للعودة إلى زبائنه.
تحدّثت هاتفياً مع تيم لارابي، وهو الطبيب المعتمد في مقاطعة ماكلينبيرغ،
ومع بيار لامانش، وهو رئيس قسم الطب الشرعي في مونتريال. علمت منهما أن
مركز شارلوت استلم حممةً وطفلين رضيعين محنطين. علمت أيضاً أن هيكليين
عظميين غير كاملين قد وصلا إلى مختبرات LSJML. أكّد لي الطبيبان أنه بالإمكان
تأجيل القضيتين، وسمح لي بالبقاء في تشارلستون كي أكون إلى جانب إيما.
ولكي أنجز مهمةً أخيرة.

أوشكت على فتح صحيفة *أتلانتا جورنال - كونستيتيوشن*، عندما سمعت،
وشعرت، بوقع خطوات فوق الممر الخشبي. استدرت لأرى غوليت يتّجه نحونا.
وضع الرجل نظارة راي - بانز، وارتدى سروالاً كاكياً، وقميص جينز من
دون أن يُدرز عليها الاسم. افترضت أن هذه هي الملابس المدنية التي اختارها
الشريف لهذا اليوم.

أوما غوليت باتجاه بيتي، ثم باتجاهي: "صباح الخير".
أحبته وبيتي في وقت واحد: "صباح الخير".
جلس غوليت على مقعد في الغرفة المجاورة للبحر: "سررت لرؤيتك تتحسن
يا سيدي".

نقر بيتي على وعاء القهوة العازل للحرارة: "إنني أتحمّن فعلاً. أتريد قهوة؟"
"شكراً لك. لا".

مدّ غوليت قدميه إلى الأمام، وأسند ذراعيه المفتولتين بالعضلات فوق فخذه
الضخمتين: "أجريت حديثاً ممتعاً مع ديكي دوبري. يبدو أن ديكي يوظّف رجلاً
يتمتع بطموح كبير، لكن بقدرة عقلية محدودة. يدعى الرجل جورج لاينبارد.
استدار غوليت نحوي وقال: "قرأ ديكي نسخته من التقرير الذي أرسلته إلى عالم
آثار الولاية، فاستشاط غضباً. أساء لاينبارد تفسير ملاحظات رئيسه بشأن سلخ
جلدك. إنني أكرّر هنا التعبير الذي استخدمه الرجل".

لم أستطع منع الاشمزاز الذي شعرت به من التأثير على صوتي: "هل ظن لاينيارد أن على شخصٍ ما أن يطلق النار عليّ؟"

"ليس إطلاق النار عليك بالتحديد، بل بمضايقتك. اعترف لاينيارد بإلقاء زجاجة شراب الشعير على صندوق النفايات، وبإطلاق النار على المنزل. يقول الرجل إنه لم يقصد إيذاء أي شخص". وجه غوليت نظارة الراي بانز باتجاه بيتي: "دخلت أنت إلى المطبخ في توقيت غير مناسب".

سألته: "ألم يتورط ديكي شخصياً في هذا العمل؟"

"جنّ جنونٍ دوبري عندما أطلقت سراح لاينيارد. ظننت لوهلة أنني سأشهد جريمة أخرى في المكان". أخذ غوليت نفساً عميقاً، ثم أخرجه: "إنني أصدقه. يتعدى الرجل حدود اللياقة بين وقت وآخر، لكنه ليس مجرماً".

لم يبد بيتي أي اهتمام بشأن لاينيارد، بل سأل: "وماذا حدث مع مارشال؟" توصل المدعي العام إلى عقد صفقة معه. يقوم مارشال بإعطاء اسم كل ضحية من ضحاياه وموقع وجودها، وتوافق الولاية في المقابل على عدم إعدامه".

قلت مستهجنةً وساخرةً: "يتعين على الولاية أن تنتزع منه كليةً، ورثةً، واحدةً على الأقل".

لحت ما يشبه شبح ابتسامة على شفتي غوليت: "سأمرّر اقتراحك هذا. أتوقع أن يقبل المسؤولون هذا الاقتراح، لكنني أشك في أن يأخذوا به".

سأل بيتي: "هل بدأ بالكلام؟"

"إنه يتكلم مثلما يتحدث مراهق في هاتفه الخليوي".

سبق لي أن علمت بما حدث، لأن غوليت اتصل بي بعد تسليم مارشال إلى المدعي العام صبيحة يوم الأحد. شعرت بمزيج اعتدت عليه من الحزن والغضب، وذلك عندما فكّرت في المجزرة التي ارتكبها هذا الرجل.

ارتكب مارشال جريمته الأولى في صيف عام 2001، وكانت ضحيته مومساً تدعى كوكي غودين. قُتل ويلي ويليامز في شهر أيلول (سبتمبر) من ذلك العام. دُفنت الجثتان في جزيرة دي ويز، لكن من دون الكلى والكبد.

عرف مارشال بسجّل كوري دنيا، فوظفه بعد ارتكابه لجريمته الأولى لهذا السبب. حطّط مارشال منذ البداية لزرع بعض الدلائل التي تحرف الشكوك باتجاه دنيا، وذلك تحسباً لتورط كنيسة رحمة الله في يوم من الأيام. تبين له أن حفر القبور هو عمل جسدي شاق، كما اكتشف أنه لا يحبه. اكتسب مارشال جرأة أكبر حين لم يلاحظ أحد اختفاء غودين وهيلمز، فغيّر طريقته بالتخلص من الجثث، من دفنها في قبر ضحل إلى دفنها في البحر.

قتل مارشال روز ماري مون وإثريديج باركر في عام 2002، وقتل روبي آن واتلي في عام 2003، ثم قتل دانيال سنايب ولوي آيكمان في عام 2004، أما آخر ضحيتين له فكانا أونيف مونتاغيو، وجيمي راي تيل. وجد المدعي العام أنه من الصعب أن تأتي الصدفة بعاصفة، مثل التي جلبت البرميل الذي ضمّ مونتاغيو نحو الممر المائي للأخوين مولتري، وتؤدي إلى الكشف عن بقايا ضحايا آخرين.

اكتشفت أنني على حق في ما يتعلّق هيلين فلين ونوبل كروكشك. بدأت فلين العمل في كنيسة رحمة الله في عام 2003. وتأكدنا أن الشكوك التي أبدتها حيال الأمور المالية هي التي أثارت عدم ثقتها في مجريات أمور العمل. لم تدرك هيلين أن كنيسة رحمة الله لا تقدم إلا أدنى حدّ من التمويل للعبادة، ولذلك انزعجت من التناقض ما بين حالة العبادة في ناسو، وبين مستوى معيشة مارشال. أرادت هيلين التأكد من شكوكها، وهكذا بدأت بالتطفل على الحياة الشخصية للطبيب. لم تستطع هيلين الحصول على دليل يؤكد إساءة استخدام الأموال، لذلك اشتكت لوالدها ولهيرون.

اكتشف مارشال أن هيلين تراقبه، فحنقها لأنه خشي أن تتوصل إلى الحقيقة، ثم رمى جثتها في مياه المحيط. أرسل مارشال مفتاح شقتها مع قيمة الإيجار إلى صاحبة الشقة، ثم لفّق قصة انتقالها إلى كاليفورنيا. وشاءت سخرية الأقدار أن لا تعرف هيلين أبداً بالجرائم التي اقترفها مارشال، أو سرقة الأعضاء البشرية التي أقدم عليها.

توجّب التخلص من كروكشك أيضاً، لكنه كان محققاً خاصاً، وشرطياً سابقاً، كما أن بوك فلين زبونه. توجّب أيضاً وضع خطة أكثر إحكاماً، لأن هناك

أشخاصاً سيفتقدونه. تفحص مارشال سجلّ كروكشك، فاختر اللجوء إلى
عددة الشنق، لكنّ آلياتها بدت صعبة.

قلتُ: "أشعر بالفضول لأن كروكشك لم يكن ضخماً، لكنه كان قوياً بما
يكفي. كيف تمكّن مارشال من التغلب عليه؟"

"تبع مارشال كروكشك حتى ماغوليا مانور، وبدأ بملاحقته عند خروجه
في المساء. اكتشف مارشال أن كروكشك يحبّ احتساء الشراب، وأن حانة ليتل
لونا هي إحدى أماكنه المفضلة.

لاحظ مارشال عندما تواجد في إحدى الليالي في حانة ليتل لونا أن
كروكشك أفرط في الشرب. توجه مارشال إلى هاتف عمومي يتواجد قرب
مدخل الحانة، واتصل بها. أعطى مارشال أوصاف كروكشك لموظف الحانة الذي
ردّ عليه، وسأل إن كان موجوداً في الحانة.

استدعى موظف الحانة كروكشك كي يتحدّث في الهاتف. عرف مارشال
عن نفسه باعتباره دنيازلز، وقال إنه يمتلك معلومات مهمة عن هيلين فلين، وعن
العيادة. وافق مارشال على لقاء كروكشانك في ماغوليا مانور.

وجد كروكشك نفسه في عجلة من أمره ليصل إلى مكان اللقاء بحيث إنه
تناول سترة غير سترته في طريق خروجه.

هذا ما حدث بالضبط، وكان يحمل مفاتيح سيارته في جيب سرواله، وهكذا
لم يلاحظ أن السترة ليست له. قاد كروكشك سيارته بعصبية كبيرة بحيث خشي
مارشال أنه سيتعرض لحادث قبل وصوله إلى منزله. لم يخدم الحظ كروكشك
في هذا الوقت.

وجد كروكشك صعوبة في إيجاد مكان لإيقاف سيارته، وهكذا توفّر
لمارشال وقت كافٍ ليستطلع المكان خلال اقترابه من ضحيته. واعتاد مارشال
حمل أنشوطته السلّكية في مثل هذه المهمات، وذلك تحسباً لفرصة تسنح فجأة
لارتكاب جريمة.

تعسّر كروكشك في محاولته إقفال أبواب سيارته. لم يلاحظ مارشال وجود
أي شخص في الجوار، بالإضافة إلى أن الشارع كان معتماً. قفز مارشال إلى خلف

كروكشك مباشرة، ووضع الأنشطة حول رأسه قبل أن يتمكن من الإحساس بالخطر".

"لكن، كيف تمكّن من إحضار الجثة إلى محمية الغابة؟"

"أسدل مارشال إحدى ذراعي كروكشك حول رقبته، ووضع ذراعه هو حول خصر كروكشك. بدا منظرهما وكأن أحدهما يجرّ رفيقه السكير إلى منزله، وذلك في حال رآهما أحد الأشخاص. تمكّن مارشال بعد ذلك من المناورة بإدخال الجثة إلى المقعد الأمامي لسيارته، ثم قاد السيارة بعيداً. مرّ مارشال بموقف سيارات معتم تابع للكنيسة، وهكذا أوقف سيارته هناك، ونقل الجثة إلى الصندوق.

بعد ذلك توجه إلى منزله، وتناول حبلين، ثم توجه بالسيارة إلى غابة فرانسيس ماريون. أوقف مارشال السيارة في نفس المكان الذي وجدت الجثة فيه. نقل مارشال كروكشك من صندوق السيارة، وجرّه أرضاً إلى الغابة. وصل المحرم إلى الشجرة، فربط حبلًا تحت إبطي كروكشك، وألقى الحبل الآخر فوق فرع الشجرة، ثم رفع الجثة حتى ارتفعت قدماه عن الأرض. أحضر مارشال سلماً قابلاً للطبي وجرّ الجثة عليه، ثم استخدم هذا السلم كي يثبت حبلًا ثانياً حول رقبة كروكشك ويربطه حول فرع الشجرة. عمد مارشال بعد ذلك إلى قطع الحبل المربوط حول الجذع، ثم سحب السلم، وغادر المكان".

"وماذا حدث لسيارة كروكشك؟"

"أخذ مارشال مفاتيح سيارة كروكشك بعدما انتهى من خنقه. أعتقد أن مارشال دُهب كثيراً عندما وجد محفظة تحمل اسم رجل آخر، لكنه قرّر أخيراً أنه عثر على الرجل المطلوب، لكن السترة ليست سترة ذلك الرجل. نظر المحرم إلى هذا الأمر وكأنه فأل حسن. قاد مارشال سيارة كروكشك إلى المطار في اليوم التالي لخنقه، وأوقفها في المكان المخصص لإيقاف السيارات لفترات طويلة. وضع مارشال لوحات تسجيل السيارة التي انتزعها في حقيبة يد. استأجر سيارة أجرة من المطار ليعود إلى المدينة. ونقلت الشرطة السيارة، بعد مرور شهر على إيقافها، إلى موقف مخصّص للسيارات التي تخلّى عنها أصحابها. أعتقد أن مارشال اعتبر نفسه، في ذلك الوقت، الرجل الذي لا يُقهر".

سأل بيّتي: "وماذا حصل ليلة الجمعة؟"

أشار غوليت إلى طريق بعيد نسبياً عن المنزل: "وصل مارشال إلى المحيط باستخدام ذلك الطريق العام، وأراد الوصول إلى منزلك من الشاطئ. تستطيع أن تتصوّر سروره عندما رأى الدكتورة برينان جالسة فوق الرمال".

ارتفعت يدي بصورة لا شعورية نحو عنقي، وتفحصت الندبة التي أسماها بيّتي قلاذتي الطبيعية: "لماذا كان دنيالز يلاحق مارشال؟"

"لم تكن تجارب دنيالز مع القوى الأمنية بالمرضية بالنسبة إليه. إنه يشكّ رجال الشرطة على الدوام، كما أنه شكّ في أن مارشال يحاول الإيقاع به، ولذلك قرّر أن يجمع الأدلة بنفسه. صمّم الرجل على ملاحقة مارشال حتى يجد برهاناً قاطعاً يدلّ على قذارة الرجل".

"لماذا لم يستخدم دنيالز سيارته؟"

"تصوّر أن مارشال سيتردّف عليها. تحتفظ الآنسة هني بسيارة في بر الجزيرة، وهكذا استخدم دنيالز سيارتها، وترك سيارته عند رصيف الرسو".

لم يفارقني الشعور بفضاعة الحادث: "ألم يشكّ دنيالز بشيء قبل القبض على مارشال، وقبل خضوعه للاستجواب؟"

"سبق أن قلت لك إن الرجل يتمتع بتعدل ذكاء محدود، سواء أكان ممرضاً مسجلاً في النقابة، أم لا".

"لماذا كان عدائياً جداً عند إجراء المقابلة معه؟"

هزّ غوليت كتفيه: "إنه يكره رجال الشرطة".

"وماذا بشأن هيرون وأصحابه في كنيسة رحمة الله؟"

هزّ غوليت رأسه: "بتمتّع مارشال باستقلالية كاملة بإدارة العيادة طالما يتقيّد بالموازنة المخصصة له. يبدو أن العاملين في العيادة لم يعرفوا شيئاً عن الأشياء التي يقوم بها زميلهم الطيب".

سبق لي أن علمت أن طائرة الميسينا كانت قد اختفت عندما وصل تايبّي ليلة الجمعة إلى ذلك المدرج، لذلك سألت غوليت: "وهل سمعتم شيئاً عن شورتر؟"

"تمكنت دائرة شرطة لوبوك من إلقاء القبض عليه عند الساعة العاشرة والأربعين دقيقة من مساء البارحة. وقدمت إلى هنا لأخبرك بهذا".

سألت: "هل طار شورتر إلى تكساس؟"

"تعيش صديقه السابقة في لوبوك".

سأل بيبي: "وهل يتعاون مع التحقيق؟"

هزّ غوليت راحتي يديه علامة على لا بأس: "يدعي شورتر أنه يشغل رحلات عارضة ومستأجرة بصورة قانونية. يعترف الرجل أنه يقوم بنقل حمولة لصالح مارشال، لكنه ينكر أية معرفة له بطبيعة هذه الحمولات. أضاف أن مارشال اعتاد أن يتصل قبل يوم، أو يومين، بشكل مسبق، ثم يُحضر براداً إلى المطار في وقت يتفقان عليه. اعتاد شورتر أن يطير إلى المكسيك، ويحط بالطائرة في صحراء تقع خارج بويرتو فالارت، حيث يسلم البراد إلى رجل مكسيكي يدعى خورخي. اعتاد مارشال أن يدفع مبلغ عشرة آلاف دولار نقداً مقابل كل رحلة. ويقول شورتر إنه لم يعتد على طرح الأسئلة".

"ولماذا هروبه يوم الخميس؟"

"يقول شورتر إن إلقاء القبض على مارشال قد أخافه، وخصوصاً بسبب مشكلاته القانونية السابقة التي علق بها".

بقينا صامتين للحظة من الوقت بسبب تأملنا بما قيل. بادرت إلى الكلام.

"إذا أخذنا سجل شورتر بعين الاعتبار، أعتقد أن شورتر كان ينقل الأعضاء البشرية من تشارلستون إلى المكسيك، ثم يعود بالمخدرات إلى الولايات المتحدة".

"إن شرطة لوبوك تستعرض هذا الاحتمال، ولهذا فإنها تنسق مع السلطات الاتحادية. تقوم السلطات الآن بتفتيش الطائرة. أعتقد أنه لو أقدم شورتر على إزالة وصلة واحدة من طرف أي جناح، فإنه سيتعرض للإدانة. وأعتقد أيضاً أن روايته ضعيفة. وجدت السلطات دليلاً على أن ذيل الطائرة قد أعيد طلاؤه عدة مرات، وبدل ذلك على احتمال وضع أرقام تسجيل مزيفة عند استخدام الطائرة في عمليات غير شرعية. ولا تمتلك السلطات المكسيكية أي سجلات تدل على دخول الطائرة للمجال الجوي المكسيكي".

سأل بيبي: "هل أعطى مارشال معلومات حول ماذا كان يجري على الجهة الأخرى؟"

"اعتاد مارشال على الاتصال برودريغز عندما يجد مريضاً يتردد على العيادة، وفي نفس الوقت يناسب متطلبات أحد زبائن رودريغز. كانت الضحية شخصاً متشرداً على الدوام، أو شخصاً لا يلاحظ أحد اختفائه".

"عندها يسارع رودريغز الموجود عند الطرف المكسيكي إلى الاتصال بالشخص المتلقي، والذي يستقل طائرة إلى بويرتو فالارتا. ينفذ مارشال ضربته في تشارلستون، ويقوم شورتر بنقل العضو المنتزع ليلاً باتجاه الجنوب".

قال بيبي: "وكيف استطاع مارشال ضمان تعاون شورتر معه؟"

"يعيش شورتر في نفس المجمع السكني الذي يعيش فيه دنيالز. اعتاد الرجلان على شرب شراب الشعير معاً، وتبادل أخبارهما. ويبدو أن دنيالز روى لمارشال شيئاً عن ماضي شورتر، أو أن مارشال قد سمع دنيالز وهو يتحدث عن طيار له سوابق. بدا شورتر، على أية حال، مرشحاً مناسباً ليعاونه على تنفيذ مشروع جديد له. يبدو أن مارشال بحث عن الرجل، وألقى الطعم بوجهه، وهكذا وقع شورتر في الفخ الذي نُصب له".

"ألم يعلم دنيالز أن جاره ينقل شحنات لصالح رئيسه؟"

"لم يمتلك الرجل أية فكرة عن هذا الموضوع".

سألت: "ما هي الأشياء التي يعلمها شورتر بالفعل برأيك؟"

"تتوافق رواية مارشال كثيراً مع زعم شورتر بأنه كان مجرد ساع. ويقول الرجل إن شورتر لم يسأل أبداً عن محتويات الأوعية المبردة".

قلت: "حسناً، إذا لم يشك ذلك الطيار الشريف أنه ينقل سلعة ممنوعة".

هزّ غوليت كتفيه: "يشترى مبلغ عشرة آلاف دولار الكثير من عدم الاكتراث".

"وماذا بشأن رودريغز؟ هل كان من ضمن حلقة الحصول على الأعضاء

البشرية التي يديرها مارشال؟"

"أدار الاثنان عملاً ناجحاً. يقول مارشال إنهما اشتركا بالتخطيط معاً منذ

عام خمسة وتسعين".

"تخرّج رودريغز ومارشال من المعهد الطبي في عام واحد وثمانين. كيف اجتماعاً ثانية؟"

"حافظ الرجلان على الاتصال فيما بينهما. علم مارشال بعد خروجه من المستشفى في عام واحد وتسعين، أن زميله القديم أصبح طبيباً غير مرموق في مهنته هو الآخر. اتصل مارشال بالطبيب غير الشريف الوحيد الذي يعرفه، ثم توجه إلى المكسيك. مضت عدة سنين على عمل رودريغز في ذلك المنتجع الرياضي، كما أنه أدار إلى جانب عمله عيادة صغيرة خاصة به. تعاون الرجلان على إنجاز عملٍ إثر آخر، إلى أن توصلا إلى عملٍ يدرّ عليهما الكثير من الأرباح من دون مخاطرة كبيرة. اتفق الرجلان على أن يحصرا عملهما كل سنة بمتبرعين لا يلاحظ غيابهم أحد، وأن يتقاضيا مبلغاً يتراوح ما بين مئة ألف، ومئتي ألف دولار عن العضو البشري الواحد، وأن يبقيا في الظل بقية الأوقات".

"يبقى السؤال الوحيد عن مكان ممارسة مارشال للجزء المتعلق به من المشروع. جاء حلّ هذه المعضلة عندما فتحت كنيسة رحمة الله عيادتها في تشارلستون. لم تتشدّد الكنيسة في مستوى المؤهلات التي طلبتها بالنظر إلى الراتب الضئيل الذي تعرضه. استطاع مارشال إبراز وثائق مزورة، وحصل على إجازة لمزاولة مهنة الطب في كارولاينا الجنوبية. بدأ رودريغز في هذا الوقت بشراء معدات طبية مستعملة من حدودنا الجنوبية. تمكّن الرجلان من الانطلاق بمهنتهما بغضون سنوات قليلة".

سألت: "هل تمّ تحديد مكان وجود رودريغز؟"

"ليس بعد. لكن الشرطة الاتحادية ستعال منه".

"وبماذا ستتهمه؟"

"ما تزال السلطات المكسيكية تفكّر في هذا الأمر".

سُئِر رودريغز معرفته بأمر الجرائم، وسيدعي أنه تلقى تأكيدات بأن عملية الحصول على هذه الأعضاء كانت قانونية تماماً.

"يقول مارشال إن رودريغز هو الذي خطّط للعملية بكاملها. ويدعي أيضاً أنه ليس المورد الوحيد لرودرغز".

قلت: "اعترف مارشال بارتكابه إحدى عشرة جريمة. كيف يمكننا التأكد من عدم وجود ضحايا آخرين؟"

وجه غوليت نظارة الراي بانز نحوي: "هناك شيء ما في أعماقي يوحى لي بوجود ضحايا آخرين. أعتقد أن مارشال أعطانا أسماء الضحايا التي نعرفها، وأضاف اسم غودين لتثبيت مصداقيته لدينا".

بقي أمران مصدر قلق لي.

"يعتبر مارشال شخصاً دقيقاً بشكل صارم. فكيف يمكن أن يكون بهذا الإهمال بشأن تلك الصدفتين؟"

ارتسمت ملامح ابتسامة على شفطي غوليت هذه المرة: "أعتقد أنه سيتأمل في هذه المسألة تكراراً في السنوات التالية. يقول مارشال إنه اشترى حقيبة ملأى بالأصداف في اليوم الذي قتل فيه ويلي هيلمز. أضاف أنه تمنى أن يجد شيئاً ذا قيمة بين المجموعة. وقال الرجل إن أفضل تفسير يُمكن له التفكير فيه هو أن تكون إحدى الأصداف قد وجدت طريقها إلى ردن قميصه، أو إلى جيبه. أضاف أنه يُحتمل أن يكون ذلك قد حدث في السوق، أو ربما في طريق عودته إلى العيادة. انتهت تلك الصدفة أخيراً مع هيلمز. ويتذكر مارشال أنه تفحص الأصداف تحت المهر، ثم تركها في درج طاولته لوقت قصير. وأضاف أن أحد الأشخاص لا بد وأن يكون قد مزق العلبة التي تحتوي على الأصداف".

"وهكذا سقطت صدفة من ثياب مارشال على جثة هيلمز، وتسَلَّلت صدفة أخرى في إحدى تجاويف طاولة مكتبه. لم يلاحظ مارشال أيّاً من هاتين الصدفتين".
أوماً غوليت: "أظهر مارشال صدمته أكثر من أي شخص آخر عند ظهور هذه الكائنات الصغيرة. تعيّن عليه إجراء تفكير سريع كي يُدخل عنصر إقحام الصدفتين في المشهد الذي اختلقه، والمتعلق بإيقاع كوري دنيا لزه".

قال بيتي: "لكن وجود المحار (نوع من الرخويات) أفضل هذا المخطط".

عبّرت عن المسألة الثانية التي تشغل بالي: "من هو الشخص الذي أتصل بكروكشك من عيادة مارشال؟"
"أوديل تاوري".

"هل هو الرجل المسؤول عن التنظيف؟"

أوماً غوليت: "إن تاوري هو رجل بطيء الفهم، لكنه استطاع تذكّر هذه الواقعة لأنها حصلت خارج دوام عمله الرسمي. يقول الرجل إن مارشال قد أمره باستخدام هاتف عيادته في وقت محدد. أضاف أنه يتوقع وصول مكالمة إلى عيادته، لكنه لن يستطيع إجراء المكالمة في ذلك الوقت. أمره مارشال أنه إذا لم يردّ أحد فإن عليه أن يقطع الخط، ثم يسلم الورقة التي تحتوي على الرقم إلى مارشال في اليوم التالي. ويمتلك مارشال دليلاً على أنه كان في مكان آخر خارج عيادته في ذلك الوقت. وإذا تارت ظلال الشك، فإن أقل ما ستفيد به تلك المكالمة هو إلقاء الغموض على صورة ما حدث، وتوجيه الشكوك نحو دنيايز في أفضل الحالات".

مرّت فترة صمت.

خفّض غوليت نظره نحو يديه: "علمت أن الآنسة روسو مريضة جداً".

شعرت بدوامة في رأسي، وقلت: "إنها كذلك".

علمتُ أن إيما تعان من الحمى عندما زرتهما يوم الخميس. وصلت درجة حرارتها في ذلك اليوم إلى 102 (فهرنهايت)، وعانت أيضاً من تعرقٍ شديد، ومن غثيان قوي.

أمرت الدكتورة رسل بإدخال إيما إلى المستشفى لأنها شكّكت بوجود التهابات عندها. اتصلتُ بسارة بيرفيس يوم السبت صباحاً. غادرت سارة على الفور إلى تشارلستون، بالرغم من أنها كانت قد وصلت للتو من رحلة لها إلى إيطاليا. استطعتُ وإيما إجراء أحاديث مطولة قبل وصول شقيقتها. رويت لها كل الأمور التي حدثت منذ يوم الخميس. أبلغتني إيما أن المحقق الجنائي في مقاطعة بيركلي قد حزم أن وفاة سوزي روث آيكمان كانت طبيعية، وأنها نجحت عن أزمة قلبية حادة.

أخبرتني إيما بعد ذلك بقصة حادثة السفينة السياحية.

توفّي مسافر أثناء وجود السفينة في عرض البحر. رست السفينة في ميناء تشارلستون، وأعطت أرملة الرجل الإذن بحرق جثته، ووقعت المستندات المطلوبة، ثم غادرت بصحبة جرة الرماد. ظهرت بعد ذلك امرأة أخرى في مكتب إيما

وآدعت أهما زوجة الرجل المتوفى، وطالبت ببحثه. أظهرت الوثائق أن السيدة الثانية هي زوجة الرجل بالفعل. أضافت إيما أن دعاوى قضائية قد رُفعت بخصوص ترتيبات التخلص من رماد الرجل.

بلغت إيما ريقها، ولاحظت أهما تتعب من التحدث بسرعة: "ترك هذا المخادع وراءه امرأتين تتنازعان على بقاياها يا تمب. إنني أعتبر أن هذا الرجل هو من القلائل المحظوظين".

أحسست بارتعاش في صدري، وحاولت أن أسكتها، لكنها تابعت الحديث. "سأموت من دون أن يلاحظ أحد ذلك بالرغم من وجود أشخاصٍ عديدين في حياتي. سيتذكّرني بعضهم، ولعلمهم سيشتاقون إلي. أجهز مارشال ورودريغز على المشردين في هذا المجتمع. أجهزاً على الذين يقعون في الحضيض، وعلى الذين لا يحزن عليهم أحد. لم يبلغ أحد عن اختفاء كوكي غودين، وكذلك الأمر مع هيلمز ومونتاغيو، وبفضلك أنت يا تمب تمّ التعرف على جثتيهما".

عجزت عن الكلام فمسّدت شعر إيما، وتقطّعت أنفاسي، وكادت أنفجر بالشيخ.

تابع غوليت الكلام بعد فترة من تفكيره الحالم: "لا يبدو هذا عادلاً".

قلتُ موافقةً: "لا. لا يبدو هذا عادلاً".

"إنها امرأة رائعة وتتمتع بمهنية حقيقية".

وقف غوليت. ووقفت بدوري.

"أعتقد أنه من الأفضل أن لا تتساءل، وأن لا تشكك بالقدر الذي يفرضه الله على البشر".

لم أجد جواباً مناسباً لهذا الكلام، فامتنعتُ عن الرد.

"أنجزت عملاً عظيماً يا دكتورة. تعلمت بعض الأشياء بعد أن عملت معك".

مدّ غوليت يده. فوجئتُ، لكنني صافحته.

أبلغت غوليت بأخر جزء مجهول من اللغز.

"لم يصدر التسرب من مكتبك أيها الشريف. عملت لي آن ميلر في المشرحة التابعة لمستشفى MUSC. تبين أن المخبر الذي أفشى الخبر لوينبورن كان تقنياً

يعمل في المشرحة، وفي سنته الدراسية الثانية". سبق لإيما أن أبلغتني هذه المعلومات يوم السبت.

بدأ غوليت بالكلام، لكنني قاطعته. إنني لا أريد اعتذاراً منه إذا كان الرجل يريد تقديمه لي، لأنه أهتمني بعرقلة التحقيق.

قلت مؤكدة: "كان الرجل يعمل هناك، لأن ذلك السيد عاطل عن العمل حالياً".

فكر غوليت برهة طويلة، ثم التفت نحو بيتي.

"أتمنى لك كل خير يا سيدي. هل تريد أن تبقى على اطلاع بالنسبة للتهم الموجهة ضد لانيارد؟ أتوقع أن يقدم الرجل التماساً للعضو عنه".

"الأمر متروك لك أيها الشريف. إنني أقبل ما تقبله أنت والمدعي العام. تستطيع أن تبلغني بالنتيجة عندما ينتهي كل ذلك، هذا إذا لم يكن لديك مانع".

أوما غوليت: "سأفعل".

أتحه نحو بيتي وقال: "أتناسيك الساعة السابعة صباحاً، يوم الثلاثاء؟"

قلت: "سأكون جاهزة".

www.ck12.org

خاتمة

تساقط رذاذ خفيف مع انبلاج الفجر، واستمر ذلك خلال الصباح. وتحول لون السماء من الأسود القاتم إلى الرمادي، ثم إلى اللون الرمادي الممتزج باللون الأزرق، لكن الشمس بقيت قرصاً بلون أبيض ملطخ.

وصلنا إلى جزيرة دي ويز عند الساعة الثامنة. وقفنا في غابة بحرية تبعد خمس ياردات عن الشاطئ الذي يغمره المد. راحت النسائم تعصف بأوراق الأشجار الملتمة الرطبة. تساقطت قطرات الماء على الغطاء البلاستيكي حينما عرضته للعراء بواسطة المالج الذي حملته بيدي. قرع حذاء ميلر الثقيل أثناء دورانها لتلقط صوراً لهذا المنظر الحزين بواسطة كاميرا "النيكون" التي تمتلكها.

وقف غوليت فوقني تماماً، ولاحظت أن وجهه حلا من كل انفعال. تلاعبت النسائم الشاردة بسترته المصنوعة من النايلون. راقب مارشال هذا المشهد من عربة الغولف، ولاحظت أنه وضع يديه المصفدتين بشكل متصالب، بينما وقف مساعد في الشرطة إلى جانبه.

خيّم جو مناسب من السكون المطبق على المكان، هذا إذا استثنينا المطر والرياح والكاميرا. إنه جو من المهابة والكآبة.

تمكنتُ وميلر، من تحرير جثة كوكي غودين من مدفنها المؤقت عند حلول الظهيرة. تصاعدت رائحة كريهة في المكان، وتراجعت حشرات أم أربعة وأربعين إلى الظلمة عندما رفعنا تلك الحزمة الكئيبة، ثم عندما نقلناها إلى عربة الشحن المغفلة التي كانت بالانتظار.

رأيت مارشال، بطرف عيني، وهو يرفع يده ليغطي أنفه وفمه.

نهضت صباح يوم الجمعة، وارتديت تنورة بلون أزرق داكن، وبلوزة بيضاء، ثم قسدتُ سيارتي نحو كنيسة مايكل المشيخية. تركت سيارتي في باحة السيارات،

ومشيت نحو سوق المدينة القديمة. رجعت إلى الكنيسة بعد أن اشترت ما أريده.
فوجئت بمحشد من الناس داخل الكنيسة فاق العدد الذي توقّعت. رأيت شقيقة
إيما، سارة برفيس، شاحبةً وصامته. وقف زوج سارة والأولاد إلى جانبها. رأيت
غوليت، وعدداً من موظفيه. رأيت كذلك لي آن ميلر، والموظفين الذين عملوا مع
إيما في مكتب المحقق الجنائي. تواجد أيضاً عشرات الناس الذين لا أعرفهم.
راقبت المشاركين في المآتم طيلة مراسم الصلاة، لكنني لم أشارك في الترتيل، أو
في الصلوات. لم أفعل، لأنني أدرك أنني سأستغرق في البكاء إذا فتحت فمي.
وقفت في مكان يبعد قليلاً عن موقع القبر في الجبانة، وشاهدت تابوت عند
إنزاله، ثم رحت أراقب الحاضرين وهم يسرون واحداً بعد الآخر لإلقاء حفنة
من التراب فوقه. اقتربت بعد أن تفرّق الحشود.
وقفت لحظات طويلة فوق القبر، وانهمرت الدموع فوق خدي.
شعرت أن رجفةً تخترق صدري، وقلت: "أنا هنا لأودّعك، أيتها الصديقة
العزيزة. تعرفين أننا سنفتقدك كثيراً".

أسقطت، بأيدي مرتعشة، باقة الأزهار، وتلوت دعواتي، فوق تابوت إيما.

خيم الظلام على نهار الجمعة. استلقيت لوحدي في سريري الموحش جداً،
وغمرني الحزن والأسف لرحيل إيما. سيأتي الغد، وسأصطحب بيردي وبويد إلى
شارلوت. سأشعر بحزن لأنني سأغادر هذه المناطق المنخفضة. أعرف أنني سأشتاق
لرائحة الصنوبر، ورائحة الأعشاب البحرية، والملح. سأشتاق إلى تعاقب أضواء
الشمس والقمر على صفحة المياه.

أريد أن أساعد بيتي على التعافي فور عودتي إلى شارلوت. لم أستطع فعل
ذلك مع إيما، وعجزت عن تحفيز خلاياها السليمة على طرد عناقيد الخلايا من
جسدها، وهي الخلايا التي أودت بحياتها في نهاية الأمر. سأظل أفكّر بعدم
إخلاص زوجي، ولن يفارقني تعلقني به، والذي أعجز عن فهمه. سأحاول أن
أفصل ما بين هذه المشاعر وبين مشاعر الحنان التي أحدثتها ابتنا التي هي جزء
منه، مثلما هي جزء مني.

ستمضي عدة أسابيع قبل أن أوضّب حقائبي، وأقود سيارتي إلى المطار، ثم أستقلّ رحلتي المتوجهة إلى كندا. سأعبر عبر جمارك مونتريال، ثم أستقلّ سيارة أجرة إلى شقتي في وسط المدينة. وسأتوجه إلى مكان عملي في المختبرات في اليوم التالي، وسيكون رايان هناك، لكن مع وجود أحد عشر طابقاً نزولاً يفصلني عنه. من يدري ماذا سيحصل؟

أعرف شيئاً واحداً على وجه التأكيد، وهو أن إيما كانت محقة. قالت لي إيما إنه بغض النظر عما سيحصل في النهاية، فإنني سأعثر نفسي من بين المحظوظين، فحياتي مليئة بالناس، الناس الذين يحبونني.



14

15

من الملفات العدلية للدكتورة كاتي راكس

أشعر أحياناً بحيرة كبيرة، لأن الحقل الذي أعمل فيه نال نصيبه من الشهرة بعد مرور سنوات من التجاهل.

اكتشفت عندما أهدت دراساتي التي تخصصت فيها، أن هناك القلائل من رجال الشرطة، أو المحققين، الذين سمعوا شيئاً عن الأنثروبولوجيا العدلية، أو علم الإنسان العدلي، وأن عدداً أقل من هؤلاء يطبقونه. علمت أيضاً أن المهنيين المختصين بتطبيق القانون والنظام لا يعرفون إلا القليل عن هذا العلم، أما عامة الناس فلا يعرفون شيئاً عنه.

تزايدت المعرفة بهذا العلم واستخداماته مع مرور السنين، لكن عدد الممارسين المجازين لهذا العلم، في أميركا الشمالية، يبقى قليلاً جداً. يقدم هؤلاء استشارات للقوى الأمنية التي تطبق القانون، وقضاة التحقيق، والأطباء الشرعيين، كما أن الجيش يوظف عدداً منهم.

أصابتنا الشهرة، مع ذلك، بشكل مفاجئ. كثرت في البداية روايات الأدب الشعبي التي كتبها مؤلفون مثل، جيفري ديفر، وباتريشيا كورنويل، وكارين سلاوتر، وبالطبع كاتي راكس. وأتت المسلسلات التلفزيونية بعد ذلك، وأصبح علم الإنسان العدلي على كل شفة ولسان بعد مسلسلات مثل *C.S.I*، الذي اجتذب ملايين المشاهدين. وانتشرت أيضاً مسلسلات مثل *كولده كايس* (قضية باردة)، و*من دون أثر*. وسبق أن ظهر في السبعينيات من القرن الماضي مسلسل *كوينسي*، لكن الأنثروبولوجيا تألقت الآن مع مسلسلات مثل *عبور الأردن*، *استجواب دافنشي*، و*تشريح*. وينشغل عشرات العلماء في القنوات الفضائية الآن بالتطلع في المحاهر، وبالمحاكاة، وبحل الألغاز. ويرز أخيراً مسلسل *بونزر*، أو *عظام* (الذي يُعرض في هذه الأيام على قناة 4 mbc الفضائية).

يُعتبر مسلسل بونزر أحدث مسلسل تلفزيوني جنائي، كما اشتهرت الشخصية البارزة في المسلسل تمبرنس برينان، وهي عالمة الأنتروبولوجيا الخيالية التي ابتكرتها في كتابي الأول **ديجا ديد** منذ عشر سنوات. تظهر تمب، في الحلقات الأولى من هذا المسلسل، في بداية مسيرتها المهنية، وتعمل لدى معهد جيفرسون، بالإضافة إلى العمل مع مكتب التحقيقات الفيدرالي. ولا يتعد هذا الوضع عن واقع هذا المكتب الذي كان من بين أوائل المؤسسات التي اعترفت بقيمة الأنتروبولوجيا العدلية، وهو المكتب الذي استعان بالعلماء في المتحف السميثوني للمساعدة على حلّ الألغاز المتعلقة بالعظام، في وقت مبكر يعود إلى بداية القرن العشرين.

ظهرت الأمور مشوشة، وغير منظمة، في ذلك الحين. تغيرت الأمور الآن مع اكتساب الأنتروبولوجيا العدلية الاعتراف الرسمي بما في عام 1972، أي حين أنشأت أكاديمية العلوم العدلية كلية الأنتروبولوجيا الفيزيائية. أنشئ بعد ذلك بوقت قصير مجلس الأنتروبولوجيا العدلية.

وسّع العاملون في مجال الأنتروبولوجيا العدلية نشاطاتهم لتشمل التحقيق بانتهاكات حقوق الإنسان. تأسست مختبرات، وُبشمت المقابر الجماعية في الأرجنتين وغواتيمالا، وجرى نفس الأمر بعدها في رواندا، وكوسوفو، وفي أماكن أخرى. تزايد كذلك الدور الذي يلعبه هذا العلم في مجالات الإنقاذ أوقات الكوارث العامة. عملنا أيضاً في مجالات تحطّم الطائرات، والفيضانات التي اجتاحت المقابر، والتفجيرات، وفي موقع مركز التجارة العالمي، وكان آخر هذه المجالات الكوارث التي نجحت عن أمواج المحيط الزلزالية (التسونامي) وإعصار كاترينا.

تحولنا إلى نجوم بعد سنوات من العمل في الخفاء، لكنّ الجمهور بقي مشوشاً بشأن التسميات المحددة لأعمالنا. تساءل كثيرون، من هو الباثولوجي (عالم التشريح)؟ وما هو الأنتروبولوجي؟ وماذا تعني عبارة عدلي؟

إن علماء التشريح الباثولوجيين هم علماء متخصصون بالعمل في مجال الأنسجة اللينة. أما الأنتروبولوجيون فهم الذين يعملون في مجال العظام. يختصّ الباثولوجي بالمتوفين حديثاً، والذين بقيت جثثهم سليمة نسبياً. أما الأنتروبولوجي فهو يختصّ في حالات الهياكل العظمية التي تُنبش من المقابر الضحلة، أو جثة

متفحمة في برمبل، أو في حالة وجود عظام في صناديق خشبية، أو طفل محتفظ في صندوق موجود في غرفة علوية. يعمل الأثروبولوجي العدلي على حلّ مسائل تحديد هوية الضحايا، وزمن وطريقة الوفاة، مستخدماً المؤشرات العظمية، وتشريح الجثث بعد حدوث الوفاة. وتعني كلمة عدلي تطبيق النتائج العلمية على المسائل القانونية.

لا يعمل أي شخصٍ وحده، لكنّ العمل البوليسي الحقيقي يشمل مشاركة الكثيرين، بالرغم من تمجيد التلفزيون للبطولات الفردية لعالم، أو مخبر، يعمل وحده. يستطيع الباثولوجي تحليل الأعضاء والدماغ البشريين، بينما ينصرف عالم الحشرات (الحشراقي) على تحليل الحشرات، أما عالم طب الأسنان العدلي فهو يهتمّ بسجلات الأسنان، أما البيولوجي (الأحيائي) الجزئي فهو يهتمّ بالحمض النووي، وينصرف الباليستي إلى الاهتمام بالرصاصات وغلافاتها، بينما يهتمّ الأثروبولوجي العدلي بفحص العظام. ويشترك كثير من اللاعين بجمع قطع اللغز مع بعضها حتى تظهر صورة واضحة لما حدث.

درست في البداية علم الآثار، وتخصصت في البيولوجيا العظمية. شققت طريقي نحو الأثروبولوجيا العدلية عندما تلقيت طلباً للمساعدة في التحقيقات التي جرت بشأن مقتل أحد الأطفال. عند ذلك، تمكنت من كشف هوية صاحب العظام. تبين أن الضحية كانت فتاةً في الخامسة من عمرها عندما حُطفت، وقُتلت، ثم أُلقيت في غابة قريبة من شارلوت الواقعة في ولاية كارولينا الشمالية. لم يُكتشف القاتل أبداً، لكن الظلم والوحشية اللذين ميّزا هذه القضية غيراً مجرى حياتي. حزنت عند معرفتي أن حياة فتاة صغيرة قد اختُصرت باستهتار يميّز بالوحشية. تحوّلت نحو التحقيقات العدلية، ولم أشعر بالأسف لأنني تركت الاهتمام بالعظام القديمة لأعمل في قضايا الأشخاص الذين ماتوا حديثاً.

أميل إلى التفكير بأن رواياتي لعبت دوراً صغيراً في لفت الأنظار إلى الأثروبولوجيا العدلية. إنني أقدم للقراء نظرةً خاطفة عن تجاربي، والقضايا التي أعمل عليها في مهنتي، وذلك عن طريق الشخصية الخيالية التي ابتكرتها، وهي تيرنس برينان. تستند رواية ديجا ديد على أول تحقيقات أجريتها عن جريمة

تسلسلية. وتستمد رواية **ديث دوجور** أحداثها من العمل الذي قمت به للكنيسة الكاثوليكية، ومن عملية الانتحار الجماعي التي حدثت بين أفراد طائفة معبد الشمس. وتستوحى رواية **قوارات مميته** من عدة عظام أرسلتها **هيلز أنجلز** في **كيبك**. واستندت رواية **رحلة مميته** على الأعمال التي قمت بها في مجال عمليات الإنقاذ من الكوارث. واستوحيت أحداث رواية **أسرار القبور** من مشاركتي في نبش مقبرة جماعية في غواتيمالا. ورأت رواية **عظام عارية** النور بفضل عظام أياثل قمت بفحصها لصالح مجموعة من خبراء الحياة البرية. وتشكّلت رواية **مورنلادي مورنغ** نتيجة اكتشاف ثلاثة هياكل عظمية في قبو مطعم بيتزا.

تختلف طريقة معالجة أحداث رواية **رفقاً بالعظام** قليلاً عن طريقة معالجاتي المعتادة للروايات السابقة، لأنها لا تستند على قضية أو قضيتين، لكنها تستند على قضايا وتجارب مهنية متباينة. استندت في روايتي هذه على مواقع دفن تعود إلى أزمنة غابرة، وكنت عملت فيها في بداية عملي المهني. أدخلت أيضاً قصة صف دراسة آثار ميداني كنت علّمته في جامعة **كارولينا الشمالية** في شارلوت، وكذلك استندت إلى قضية كلّفتني بها شخصياً قاضية تحقيق عندما سلّمتني هيكلاً عظمية في كيس من النايلون. استفدت أيضاً من علامات حزوز كنت قد أجريت تحليلات عليها في إطار تحقيق في جريمة، ومن كسور في فقرات عنقية حدثت لأحد المشاة عندما تعرّض لحادث، وفرّ الجاني في حينها. وظّفت أيضاً مشاهداتي لضحية وُجدت معلقة على شجرة، ولم يتبقّ من الجثة إلا الهيكل العظمي.

تستفيد هذه الرواية، وهي الأحداث التي كتبتها، من عملي الشخصي في المختبرات التي تحلّل عناصر الجريمة، وفي مواقع وقوع الجرائم، وهو الشيء الذي يصدق على كُتبي الأخرى. أضفت لمسة من علم الآثار، وأسطورة أو اثنتين من مشاهد الحياة في المدن. أدخلت في هذه الرواية كذلك تقارير وسائل الإعلام حول الأعضاء البشرية المسروقة، وأضفت عليها نكهة من أوقات عطلاتي التي قضيتها على شاطئ جزيرة النخيل. حسناً! هذه هي رواية **رفقاً بالعظام**.

حول المؤلفة

كاثي رايكس هي عالمة أنثروبولوجيا عدلية تعمل في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي في مقاطعة كيبيك، وهي مثل الشخصية الخيالية التي ابتكرتها. وتشغل المؤلفة منصب نائب رئيس الاتحاد الأمريكي للعلوم العدلية، كما تشغل مقعداً في المجلس الاستشاري الكندي الوطني لخدمات الشرطة. وتُعتبر كاثي رايكس واحدة من مجموعة قليلة لا يتعدى عددها ستة وخمسين عالماً من علماء الأنثروبولوجيا العدليين المجازين من المجلس الأمريكي للأنثروبولوجيا العدلية. تعمل الكاتبة أيضاً بصفقتها أستاذة لمادة الأنثروبولوجيا في جامعة كارولينا الشمالية في شارلوت، وهي من مواطني شيكاغو، حيث تسلمت شهادة دكتوراة في الفلسفة من جامعة نورث ويسترن. تقسم الكاتبة وقتها هذه الأيام ما بين مدينتي شارلوت ومونتريال. ويُذكر أن رواية *ديجا ديد* هي التي أوصلتها إلى الشهرة، وذلك عندما أصبحت ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة *نيويورك تايمز*. فازت هذه الرواية أيضاً بجائزة *إليس لأفضل أول رواية لعام 1997*. احتلت الروايات التالية التي كتبها المؤلفة مكانها في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة *نيويورك تايمز*، ومنها *ديث دو جور*، *قرارات مميتة*، *رحلة مميتة*، *أسرار القبور*، *عظام عارية*، *مونداي مورنغ*، و*كروس بونز*. ورواية *رفقاً بالعظام* هي الرواية التاسعة التي تُبرز فيها الكاتبة شخصية *تبرنس برينان*. موقع الكاتبة على شبكة الإنترنت: www.kathyreichs.com.

,

.

2

100
100

«إنها رواية رائعة تنسج على منوال أفضل القصص البوليسية الجنوبية! وأي متعة تفوق مشاهدة تمب برينان وهي تعود لوظيفتها مجدداً، لكنها تعود هذه المرة إلى بيئة كارولاينا الجنوبية الواقعية. إن حبكة رايكس التي لا نظير لها، والتي تجمع مشاهد علمية نفسية، هذا عدا الحبكة العاصفة، تجعل من قراءة رواية لغز العظام أمراً ضرورياً».

- جيفري بفر. مؤلف روايتي القمر البارد. والطاقة الثانية عشرة

تعالج كاتي رايكس موضوعاً آخر يستحوذ على انتباه العالم، وذلك في روايتها الجديدة لغز العظام، بعد النجاح الباهر الذي حققته رواية Cross Bones، تضع هذه القضية عائلة الأنثروبولوجيا العنصرية، تمبرنس برينان وسط المعمة المرعبة لمشروع يحمل أبعاداً بولية.

تجد تمب نفسها عالقة بتدريس طلبة صف آثار غير متحمسين، يعملون ميدانياً على نبش مقابر تقع على شاطئ من شواطئ تشارلستون، وتعود للأميركيين الأصليين، تعثر تمب وسط العظام القديمة، على هيكل عظمي توفي صاحبه منذ سنين قليلة. وتعد صديقها الحميمة، إيمان روسو، وهي المحققة الجنائية المحلية إلى إقناعها بالبقاء لتساعد بالتحقيقات. تسارع تمب للموافقة على البقاء ومساعدة صديقها على حل هذه القضية. وذلك بعد أن كشفت لها سراً مقلماً من أسرارها.



يبدأ عدد الضحايا بالتصاعد. وُجد رجل مجهول الهوية مقطّاً على شجرة في عمق الغابات. وظهرت جثة أخرى داخل برميل. تكتشف تمب كسوراً غامضة على عظام عدة جثث، بالإضافة إلى دلالات على عمليات خنق. تتبع تمب آثار المجرم لتصل إلى عيادة مجانية في أحد الشوارع، والتي تضم موظفين عدائيين، وطبيباً مشكوكاً بأمره، وواعظاً من خلال محطات التلفزيون. وتتكاثر الدلائل في أماكن تبدو عادية في الظاهر، ثم تسرع تمب إلى استخدام معارفها الفريدة لتعزز القضية الموكلة بها، حتى ولو ظل الشريف المحلي متشككاً، ولو تعرضت حياتها للتهديد.

تكتشف تمب أن حياتها العاطفية أصبحت معقدة بعض الشيء هي الأخرى. جاء رايان، وهو صديقها الحالي، من مونتريال لزيارتها، أما زوجها السابق بيتي، فحضر كي يحقق باخفاء مواطنة. سكن زوجها السابق معها في منزل صديقة لهما يقع على شاطئ البحر. يتنافس رايان وبيتتي على اجتذاب انتباهها. تجد تمب نفسها منشغلة بمشاعرها بالرجلين معاً، وبصورة أعمق مما توقعت.

«لغز العظام» هي رواية مثيرة وأنيقة. إنها تبرز نوع الجرائم الكبيرة التي تنصدر عناوين الأخبار كل أسبوع، يُنكر أن مسلسل Bones مستوحى من هذه الرواية، وهو المسلسل الذي تعرضه محطة تلفزيون «فوكس». تستمر الكاتبة بأسلوبها الرائع، ولم تكن تمب أكثر إثارة فيما سبق من الروايات.



كاتي رايكس، هي عالمة أنثروبولوجيا عرقية تعمل في مختبرات الطوم القضائية والطب الشرعي في مقاطعة كيبك، أي أنها مثل الشخصية الخيالية التي ابتكرتها. وتشغل المولفة منصب نائب رئيس الاتحاد الأميركي للطوم العنصرية، كما تشغل مقعداً في المجلس الاستشاري الكندي الوطني لخدمات الشرطة. وتعتبر كاتي رايكس واحدة من مجموعة قليلة لا يتعدى عددها ستة وخمسين عالماً من علماء الأنثروبولوجيا العنصرية المجازين من المجلس الأميركي للأنثروبولوجيا العنصرية. تعمل الكاتبة أيضاً بصفتها أستاذة مادة الأنثروبولوجيا في جامعة كارولاينا الشمالية في شارلوت، ويُذكر أن رواية «بيجا بيده» قد أوصلتها إلى الشهرة، وذلك عندما أصبحت ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعا في صحيفة نيويورك تايمز. فازت هذه الرواية أيضاً بجائزة «إيليس» لأفضل أول رواية لعام 1997. احتلت الروايات التي كتبها المولفة مكانها في قائمة الكتب الأكثر مبيعا في صحيفة نيويورك تايمز، ومنها رواية «الإثنين الأسود» التي صدرت بالعربية عن الدار العربية للطوم ناشرون، بالإضافة إلى «Death du Jour», «Deadly Decisions», «Fatal Voyage», «Grave Secrets».

Bare Bones, Cross Bones, موقع المولفة على شبكة الإنترنت www.kathyreichs.com.

ISBN 978-9953-87-271-1



9 789953 872711

مكتبة مجبولى

Madbouly Bookshop

6 ميدان طلعت حرب - القاهرة

هاتف 5756421 - فاكس 5752854

info@madboulybooks.com

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ص. ب. 13-5574 شوران 1102-2050 بيروت - لبنان

هاتف 785107/8 (+961-1) فاكس 786230 (+961-1)

البريد الإلكتروني asp@asp.com.lb

نيل وفرات كوم